أنيس منصور

مواقف ٢

أنيس منصور

يبكى وهو يحدث
كل المؤسسات
نية ١٩٦٧

مواقف ٢

مقالات

مكتبة مدبولى

DL

الطبعة الأولى

١٩٨٩

الغلاف : للفنان مصطفى حسين
الاشراف الفني : ابراهيم فريح

رأيت وسمعت الرئيس الأمريكى رونالد ريجان يكاد يبكى وهو يحدث الشعب الأمريكى عن قصة الأتصال بايران من وراء ظهر كل المؤسسات الدستورية فتذكرت الرئيس عبدالناصر يوم التنحى فى ١١ يونية ١٩٦٧ كان ذبيح الصوت شاحب الوجه يقطر حزناً ومرارة.

فقد فوجىء الشعب الأمريكى بأن حكومته التى تهاجم الأرهاب وتضرب ليبيا وتعاقب سوريا وتهدد حليفتها فى كل مكان تدفع ثمناً غالياً للأفراج عن أحدى الرهائن الأمريكان مقابل كمية من الأسلحة والذخائر حملتها سفينة دينماركية من اسرائيل. إذن أمريكا تقاوم الأرهاب علناً وتشجعه سراً. فتدفع «فدية» من الأسلحة لأحد مواطنيها. كذاب ــ إذن ــ رئيس أمريكا.

وأعلنت المخابرات المركزية أنها كانت تعلم ولكن لم تشارك. وأعلن وزير الخارجية شولتز أنه لم يكن يعلم وأنه سوف يستقيل. وفجأة أعلن الرئيس الامريكى أن شيئاً من كل ذلك لم يحدث فالمخابرات كانت تعلم وتشارك والا تصالات قد تمت بعلمها وشولتز عدل عن استقالته. والهدف هو تشجيع للأجنحة المعتدلة فى ايران وتطبيقاً لقاعدة انه لا قطع للعلاقات بين الدول مهما كانت متقاتلة. فلا بد أن يبقى خيط، أو ان يبقى ثقب فى الحائط مهما كان صغيراً. وحول الأرض تدور وتصور أقمار التجسس على كل الدول. فلا سر يمكن أخفاؤه.

ثم أنكرت ايران كل ما حدث!

وحتى لو كان الرئيس حسن النية فإن النية الطيبة ليست من قواعد اللعبة السياسية ويستحيل ان يكون الرئيس الأمريكى وكل مستشاريه بهذه السذاجة عندما يتصورون أنهم جميعاً يحكمون شعباً من الأغنام. وقد أعلن الرئيس الأمريكى الحقيقة وبقى ان يتحقق الناس من صحة أقواله: هل هو متهم أو برىء ان محاكمته علناً أو سراً مستمرة!



قال شوقى: جاذبتنى ثوبى العصى وقالت
أنتم الناس أيها الشعراء
فاتقوا الله فى قلوب العذارى
فالعذارى قلوبهن هواء!

أما ان الناس هم الشعراء، أى الفنانون والذين عندهم قلب يحزن ويفرح ويتوجع وينزف شعراً ونثراً.. وأن العذارى أرق من هؤلاء الشعراء، وشوقى يطلب الرحمة بالجميلات.. ولا يطلب من الجميلات الرحمة بالشعراء الذين هم الناس!

ولأن السياسة هى سموم الحياة، فقد نفذت إلى قلوب الشعراء وجعلتهم يخوضون فى الكراهية والدسائس والدم والحرب.. لقد نسى الشعراء وجدانهم.. إلا قليلاً منهم ما يزال يتلمس قلبه الذى يدق ويئن. والأستاذ عبدالعزيز خميس السياسى القديم والمعتقل الخطير، ورئيس مؤسسة روز اليوسف هو واحد من الذين يتغنون بالحب والمحبوبة. وأصر على ذلك رغم دهشة الناس. ولكن كيف يخفى العشاق مواجعهم. وكيف يخفى الشعراء موسيقاهم.. فالشعر كالبرق فاضح للسحاب والسماء والأرض..

أنه ليس شاعراً، ولكنه شاعرى العبارة، جرىء الحب، يحمل قلبه على يديه فى كل اتجاه ويبكى ويريد رأياً عاماً. فكان له ما أراد. فقد أعتاد القراء على مقطوعاته الحزينة.

جاء فى كتابه «كلام فى الحب» المطبوع على الورق الوردى:

تعالى ننطلق بعيداً.

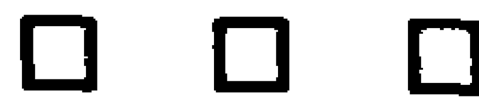
لا تصدقى هؤلاء الذين يصورون لك الواقع ورداً وزهراً.. لا تصدقيهم فالواقع أليم حزين مقيت.. فأنا بعيد عنك.. وأنت بعيدة عنى. حقيقة.. بعدنا هو بعد الجسد عن الجسد.. وحقيقة.. ان روحينا فى تلاق وعناق دائم.. لكن الحب شعلة وضاءة.. فى حاجة إلى من يقودها.. وبالقرب وحده يتم الاشتعال ويزيد نور الحب. تعالى إلى حبى.. إلى حبك.. إلى النور.. إلى القرب..

غريب هذا الصوت الجميل، لأن الخير غريب والحب أغرب!

وإذا كانت الحياة مغامرة فإن الحب هو واحد من أكبر التحديات فى عالم لايعرف الحب، ويرفض المحبين، ويتهم الحالمين.. ان الحب فراشة تسللت إلى عش الدبابير..!

ولذلك فكتاب الأستاذ عبد العزيز خميس فى دنيا السياسة: مخلوق هارب من الواقع.. وفى روضة الأدب عصفور له ريش متعدد الألوان والأغنيات..

وهى شهادة بميلاد شرعى لطفل عاشق.. وكل العشاق أطفال!



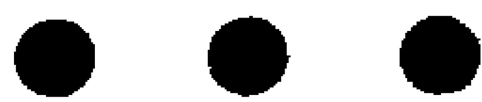
واضح ان أحداً لا يستطيع أن يساعد لبنان عسكرياً. ولكن الممكن للعرب هو الضغط الدبلوماسى على أمريكا، لكى تضغط على اسرائيل. فهى القادرة الوحيدة على ذلك، أو العاجزة دون ذلك!

إذن: فبعض العرب يرون ان الدبلوماسية هى الوسيلة الوحيدة لوقف الحرب. وبعض العرب يرون أن الدبلوماسية تدل على العجز العربى. ولكن هؤلاء لا يفعلون شيئاً غير ادانة الآخرين. وعلى ذلك فنحن أمام نفس الصورة التقليدية للموقف العربى: أناس يحاولون وأناس يحاولون هدم هذه المحاولة. فلا يملك الرئيس الأمريكى إلا ان ينتهى إلى هذه الحقيقة البسيطة؛ ان ليس كل العرب ضد اسرائيل. وان بعض العرب ضد سوريا وضد المنظمات الفلسطينية؛ فإذا فعلت أمريكا أى شىء فسوف تلقى تأييداً عربياً. ان ضغطت على اسرائيل، أغضبت بعض العرب، وان لم تفعل أسعدت بعض العرب. وليس رؤساء الدول الأوربية بعيدين عن الرئيس الأمريكى فى تصوره أو فيما يراه بعد ذلك من موقف، أو انعدام للمواقف!

وكل ما تفعله أمريكا الآن هو ان تؤكد للسوفيت أنها لن تتدخل.. أى أنها تطلب إلى السوفيت أن تفعل مثلها. وهكذا تقف الدولتان العظميان بعيدتين عن التدخل العسكرى المباشر. وهذا معروف مقدماً. وهما فى نفس الوقت تتفقان على ما بعد الحرب — أى ما بعد حرب الخليج

وحرب لبنان وحرب فوكلاند.. ثم تنشغل الدولتان بتطوير أسلحتهما القتالية لبيعها للشرق الأوسط أستعداداً لحرب جديدة بعد سنة أو سنتين!

وكأنه مكتوب على العرب ان يخرجوا من حرب ليدخلوا فى حرب، يساعدوا على حل الأزمات الأقتصادية فى الدول العظمى «المحبة للسلام» ؟!.



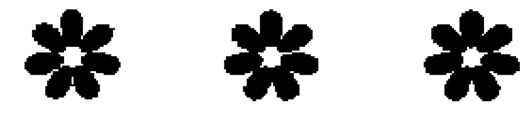
الشاعر السورى نزار قبانى عندما أراد أن يكون زعيماً سياسياً أختار موضوعاً جليلاً هو الهجوم على الجيش المصرى بعد هزيمة ١٩٦٧ .. وقصائده منشورة بقلمه وبصوته فى الاذاعات العربية. وهجومه الشنيع على جمال عبدالناصر الذى رآه قد أرتكب أعظم جريمة فى التاريخ عندما جعل رجال مصر نساء، وجعل نساء مصر عقيمات لا يلدن رجلاً أو أملاً.

وحين أنتصر الجيش المصرى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ وصف أنور السادات بأنه القائد الذى ركب «سحابة حشيش زرقاء» وتوهم أنه عبر القناة وأزال خط بارليف، وعندما أهتز العالم لشجاعة بطل الحرب الذى أراد السلام وصفه بأنه حاخام اشترته إسرائيل فسحب معه بقية الحيوانات «المسطولة» ـ جيش مصر ثم «نعاج مصر» يقصد شعبها!

ولما قرر الشاعر السورى القبانى أن يقيم فى مصر، تصور المصريون الطيبون أنه جاء يعتذر على مهل: يبوس القدم ويبدى الندم على غلطته فى حق «الغنم» ـ أى الشعب المصرى والجيش المصرى والكرم المصرى وبذلك سقط مرتين: فهو سقط عندما تطاول على الشعب الذى يلوذ به الآن، وسقط عندما توهم أننا لا ندرى ما الذى قاله، وأننا إذا درينا ونسينا ـ ألسنا مساطيل الأمة العربية؟ وليس لدينا ما نخجل منه. فقد قاتلنا من أجل أنتصار مصر فى الحرب، وحاربنا من أجل أنتصارها فى السلام. فتزاحمت علينا أحكام الخيانة والأعدام. وقوطعت كتبنا وأسماؤنا.

ولكنه شرف لنا ، كما أنه عار عظيم لقباني ولغيره من الذين باعوا أنفسهم وبلادهم .

من يدرى لعل الشاعر السورى جاء يتزود من فائض الحياء الذى يتدفق من وجوه الذين يلقونه ويتسترون عليه ويشعرون له ومعه بعظيم الأحتقار .



لكثرة الحروب فى العالم لم يعد أحد يهتز لها . ولكثرة المتاعب الشخصية لم تعد فى عيوننا دموع تسيل علـــى غيرنا .. ولكثرة الأقلام الحربية ، لم نعد نفرق بين الواقع والخيال بين الأفلام الفنية وبين الأفلام التسجيلية . بل أننا أصبحنا نتابع الأفلام الحربية ، لأنها عمل متقن ولذلك فهى شىء ممتع .

وكان من نتيجة ذلك أن مصائب الدنيا تقع فى كل مكان ونحن نتفرج عليها دون أن نشارك فيها إلا بالقليل من الأهتمام .

مشاكل اللاجئين على كثير من الحدود ـــ اللاجئون الفلسطينيون ـــ اللاجئون على حدود ايران والعراق .. اليمن واليمن الجنوبية والسودان .. تشاد والسودان .. على حدود أنجولا وروديسيا وأوغندا وزائير .. والهند وباكستان وبنجلاديش ..

وفضيحة الفضائح ؛ اللاجئون الفيتناميون . ان هذا المشهد يثيرنا ولكنه لا يهزنا فعندنا لاجئون فلسطينيون فى كل الدول العربية .. ولاجئون يرون أرضهم بعيونهم ، ولا يستطيعون أن يقتربوا منها .. وعرفنا اللاجئين والمهجرين المصريين من القناة إلى القرى والمدن المصرية ..

ولذلك فمتابعة أحداث اللاجئين الفيتناميين المشردين فى كل البحار ، والغارقين بالقرب من الشواطىء لا تهزنا كثيراً . وأن كان هذا مؤسفاً ان يحدث ، أن يتشرد هؤلاء ، وإلا نهتز لهم .

وإذا كان طرد الفيتناميين من بلادهم عملاً وحشياً، فإن السكوت على ذلك ليس عملا وحشياً.. وإنما هو «بلادة عصبية» ـ فقد رأينا ذلك كثيراً ولم نهتد إلى حل.



وسؤال أخر من أذاعة عالمية كانت هذه أجابتى عليه :

أنا أنتسب إلى الذين يتوكلون على الله . والذين يحمدون الله على كل شيء . ويمكنك أن تختار ألفاظاً أخرى لهذه المعانى فتقول : أننى متواكل . ممكن . ولن أعترض على هذه التسمية . لولا أننى أجد سبباً وجيهاً للأختلاف معك فى هذا الرأى .

فأنا أضع نفسى بين المجتهدين ، لأننى أعمل كثيراً . وأجد العمل واجباً ومتعة . وأقرأ كثيراً جداً ، أكثر مما أكتب . وأجد لذة فى ذلك . وأختار الساعات الصغيرة من أى يوم . من الرابعة صباحاً حتى العاشرة صيفاً وشتاء . وكنت أتمنى أن أقوم من النوم الساعة الثامنة أو حتى السابعة من أيام الأعياد والأجازات الرسمية . ولكن لم أفلح .

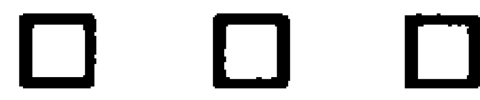
ولا تغيب الكتب الجديدة عن أمالى ثم عن عينى ، فى كل مجالات الفكر التى تهمنى : الفلسفة وعلم النفس والأدب والتاريخ والسياسة والدين والفن .. وأحمد الله أن عندى من ذلك عشرات الألوف . ولا أرى أن عشرات الألوف من الجنيهات التى أنفقها على مدى العمر فى شرائها ، قد أضاعت وقتى وبددت مالى القليل ــ فالمثل يقول : ما ضاع من مالك ماعلمك . وهو مثل صحيح . لولا أننى فى بعض الأحيان أشعر كأننى ماتعلمت ولا فهمت ولا قرأت ولا كتبت . وأندهش كيف أننى هكذا أقف عاجزاً أمام حكمة الله التى تغيب كثيراً عن عقلى الصغير المحدود ــ سبحان الله !

وكثيرون مثلى فى هذه الدنيا . يحمدون الله على الذى أعطاهم ، ولا يعذبون أنفسهم بالنظر إلى الذى أعطاه كثيراً لآخرين . أنها حكمة الله . أمنت بالله .

ثم إننى أتجه إلى الذى أعرفه فأكتب . وإلى الذى لا أعرفه فأقرأ . ويرضينى ذلك . ويبدو أن هذا الأخلاص فى العمل ، وهذا الصدق فى الأداء ، له ثمن عند الله وعند الناس . وهذا مايمكن ان تسميه الرضا . ومايسميه الناس بالتواكل والبلادة والتنبلة .

فإن كان هذا رأيك ، فإننى لا أعارضك .

ويكفى أننى مستريح نفسياً وعقلياً . أما هذا القلق الذى عندى فليس سخطاً ولا تبرماً ، وإنما هى حيرة الذى يعرف القليل ، وهذا طبيعى ، ويريد أن يعرف الكثير جداً ــ وهذا طبيعى أيضاً . والحمد لله !



قال لى وزير تعليم فى أمريكا : ان الذى يحدث فى مصر ليس له نظير. فخريج الجامعة يذهب فوراً إلى المدرسة يعلم التلامذة دون أن يتدرب على التدريس. وكذلك جميع المهندسين فى كل التخصصات. حتى الطبيب المصرى الذى يتدرب طويلاً قبل أن يمارس عمله الطبى، لم يتدرب بما فيه الكفاية.. وفى أستطاعتك أن تسأله عن عدد المرات التى كشف فيها على مريض.. وأن تسأله قبل ذلك أن كان قد رأى جثة كاملة أو استطاع أن يرى الأستاذ وهو يشرح أو حتى أنفرد بالأستاذ فى أية مناسبة لكى يفهم!

ونحن جميعاً نعرف ما الذى يدرسه التلميذ الذى يتوكأ على الدروس الخصوصية، ونعرف ما الذى يتعلمه الطالب فى الجامعة: مذكرات الأساتذة. فلا وقت عنده للقراءة الحرة العميقة ولا وقت عنده للتفكير والمستقبل.. طبيعى أن نجد الطالب المصرى يخطف المعلومات.. والدروس الخصوصية هى نوع من «الغش» ــ المدرس يحاول أن يغششه ما سوف يجيء فى الأمتحان والدولة تسكت على الدروس الخصوصية وترى أنها علاوات دورية للمدرس يقبضها من أولياء الأمور.

ثم أن الأمتحانات وما يدور فيها سراً وعلناً، هى ألوان وأشكال من الغش. والنتيجة: لا أحد استفاد وإنما جاء نجاحه دليلاً على أنه من غير الدروس الخصوصية والمذكرات التافهة ومن غير الغش لا نجاح فى الدراسة ولا فيما بعدها!

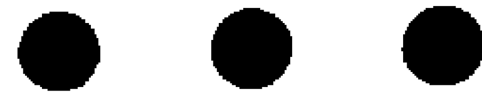
ولذلك ينادى الذين أفزعهم مصير الخريجين ومستقبل التعليم فى مصر بضرورة تدريب الخريجين على أعمالهم الجديدة.. لابد من تصحيح مسارهم الذى ألتوى وأنحرف قبل أن نطالبهم بتقويم الأعوجاج والأنحراف ..

وقديماً حفظنا ولم نفهم . وفهمنا ونسينا ما قاله أبو الأسود الدؤلى :

يا أيها الرجل المعلم غيره .

فلا لنفسك كان ذا التعليم .

فالمسافة كبيرة جداً بين الفصل وقاعة المحاضرات وبين الحياة ولابد من معرفة مشاكل التطبيق ومواجهة هذه المشاكل بالمرونة والصبر والأصرار على النجاح .



الشكوى قديمة من الكتب المدرسية ــ شكلاً أى ورقاً وتغليفاً وتلويناً ــ ومضموناً أيضاً ــ أى موضوعها وأسلوبها .. ولكن من الواضح أن الكتب المدرسية لها عمر محدود . فهى بصعوبة تعيش سنة واحدة ، وبعد ذلك يتحول ورقها إلى عجين بين أدى التلاميذ . ولذلك فألقاؤها فى الزبالة هو النهاية المحتومة .

والكتب المدرسية لها شكل المدارس والأدراج والجدران والأبواب : صفراء هزيلة مكرمشة وكأنها صنعت من الطين الذى غسل فى الترع فى آخر لحظة ثم أدخل الأفران وتساقط عليه الهباب .. وبتعويذة سحرية ، تحولت ذرات الهباب إلى سطور وعندما تمسحها قطرات العرق والدموع يكون العام الدراسى قد أنتهى !

فليس لها شكل ولا فيها ذوق . وإنما هى ترتبط فى خيال التلميذ بكل كراهية التلاميذ للأمتحانات والمواصلات وأزمة السكن ..

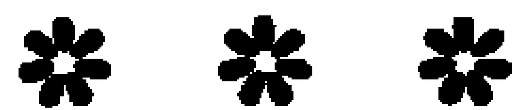
وقد سمعت من سفيرنا فى باريس سمير صفوت أنهم فى أمريكا لا يوزعون على التلاميذ كتباً جديدة كل سنة . وإنما التلاميذ يتركون كتبهم لزملائهم . الكتب نظيفة وفى آخر كل كتاب ورقة مكتوب عليها أسماء أصحاب هذا الكتاب واحداً بعد واحد .. ولذلك فكل واحد حريص على أن يظل الكتاب نظيفاً سليماً .. كأن أحداً لم يقلبه .

وهذا أرخص فى التكلفة .. ثم ما أعظم الدروس المستفادة من الحرص على كتاب أبيض جميل .. الحرص على نظافته وسلامته والحرص على

صورة التلميذ الذى سوف يضع أسمه إلى قائمة الشرف التى فى نهاية كل كتاب .

قال لى السفير سمير صفوت إنه يمكن رؤية كتاب عمره عشر سنوات .. قد يتغير لون الورق ولكن من المؤكد ان ليس بالكتاب علامة بالقلم واحدة ولا نقطة حبر. وهكذا قضوا على مشكلة الكتاب المدرسى القبيح الوجه ، وعلى مشكلة توزيع الكتب مع بداية العام الدراسى .

وما يقال على الكتاب المدرسى يقال على الخرائط واللعب وعلى نوافذ وأبواب وأدراج وأرضية الفصول وحديقة المدرسة والمكتبة العامة والمطاعم — إنها مسئولية جماعية جادة تبدأ وتنمو مع الطفولة إلى الرجولة !



لو أننا أحرقنا خريطة الشرق الأوسط، ووضعنا الرماد فى قليل من الماء ثم وضعناه على النار وصببناه فى فنجان وشربناه.. وهززنا الفنجان.. وأعطيناه بعد ذلك لقارئة الفنجان. وقلنا لها: قولى لنا ياست الحاجة ماذا ترين؟

لن يختلف كلام قارئة الفنجان عن الذى يقوله أكثر السياسيين علماً وحكمة ودراية بما يحدث فى الشرق الأوسط.

فإذا قالت لك: هناك سكة سفر بين الخرطوم وطرابلس، فهى صادقة فيما تقول: فالطريق أنفتح فجأة بين السودان وليبيا وأنفتح بينهما وبين تشاد. وبين الدول الثلاثة وبين النيجر. وبينهما جميعاً وبين أثيوبيا والصومال.

فهل أنفتح الطريق بين السعودية وليبيا؟ يقال: أنفتح. وهل تناولا الرسائل؟ تقول قارئة الفنجان: حدث بعد نقطتين!

وهل ما بين سوريا والسوفييت يرضى السعودية؟ ثم ما هى حدود الرضا والأمان فى العلاقات السورية الروسية.. هل أقتراب سوريا من روسيا، يبعد سوريا عن جيب السعودية يقال: مستحيل. إذن ما هى العلاقة الممكنة التى ترتضيها السعودية وأمريكا بين دمشق وموسكو؟ هل الذى بين سوريا والأردن خراب أو عمار.. ثم ما معنى الخراب؟

هل الأردن الذى على أتصال باسرائيل من أيام الملك عبد الله وحتى

أوائل يناير الماضى لايزال ينتظر حتى لن يتورط فى شىء؟ ثم ما هو مفهوم الورطة؟ هل هى مصر؟ سوريا؟ اسرائيل؟

ان قارئة الفنجان تنظر إلى جانب آخر من الفنجان لتقول: أنني أرى سكة سفر بين الجزائر وواشنطن.. لماذا؟ والجواب: أنهم جميعاً يذهبون إلى واشنطون لشراء السلاح أو لقبض ثمن البترول الذى يشترون به سلاحاً من روسيا.

ولو قالت لك قارئة الفنجان أنها ترى صفاً من الجنود فى أثيوبيا يطلقون النار على الصومال المسلمة. وكان هذا الصف يضم الليبى والكوبى والأثيوبى والاسرائيلى واليمنى والروسى والسودانى الذى يحمل راية بيضاء. وكلهم ضد الصومال.. ثم قالت لك: ان الصومال دولة معتدية. فهل تصدق ذلك؟



جلالة الامام أحمد ملك اليمن كان رجلاً ذكياً ، ويقال كان ظريفاً . ففى أحد المؤتمرات الصحفية سألوه : كم يبلغ عدد سكان اليمن ؟ فأجاب بسرعة : ماشاء الله مابين خمسة ملايين وأربعين مليوناً !

وضحك وضحكنا أيضاً . ولا يحق لنا أن نضحك الآن فليست لدينا إلا مثل هذه الأجابة إذا ماسئلنا عن عدد سكان مصر . فنحن نقول مابين خمسين وواحد وخمسين أو أثنين وخمسين مليوناً !

فنحن نزيد مليوناً كل تسعة شهور وغداً كل ثمانية وبعد غد كل سبعة ..

فلابد ان تكون هذه الدعاية مضحكة . فهى مثل كل النكت نسمعها مرة ، وتصبح بايخة بعد ذلك . وأما ان الذين نتوجه إليهم بهذه الدعاية لايرونها ولا يسمعونها . لأنهم أميون . أو لأنها تتعارض مع مصالحهم الحيوية . فلا توجد وسيلة لأقناع العامل والفلاح بان يتوقف عند ثلاثة أطفال ، إذا كان الطفل عندما يبلغ التاسعة من عمره يتقاضى فى الحقل ما يتقاضاه الوزير فى مكتبه وفى زياراته التفتيشية وفى جلسات مجلسى الشعب والشورى ، ملعوناً فى كل صحف المعارضة !

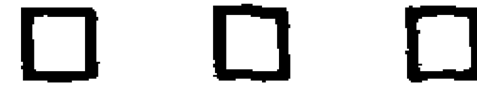
أما المثقفون فهم أكثر ادراكاً لفداحة ان يكون لديهم طفل واحد . فهو لا يقدر على اطعامه وتعليمه وعلاجه . وإذا أضاف مرتبه إلى مرتب زوجته العاملة ــ ولابد ان تعمل ــ فإن هذا لا يكفى مرتب خادمة أو دادة . ولذلك فهو غير قادر على ولادة طفل . وغير قادر على ان يتزوج . وغير قادر

على الزواج فليست لديه شقة. وغير ممكن ان تكون لديه إذا كان عاجزاً عن دفع الخلو والتمليك.. وكيف ومرتبه كما تعرف!

وإذا وجد الخلو ووجد الشقة من غرفتين، فمن المؤكد أنه لا يستطيع ان يملأها بالأطفال ـــ فالشقق الصغيرة تحدد عدد السكان.. وعدد الأطفال!

وكما ان المثقفين جادون فى تأخير الزواج، فإن أبناء الريف جادون أيضاً فى زيادة عدد الأطفال.

أما كيف استطاعت الهند (٧٠٠ مليون) والصين (ألف مليون) أن توقف الزيادة فى السكان، فهذا ما يجب ان نعلمه ونتعلمه. فإذا قررنا ذلك بقى أمامنا القرار الصعب جداً: وهو ان نكون جادين قاطعين ـــ وهذا ما لم نرتفع إلى مستواه بعد!



من عشرين عاماً كنت أشغل فراغى باعداد برامج تليفزيونية . من بينها برنامج «أهلاً وسهلاً» ولكن ضيف الحلقة هو القارىء الشيخ مصطفى إسماعيل . جلست إليه نتفق على ما يقال وما لا يقال . ولماذا ؟

وأختلفت معه تماماً فى أن يتحدث عن حياته فيقول إنها بلا متاعب ولا مشاكل .. وإن الله قد أعد له سلماً ، وهو يصعد السلم بانتظام .. أو أنه يقف على السلم والسلم هو الذى يرتفع به إلى القمة !

وعرضت عليه حججاً كثيرة لم يأخذ بواحدة منها . مثلاً قلت له يجب أن يتحدث عن الصعوبات ، وإنه بالصبر والأصرار وتوفيق من الله والأستقامة تغلب عليها . وبذلك يشعر كل صاحب مشكلة أن السبيل إلى حلها بالصبر عليها والأرادة والتوكل على الله والتمسك بالقيم الأخلاقية . ولكن إذا قال إنه لم تكن له مشكلة ، أحس الناس ان هناك نوعين من البشر: أناس يولدون مشاكل ، وأناس يولدون حلولاً .. وان هناك تعساء أبدا ، وسعداء أبدا .. وأن التعيس تعيس من يومه ، والسعيد سعيد من يومه !

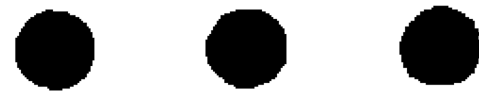
ويوم التسجيل قال : والله ما عندى مشكلة من أى نوع ولا فى أى وقت .. ولكن الأستاذ أنيس هو الذى يريد أن يغرقنى فى المشاكل .. الخ

وحذفت السؤال والأجابة ..

والمعنى : أنه لابد أن تكون حكمة .. عبرة .. عظة يتعلم منها الناس شيئاً . ولابد أن تقول لكل تعبان ، أنه ليس الوحيد فى الدنيا ، وأن الذى

عنده أمل ، سوف يتحقق هذا الأمل .. وقد تحقق لملايين قبلك وبعدك .. فالمشاكل كالعرق لابد أن يفرزه الجسم وهو يعمل . وكما يمكن تخفيف العرق ، يمكن للمشاكل أيضاً .. وأنت تمشى على قدميك الآن بلا جهد . ولكن هذا السير لم يتحقق إلا بعد أن حفوت على الأرض ووقعت وسالت دماؤك وتساندت على المقاعد والجدران ــ وهذا واجب كل من يطلب إلى الناس أن يتمددوا أمامه ويفتحوا أفواههم ويخرجوا لسانهم ويقولوا : آه ..

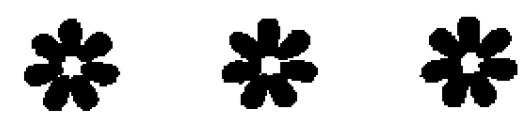
وكلنا أطباء فى مصحات متنوعة !



نحن فى زمن المعلبات : الفواكه والخضروات واللحوم والعصير.. بل أننا نضع الوجبات الكاملة فى العلب أيضاً. توفيراً للوقت. والمال. فسيدة البيت عاملة. ولذلك ليس عندها وقت لكى تقشر وتحشو وتسلق. كل ذلك جاهز فى السوبر ماركت. وليس عليها إلا أن تمر على السوق وتشترى. وهى تغير ملابسها يكون الفرن قد أشاع الحياة والنكهة فى الطعام. وفى بلاد أخرى تستطيع السيدة العاملة أن تتصل بالمطبخ تليفونياً، فتنطلق الأشعة فوق البنفسجية تطهو الطعام الذى وضعته بالأفران فى اليوم السابق.. ونحن فى زمن المعلبات الثقافية والفنية أيضاً: الكاستات المسموعة والكاستات المرئية.. فبدلاً من أن أقرأ كتاباً أستمع إليه مسجلاً.. وأستمع إلى الموسيقى والأغانى، بدلاً من الذهاب إلى الحفلات.. وأرى المسرحيات والأفلام بدلاً من أن أذهب إلى المسرح أو السينما ــ أرى ذلك وأسمعه وأنا فى البيت أو فى السيارة أو فى المكتب وفى أى وقت، أثناء النوم أو أثناء الأكل ــ على حريتى، دون قيد من أحذ أو من مكان أو من زمان..

وكما ان الناس ضاقوا بالمعلبات وراحوا يطبخون لأنفسهم ويأكلون فى المطاعم وفى الأندية.. ويفضلون تقشير البرتقال على العصير، فإنهم أيضاً يجدون متعة فى قراءة الكتب والمسرحيات. يقرأون ويقلبون ويتخيلون الأبطال والديكور على هواهم.. فيصبح القارىء هو الممثل والمخرج والمنتج والمتفرج.. وهم أيضاً يذهبون إلى المسارح ليشاهدوا الباليه والمسرحيات والأوبرات.. وفى ذلك سخط على المعلبات وحرية للحركة، وعودة إلى

الطبيعة.. فالإنسان حيوان اجتماعى.. وإذا كان ينفرد بنفسه أحياناً، فلكى يعود إلى النفس أشد تمسكاً منهم وحرصاً عليهم.. ومن هنا كان الأقبال على المسارح الذى يجب أن نشجعه، وان نشجع الناس على أن يكونوا أناساً بشراً.. بعد ان تحققت علاقاتهم العامة، فصاروا معلبات تعيش على المعلبات!



أكثر التعبيرات شعبية في مصر: ماشي.. تمام.. ماشي!

ولا بد أن نكون قد أستخدمنا هذا اللفظ منذ الوحدة مع سوريا.. وهي ترجمة عربية لتعبير فرنسي يدل على أنه ماشي.. ومعناه ان أمرك «ماشي».. أو انه لن يتوقف شيء.. أو الذى نقوله يمشي من الكلام إلى الفعل.. وان رغباتك أوامر! مع أنه لا شيء يمشي. فكل شيء يتلكأ ويتلكع. وإلا ما كان هذا حالنا. وأنا لا أريد ان أذكرك بما يحدث لك عندما تذهب إلى أدارة حكومية. زحام. واناس يدوسون بعضهم البعض. واناس يتساقطون على مكاتبهم، يعطلون مصالح الناس.. أى يعترضون مسيرتها ــ فكل شيء يمشي إلى ان يصل إلى هؤلاء الناس فيتوقف ويتجمد ويموت!

وعندنا تعبير له شعبية أيضاً لا مشكلة.. مفيش مشكلة! أى ان الذى تطلبه سوف يكون له حل. أطمئن. مع ان كل شيء مشكلة. وكل شيء ليس له حل أو له حل مؤقت لكى يتعقد بعد ذلك بلحظات وأيام. ولا بد ان هذا التعبير جاءنا من السفر إلى الخارج والأتصال المكثف بالأجانب.

وهم عندما يقولون: لا مشكلة ــ فعلاً لا مشكلة. أى لا توجد مشكلة ليس لها حل. فلا توجد مشكلة. وإنما كل شيء قد درسوه وفهموه وعرفوا الحل. لأن كل شيء يجب ان يمشي.. ان ينساب.. ان ينطلق.. فالحياة الأوربية والأمريكية تنساب.. تماماً كماء في جدول من الحرير.. تجرى.. تتدفق.. أما نحن فالذى نقول أنه يمشي، لا يتحرك، والذى نعلن

أنه ليس مشكلة ، هو معضلة ! ولا شيء يضايقنى شخصياً إلا ان نسمع من يقول : مش مشكلة .

بل من الواجب أن ننظر إليها على أنها مشكلة ، لكى نعرف أبعادها ونجد لها حلاً .. ولكن رفض المشكلة وأستنكارها ليس حلاً لها .. وإنما رفض لمعرفة أبعادها وأطرافها . فكل شيء مشكلة حتى نجد له حلاً . وكل شيء راكد لا يمشى ، حتى ندفعه ونمهد له لينطلق مع خطوط الأنتاج اليومى !

أما كلمة «تمام» فهى كلمة يستخدمها العسكريون ومعناها بالضبط .. صحيح .. أو أن الأوامر نفذت .. وهذه الكلمة فقدت معناها ومبناها .. ولم تعد هى الكلمة «اللى هية» !؟



أوصى هذا الرجل قبل أن يموت بأن يكون قبره بلا أسوار. لماذا؟ لعلها آخر نكتة أطلقها لأنه ما الذى يخافه الميت، أو ما الذى يخافه أهل الفقيد ؟!

ولكن الشعب الذى أسعده هذا الرجل طويلاً، قد أعاد بناء قبره وجعل له أسواراً وحديقة. وهو القبر الوحيد الذى يزوره الناس ويتكلمون، وكلما جلسوا أطول ضحكوا أكثر. انه قبر جحا.. الذى يصادف اليوم مرور سبعة قرون على وفاته، عن ستة وسبعين عاماً!

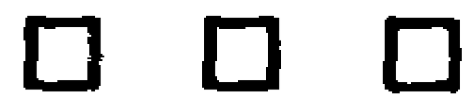
أشتريت كتاباً لجحا لتسلية الصيام. وجلست على مقهى: أمامى الفوسفور الجميل. ووراءنا قصر «ضلمة بهجة» ــ أى الحديقة التى أقيمت على ردم البوسفور. فالضلمة هو الحشو المحشى والردم و«بهجة» معناها الحديقة. وجحا أسمه نصرالدين خوجة. وخوجة يعنى المدرس. فقد كان مدرساً وكان يطبق مبادىء الدراما الاغريقية فى ان الضحك يؤدى إلى تطهير النفس. وعاش جحا على أيام القائد المغولى تيمور لنك.

وجحا هو أول من قال: أنه فى عصر الطغيان لا شىء ينعش الانسان مثل الضحك. وشر البلية ما يضحك.. والطير يرقص مذبوحاً من الألم..

ويقال أن تيمور لنك دعاه إلى الغداء معه أياماً كثيرة. وسأله: هل تعجبك هذه الشوربة؟ فقال جحا: طبعاً.. وكان تيمور لنك قد ضاق بها فأمر بألا توضع أمامه ثم سأل جحا: ما رأيك فى الشوربة؟ فقال جحا:

سيئة تماماً. وأندهش تيمور لنك من هذا الموقف المتناقض فقال جحا: سيدى أننى أطيعك ولا أطيع الشوربة!

وقد نسبت إلى جحا ألوف النكات فى مصر وفى كل بلاد الشرق الأوسط.. والهدف واحد؛ ان يرسم أبتسامة على وجهك. فالدنيا كئيبة — شكراً!



لم أعرف أحداً مثل الرسام الهولندى فان جوخ قد أحس بعمق الدنيا حوله لدرجة الموت ــ أى لدرجة أنه شعر بأن كل شىء يريد أن يغرقه .. وان يدخل عينيه وأذنيه وأنفه وعقله وقلبه ، ثم ينحشر فى ذراعه لينتقل إلى فرشاته فيعبر عنه ..

وهذا الفنان هو الذى قال ان هناك أسلوبين لفهم الدنيا : ان تقرأ عنها أو تغرق فيها . وقد أختار هو أن يذوب فيها ..

وفى زماننا نحن لا نحتاج إلى أن نذهب إلى البحر لنلقى بأنفسنا فيه ، لعلنا نحس به ونفهمه ثم نعبر عنه . فالبحر يتدفق من الأذاعة والتليفزيون والصحف ..

ونحن فى بيوتنا نتلقى أمواجاً وعواصف من كل شىء . وهناك فارق كبير بين أن تذهب إلى البحر ، وبين أن يجىء إليك .

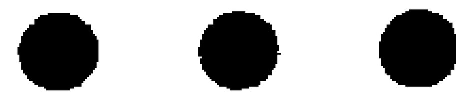
أما النتيجة فواحدة ؛ أننا غارقون فى أحداث السياسة والحرب الداخلية والخارجية ، غارقون فى محاولة أن نرتبط بكل ذلك ، وان نباعد بينها وبيننا ..

كما تؤدى العواصف إلى تعطيل الملاحة والطيران فكذلك تتعطل قراراتنا العقلية وتهتز إرادة الانسان فلا يستطيع أن يفعل هذا أو لا يفعل ذاك .. لأن نوعاً من الشلل قد أصاب الناس ــ فهم غير قادرين على أن يقرروا شيئاً أو يريدوا لأنفسهم أو لغيرهم .. ولذلك كان الاستسلام هو

الأسلوب الوحيد الذى يريحهم من أتخاذ القرار.. فهم يتركون لغيرهم أن يقرر لهم وان يختار لهم ــ حدث ذلك فى أمريكا وفى روسيا أيضاً !

وإذا أراد أحد أن ينجو بنفسه من هذا العذاب: عذاب الضياع فى خضم الأحداث والمعلومات واتخاذ القرارات فإنه يصنع لنفسه طوقاً للنجاة.

ويكون هذا الطوق من: اللامبالاة والأدمان والجنس والتعصب.. أى بالغياب عن الدنيا.. عن الناس والأشياء وعن الأحساس بالجمال والخير والحب والسلام..



لم يحدثنا التاريخ عن اناس كرماء خفيفى الدم، ولكن معظم البخلاء يبعثون على الضحك؛ أم كلثوم وتوفيق الحكيم وعبدالرحمن بدوى واليهودى التقليدى.

وكتاب «البخلاء» للجاحظ متعة حقيقية. ولم يعرف الأدب العربى كتاباً عن «الكرماء».. وإنما أكثر الكرماء سفهاء. لأنهم ينفقون من غير أموالهم. فلا يمكن ان أضحك على رجل دفعه الكرم أن يذبح أبنه لضيفه.. أو يرغم زوجته على أن تنام فى فراش زائر له..

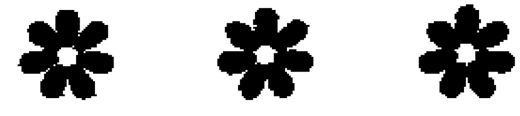
ولكنى أضحك على د. عبد الرحمن بدوى أستاذ أساتذة الفلسفة فى مصر عندما بعثوا إليه ببلاص مش من البلد. فوضع البلاص ومعه الخادم وأقفل حنفيات المياه والباب الخارجى. وضمن بذلك ان الخادم لن يقرب من المش ما دام البيت خالياً من الماء..

وأضحك على توفيق الحكيم الذى يدعو كل الناس بمنتهى الحماس ان يزوروه ليشربوا القهوة على حساب صلاح طاهر ونجيب محفوظ!

أو أن توفيق الحكيم إذا دخل مكاناً ورأى ساعة على الحائط فانه يخرج ساعته من جيبه ويوقفها توفيراً لها ــ أى لطاقتها واطالة فى عمرها!

وأمس فقط أدهشنى ان أجد أن أستاذنا العظيم الفيلسوف مارتن هيدجر كان بخيلاً. ولكن الرجل صاحب عبارة صعبة جداً، وتراكيب شاقة.

والذين قد استوعبوا فلسفته قليلون فى هذه الدنيا، وكلنا ندعى هذا الشرف. ولكن لم أعرف عنه خفة الدم أو حب النكتة.. لولا أننى قرأت وصف زوجته له عندما مات.. فقد أشار إليهم أن يطفئوا النور. وكانت آخر ورقة قرأها هى فاتورة النور، وقد لاحظ ان الأستهلاك قد زاد بضعة قروش ــ أضحكتنى أخيراً!



رأيت على شاشة التليفزيون فلاحين فى الصعيد يحرقون قصب السكر. وكان تعليق صاحب البرنامج: ان هذا غير وطنى..

ولم يعرض التليفزيون فلاحين آخرين يتركون الكرنب فى الأرض حتى يجف أو يتعفن فلا تمتد إليه يد تقتلعه لتأكله مجاناً.. ولا الفلاحين الذين تركوا حطب القطن فى الأرض وفيه بعض القطن.

لقد أختفت إذن الأيدى التى تقطع أعواد القصب وتقتلع الكرنب وحطب القطن فأين ذهبت.

إلى المدينة لتعمل فى الفنادق أو فى البيوت أو فى الحكومة، أو هاجرت إلى بلاد أخرى. وبعض الفلاحين يحاربون فى العراق فإذا وقع أحدهم فى أيدى القوات الايرانية، أعدموه ولم يأخذوه أسير حرب.، لأنه من القوات المرتزقة.

وفى الريف أرتفعت أجور الفلاحين: من خمسة جنيهات للطفل إلى عشرة جنيهات للرجل إن وجدته.. وكذلك عمال البيوت: أرتفعت أجورهم إلى مائة وخمسين ومائتى جنيه فى الشهر.

ولذلك فنحن نستورد عمالاً من بلاد أخرى ولابد ان نفعل ذلك وبكميات أكبر، ما دام الفلاحون قد أختفوا من الأرض. وما دامت الأرض صغيرة يصعب خدمتها بالميكنة الزراعية. ولذلك فأحد الحلول هو انشاء «التعاونيات» حتى يمكن زرع مساحات كبيرة من الأرض وحصدها معاً.

أو نيسر شراء الآلات الميكانيكية الصغيرة بأقساط مزيحة.. وإلا فسوف تتكدس فى الحقل محاصيل أخرى..

فإذا نحن أضفنا إلى هذا التكدس والأهمال نقص خصوبة التربة وأرتفاع مستوى المياه الجوفية فإننا مقدمون على عجز مخيف فى انتاجية الأرض. وسوف تتكرر نفس المشكلة فى المجتمعات الجديدة التى هى «فتافيت» من الأرض الزراعية لن نجد لها عمالاً وفلاحين.. ان أخطر ما تواجهه مصر الزراعية هو انحسار الأرض الزراعية، وانحسار الأيدى العاملة وبوار من نوع جديد!



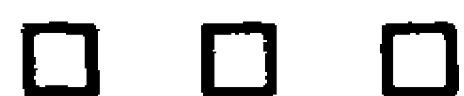
نحن لا نعرف «حرب الماء» ــ أى الحرب من أجل ماء الأنهار. ولكن اسرائيل والأردن ولبنان تعرف ذلك وتموت فى سبيل شربة الماء. وان لم يكن هذا السبب واضحاً فهو أحد الأسباب القوية. فالمياه قد جفت فى أنهار هذه الدول. والمياه الجوفية المالحة قد أرتفعت. ونسبة الملوحة فى البحيرات قد زادت. ولذلك يجب ان تشرب هذه البلاد من البحرــ أى من «تحلية» مياه البحر، تحليها وتبخرها ثم تبردها بعد ذلك. كذلك تفعل الكويت وكانت قبل ذلك تحصل على الماء العذب من العراق، وتضيفه إلى الماء الذى أخذته من البحر...

وفى مصر نجد ان الأدوار العليا لا يصلها ماء الحنفية. بينما نرى النيل زاخراً بالماء أمام أعيننا. وبسبب ركود نهر النيل وقذارته، فإننا نشرب الآن مياهاً ارتوازية نسميها تجارياً بالمياه المعدنية. ومن المؤلم حقاً ان نستورد مياهاً للشرب من لبنان التى لم تتوقف عن القتال منذ عشر سنوات! والتى تستهلك من مياه الأنهار فى شهر ما يعادل أحتياجات نصف سكان شبرا فى يوم واحد!!

ونسمع ونقرأ عن الجفاف الذى أصاب الدول الافريقية: أثيوبيا والسودان والصومال وغيرها. فالأمطار قد نقصت فجفت الأرض وماتت المحاصيل..

ولكن ليس بعيداً ان يصيبنا الجفاف. وهناك رأى بان السد العالى، قد أنقذنا بمياهه المدخرة فى البحيرة.. ولكن من المحتمل ان نعرف الجفاف فى سنوات قادمة..

ولكى نواجه هذا الموقف الصعب يجب ان نستعد لذلك بضبط استهلاك الماء، أو إذا كنا هازلين ــ بانقاص المساحة الزراعية بتجريفها أو تبويرها أو تحويلها إلى مساكن، وهذا ما نحرص عليه رغم كل القوانين التى صدرت وسوف تصدر؟!.



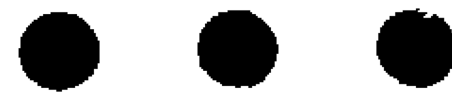
لا أعرف آخر مرة ذهبت فيها إلى السينما ربما من سنوات أما أول مرة ذهبت فيها إلى السينما فقد كانت بعد تخرجي في الجامعة مباشرة فلم أكن قد أكتشفت أن السينما هي أمتع وأروع ما أخترع الانسان ولكن هنا وبسبب الأرق الذى أشكوه وأحمد الله عليه فإننى أجلس إلى التليفزيون كل يوم للساعة الثالثة صباحاً، وأتفرج على الأفلام، ولا يكاد ينتهى فيلم حتى أتجه إلى قناة أخرى وثانية وثالثة ورابعة حتى يطلع النهار، ولا أعرف كيف يطلع النهار، فالتليفزيون الأمريكى قادر على أن يجعل أكثر الناس إيماناً ينسى مواعيد الصلاة والصلاة، ورغم أحداث كامب ديفيد ونيكاراجوا وايران، فإن التليفزيون قد أبتلع الناس جميعاً.

ومع طلوع الشمس إذا طلعت، تجيء الصحف، والصحيفة العادية فى أى يوم عبارة عن ١٢٠ صفحة، تصل إلى ضعف هذه المساحة يوم الأحد من كل أسبوع، وإذا تفرغ الانسان لقراءة الصحف فقط دون المجلات، والنظر إلى التليفزيون ومتابعة مباريات الكرة الصغيرة والكبيرة فإنه يعجز عن القيام بأى عمل.

ولا شيء يوجع قلبى إلا أن أقرأ عن الكتب الجديدة، ولا أستطيع أن أحصل عليها، ولكن الذى يوجع القلب والعقل معاً أن أجد كل هذه الكتب أمامى ثم لا أجد الوقت لقراءتها وأمامى الآن أكثر من مائة كتاب جديد صدرت هذا العام، والكتب كلها مكدسة، كأنها قوالب من الطوب الملون، أو علب من الصفيح، أو كأنها غير موجودة، فلم أعد أجد وقتاً لكى أمد يدى إليها وأقلبها وأرتمى عليها وأمامها وأنام على صدرها أو تنام

هى على صدرى ونروح معاً فى سماوات الفكر أو ما يهب الموج على الحضارة الانسانية.

ورأيت أكثر من ٢٠ فيلماً ، فالتليفزيون هو ذلك الحشيش الذى أدمنه مئات الملايين حتى أصبح عيونهم وأيديهم وأرجلهم وعقولهم ــ أنها أروع صور الاستبداد والارهاب العقلى لانسان العصر الحديث!



طلب منى ألا أذكر أسمه. فليس شخصاً هاماً فى أمريكا (٢٥٠ مليون نسمة) وإنما أحد الامريكان المصريين الناجحين. بدأ عاملاً فى ورشة. وانتقل إلى العمل فى احدى الصيدليات الليلية فاتسع وقته للقراءة. رفضت ابنة خالته ان تهاجر معه. أنتقل إلى العمل فى أحد الفنادق العائمة فى المكسيك.

وبعد المكسيك عمل على أحدى السفن بين كوبا وجزر بهامس. قرر ان يعود إلى مدينة بها مصريون كثيرون. أستشارهم حيروه. فقرر ان يفتح مطعم فول وطعمية فى شيكاغو. تقدم للزواج من مصرية جامعية رفضت لأنه بائع فول. وقال فى نفسه:

أنها لا تزال مصرية تحتقر العمل اليدوى!

تزوج من امريكية. قررت هى أن تدير المطعم وان يكمل هو تعليمه. دخل كلية الطب. وأصبح طبيباً للأمراض النفسية والعصبية. وله كتب، رأيته فى الصفوف الأولى بين المصريين الذين استمعوا إلى خطاب الرئيس حسنى مبارك. كان أكثرهم حرارة وأشدهم تصفيقاً.

لم يفلح فى أقناع زوجته بان تقفل المطعم. لقد باعته لمصرى آخر. وتفرغت لتربية أولاده الأربعة ثم سكرتيرة فى عيادته الكبيرة.

ولم ينتظر حتى أسأله عن معنى هذا الكفاح فقال: الفرق بين المصريين والأمريكان بسيط: نحن نرى أن الطريق إلى النجاح واحد.. وهم يرون

ان هناك ألف طريق.. نحن نرى أن الفشل نهائى. وهم يرون ان الفشل مرحلى. ونحن نرى ان النجاح مرحلى. وهم يرون أن النجاح نهائى.. فالنجاح يدفعك إلى نجاح أكبر وهكذا.. نحن نفكر كالأشجار نولد ونعيش ونموت فى مكان واحد.. وهم يفكرون كالطيور يولدون فى مكان ويعيشون فى مكان ويموتون فى مكان ثالث وهم يحلمون بمكان رابع..

أمله: ان تنتقل هذه العدوى إلى شباب مصر عن طريق الهجرة إلى الخارج أو زيارات المهاجرين إلى مصر!



فى مواجهة الأحداث الكبيرة يحاول الناس أن يتفلسفوا. يتساءلون عن معنى الحياة، وان كانت لها حكمة.. ما الفرق بين من يموت جوعاً، ومن يموت من كثرة الأكل. أين ينتهى الأثنان وكيف؟

ويكون ذلك حديثاً فى جنازة أو قبل أو بعد ذلك.. ومن الممكن ان تحتبس الدموع فى العيون، حزناً على الفقيد، أو أى فقيد آخر أو على أنفسنا.. أو على أننا، مهما أدعينا العقل والحكمة، فنحن أوراق فى مهب عواصف القدر.. لا حول ولا طول ولا رأى ولا حيلة أمام هذه النهاية! ولا يزال ما قاله الشاعر شوقى صحيحاً:

إذا ما نفقت ومات الحمار

أبينك فرق وبين الحمار؟!

طبعاً لا فرق بين الحمار وراكب الحمار— أنها نفس النهاية فى الأرض طعام لديدان تموت وتكون هى الأخرى طعاماً للتراب الذى تنبت منه الأعشاب فتأكلها الأغنام ثم يأكلها الانسان ليعود تراباً بعد ذلك!

سألت جارى: المرحوم كان مريضاً بماذا؟

قال: مريض؟ لم يكن مريضاً. ولا مات فى حادثة. وإنما كانت وفاته أعجب من أى شيء فى هذه الدنيا التى لا معنىً ولا حكمة فيها..

قلت: سبحان الله!.. كان مريضاً بالموت.. فالموت يولد معنا.. فعندما نولد يبدأ العد التنازلى فى غددنا وخلايانا، ولكننا لا نسمع ذلك.. فالموت مرض أيضاً!

قال جارى: بل المريض كان أباه.. لا.. بل كان جده.. ذهب يزوره فوجد المرض قد ثقل عليه.. تأثر لذلك.. فعاد حزيناً إلى بيته.. مات! إذن لقد ذهب الطبيب الشاب يزور جده المريض. وأحزنه حال جده، ومات الطبيب وعاش المريض! ثم أشار بيده إلى رجل كبير فى السن يتساند يميناً وشمالاً ويمشى فى الجنازة.. أنه جده المريض يمشى فى جنازة حفيده الشاب الطبيب ــ سبحان الله!

وشاعرنا القديم قال صادقاً:

وكم من مريض نعاه الطبيب   إلى نفسه، وتولى كئيباً
فمات الطبيب وعاش المريض   فأضحى إلى الناس ينعى الطبيبا!



عندما رأيت نظافة ألمانيا. وزهور هولندا، ونظام بريطانيا، ومحلات البقالة في أمريكا تمنيت أن أجد ذلك كله في مصر.. أو في مدينة المنصورة. ولا أنسى ما أصابني بعد سنوات طويلة عندما زرت بلدتي المنصورة. ولم أكد أنزل إلى ميدان المحطة، حتى رحت أتلفت ورائي. كأني خشيت أن يراني أحد من الذين حدثتهم عن جمال بلدتي، وهواء بلدتي، وفتنة عيون بنات المنصورة، وورود وزهور وطيور الدقهلية، ولم أجد ورائي أحداً سوى أهل المدينة وقد أعتادوا على الذي ضايقني من القذارة والمياه الراكدة والشوارع الضيقة. وضايقني أكثر أنهم لا يشعرون بهذه الفضيحة. ولكنني لمت نفسي وتنحيت جانباً أتفرج على الذين أعتادوا على القرف.. ولم يعد الذباب يضايقهم ولا التراب ولا الهباب.

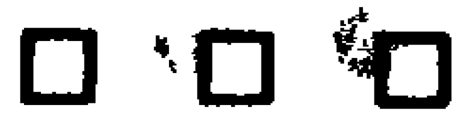
وكان غضبي شديداً. ولم أعرف من الذي أثور عليه!

قال لي المحافظ وهو من أقاربي وزميل الدراسة: ماذا أعمل؟ لا أحد يساعدني لا أستطيع أن أكنس الشوارع وحدي!

وتذكرنا نحن الأثنين ما كنا نقوله ونحن صغار وما كنا نتمناه للمنصورة. وما يمكن عمله الآن ففي المنصورة أكبر نسبة متعلمين في مصر وفي أستطاعة هؤلاء جميعاً أن يشنوا حرب النظافة.. لقد أمكن ذلك في بلاد متحضرة كثيرة. يوماً من كل أسبوع أو أسبوعاً من كل سنة!

أو يفعل ذلك محافظ واحد فيكون قدوة للآخرين!

ولم أسمع ان أحداً فعل شيئاً في المنصورة!



إذا كان الفساد: حقيقة، فالثورة عليه: واجب!

وليس أحد إلا يشكو من أن هناك خللا فى مكان ما. وأن هذا يؤدى إلى تعطيل كل آمال مصر فى الأفضل لكل الناس. ولا يوجد مكان واحد بالذات قد انفرد بالفساد أو التراخى أو اللامبالاة.. أن الفساد يشبه تسرب البوتاجاز، له رائحة تعم البيت كله.. والفارق الوحيد هو أننا من السهل، فى حالة الغاز، أن نعرف مصدره وأن نسد الأنبوبة وأن نفتح النوافذ بعد ذلك فيدخل هواء جيد يطرد هواء ردئياً!

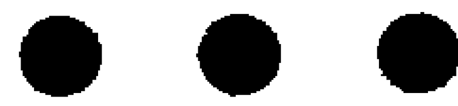
ولكن الروائح الكريهة قد تفشت بيننا. تماماً كما تمتلىء غرفة برائحة السجائر.. فالذى يدخن والذى لا يدخن كلاهما سواء فى امتلاء صدره بالهواء الفاسد. فما الذى نفعله؟

ولا يوجد اجتماع فى بيت أو فى مكتب الا تسيطر عليه هذه المعانى، وإلا يتطلع الناس إلى حل أو أمل فى حل.

ونحن صادقون فى هذا الأسى على أنفسنا..

ولابد ــ قبل كل شىء ــ أن نستشعر الكارثة.. المحنة.. الخطر الذى يهدد بناء مصر: حاضرها ومستقبلها..

لابد من الضبط والربط وبمنتهى الشدة والعنف. وأن نكون أشداء على أنفسنا وعلى غيرنا. وأن نلتزم جميعاً بما هو واجب وبما هو حزم وعدل وخير وأمن وسلام لمصر ــ وإلا..!



مجهول كل من فاز بجائزة نوبل عام ١٩٨٦ ــ فنحن لا نعرف واحداً من الفائزين فى السلام أو الأدب أو العلوم ــ نحن فى مصر. ولكن لا بد ان كثيرين فى أوروبا وأمريكا يعرفون هؤلاء النابهين.

فأنا قرأت للأديب الذى فاز بجائزة السلام.. انه أديب أمريكى اسمه ايلى ويسلى. وقد قرأت له بعض أعماله الأدبية والدينية. ولم ألاحظ أنه يستحق هذا التقدير العظيم. ولكن لا بد ان اللجنة التى تابعت نشاطه وكل أعماله الخمسين قد وجدت فيها ما يستحق ذلك وأكثر..

أما الأديب النيجيرى الفائز بهذه الجائزة فلا قرأت ولا سمعت عنه. وليست غلطة الأديب، ولا غلطتى. فلم أجد له كتاباً واحداً فى اية مكتبة دخلتها. وما أكثر المكتبات التى أتردد عليها!

ويبدو أن منح الجائزة إلى شخصية مجهولة هى قاعدة مؤسسة نوبل.. لأنه من الممكن أن يكون هناك أديب ممتاز ولكن لا تتسلط عليه الأضواء. لأنه لا يستهوى الجماهير ولذلك فؤلفاته ليست منتشرة.

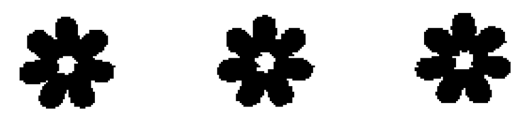
وتجىء مؤسسة نوبل تعوضه عن هذه الخسارة الأدبية والمادية..

والشاعر الايطالى كوزيمودو، كان مجهولاً حتى فى بلاده.. وكذلك الأديب الأيسلندى لاكسنس صاحب ملحمة (سالكا فالكا).. والأديب اليونانى سفيريس والاسرائيلى أجنون والأنجليزى جولدمان..

.ولو كان قد فاز بهذه الجائزة العقاد وطه حسين والحكيم، لوجدنا نقاداً في بلاد أخرى يتحدثون عن مؤسسة نوبل وهوايتها الشاذة في البحث عن المجهول وأنه كلما كان الأديب خافياً على الناس، كان أغراؤه لها أشد وأعنف؟! فحتى أعمال أدبائنا المترجمة، لم تجعلهم معروفين عالمياً ولا حتى في اللغات التى ترجموا إليها ـــ والأسباب متعددة..

ثم ان هناك حسابات سياسية ودينية وعنصرية أمام أكاديمية نوبل، لتحقيق التوازنات الدولية! وبعض الأدباء الكبار رفضوا الجائزة عندما منحت لهم.. برناردشو وصفها بأنها مثل طوق النجاة الذى ألقى للغريق عندما بلغ الشاطىء.. والفيلسوف الوجودى سارتر رفضها لأنها قد وضعته فى كفة واحدة مع أناس لا يحترمهم!

ولكنها لا تزال أعظم تكريم شخصياً وقومياً!



لن نكون شعباً متحضراً إلا إذا أنفقنا على الكتب والأسطوانات والكاستات أضعاف ما ننفقه على المياه الغازية!

فالمياه الغازية ليست من ضرورات الحياة. الماء وحده هو الضرورة. ولكنها جميعاً كماليات مثل الكعك والبسبوسة إذا قورنت بالخبز.

وربما أدت النهضة ــ أى استيعاب العلوم والفنون وتوظيفها لتطوير المجتمع ــ إلى أن يكون الكعك والمشروبات الغازية وغيرها من ضرورات الحياة كأجهزة التكييف والتليفزيون والطائرات.

ولكن لو نظرنا إلى أركان بيوتنا، صغيرة أو كبيرة، فكم من الكتب نجد. وكم عدد الذين يقرأون فى كل أسرة كتباً أشتروها. وكم عدد الذين يترددون على المكتبات العامة.. ثم كم عدد الساعات التى تشغلها الثقافة والأدب والفن فى الأذاعة والتليفزيون.

ثم كم عدد الذين إذا أرادوا أن يقدموا هدية لأحد. أعطوه كتاباً أو مكتبة.

ونحن مقبلون الآن على عيد الأضحى ومن قبله كان عيد الفطر، وبين ذلك أعيادنا السياسية، فهل ظهر أعلان واحد عن كتاب نقدمه هدية فى واحد من هذه الأعياد.. ان أحداً لم يعلن عن مصحف كريم أنيق الطباعة، أو شرح مبسط جديد لكتاب الله ــ ليكون أعظم الهدايا فى أكرم المناسبات!

ان اختفاء مثل هذا الأعلان، هو دليل واضح على أن الكتاب ليس شيئاً هاماً فى أعماقنا. ولذلك فالطريق طويل بين المعدة والعقل أطول بكثير جداً مما هو موجود فى الجسم الانسانى..

ويوم يكون للكتاب متعة المياه الغازية وضرورتها الآن، نستطيع أن نقول: أننا متحضرون!



أنا من أشد الناس اعجاباً بفصاحة وبلاغة زعيم حزب الأحرار السابق جيرمى ثورب. فقد سمعته فى المعركة الأنتخابية السابقة قادراً على الأقناع.. وكل المعلومات التاريخية عند أطراف أصابعه مع النكتة وحضور البديهة..

وفجأة ظهر فى حياته شاب نصاب أتهمه بأنه كان على صلة جنسية به وأنه تآمر على قتله، أما الصلة الجنسية فالقانون الأنجليزى يسمح بذلك. ويروى أن الشذوذ إذا كان مرضاً فلا يمكن تجريم المرض كالزكام والصداع والحصبة.

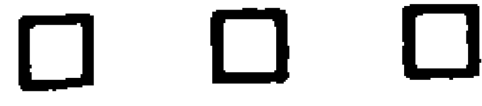
ولكن الغلطة التى وقع فيها ثورب هو أنه كذب على المحكمة وقال: أنه لم يتآمر على قتل هذا الصديق العشيق!

ودخل الأنتخابات وحكم عليه الشعب بالسقوط لأنه كذب. فالكذب جريمة كبرى لمن يحمل أمانة التعبير عن الشعب فى مجلس العموم. وكان حكم الشعب على ثورب عنيفاً. وكان الشعب متأثراً بما نشرته الصحف!

وبالأمس قضت المحكمة ببراءة ثورب، من الكذب. بعد محاكمة أستغرقت ٣١ يوماً.

وأنفض الناس من حوله، وهذا طبيعي، وبقيت زوجته إلى جواره تبيع ما لديها من مجوهرات دفاعاً عن رجل أمنت بصدقه..

هل إذا عاد ثورب إلى الناخبين مرة أخرى ينتخبونه، ويكون ذلك أعتذاراً عن ظلمهم له؟ ربما. ولكن لن يفعل. أنتهى!



الفيلسوف الألماني كانت هو الذى قال: أن الأطفال لم يعرفوا البكاء إلا حديثاً جداً. فأيام كان يعيش الانسان فى الكهف، أعتاد الأطفال الا يبكوا، لأنهم لو فعلوا أو تركهم أباؤهم يبكون لانقضت عليهم الحيوانات المفترسة وقضت عليهم وعلى البشرية.. ولكن الطفل أعتاد على البكاء فى عصور الأمان، أى عندما أصبح له بيت مغلق..

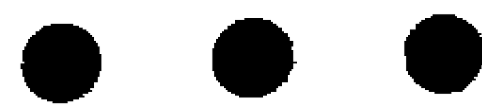
كلام منطقى، ولكن أحداً لم يستطع أن يجد تفسيراً واضحاً لبكاء الطفل. فالطفل يبكى لأنه لايعرف وسيلة أخرى لطلب الطعام والشراب والدفء والأم والشكوى من الألم..

ومنذ ثلاث سنوات عكف ثلاثة من علماء أمريكا فى معهد ماساشوستس على دراسة البكاء عند الأطفال فى مختلف مراحل العمر. وقام العلماء بحصر أنواع ودرجات وشدة وحدة البكاء. وأدخلوا هذه المعلومات كلها فى العقل الألكترونى. وأستطاع العلماء أن يعرفوا أسباب البكاء جسمياً ونفسياً وأجتماعياً.

وأعلنوا بالأمس أن تجاربهم قد نجحت بدرجة ٩٥٪.

ولكن العلماء أعترفوا بأنهم لم يجدوا تفسيراً واضحاً لبكاء المرأة..

ومن الغريب أن العلماء قد عثروا على طفل واحد بين عشرين ألفاً لم يبك منذ ولادته فى العام الماضى.. ولابد من ابكائه بالقوة ليعرفوا سبب مرضه ــ فالبكاء صحة للطفل والمرأة والرجل!



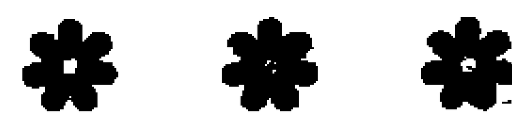
كانت مفاجأة غير سارة أن يردد الرئيس بريجنيف كلمة «الله» أكثر من مرة في حديثه إلى الرئيس كارتر — ولابد أن تحذف الرقابة السوفيتية كلمة «الله» التي جاءت سهواً أو مجاملة على لسان الزعيم الكبير. فالله والقياصرة ليس لهم مكان في روسيا منذ قيام الثورة البلشفية وسوف تجد تعليقات مضحكة من بينها أن الرئيس بريجنيف قد جامل الدول العربية أو تأثر بها أو أنه أسلم، أو أنه بارك زيارة بابا الفاتيكان إلى بولندا.

وأستغفر الله ان أوردت هنا ما لا نهاية له من النكت عن وجود الله في الأتحاد السوفيتي. ولكنهم يسخرون من الكلمة منذ المهد إلى اللحد — أي مهد الطفل حتى يصبح رئيساً للدولة.

وقد فزع العالم كله سنة ١٩٥٧ عندما أرتفع رائد الفضاء السوفيتي جاجارين في سفينته ليعلن تحيته للجنة المركزية للحزب الشيوعي ويعلن عظمة روسيا. ويسخر من أنه لم يجد الله هناك — هناك أي على أرتفاع ٢٥٠ كيلو متراً من الأرض منتهى السذاجة والجهل والغرور. فرائد الفضاء لايزيد عن سائق تاكسي على مستوى عال.. حتى رائد الفضاء ليس سائقاً. وإنما هو يركب سفينة يقودها ألوف الخبراء.

واستراح الناس في روسيا وغيرها إلى ان رائد الفضاء لم يجد الله — كأن الله هو رائد فضاء آخر. وأنه يلف في سفينته حول الأرض!

أو لعلها شيخوخة بريجنيف!



نحن فى عصر الأرهاب الفكرى. فكل قاتل قبل ان يشترى المسدس قد أتخذ قراراً سياسياً أو فلسفياً لارتكاب هذه الجريمة. أى أنه ليس مجرماً عادياً، وإنما هو كاتب قد أختار المسدس قلماً. والدم حبراً. وان تكون صورته وحياته فى الصفحات الأولى فى العالم. فهو أراد أن يختصر الشهرة والمجد برصاصة واحدة. فهو مجرم له رأى. وعلى ألوف الأقلام وملايين الكنائس والمساجد أن تدعو الله ان ينقذ عباده من عباده: الأغلبية المؤمنة من الأقلية المجرمة.

ولذلك فالأرهاب واحد. وأسلحته واحدة. ولكن أهدافه السياسية والدينية متعددة. كما ان جمعيات الأرهاب كثيرة فى كل مكان فى العالم. ثم أنها مترابطة. فتجد الأرهابى الألمانى واليابانى والايطالى يعملون معاً. بل ان الواحد منهم قد يأخذ مكان الآخر. فهل الذى أراد ان يقتل الرئيس ريجان شاب نازى؟ لا أظن ذلك. فلا هدف لهذه الجريمة. ولن تعطل سير الحياة الأمريكية. ولن يحدث فى امريكا أنقلاب عسكرى أو أنهيار دستورى. ففى أمريكا كما فى مباريات كرة القدم، إذا وقع أعظم لاعب، فإن الجماهير تهتز له بعض الوقت ثم يطالبون باخراجه من الملعب لأنه يعطل المباراة ويفسد على الناس متعتهم!

ولا القاتل فقير ولا هو غنى. وإنما هو قاتل فقط. لماذا؟ لأنه ضاق بحياته هو، فأراد أن ينهى هذه الحياة بأيدى الآخرين.. أو لأنه ضاق بكل الحكام فى العالم. ولما لم يجدهم جميعاً، أختار أقربهم إلى مسدسه!

ولن يسكت الرصاص فى أمريكا، لأنه ينطلق بديمقراطية كاملة!

وقيل أن اللصوص منذ أربع سنوات سرقوا السيف البرونزى الذى كان يمسكه تمثال عرابى باشا. وليست هذه أول مرة يجرده فيها المصريون من سيفه ومن شرفه ومن ألمه ومن حبه لمصر. فقد فعلوا ذلك كثيراً حتى مات عرابى باشا فى النسيان والهوان. فمنذ اللحظة الأولى التى وقف فيها الفلاح المصرى أحمد عرابى يقول للخديو أن ظلماً قد خنق الجميع، اعتبره مؤرخو الخديو رجلاً جاهلاً مجنوناً. وجاء الانجليز وحملوه من شعبه إلى جزيرة سيلان (سرى لانكا ــ الآن). وهناك نزل عرابى بطلا عملاقاً. بل أن أهل الجزيرة اعتبروه أحد أبناء السماء. وعندما سافرت إلى جزيرة سيلان عثرت على الصحف التى تحدثت عن عرابى ورفاقه. وكيف استقبلهم الناس هناك بالهتافات وكيف أن الانجليز كانوا ينظرون إليه على أنه فلاح جاهل متهور. با أن أحد الصحفيين قد ذهب للقاء عرابى فى عرض البحر وراح يسأله: هل صحيح أن الذى يتكلم الانجليزية يعتبر كافراً؟ وكان عرابى يضحك ويقول: أنبى أتعلمها منذ تركت مصر!

وأسئلة أخرى أكثر سخافة. وكلها تدل على النظرة الغريبة إلى عرابى وإلى الثوار المصريين. هذه النظرة ظلت اطاراً خانقاً لتاريخ عرابى وشجاعته. وقد ظلم المؤرخون أحمد عرابى عندما قاسوا مواقف الغضب على الظلم فى عصره، بمقاييس عصرنا نحن. وعندما حاولوا أن يطبقوا عليه مفهومنا الحديث للانقلاب والثورة. هل كان صاحب انقلاب؟ أو هل كانوا ثائراً؟ أو كان مجرد غاضب ساخط. أو أنه كان مندفعاً ولم يدرك بوضوح معنى هذا الذى فعله؟ أو أنه كان كالذى صفع إنساناً بالقلم فمات.

ولم يكن الموت دليلاً على عنف الصفعة وإنما كان دليلاً على ضعف هذا الذى صفعه ؟ ! "

وفى حياة عرابى باشا يختلط الاسى بالفكاهة . ففى جزيرة سيلان يذكرون له أنه هو أول من شجع على حفظ القرآن . وأنه هو الذى أنشأ « الكلية الزاهرة » .. وهو الذى أدخل الكعك والبسكوت والغريبة والكنافة والقطايف إلى هذه البلاد . وأنه كان حريصاً على إقامة الحفلات لظهور انجاله !

ومنذ سنوات نشرت الصحف فى مصر أن تمثال عرابى باشا قد نفخه الهواء فسقط الرجل على الأرض وأن محافظ الشرقية يستنجد بالمجلس الأعلى للفنون للنهوض بالرجل . ولك أن تضحك أو تأسف على هذا الذى أصاب الرجل وتمثاله . ولكن الحقيقة كانت غير ذلك . فقد طلب محافظ الشرقية « تقويم » تمثال عرابى باشا ــ أى ارسال لجنة من الفنيين لمعرفة « القيمة » الحقيقية للتمثال قبل أن ينصبه فى ميدان عام . ولكن سكرتيرة لجنة الفنون التشكيلية فى المجلس الأعلى للفنون قد فهمت أن « تقويم » التمثال معناه أن التمثال قد وقع ، وأنه فى حاجة إلى من يوقفه فى مكانه ــ وهى معذورة فى هذا الفهم . فنحن لم نعرف حتى الآن أين الصح والخطأ فى كلمتى : التقويم والتقييم !

ولكنها النكتة والنكبة والسخرية التى أحاطت بحياة وممات الزعيم أحمد عرابى .. وهى صورة من صور الظلم الذى يتلقاه المخلصون من أبناء كل وطن . لا لسبب إلا لأن الشعوب كثيراً ما ضاقت برجالها فحولتهم إلى أعداء لها .. وخونة لارضهم وعرضهم . وليس أحمد عرابى آخر من يظلمه مواطنوه ويجردونه من سيفه وشرفه .

والشاعر القديم يقول :

وظلم ذوى القربى أشد غضاضة

على النفس من وقع الحسام المهند.

والمثل الشعبى يقول: الدخان القريب يعمى.. والطلق القريب يدوش!

كل ذلك أصاب عرابى باشا، ذهاباً وإياباً من المنفى وإلى الوطن.. وهذا ما يحزن الأحياء من الوطنيين على أنفسهم، عندما يتخيلون أنهم سوف يلقون نفس المصير ـــ من يدرى!



المصريون العاملون فى الدول العربية بأجازات بدون مرتب، قد عاودهم القلق على ما فاتهم هناك وعلى مستقبلهم فى مصر. فالدولة تريدهم أن يعودوا أو يستقيلوا. وفى نفس الوقت تريد لهم الوجود فى البلاد العربية، الحضور المصرى فى الدول التى أنقطعت علاقاتها الدبلوماسية مع مصر.. وفى نفس الوقت تشكو مصر من كثرة العمالة فى مصر، ومن نقص وارداتها من العملات الصعبة ـــ أى أن مصر ليست فى حاجة إلى عودة هؤلاء الذين يعملون فى الخارج. وإنما فى حاجة إلى فلوسهم بشرط أن يبقوا هناك. فبالله كيف لا يكون هناك ثم يبعث بالعملات الصعبة!

وهؤلاء المصريون الذين ذهبوا إلى العمل، كان على مسئولياتهم وحدهم. ولم يجدوا العمل المناسب فى المطار على طبق من ذهب. وإنما تعبوا كثيراً حتى وجدوا العمل وحتى كسبوا الثقة، وسط استفزازات لا حدود لها.. وأهانات شخصية وأهانات وطنية. وتحملوا وأصبحوا عند عظيم الثقة بهم. وعلى الرغم من الظروف الأقتصادية الصعبة التى تمر بها دول الخليج، فإن بعض المصريين يلقون الأحترام وحرص أصحاب الأعمال على بقائهم ـــ بينما بلادهم تطالبهم بالعودة. مع أن وجودهم هناك يوفر على مصر أكلهم وشربهم ومسكنهم وعلاجهم وتعليمهم..

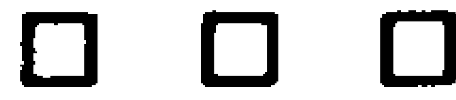
وليس للوزارات المصرية سياسة موحدة. فوزارة الصحة أطلقت العمل فى الخارج بلا حدود..

ووزارة الأقتصاد أشترطت ألا يزيد العمل فى الخارج على ١٤ سنة. ووزارة المالية التى تشكو لطوب الأرض من نقص تحويلات المصريين فى الخارج تشترط عشر سنوات..

وبعض المحافظات تفعل مابدا لها.. وما بدالها عجب كأنها تستمتع بالحكم الذاتى ولا علاقة لها بالحكومة المركزية!

وليس من كل هؤلاء المصريين العاملين فى الخليج العربى صاحب تخصص نادر، تموت مصر من غيره، وتتأخر كل الصناعات والخطط إذا لم يعد فوراً..

وإذا كانت هذه سياسة جديدة للدولة مع أصحاب التخصصات أو المواهب الفذة فلنطالب أولاً بعودة الدكتورين مجدى يعقوب وفاروق الباز!



لم أتناقش مع أحد من المشتغلين بالفنادق فى مصر لأعرف رأيه فى رفع أسعار الفنادق. ولكنى أعلم أن الفنادق فى مصر أرخص كثيراً جداً من نظيراتها فى أوروبا. وكذلك المطاعم وبقية الخدمات. ولكن لا أظن أن الخدمات التى تقدمها مصر ترقى إلى مستوى ما تقدمه الدول السياحية المعروفة: أسبانيا وإيطاليا وأنجلترا وفرنسا واليونان وقبرص!

ولا مانع من أن تكون المعاملة بالمثل فيدفع السائح بالعملة الأجنبية ــ بالدولار والأسترليني. ولكن بشرط أن يلقى نفس المعاملة إبتداء من دخوله مكاتب السياحة المصرية والطائرة والمطار والشوارع والمتاحف والتاكسيات والأسواق حتى يعود إلى الميناء الدولى الذى جاء منه..

وفى نفس الوقت يجب ألا نكذب عليه وألا نخدعه وألا نربك له مواعيده ذهاباً وأقامة وأياباً وألا نلطعه على الرصيف أو ينام أمام الفندق حتى تخلو الغرفة التى أكدنا له أنها محجوزة بأسمه.. وألا نحاسبه بسعرين وثلاثة أسعار، وعلى المستوى الرسمى أيضاً. وألا نكذب عليه هناك، وقبل أن يجىء..

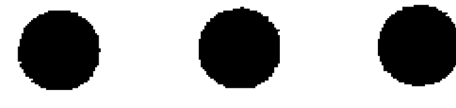
ومن ناحية أخرى يجب ألا ننسى أن السياحة فى مصر قد تعرضت لهزات عنيفة جداً... وفى كل مرة نحتاج إلى مجهود عظيم لأقناع الناس بالعودة إلى مصر. بعض الهزات تتعلق بالأمن العام والأمن الدولى..

ومن المؤكد أن الناس سوف يعودون إلى مصرــ ولكننا نستعجل

عودتهم، ونريدهم كثيرين. ولذلك يجب أن نغريهم بالعودة فلا نرفع الأسعار ولا نعقد الطريق أمامهم.

وفى نفس الوقت يجب ألا ننسى أن المصريين أنفسهم يفضلون أوروبا على مصر ــ اليونان وقبرص التى تتسابق فى توفير الخدمات وخفض الأسعار. وأكثر الذين كانوا يصطافون فى الأسكندرية يفضلون عليها رودس وقبرص. بل أن اليونان قد باعت مئات الشقق للمصريين وبأسعار زهيدة جداً..

إذن، لم يكن الوقت مناسباً لرفع الأسعار، إلا إذا كانت هناك حكمة أخرى ــ وسوف نرى!

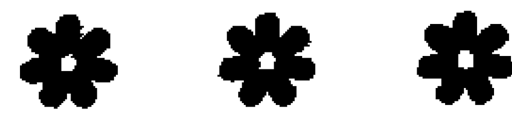


لا أطلب إليك أن تنظر إلى وجوه الحكام فى هذه الدنيا ؛ ان الهم والغم واضح على وجوههم. المسئولية الضخمة والتحديات الهائلة والخطر من كل مكان. ثم أن أحداً لا يمتن لهم أحياء وأمواتاً. وهم محرومون من كلمة الحق، وهم أحياء. فكل الذين حولهم خائفون أو طامعون. كلمة الحق تقال عادة بعد موتهم بمائة عام!

وإنما أنظر إلى بقية الناس. إلى نفسك. ان كنت كبيراً فأنت مهموم، وان كنت شاباً فأنت قلق. وان كنت طفلاً، فأنت لا تدرى بوضوح ما ينتظرك. وينابيع القلق فى حياتنا كثيرة جداً. فالحياة فى المدينة تحطم الأعصاب وتفسد الصحة والعمل، ليس بها نظام. ولا أحد يعرف ما هى القاعدة التى تجعلك ناجحاً. وهل لهم علاقة بما تعلمت فى المدرسة، أو ان النجاح علاقات عامة. أو هل مكتوب على المخلص أن يخسر، وعلى اللص أن ينجح. وعلى الفاسد أن يكون غنياً، وعلى المستقيم أن يكون فقيراً. فما هو الصح وما هو الخطأ. وما مدى صحة العبارة الشهيرة: لا يصح إلا الصحيح ؟!

وفى مواجهة القلق، ومحاولة التخلص منه عرف الناس المهدئات والمنومات والمسكنات والمخدرات. وما من أحد لا يتعاطى شيئاً من ذلك فالكل يبحث عن الهدوء المزيف والراحة المزورة، من أى مصدر. ومعنى ذلك أنه لا مفر من التعب ولا مفر من الخلاص منه بالمواد الكيميائية أو النباتية.

فإذا قلنا أننا نعيش فى عصر المخدرات، فمن الأصح أن نقول أننا نعيش فى عصر المتاعب النفسية الكبرى، لأسباب أقتصادية وسياسية واجتماعية. فكما ان الهواء الفاسد فى كل مكان، وكذلك الماء والطعام، فالقلق أيضاً.. ولذلك فالناس يبذلون جهداً كبيراً لكى يعملوا قليلاً.. تماماً كأن جاذبية الأرض قد قويت فجأة، ولذلك فالجهود الذى نبذله من أجل حياتنا العادية قد أصبح هائلاً.. ولذلك كانت قدرتنا على الأنتاج أقل، وقدرتنا على النوم الطبيعى أضعف.. ولذلك تحتم ان يقترض الناس نشاطهم وراحتهم أيضاً ــ فهم يستخدمون المنبهات باسراف والمنومات بكثرة.. وبين التنبيه الشديد والتنويم العميق، تتأرجح وتهتز وتتساقط ــ فهذه هى مصيبتنا!



فكرت طويلاً جداً قبل أن أجيب عن سؤال أحدى الاذاعات العربية : وما هي السعادة! وفكرت .كأنني أمام شيء لا أعرفه. وفعلاً لا أعرفه. ولكن أعرف بعض اللحظات التي يمكن أنِ تكون سعيدة. والسعادة نسبية : تختلف من انسان لآخر.. وتختلف من مرحلة في عمرك إلى مرحلة أخرى. فالذي كان يسعدك طفلاً غير الذي يسعدك وأنت أب لعدد من الأطفال.

مرة واحدة لا أعرف كيف حدثت ولا كيف يمكن تكرارها. كان ذلك في مانيلا بالفلبين. قررت أن أنام مبكراً. هل كنت مرهقاً لهذه الدرجة؟ لا أعرف. هل كان الطعام مهدئاً لدرجة أنني لم أستطع مقاومة النوم؟ نمت وصحوت فوجدت الشمس قد ملأت الغرفة. فأدهشني ذلك. فأنا لم أر شروق الشمس من عشرات السنين فأنا أصحو قبل الفجر لكي أقرأ وأكتب في غرفة مغلقة الباب والشباك. وفي ذلك اليوم رحت أتحسس نفسي. فقد ظننت أنني مت.. ونظرت إلى الساعة فوجدت أنني نمت من الغروب إلى الشروق وهو ما لم يحدث قط، حتى عندما كنت طفلاً.

وانشغلت بما حدث لعلي أكرره كل يوم فأحظى بهذه الراحة والصحة والخفة ــ السعادة الحقيقية!

ولم أفلح رغم أنني رحت أحصي كل ما فعلت وأكلت وشربت وأضفت إلى ذلك الحمام الساخن والعسل واللبن ــ لقد حدث ذلك مرة

واحدة. تماماً كأنها «طاقة القدر» أنفتحت لحظة فانبهرت لدرجة أنني أستطيع أن أطلب من الله شيئاً واحداً ــ أو هكذا تخيلت!

فالسعادة هي تلك الحالة التي لا توصف من الراحة الجسمية والنفسية والعقلية.. لحظة أو دقيقة أو ساعة.. وقد يحدث ذلك بعد ان تفرغ من مشروع أو من أختراع. أو من أبتلاع زجاجة مع سيجارة مع فنجان قهوة مع قطعة موسيقية..

لم يكذب كثيراً ذلك الذى كتب على قبره: ولد يوم ٥ يونيو ومات يوم ٧ يونيو ــ أى أنه عاش يومين فقط ــ هذه سعادته!



كأنه لا كان طبيباً عظيماً ولا عالماً جليلاً ولا باحثاً عالمياً، مات دون أن نقرأ أو نسمع عنه كلمة وداع من أحد من زملائه أو تلامذته. مات فى هدوء، كما عاش فى هدوء: بول غليونجى..

كانت تربطنى به علاقة تليفونية سنوات على وعد أن أزوره، وأن يزورنى. ولكن لم يسعدنى الحظ، وان كان قد أسعدنى وأمتعنى كثيراً جداً بقراءة الروائع التاريخية التى كتبها. وقبل وفاته بأيام بعث إلى بجميع مؤلفاته. فقد طلبت أنا من كل أبناء المنصورة من العلماء والشعراء والأدباء أن يشاركوا فى ملء مكتبات المنصورة. وكان أسرعهم بول غليونجى..

آخر ما قرأت لبول غليونجى كتابه عن الطبيب العربى «ابن النفيس» وكان أول من أهتدى إلى هذا الطبيب العربى العبقرى طبيباً مصرياً مجهولاً هو الدكتور التطاوى. فعندما أكتشفه الدكتور التطاوى لم يصدقه أساتذته الذين لا يعرفون اللغة العربية. وكان دهشتهم عظيمة عندما أكد لهم أحد المستشرقين أن كل الذى قاله التطاوى صحيح. وأكمل د. غليونجى أكتشاف ابن النفيس ورأيه فى الدم والقلب والدورة الدموية.

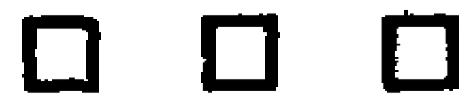
قال د. جمال بحيرى أن بول غليونجى كان من أعظم العلماء وأكثرهم أدباً ولطفاً.

قال د. حسين بدر الدين ان بول غليونجى جمع العلم والأدب والوسامة والتواضع العظيم.

ومنذ أيام تلقيت من الصديق د. الأب قنواتى رئيس معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومنكيين كتاباً باللغة الأنجليزية أشترك فى ترجمته وتحليله عن «المخطوطات الطبية لابن رشد فى مكتبة الاسكوريال بمدريد» ـــ وهو أحدث ما كتبه بول غليونجى..

أما دراساته عن الطب الفرعونى فتحفة تاريخية تدل على عمق النظرة وبراعة التحليل ومثابرة العالم، ورهبانية الفلاسفة.. وكان د. بول غليونجى أول من نبهنا إلى عبقرية الجراح الفرعونى وأنه سبق الطب الحديث فى كل أنواع العمليات.

أن الحفاوة بمثل هذا الرجل العظيم بعد وفاته: أحياء لكثير من القيم العلمية والأخلاقية: الصدق والدقة والصبر والتواضع وانكار الذات!



كنت أتناول طعام العشاء فى أحد الفنادق العائمة ، فوجدت عدداً من السفرجية ورؤساء كبار يوجهون السفرجية ولا أعرف درجتهم الأدارية ، أو أسماءهم الفنية . فكنت إذا طلبت من هؤلاء الكبار كوباً فإنهم يشيرون إلى السفرجية بان يفعلوا ذلك .. ولم أفهم بالضبط ما هى مهمة أو أهمية أو ضرورة هذا النوع من الرؤساء الذين أرتدوا الملابس النظيفة المشدودة مثل قوامهم وحركاتهم . وحاولت أن أتابع ما الذى يفعلونه بالضبط . لم أجد ، وإنما هم يحركون عيونهم يميناً وشمالاً . بما معناه أنهم يراقبون ويلاحظون .

حتى ذهبت إلى ندوة كلية السياحة والفنادق بالقاهرة . وفى مكتب العميد د . نورالدين ، الياس ، وهو رجل مهذب خجول . قلت له : كنت أتوقع أن أجد مكتبك أنيقاً تتوزع فيه الورود والزهور .. وأن تكون المناضد مغطاة بالمفارش وأن تكون المشروبات فى أكواب أنيقة لها أطباق .. وأهم من كل ذلك أن يقوم الطلبة بعرض نموذجى لما سوف يفعلونه غداً فى المطاعم والفنادق .. ولم يجد الرجل ما يقوله .. ولكن تطوع أحد الأساتذة وقال : ليست هذه وظيفتهم . فهم أداريون !

أى أنهم مثل هؤلاء الذين يديرون ولا يقدمون طعاماً ولا شراباً !

ولم أفهم . ولم أتصور لحظة واحدة أن كلية الفنادق لا تترك لطلبتها تنظيم كل ما يتعلق بنظافة وأناقة كل القاعات والممرات والسلالم والحديقة ، وان يشارك الأساتذة ويكونوا قدوة للجميع !

إذن بعض هؤلاء الذين لا ضرورة لهم فى المطاعم والفنادق، قد تخرجوا من هذه الكلية. ولا أظن أننا فى حاجة إلى أصحاب النظرات واللغات الذين لا عمل لهم. مع أن مئات الطلبة من جميع الكليات إذا سافروا إلى أوروبا مسحوا الأرض والبلاط وحملوا الحقائب للزبائن!

ان كافيتيريا هيلتون وهى غرفة واحدة قد غيرت الحياة الأجتماعية فى مصر من ثلاثين عاماً: فقد ربطت الليل بالنهار، وحشدت الجميلات الجامعيات يقدمن الطعام والشراب، مع أحترام من الجميع. لقد قدمت النموذج الأنيق للعمل اليدوى.

ولم تتقدم الدنيا كثيراً بسبب أصحاب الياقات البيضاء وإنما بسبب أصحاب القمصان الزرقاء والسوداء والأفرولات والبلوجينز ـ أى الذين يحترمون العمل اليدوى..!



أمضيت أربعة أيام فى الريف: فى الاسماعيلية اخر المدن النظيفة فى مصر.. وفى المنصورة أجمل المدن وأكثرها تدفقاً بالشعر والفن والعلم وأكثرها مدارس وأعلاها نسبة فى عدد المتعلمين..

أما الصفاء والهدوء فيكفى أن تنقل عينيك بين النيل والناس، بين القناة والحدائق والعصافير.. بين الورود ووجوه الطيبين من أبناء وطنك.. أنهم مختلفون عنا نحن الأحياء فى القاهرة الكبرى. ان ايقاع الحياة عندهم أبطأ. نحن الذين نقول أنه أبطأ.. لأن الحياة فى القاهرة مجنونة عصبية متشنجة بسبب الزحام والضغط والقهوة والمواصلات والتليفونات والصحف. وأنت فى القاهرة تفتح عينيك على الصحف فتبدأ الصدمة الكهربية وبعدها المنبهات وبعدها تحترق أعصابك حتى تأوى إلى فراشك، فتجد أن النوم صعب فتتجه إلى المنومات.

وعندما يقدمون لك الزبادى والشاى واللبن.. وتتردد فى أن تذوق اللبن، ولكن أحداً لا يفعل مثلك.. وتندهش كيف ان هذه القضية العالمية التى تتعالى أصداؤها على أقلامنا، لا تخيف أحداً. ولكنك تسكت عندما لا تجد لكل ذلك، وقضايا أخرى كثيرة، أثراً فى نفوس الناس..

وعندما تتوغل فى الريف تسخر من الصحف القاهرية التى أنزعجت كثيراً على الأطفال الذين يتهددهم اللبن المشع عندما تجد أمهاتهم يغسلن الحلل والشوك والسكاكين فى الترع الملوثة تماماً.

سألت شاباً متوسط التعليم: هل تمتنع عن شرب اللبن لو صح ما تنشره الصحف من أنه مصاب بالتلوث الأشعاعى؟

فأجاب: الأعمار بيد الله..

قلت: ولكن من الواجب أن تحتاط حتى لا تعيش مريضاً.

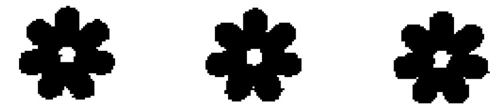
فأجاب: والمرض أيضاً بيد الله.

قلت: وما تنشره الصحف!

قال: ها ها.. حضرتك عارف..

وأنا أعرف. ولكنه لم يشأ ان يحدد بالضبط ما الذى يقصده. وأكتفى بالأشارة إلى أنها مبالغات صحفية..

إذن ـــ عندهم فى الريف مناعة ضد التلوث الصحفى. فنحن ننشر بحرارة وصدق، وهم بنفس الصدق والحرارة لا يصدقوننا ـــ وهكذا تساهم اللامبالاة والملل فى التخفيف عن خطورة سم نووى ـــ ان كان قد تسلل إلينا!



كل بلد له الشباب الذى يستحقه!

ومن مشاكل أى بلد، تشع الحلول. وهذه الحلول تظهر فى عيون وأحلام الشباب. ومن السخط على الماضى الذى كان والقلق على الحاضر الذى يكون، تتولد مخاوف الغد الذى سوف يكون. وإذا كان الشباب أميناً على المستقبل، فكيف يكون أميناً على الغد، وهو لا يملك اليوم..

وهو لا يملك اليوم لأنه يقف على أبواب الجامعات والمعاهد بمئات الألوف. وينتظر أن تعينه الدولة فى مكان ما. ويذهب إلى المكان فلا يجد مقعداً. فإذا وجد مقعداً لم يجد سكناً، وإذا وجده لم يجد الخلو. وإذا وجد الخلو لم يجد الشريكة. وإذا وجدها لم يجد خادمة للولد!

ثم ان الأرض تحتنا لم تتسع من أيام الخديو إسماعيل. الأرض المزروعة محدودة وإذا زادت جرفناها، أو أقمنا عليها بيوتاً، ولا يوجد شاب لا يتمنى أن يكون له أرض وأن يقيم عليها حقلاً وبيتاً ومصنعاً. ولكن لا يلقى المساعدة الكافية. شيء عجيب أن الدولة تخاف أن تعطى أرضاً صغيرة لشاب، وان تعطى أرضاً كبيرة لمستثمر أجنبى.. فالأرض سوف تبقى فى مصر ولمصر..

ما هو المعنى؟ المعنى ان الشاب يجد الذين هم أكبر ليسوا أحسن حالاً منه.. أنه لا يقرر لأنه لا يملك، والذين يملكون لا يقررون أيضاً.

ومنذ أسابيع نشرنا أن عدد عمال مصر ١٢ مليوناً (أقرأ هذا الرقم مرة

أخرى). ثم تساءل أين يعملون؟ وما نتيجة هذا العمل؟ ان دولاً أخرى في حجم نصف سكان القاهرة على أستعداد لأن تطعمنا وتسقينا بما يفيض عن حاجتها؟ كيف؟ الجواب: ان المليون عامل عندهم، ينتجون أضعاف أضعاف ماتنتجه الأثنا عشر مليوناً الجالسين القرفصاء في مؤسساتنا!

ولا علاج يجيء بعد يوم ولا عام. ولكن لا بد من علاج عنيف. ولن يشكو من القسوة أحد، ما دام التطبيق العنيف للخطة لا يستثنى أحداً.. تسألني: متى؟ أقول لك: الآن. تسألني: كيف؟ فأقول لك: كما فعلت الهند والصين وكل الدول التي أنهارت في أعقاب الحروب.. وكل الدول التي لم تخدع نفسها وشعبها وأيقنت انها فقيرة وأنها يجب ان تمدد رجليها على قدر لحافها.



مثل شعبى يقول: من عاش بالحكمة عاش بالمرض ــ والمعنى: ان الذى يراعى الطعام والشراب ويحسبها حساباً علمياً، يتعب جداً فى حياته. ومصدر هذا التعب أن الناس الآخرين لا يراعون ذلك.. إذا باعوا وإذا طبخوا أو إذا قدموا الطعام. والنتيجة أن يكون فى خلاف وشجار مع كل هؤلاء الناس. ولأنهم أغلبية وهو وحده، فلن يستطيع ان يفرض حالته النفسية أو العقلية على كل الناس.. ولا بد أننا عرفنا ولو واحداً فى حياتنا: يغسل الكوب والملعقة ويضع الخضروات والفواكه فى المياه المعقمة.. ويرفض أن يأكل شيئاً لم يتم تطهيره تماماً. وقد لاحظنا ان هذا النوع من الناس «قرفان» عموماً ــ من مصافحة الأيدى والجلوس مع الناس والأقتراب منهم.

وربما عاش هذا الرجل مريضاً، بينما عاش الآخرون فى صحة أفضل!

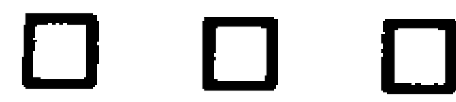
وكنا ونحن طلبة فى الجامعة قد عرفنا واحداً نظيفاً جداً «موسوساً» جداً ــ أنه والد الأخوين محمود وعلى رضا ــ وكان وقتها أميناً لمكتبة الجامعة!

ثم أصبحنا جميعاً كذلك. فكل يوم يطلع علينا الأطباء بأن كل شىء نأكله أو نشربه أو نشمه أو نلمسه: ضار. فالهواء ملوث والماء وكل الفواكه والخضروات واللحوم والألبان. وكل شىء فى دنيانا يؤدى إلى السرطان: الشاى والقهوة والسجائر.. واليوم الألبان ومشتقاتها ومركباتها!

ومع ذلك فإن أحداً لم يمتنع عن الطعام والاسراف فى كل شىء. وليس سبب ذلك ان الناس يريدون ان يموتوا. ولكن السبب أنه من الصعب أن نعرف ما هو الضار والذى ليس ضاراً. ولا بد أن نعيش. ولكى نعيش ونبلع اللقمة لابد أن ننسى، أو نتناسى. أو نتوكل على الله.

فقد أصبح من المستحيل أن نتقى هذه الأضرار التى أنتشرت فى كل شىء. ولا بد أن يكون الجسم قد أكتسب نوعاً من المناعة، ولا بد ان تكون الأعصاب تبلدت ولا بد أن يكون العقل توقف أمام الرغبة فى الحياة.. ولأنه من المستحيل أن نعيش «بالحكمة» التى يتحدث عنها المثل الشعبى..

والنتيجة: خليها على الله ــ وليست هذه حكمة شعبية فقط ولا نصيحة دينية، وإنما دعوة علمية أيضاً!



قرأت قصة لأديبة امريكية لامعة اسمها «مارتا جرين» لا أعرف كيف ألخصها. فليس فيها أحداث ولا أعرف كيف أبدؤها. فليست لها بداية. ولكنها تبدأ هكذا ..... وبالقرب من الجسر وقف وأسند ذراعه إلى الحديد البارد.. «أى أنه كان يمشى، ثم توقف. أو أنه نزل من سيارة.. أو سقط من طائرة.. أو هو خرج من النهر.. أو أنه كان مخموراً. فلما وقع فى الماء وظل كذلك بعض الوقت أفاق.. أو أنه عندما أفاق سقط فى الشارع، فجاء من يركله برجله إلى جوار السور الحديدى.. أو ان هذه «الركلة» قد جعلته يفيق، فنهض ووقف واستند بذراعه..

وتمضى القصة هكذا:.. وأسند ظهره للجسر الحديدى، ونظر إلى الكتل المظلمة الجبارة التى هى ناطحات سحاب نيويورك وأخذ يدور حول نفسه..».

وتستغرق القصة عشرين صفحة دون كلمة واحدة من البطل الذى لا نعرف أسمه.. وإنما هو واحد من أبناء نيويورك لو عاش أو مات فلا يهم أحداً.. ثم تجيء هذه العبارة فى نهاية الصفحات التى خصصت للقصة. ولا أقول فى نهاية القصة، فهى بلا نهاية:.. «ألم أقل ألف مرة أننى على حق.. ولكن أحداً لا يسمعنى.. ولكن أحداً فى داخلى لا يسمعنى.. فأنا لا أسمع نصيحة أحد.. وخصوصاً نصيحتى!».

فهو إذن إنسان يعانى من الوحدة الشديدة.. من العزلة القاتلة.. فالمدينة مليئة بالناس، ولكن أحداً لا يدرى به.. والمدينة يراها بعينيه

ولكنها بعيدة .. ولذلك فهو يتحدث إلى نفسه .. حتى نفسه لا تسمعه .. فهو يطلق أصواتاً فقط ، ويتصادف أنه قريب من مصدر الصوت ، أو هو مصدر الصوت ، ولذلك يسمع ما لا يقتنع به ــ أنها أعراض الجنون عند سكان العواصم الكبرى ! .

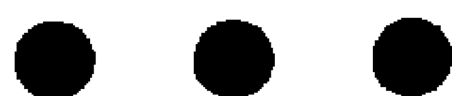


لم تشعر القاهرة بمؤتمر دولى إنعقد وانفض بحثاً عن الجمال والقبح والحياة والموت والحضارة والتخلف فى مدينة القاهرة. جاء علماء من أركان الأرض يعرضون تجاربهم فى بلادهم: كيف أصبحت البيئة قاتلة لهم. وكيف أن القتل هو أهون مالقيه الناس. ولكن الناس يعانون من الأمراض التى أتت بها السجائر والمخلفات الكيميائية والمبيدات الحشرية فى الحقول ــ (ولمعلوماتك: فكل من نستخدمهن مواد كيميائية لرش الذباب وقتل الصراصير والفئران سامة وضارة بالصحة. والذين لا يحلو لهم النوم إلا فى ضباب المبيدات لا يعرفون أن هذه المبيدات تخدرهم فهم ينامون وكأنما أغمى عليهم).

ذهب العلماء وتركوا أبحاثهم التى لن يقرأها أحد. وبقيت لنا القاهرة كما كانت وهى أسوأ لأن الذين تداولوا هذه الأبحاث قد مزقوها وألقوا بها فى الشارع.. أى ألقوا بالورق والتجارب وعلوم الشعوب الأكثر حضارة.

وقد تمنيت فى هذا المكان وفى أماكن أخرى أن يظهر فى مصر حزب سياسى أو إجتماعى يدعو إلى «الحياة الخضراء».. أى إلى زراعة الأشجار فى كل مكان.. وإلى صناعة الحياة: الأشجار والطيور والحيوانات وإقامة الحدائق وفتح الميادين وتجميل الشواطىء والبلكونات، ومداخل البيوت.. وإلى تحريم البناء على الأرض المزروعة، وتجريم تجريف الأرض.. والتوسع الأفقى فى الصحراء. فلا تقام ناطحات سحاب فى الصحراء كما هو الحال فى مدينة نصر وغيرها.. ومنع البناء فى مدينة القاهرة.

وفى البيت وفى المدرسة يجب أن نعلم ونتعلم أن الحياة بناء وأن البناء عمارة، وأن العمارة سلوك إيجابى وأن الحياة لها طعم. والطعم ذوق وتذوق.. وسوف يكون من نتيجة ذلك أن نرصف شارعا وتزرع شجرة ونعجب بفراشة ويجيء السلام لأنه حياة لنا ولغيرنا..



هناك حل آخر غير أنتظار الأسماك التى تجىء أو لا تجىء من أسوان ، لكى تحل أزمة اللحوم. فنحن أهتدينا إلى تربية الدواجن والأغنام والعجول ، لكى تخفف من وارداتنا من اللحوم من السودان ومن غيرها من الدول التى تربى الماشية أو التى تبيع لنا اللحوم والسردين والتونة فى علب.

أنها فكرة رآها المهندس سيد مرعى فى تايلاند. يقول ان حواراً دار بينه وبين ملك هذه البلاد. فتدرج الحديث بينهما إلى الأسلوب الذى حلت به هذه المملكة مشكلة أرتفاع أسعار هذه الأسماك أو تعذر الحصول على هذا اللحم الطرى الجميل.

والغريب أن أهل تايلاند يرون أن لديهم مشكلة من هذا النوع. على الرغم من أن بلادهم لها شواطىء على المحيط الهندى. ولكن أن هناك أناساً يملكون حظائر لتربية الدواجن أو مزارع لتربية الأسماك أن هناك أناساً آخرون ينتجون ما يحتاجون إليه من سمك.

ففى تايلاند يوجد حوض لتربية الأسماك أمام كل بيت للأستهلاك الخاص وكل مواطن يشترى ما يحتاج إليه من بذور السمك ــ أو الأسماك الصغيرة اللازمة للتربية ولبيعها أو أكلها على كيفه.

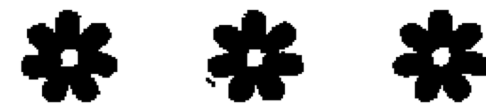
والفكرة بسيطة و واضحة وممكنة ففى أستطاعة أى أحد أن يبنى لنفسه وأمام بيته فى الريف المصرى حوضاً للسمك أو يشترك كثيرون فى بناء أحواض جماعية فى كل قرية وكل مدينة.

والغريب جداً أن هذه الأسماك «نيلية» أى من التى نأكلها فى مصر وفى أعالى النيل. وهى أنسب وألذ أنواع الأسماك التى يمكن زراعتها فى أى مكان من العالم.

ويقال أن القوات اليابانية فى الحرب العالمية الثانية كانت تأكل هذه الأسماك محفوظة. لأن لها مزايا خاصة: كثيرة اللحم والبطارخ وتعيش أطول ثم أنها أكثر الأسماك توالداً وأرخصها فى نفس الوقت.

وأمام المصريين الآن فكرة واردة من شرقى آسيا للاستفادة من الأسماك المصرية على أحسن وأجمل وأوسع وألذ نطاق، السمك من عندنا والفكرة من عندهم.

ويمكن وبسهولة جداً أن نزرع أسماكنا ونصدرها لهم أو غيرهم. لأن هذه الفكرة إذا أنتشرت فى الريف المصرى فسوف ننتج ما يكفى أحتياجنا وزيادة ــ أن هذه الزيادة سوف نبعث بها إلى تايلاند بأسعار أرخص ويكون أنخفاض هذه الأسعار للأسماك النيلية نوعاً من الأمتنان للذين علمونا كيف نربى أسماكنا!



فى التاريخ العالمى نجد أن كاتباً أو مفكراً أستطاع أن يصوغ عصره. أى يعبر عن مشاعر الناس ويتقدمهم، ويمشون وراءه نحو فهم جديد، أو حل لمشكلة طويلة.. أو أنطلاقاً إلى مرحلة أو آفاق جديدة فى الفكر والحياة.

والمفكر لا يفعل ذلك بشخصه فقط، ولكن بأعماله — أى بمؤلفاته الأدبية أو الفلسفية.

وكنا نندهش كيف ان كتاباً استطاع أن يهز الناس ويوقظهم ويغير سلوكهم؟ وكيف لا نجد شيئاً من ذلك فى تاريخنا الحديث أو القديم؟

هل لم يظهر فى حياتنا واحد ينظم أفكارنا المضطربة أو المبعثرة فى خيط واحد.. أو كتاب واحد.. ويسعدنا ذلك. ونجد فى هذا الكتاب منقذاً ومخلصاً؟ ألم يظهر الكاتب؟ أو هل ظهر ولكننا لم نشعر؟ وهل نحن لم نشعر لأن الأغلبية جاهلة والأقلية غير مثقفة وليس لديها هذا الأستعداد.. أو هذه الشجاعة على المغامرة؟ فكل فكرة جديدة هى مغامرة تتحدى «جواً» قديماً وتغتصب فيه الشمس وتفرض النور على العيون والعقول..

هل الكتاب ليس هاماً فى حياتنا أو هو هام ولكننا لسنا قادرين على أن نقفز من الكتاب إلى الواقع، إلى الحياة فنغيرها ونبدلها؟ هل شرط النجاح أن يكون لدى القراء هذا الأستعداد لرد الفعل الإيجابى وبذلك

يكون الكتاب ألف كتاب، ويكون المؤلف مليون قارىء، ويكون رد الفعل برنامجاً للعمل الوطنى أو الحضارى؟

ولا يتسع المكان لسرد الكتب التى هى علامات فى طريق الحضارة الإنسانية. ولا حتى الكتب التى أثرت فى الشباب ففتحت قلوبهم ورءوسهم. بل اللوحات الفنية أو المقطوعات الموسيقية أو القصائد الغنائية أو الثورية التى أزالت السحب وبددت الضباب وغيرت المسار..

أنا لا أعرف فى تاريخنا شيئاً من ذلك. فلا رأيت كاتباً يهز، ولا كتاباً يزلزل، ولا عشرين كاتباً يفعلون واحداً على ألف مما فعلته كتب كثيرة معروفة فى التاريخ.. ربما ظهرت بعض الكتب، وكان لها أثر وقتى. وهذه صفة من صفات المصريين. فكل التغيرات مؤقتة، وكل الأحداث عابرة. فالكتاب مثل صاحبه، كان هنا وخرج، ولما خرج لم يعد، ولما عاد لم يجد أحداً.



أول انسان نزل على القمر كان يلف حول عنقه منديلاً هدية من زوجته. المنديل قد باركه أحد القساوسة ليهبه الله السلامة فى الذهاب والإياب!

وهذا يضعنا أمام شيئين متناقضين تماماً:

الأول: آخر ما وصل إليه العلم الإنسانى فى الملاحة الفضائية التى تعتمد على أعقد نظريات الطبيعة والرياضيات. والتكنولوجيا ـ أى تطبيق أحدث نظريات العلوم الحديثة فى خدمة الانسان الذى ذهب إلى القمر تراقبه وتوجهه ألوف الأجهزة وألوف الخبراء أيضاً.

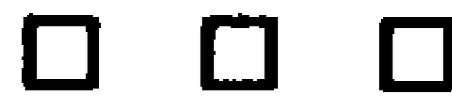
ورغم ذلك فقد قال لى د. فاروق الباز: أنه لا يوجد أى ضمان من أى نوع لسلامة سفينة الفضاء أو رائد الفضاء منذ أطلقت أول سفينة حتى الآن!

والشىء الثانى: هو أن يتصور رائد الفضاء وزوجته أن هذا المنديل من القماش الذى لمسه أحد القساوسة من الممكن أن ينقذه من الموت.. قبل أن يصل إلى القمر.. وإذا وصل إلى القمر فإن هذا المنديل قادر على أنقاذه من الموت هناك.. وليس أنقاذه هو وحده، ولكن أنقاذ سفينة الذهاب وسفينة العودة.. وأن يكون هذا المنديل أقوى وأدق من كل الأجهزة وأكثر يقظة من ألوف العلماء وعقولهم الألكترونية. ورائد الفضاء مثل زوجته ومثل القسس يؤمنون بأن هذا ممكن!

فما هو هذا الممكن؟

أنه الإيمان بالله. أى الايمان بقوة عاقلة حكيمة رحيمة قادرة ــ بصورة خافية عنا ــ على أن تحقق ما تعجز عنه كل النظريات العلمية والعقول الألكترونية ماحدود هذه القدرة؟ لاحدود لها. كيف تعمل هذه القدرة؟ لا علم لنا.

ولكن رواد الفضاء يروون المعجزات التى ليس لها تفسير علمى ويؤكدون أنه فى ساعات الخطر رأوا أمهاتهم.. أو تذكروا واحداً من أطفالهم.. أو صرخوا فى الفضاء: يارب.. وبعد هذه الصرخة تحركت الأجهزة التى كانت قد توقفت أو أرتبكت.. هل تصدق؟ أنا أؤمن بذلك!



في احصاء رسمى عن حوادث الأرهاب فى ستين دولة : ٥٠٠ حالة فى سنة ١٩٨٣ و٦٥٠حالة ففى سنة ١٩٨٤ و٨١٠حالات فى سنة ١٩٨٦ ..

وقد أتخذ الأرهابيون مسرحاً مفضلاً لعملياتهم : أمريكا وأوروبا والشرق الأوسط ــ هذا هو مثلث الرعب !

أما الأسباب فهى سياسية ودينية وأجتماعية وأجرامية ..

وليس من بين هذه الحوادث كلها ما له علاقة بتهريب المخدرات أو تزوير العملة ــ وما يدور من معارك بين الخارجين على القانون ورجال الأمن .

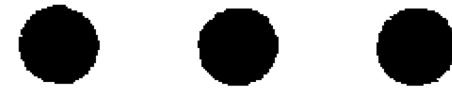
ومن الملاحظ أن هناك تزايداً يصل إلى ٣٠٪ سنة بعد سنة . ومعنى ذلك ان الجماعات الأرهابية تزداد قوة ، رغم مضاعفة الوسائل الحديثة لضبط الأرهابيين والقضاء عليهم . ورغم الأتفاقات الدولية لتعقب الأرهاب فى كل مكان ..

ولكن الأرهاب الذى يصعب مقاومته أو القضاء عليه : الأرهاب السياسى والدينى .. فلأنه سياسى فهو متعدد الأطراف . أى ان الدول التى تسانده ، وتموله وتدافع عنه كثيرة . ولأن الدول الكبرى لها مصالح أقتصادية وسياسية مع هذه الدول ، فانها تعمل حساباً كثيراً وطويلاً فى مطاردة الأرهاب . ولذلك فالدول الكبرى تريد أن تتفق جميعاً على أتخاذ

موقف واحد جاد ـــ مع كافة الخسائر الأقتصادية ، ومهما تضاعفت المشاكل الدبلوماسية .

وأمام هذا الموقف الدولى الموحد ، بدأت بعض الدول التى تساند الأرهاب رسمياً تتنصل من مساعدته مالياً . وبعد أن خربت أمريكا القواعد الليبية ، وهددت بمعاودة الضرب أعنف حتى يسقط الرئيس القذافى وبمقاطعته أقتصادياً ، والتهديد بمزيد من الحصار حوله ، تناقص الدعم الليبى لجماعات الأرهاب . ربما بعض الوقت . ولكنه تناقص . وقبل أن ينشط الأرهاب فإن كثيراً من الدول الأوروبية تدرس وتخطط لردع عنيف ـــ مهما كان الثمن فادحاً . وقد بدأت عمليات الطرد لكثير من العرب المقيمين فى أوروبا . وأخذت تضيق على تحركات العرب وأقامتهم وعملهم ودراستهم فى الجامعات ، وزواجهم من الأوروبيات ..

فليس مما يجعل الشعوب الحديثة تحترم نفسها ، أن تكون هكذا على كف عفريت ـــ ويكون هذا العفريت أرهابياً سياسياً أو دينياً !



فى مثل هذا اليوم من سنة ١٩٥٦ أنفجر بركان فى جزيرة هاواى ، بعد أن ظل نائماً ١٨٠ عاماً. هذا البركان قد أنفجر مرة أخرى منذ أيام .

يومها لم أكن قد رأيت بركاناً مشتعلاً .. وإنما رأيت قبل ذلك بركان استرومبولى الإيطالى ولكن من بعيد .. فكانت السفينة تقترب منه بحذر شديد . وكان البركان يبدو كعين عفريت تخرج منها النار والدخان .

أما هذا البركان فى هاواى فقد كان شلالاً من النار، نهراً من الحمم ، سحباً من الدخان الأبيض فى أزرق فى أسود .

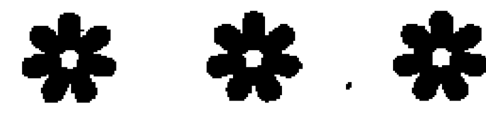
ولا أعرف كيف جرؤت مع الزميل أحمد يوسف كبير مصورى أخبار اليوم وأستأجرنا طائرة صغيرة بمحرك واحد لكى نرى البركان من فوق ونصوره .. وأرتفعت بنا الطائرة عصفوراً صغيراً فى الجو .. ونظرنا من النافذة إلى بحيرة من جهنم . وكنا نشعر بحرارة البركان فى داخل الطائرة . ورأيت الطيار الشاب يخلع ملابسه كلها ، والطائرة تدور حول فوهة البركان . وأعتقد أن الصرخات خافت أن تخرج من حلقى عندما أكتشفت أن الطيار قد ترك عجلة القيادة ووقف معنا يتفرج ويصور البركان !

ولما نزلت الطائرة إلى الأرض لاحظنا أن بعض الحمم البركانية قد نفذت من جناحى الطائرة .

وكان من الممكن أن تصيب خزان الوقود ـــ والباقى معروف !

وقرأت فى الصحف ان حرارة البركان أرتفعت بعد ذلك لدرجة أنهم حذروا الطائرات والناس من الأقتراب.. ورأيت صورة طائرتنا فى الصفحات الأولى وصورة الطيار الشجاع المغامر. أما صور البركان التى ألتقطها أحمد يوسف فكانت أول صور فى العالم لهذه الظاهرة الطبيعية !

وقد مررت بجزر هاواى من أسابيع ، ولا أظن أننى كنت سأقفز إلى طائرة وأنطلق بها لأتفرج على جهنم وهى تحرق جنة الله فى المحيط الهادى . لا أظن . أولاً لأننى رأيت هذا البركان قبل ذلك . وثانياً لأن هذا البركان لم يعد فى شبابه وعنفوانه ــ ألا ترى أنه هو الذى قد كبر ٢٧ عاماً ؟! .



ناديت بوزارة للهجرة من أكثر من ٢٥ عاماً. فقد أنشغلت بسفر الشباب وهجرته إلى الدنيا الواسعة. وعايشت حيرة الطلبة بين السفارات يبحثون عن معلومات تفيدهم ذهاباً وإياباً أو ذهاباً واقامة بلا عودة. وتطوعت وساعدت وكتبت.

ووجدت عدداً من الشبان يكتبون منشورات وكتباً صغيرة تساعد غيرهم على الهجرة. وبسرعة تجيء خطابات من المهاجرين تسأل وتشكو. فقد كانت المعلومات التى لديهم قليلة والمصاعب كثيرة. ولا يجدون أحداً يسألونه عن أستخراج الأوراق وتسجيل العقود والزواج والطلاق والجندية وتحويل الفلوس.. وأكثر مشاكلهم عن طبيعة أعمالهم التى يقومون بها ولا علاقة لها بما درسوا فى مصر.. ألخ.

وكانت القنصليات والسفارات عاجزة عن حل المشاكل الجديدة على المصريين وعلى مصر. فليست لنا تقاليد طويلة فى العمل خارج مصر والهجرة والاقامة. كما ان سفاراتنا وقنصلياتنا بالاضافة إلى عجزها، أكثر عجزاً أمام البيروقراطية الوطنية.

وتخيلت وتمنيت أن تحمل وزارة الهجرة كل هذه الأعباء عن المصريين ــ أو بعضها، وكما ان تاريخنا فى الهجرة قصير ــ عشرين عاماً على الأكثر، فوزارة الهجرة حديثة الولادة. ولا عندها فلوس ولا عندها موظفون ولذلك فهى غير مقنعة لأحد فى الداخل أو الخارج.. فكيف تكون فى خدمة المصريين هنا وهناك!

ولم أجد وزارة الهجرة أستطاعت شيئاً واحداً.. ولا أحد يعرف لها مكاناً ولا عنواناً. وإذا ذهب المواطن إلى القنصلية يشكو، فإن القنصلية لا تعرف ما الذى تفعله.. فوزارة الهجرة لا تدخل فى أختصاص القنصلية، ولا القنصلية تتبعها.. ولا أحد يعرف ما هى حدود: الهجرة والخارجية والداخلية والمالية والحربية.

كنت في استراليا أخيراً ووجدتهم يصرخون ماذا نفعل. أنهم يطلبون المعلومات والاجابة عن التساؤلات.

فا لم تكن لهذه الوزارة الناشئة صلاحيات أكثر وميزانية أكبر، ومن يمثلها فى كل دول المهجر، فستبقى الوزارة أسماً لا جسماً.. ويبقى المهاجرون المصريون منبوذين من بلادهم، كأننا نعاقبهم لأنهم تركوا مصر، ولأنهم يعملون بشرف، ولأنهم يبعثون بأموالهم إلى الوطن الأم ــ وكل ذلك لا يستطيعه وزير الهجرة!



كنت قاسياً فى صراحتى مع هذا الشاب الذى جاء وفى يده عود يريد أن يسمعنى صوته وسمعت.

وكان تعليقى خفيفاً رقيقاً أول الأمر. قلت: أنت فى حاجة إلى تدريب طويل. ولابد أن يسمعك أحد أساتذة الغناء. فالألحان ليست مضبوطة تماماً. كما أنك تلهث. ونفسك قصير. فلابد من ضبط دخول وخروج الهواء. فالغناء نوع من تنظيم التنفس. ولابد من أستاذ.

ولم يتقبل هذه الملاحظة عندما قال: ولكن زملائى يقولون ان صوتى جميل، وان كانوا يوافقونك على أننى لا أعرف كيف أتنفس..

قلت: ثم أنك لم تحفظ أغنية واحدة مما أسمعتنى. لا عبدالوهاب الجديد ولا القديم ولا سيد درويش ولا عبدالحليم ولا فريد ولا أم كلثوم.. ولا أغنية واحدة. لا بد أن تحفظ كثيراً جداً. وأن تتدرب على أداء ألحان الأساتذة الكبار، قبل أن تفتح فمك بأغنية لك..

قال: أريدك أن تسمع أغنية من تلحينى.

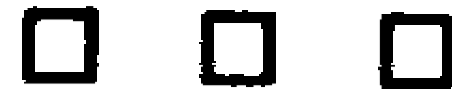
قلت: أرفض أن أتصور أنك تلحن فى هذه المرحلة المبكرة من حياتك الغنائية والموسيقية.. ولا أريد أن أخفى عليك ان أداءك ليس دقيقاً. ولا أذنك موسيقية. وإذا كنت تريد ان تدندن ـ كما نفعل نحن جميعاً ـ ففى أستطاعتك ولست فى حاجة إلى ان تلتحق بمعهد الموسيقى.. ولكن إذا قررت أن تحترف فلابد أن تدرس.. لا بد أن تتعلم وان تفهم وأن تتذوق وأن تتواضع. ولكن..

قال : أرجو أن تسمع أغنية من تلحينى..

قلت: أنت كالذى يريد أن يرقص «باليه» مع أنه لا يزال يحبو.. يجب أن تحبو وأن تمشى وأن تتعلم قواعد الرقص الموسيقى الإيقاعى سنوات طويلة، قبل أن تجرؤ على أن تفكر أو تتوهم أنك قادر على الرقص!

وكان حاضراً أحد الأصدقاء ولم أكن أعرف أنه قد درس الموسيقى والعزف على العود بالذات.. فقال له ما معناه: ان احتضانك للعود وتحريك الأصابع عليه، ليس دقيقاً!

وهو نموذج لبعض الشبان الذين يتعجلون نهاية السلم ـ سلم الفن والأدب والعلم!



كثير من الناس أهتم بالجريمة التى وقعت فى بيت الملحن بليغ حمدى — هل ماتت ثم ألقى بها ، أو ماتت بعد أن ألقى بها .. أو هى أنتحرت نتيجة عدوان متعدد عليها .. هذا ما سوف نعرفه .

وهذه الجريمة قد كشفت لنا عن الذى يحدث فى ليالى القاهرة وفى بيوت كثيرة : خمر وحشيش وهيروين وفلوس وتجارة رقيق أبيض وأسمر وأحمر. فالقاهرة مدينة كبرى وفيها تلمع الثروات والشهوات .. وكل شىء يلين أمام الذهب والجنس — ومما يلين : القيم والأخلاق والمبادىء والدين والكرامة والقانون .

وقد أهتزت القاهرة لهذا الذى حدث . وازداد عطشهم وجوعهم إلى مزيد من القصص والشائعات .. وأشارت الأيدى إلى أماكن أخرى كثيرة وإلى حفلات يطير لها النوم من عيون الألوف .. وكلها تدل على ان هذه القاهرة «المعزية» — نسبة إلى المعز لدين الله الفاطمى — أصبحت مدينة عصرية وإن قاعها يختنق بكثير من الأطعمة والأبخرة والدوخة والتشنجات وقد أنشغل كثير من الناس بأشياء أخرى : فهم يقولون ما هذا الثراء الذى يملكه الملحن الكبير: مديرة البيت ومدير البيت وسكرتير وطباخ وخادمة .. لقد أنشغل الناس عن الجريمة والفضيحة ، بهذا الذى تصوروا .. أن الفنان يملك من قدرة مالية على استخدام هذا العدد الكبير من الموظفين فى بيته !

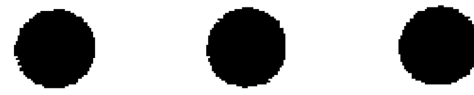
وأذكر أنى قرأت قصة للأديب الروسى فياديسف . فيوم صلب المسيح عليه السلام ، سار فى طريق الآلام يحمل صليبه . والناس من ورائه يبكون

ويصرخون ويمزقون ملابسهم ويحطمون صدورهم حزناً عليه . وفزعاً مما سوف يصيب الانسانية كلها بعد ذلك ..

وفى نفس الوقت وقف رجل فوق السطوح يتابع هذا الذى يحدث . وقد وضع يده على خده وضرسه يوجعه . وهذا الوجع قد جعل حادثة الصليب شيئاً «ثانوياً» فضرسه يوجعه وهو لذلك لم ينم منذ أيام !

وكان يقول لزوجته : أنظرى أنهم يفتحون أفواههم وأنا لا أستطيع ذلك !

فكل الذى شغله فى هذا اليوم التاريخى أنه غير قادر على أن يفتح فمه . بينما هؤلاء الذين يمشون وراء المسيح قادرون على ذلك !



إلى جوار كل حنفية مياه فى مدينة نيويورك يوجد هذا التحذير: أقتصد فى الماء من فضلك!

وقد أقتصد الناس فى الماء، واستخدموا الورق لتجفيف الأيدى. وأستخدموا حنفيات تنفتح بضغط اليد، فإذا رفعت يدك توقف الماء..

المهم ان الناس يتعاونون مع الدولة فى الأقتصاد فى الماء.. مع أن فى أستطاعة مدينة نيويورك أن تملأ المواسير شمبانيا ـــ ولكن العقل وأحترام القانون هو القاعدة!

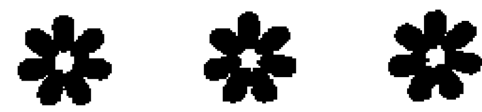
ونحن نذكر ما الذى فعلناه فى التليفزيون وفى الصحف من دعوة (ست سنية) لقفل الحنفية.

وكعادتنا تحولت التحذيرات إلى نكت. ولأننا أولاد نكتة، فلم نعد نضحك لست سنية ولا نطيق النظر إلى ما تقول. وأختفت ست سنية إلى أن تظهر فى نكتة أخرى نضحك لها، ولا نهتم بالمعنى.. وفى ذلك دليل، على أننا لا نأخذ الأمور مأخذاً جاداً ـــ وهذه علة العلل فى السلوك الوطنى!

ولذلك سوف تطفح المجارى بعد عشرين عاماً ـــ مع أن المفروض أن تملأ الشوارع بعد سبعين عاماً. أما السبب فهو أننا لا نتعاون ونحن لا نتعاون لأننا لا نصدق ما يقال، ونحن لا نصدقه لأننا لسنا جادين!

وروى لى موظف فى سفارتنا فى تل أبيب، أنه فى يوم الأجازة أوقف سيارته فى الشارع وراح يغسلها بالخرطوم. ولم يبال كثيراً بنظرات الأستنكار من المشاة والسيارات. ولكن أثنين من أطفاله راحا يصرخان من النافذة ويطلبان إليه أن يكف عن ذلك. لأن التليفزيون يحذر المواطنين من الأسراف فى الماء. فلما لم يوافق الأب، راح الطفلان يبكيان معاً ــ خوفاً على والدهما. ولم يعد الأب يغسل السيارة لا بالخرطوم ولا بالماء وإنما يكتفى، كما يفعل كل الناس، بتنظيفها بقماش مبلل!

وليس أخطر من توجيه جميع المواطنين إلى تنظيم الأسرة. وليس أكثر من الأستخفاف بهذه الدعوة ــ مع أن عجزنا عن ذلك، هو مصدر تعاسة كل المشتغلين بتخطيط مستقبل مصر. أنه ليس التوجيه ولا براعته ولا خفة دمه ــ وإنما هى الروح التى تسودنا: الهزل والأستخفاف بكل أخطار حاضرنا ومستقبلنا!



ثلاثة حرمهم الله من نعمة البصر: سيد مكاوى وعمار الشريعى وشاب صاعد هو عمرو سليم. ولكن الله كلفهم أن يدخلوا السعادة على قلوب الناس.

ولا أنسى يوم أن قدم لنا الشاعر الغنائى مأمون الشناوى الشيخ سيد مكاوى منذ ربع قرن. وكان كما هو، نحيلاً مرحاً خفيف الدم جديداً على الأذن، وتراً مرتجفاً ونايا شجياً.. ثم غنت له أم كلثوم وعدد من صغار المطربين والمطربات.. وغنى هو أيضاً. ولايزال الشيخ سيد مكاوى أجمل صورة للأداء الشرقى.

وعمار الشريعى ليس عازفاً بارعاً فقط، ولا قائداً لفرقة موسيقية، وإنما هو مؤلف أيضاً.. فهو الذى ألف ألحاناً تصويرية جميلة لكثير من الأفلام والمسلسلات.. أما الذى قدمه لأغنيات الأطفال فمن أجمل ما أبدع عمار الشريعى، ومن أجمل ما ردد الأطفال أيضاً. وكثير من الأصوات الجميلة المحدودة المسافة والعمق قد وجدت نفسها فى أغنيات الأطفال. وأغنيات عمار الشريعى تذاع الآن من كل البرامج العربية فى المنطقة.. وتكرارها تحية للموهبة المتدفقة التى أسمها عمار الشريعى!

أما العازف الجديد عمرو سليم فهو صاحب فرقة موسيقية وهو قائدها. خفيف الدم. وقد أستمعت أخيراً إلى صوتين قدمهما فى احدى حفلات الزفاف.. الصوتان، مع التدريب والصقل، سوف يكون لهما مستقبل.

وكنا ونحن نستمع إلى محاضرات طه حسين فى الأدب ومصطفى

حلمى فى الفلسفة، نشعر بالأعجاب والخجل أيضاً ـ فالأعجاب لرجلين لا يستطيعان أن يقلبا الكتب، ولديهما هذا العلم الغزير. وهذه الموهبة على الاستيعاب والاجتهاد. ونخجل من أنفسنا كيف لا نرقى إلى هذا المستوى الرفيع من الرهبانية فى العلم والأخلاص فى أداء الرسالة.. ونخجل عندما نشكو من التعب ومن الضيق بالعلوم الكثيرة وضغط المذاكرة ورعب الأمتحانات.

وكان الأستماع إلى هذين الرجلين، وإلى هؤلاء الموسيقيين. أكبر دليل على أنه لا يأس مع ارادة الحياة والتفوق والأستمرار ـ ونعم الناس!



لا أعرف من الذى يجب أن نلومه على إلقاء الوحل على وجه كل انسان ناجح. ثم نقدمه للمحاكمة بتهمة السرقة ومص الدماء. وتعذيبه وتخويف الذين يعملون مثله، وزعزعة القيم الأخلاقية والتجارية، ثم نخلى سبيله لأنه كان بريئاً. أما المتهم الحقيقى فهو الناس والحكومة والحقد وروح التخريب..

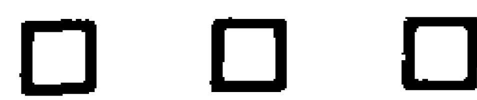
فهل لا نؤاخذ أحداً إذا كان هناك ما يبرر ذلك؟ لا بد أن نحاسب الناس. فلا أحد فوق المحاسبة.

ولكن المشكلة عندنا فى مصر بصفة خاصة هى: أننا إذا أتهمنا أحداً تفرغنا له تماماً وراح كل انسان ينحنى على أى حجر ويرمى به هذا المتهم — مع أنه برىء لم تثبت ادانته بعد، ويتكرر ذلك كل يوم. حتى يؤمن الناس بأن المتهم مجرم حقاً. وفجأة تسقط كل هذه التهم ضد الرجل التاجر أو المدير أو الوزير، غير أن هذه البراءة لا تلقى الحفاوة التى لقيتها الاتهامات. لأن البراءة ليست مثيرة ولا تشبع رغبة الناس فى استطعام الفضيحة والتلذذ فى التشفى. ولأن البراءة تتهم الناس بأنهم ظلموه. والناس لا يحبون أن يتهمهم أحد أو يسد أفواههم عن الكلام وآذانهم عن متابعة المسلسلات الفاضحة لغيرهم من الناس!!

وسوف يذهب المتهم ليلقى جزاءه، وسوف يعود البرىء إلى عمله بعد أن تكسر زجاجه الأمامى وتهشم عموده الفقرى.. وبعد أن يتحير الناس من حوله بين الظلم الساخن والبراءة الباردة..

وسوف يسحب المستثمرون من الأجانب والعرب أقدامهم من الطريق إلى مصر لأنها تأكل بنيها بغير حق ؟!

يجب أن نلوم أنفسنا، نحن الصحفيين، لأننا نهول كثيراً ونسد الطريق إلى معرفة الحقيقة وذلك بفتح شهية الناس على فضائح الناس. فإذا صدرت البراءة لصالح المظلومين، أتهمنا العدل والحكومة والحزب ــ كان الظلم هو القانون، وكان الخراب هو الحياة!



لم يكن هذا الحوار هادئاً كما أنقله هنا .

قال لى : هل تحفظ القرآن الكريم ؟

قلت : نعم .

قال : وهل فهمته ؟

قلت : إلى حد كبير .

قال : إذن كيف تقول عن نفسك أنك مسلم مؤمن ؟

قلت : لأننى أعرف الأسس التى قام عليها الإسلام . وأعرف ما هو ضرورى لحياتى الاجتماعية والروحية . ولكننى لست من العلماء .

فلم يسترح إلى هذا الحوار. فعدت أقول له : أننى أتحرك ، ومع ذلك فأنا لا أعرف كل قوانين الحركة . وأنا أعيش بجسمى وأعصابى ، ومع ذلك لا أعرف كل وظائف الجسم ولا أعرف الكيمياء الحيوية .. ولا أعرف ما الذى تتغذى به الأعضاء والأعصاب .. ولا أعرف الجهاز العصبى .. وأرى بعينى وأسمع بأذنى ، ولا أدرى شيئاً من هذا الجهاز العجيب الذى هو العين الذى يجعلنى أرى .. وأذهب إلى الطبيب لكى نتعاون على حماية وصيانة العين .

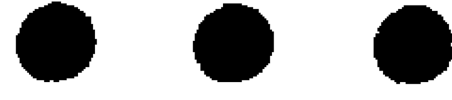
فقال : هل ترى ان هذا سبب كاف لأن يتحدث كل الناس عن مشاكل الشباب وعن ضرورة تحذير المجتمع منهم مع ان أحداً منهم لم يجلس إلى شاب .. ولا ناقشه ..

قلت : لا أختلف معك . ولكن ليس بين الناس من لم يكن شاباً .. ثم ان هناك أناساً أقدر على فهم الشباب بحكم تخصصهم فى الدراسات الاجتماعية والنفسية والسياسية .. وهؤلاء هم أحق الناس بالحديث اليكم بل أرى ان هذه المؤهلات ليست كافية .. فمن الواجب أن يحتفظوا للشباب بقدر من الحب والرحمة والأحترام وان يعاونوهم على فهم أنفسهم ومجتمعهم ..

قال : لماذا لا تقول ذلك لبابا وماما ؟

قلت : أنهم يعرفون كل شيء ولكن لأن الحب عندهم أقوى من كل العواطف الأخرى ، فهم يخافون عليك .. والخوف منظار مكبر « يرى الحبة قبة » ويرى الطفل الصغير وحشاً كاسراً والشاب المتمرد مجرماً تحت التمرين !

وهز رأسه بما معناه : يجوز ..



نصف سكان مصر يعرفون كيف كنا فى هذا اليوم من أربعين ومن ثلاثين عاماً ــ بمنتهى العدل والأنصاف : لم تعرف مصر حرية الرأى والتعبير كما حدث فى عهد الرئيس حسنى مبارك . أننا لا نشكو من نقص فى الحرية ، ولا من قيودها ولا سلاسلها ولا مخاوفها . فالحرية أوكسجين فى صدر كل من يملك القدرة على الكلام والكتابة والخطابة ..

ولست فى حاجة إلى أن أشير إلى الصحف من كل لون وحجم والصحف الأجنبية التى تباع فى مصر دليل يومى وأسبوعى متجدد على ان الكاتب حر يقول ما بدا له ، والقارىء حر يشترى ما يعجبه .. لا حدث ذلك أيام أنور السادات ولا أيام عبدالناصر طبعاً ، ولا حتى أيام ملوك مصر .

والسبب هو ايمان الرئيس مبارك الصادق بأنه بغير الحرية لا تقدم ، وبغير الأمان لا شجاعة ، وبغير الضمير لا أخلاق .. ونحن فى حاجة إلى التقدم فى أمان وبشجاعة نحو السلوك القويم أخلاقياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ..

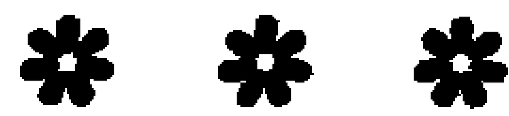
وكان من الممكن أن يبقى مجلس الشعب ، وقرار المحكمة الدستورية ليس لها أثر رجعى . وإنما هو يلفت النظر إلى مجالس الشعب القادمة .

فإذا فرضنا ان أحداً تزوج وأنجب عشرين طفلاً ، وكان عمر الزوجة ١٨ سنة .. وصدر قانون جديد بأن سن البلوغ عند الفتاة هو الواحد

والعشرين. فليس معنى ذلك أن هذا الزواج باطل ولكنه ينطبق على الزيجات القادمة.

ولكن مادامت هذه رغبة عامة لحل مجلس الشعب عند الحكومة والمعارضة على السواء وان هذا هو الأسلم والأصح، والذى يعطى للأمانة والطهارة مذاقاً خاصاً تقرر الأستفتاء على حل مجلس الشعب، يستمر أو ينحل. فالرأى للشعب، والرئيس أبو الشعب وعقله وضميره.

وبعد الأستفتاء تجىء أنتخابات المجلس الجديد الذى سوف يرشح رئيساً للجمهورية ثم الأستفتاء على تجديد أختيار الرئيس مبارك لفترة ثانية ــ هذا اجماع بين كل فئات الشعب. وهذه مباركة لمبارك الذى عرفنا به ومعه حرية سوف تتسع وتتأصل فتكون قدوة مخيفة لكل الشعوب حولنا!



جلسنا نسأل إن كان أحد يعرف ممرضة تذهب إلى مريض فى بيته فى مصر الجديدة.

لم نجد. واتجهت الأصابع إلى التليفونات تبحث فى كل المستشفيات. وأخيراً والحمد لله وجدنا واحدة.

أعترضت أول الأمر على المسافة ذهاباً وإياباً من قصر العينى إلى مدينة نصر.

وكنا نعرف ذلك. فعرضنا عليها مائتى جنيه فى الشهر. أى بواقع جنيه لكل دقيقة. ولكن الممرضة المتخصصة رفضت ذلك.

فقلنا ليكن ٢٥٠ جنيهاً. فطلبت أن تجىء إليها سيارة تنقلها من بيتها إلى عملها فى قصر العينى. ثم تنتظرها وتذهب بها إلى المريض وتعود بها إلى قصر العينى. أو إلى بيتها كيفما تريد وفى أى وقت تريد، وفى أية ساعة من ساعات الليل والنهار. وذلك بدلاً من أن ينزل المريض المهدود المعذب من بيته فى سيارة تهزه وتمخمضه وتقف به عند إشارات المرور أو تقف به فيظل طول الوقت يتوجع.. وكان قبل ذلك يتوجع طول الليل!

ووافقت سيادتها على ذلك. ولكن فى كل مرة تذهب إليها السيارة لا تجدها فى البيت. وإذا وجدتها فى قصر العينى فهى مشغولة. وسوف تتصل تليفونياً تحدد موعد الزيارة. واختفت. ولم نفهم إن كان المبلغ قليلاً. وأبدى أهل المريض استعداداً لأن يدفعوا أكثر وأكثر.. ولكن

الممرضة وجدت فى هذه «المأمورية» إضاعة للوقت وخسارة مادية لا يمكن تعويضها من زيارة مريض واحد.. وكانت قد سألتنا إن كان هناك عدد آخر من المرضى؟!

وهكذا نضيف إلى قائمة المفقودين فى مصر: الممرضة، إلى جانب الخادم والخادمة والعامل الزراعى والحرفيين. كلهم لا وجود لهم. وكلهم يطلبون أجراً عالياً جداً، هذا إن وجدناهم.



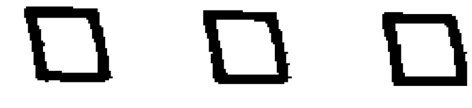
جلست إلى واحد من كبار رجال الأعمال فى مصر الرجل بسيط هادىء. الوجه باسم. والأعصاب فى مكانها تحت الجلد. العينان لامعتان. لا هو سرحان ولا قرفان، فقط عندما يتكلم، هنا تجد أنك أمام عبقرية متواضعة. كنت أقول وأحكى وأضرب الأمثلة. وكأن الذى أقوله هو سر الكون. ولكن أهتمامه الشديد وقدرته الفذة على أستخراج المعانى وفتح السكك وبيان الهدف، هو الذى يميزه. أنها طبيعته.. وقد أكسبه النجاح ثبات القدم ووضوح الرؤية ونفاذ الحكمة. كل ذلك دون مجهود كبير. وفى نفس الوقت يؤكد لك أن هذا ممكن لكل انسان. وأنه هو شخصياً قد جلس أياماً يأكل طعاماً أشتراه من الرصيف. ولكنه حاول واستمر وأخلص وصدق وآمن ونجح.. وأصبح اسمه جاذباً لكل من يريد أن يكون ناجحاً. فالنجاح يعدى. والأمل يعدى.. والقدوة الحسنة هى نصف الطريق. وكان قدوة حسنة لملايين الجنيهات لتعرف طريقة وتمشى وراءه وتتكاثر..

لم أسأله عن سر نجاحه. فإن الناجحين بلا أسرار. فليست لديه وصفة طبية أو معادلة كيماوية أو خرزة زرقاء أو تعويذة هندية ـــ وإنما هو لا يعرف. كما ان الجميلة لا تعرف لماذا هى كذلك.. فلا الطعام الجيد ولا هو النوم الطويل ولا هى راحة البال. وإنما هو شىء «ما» فى عقله فى قلبه فى علاقاته مع الناس والله، يجعله فريداً بين البشر..

هذا الشىء ما: هو ان يؤمن الانسان بالله. وان يؤمن بان قدرته بالممارسة. وان هذه القدرة تحميها الأرادة القوية ويهديها حسن الفهم.

ولا شيء يعوق الفهم إلا الجشع والحسد..

سألته: ان كان هذا صحيحاً فقال: المهم أن تؤمن بأنك مخلص وأنك نافع .. والباقى على الله!



كما أفسدت الولايات المتحدة الدورة الأولمبية فى موسكو سنة ١٩٨٠، فقد فعلت روسيا نفس الشيء فى هذه الدورة سنة ١٩٨٤ـ تماماً كما يعتذر الأهلى أو الزمالك عن الدورى والكأس فتضيع المنافسة القوية، ولا يكون للأنتصار معنى كبير. فالأنتصار على الكبير كبير، والهزيمة أمام القوى، تخفف من وقع الهزيمة. فقد خرج الاتحاد السوفيتى ومعه الدول الأشتراكية، وأهمها ألمانيا الشرقية التى تفوز عادة بأكثر الميداليات الذهبية فى كثير من الألعاب.

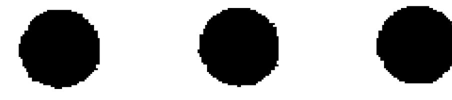
وهكذا تفسد السياسة كل ما هو رياضى.

وبذلك تفقد كلمة «رياضى» مدلولها المألوف لدينا. فأنت تقول لانسان: ياأخى كن رياضياً.. أى لا تبالغ فى النصر أو الهزيمة.. وإنما عليك أن تقبل الهزيمة والنصر على أنهما من شروط اللعبة.. والنصر والهزيمة يتناوبان كالليل والنهار..

وليس صحيحاً أن روسيا قد أنسحبت من هذه الدورة لأعتبارات تتعلق بأمن لاعبيها فى لوس انجيلوس، فقد كان من المتوقع أن تتخذ هذا القرار، أنتقاماً من أمريكا.. وأملاً فى اسقاط ريجان فى الأنتخابات القادمة.. وكانت أمريكا قد أنسحبت من الدورة السابقة أحتجاجاً على دخول القوات السوفيتية أرض أفغانستان كما منعت بيع القمح إلى روسيا. ولكن دولاً من أمريكا اللاتينية باعت القمح إلى روسيا بأسعار مرتفعة ــ تمرداً على العم سام وتأكيداً للذات والأستقلال فى الرأى والقرار..

وبذلك ينهار آخر المعاقل النظيفة فى هذه الدنيا ــ أى البعيدة عن السياسة .. وإذا كانت السياسة هى اللعب بالحديد، فالرياضة أصبحت لعباً بالنار...

فوداعاً أيتها المساحات الخضراء البعيدة عن تلوث المذاهب السياسية، والتى كان يذهب إليها الناس طلباً للراحة ويلعب فيها الشباب استعراضاً للبراعة وتمجيداً للبطولة ــ فقد أرتسم وجهان على كل كرة: ريجان وشرنينكو.



كلام كثير يقال عن المناطق المحررة من سيناء . وهذا الكلام فيه هجوم شديد علينا ، واطراء كثير على اليهود . ولم أر هذه المناطق الا مرتين مرة قبل تحريرها بأسبوع . ومرة بعد تحريرها بأسبوع . وعرفت الفرق .. ولكن الذى أسمعه يؤكد ان المساحة قد أتسعت تماماً ، حتى ليسقط الانسان بسهولة بين الأمس واليوم ، أسفاً على ما أصابنا !

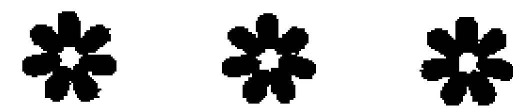
فقط أذكر مطار سانت كاترين والفندق الصغير الملحق بالمطار . المطار والفندق يديره رجل وزوجته . والعربة السياحية يقودها الرجل ، وزوجته تعمل مرشدة لحجاج سانت كاترين . أثنان فقط قادران على خدمة المئات من الحجاج ..

وأذكر أيضاً عندما آلت ألينا هذه الأماكن ان امتلأت بالسفرجية ذوى الأحزمة الخضراء والحمراء والطراطير البيضاء وفتيات الفنادق والمشرفات ورؤساء الجميع مع تكدس كبير فى الأطعمة والمشروبات واختفاء أوراق التواليت وظهور الذباب ، وأنقطاع الماء وضوضاء الأكواب والأطباق وزعيق السفرجية والزبائن .

ولا أعرف علاجاً لذلك . لأنها مشكلتنا هنا على الضفة الغربية لقناة السويس وفى كل المدن . ولن يكون فى أستطاعتنا أن ننتج بعدد قليل من الناس فهم مكدسون ولأنهم مكدسون فهم لا يعلمون ولأننا نصدر عشرات القوانين للعاملين مع أنهم لا يعملون فقد أصبح واجباً على الدولة ان تعينهم

وان تنفق عليهم وليس فى وسعها أن تحاسبهم فى القاهرة، فما بالك إذا كانوا فى سانت كاترين.

ولا تستغرب ما يقوله العائدون من سيناء المحررة.. وان كنت أرى ان اليهود قد أقاموا بقعاً صغيرة نظيفة. ونحن لا نعرف البقع الصغيرة المضيئة وإنما المساحات الكبيرة ذات البقع الكثيفة السوداء، لانعدام النظام والنظافة!



أطفىء السيجارة التى فى يد غيرك!

نصيحة: وقبلها التى فى يدك.

لأن الأمر خطير جداً. وليس هذا رأيى، وإنما هو رأى ألوف الأطباء فى العالم. فقد قرروا نهائياً ان بساط الريح الذى ينقل الانسان إلى السرطان هو دخان السجائر.

اطفىء السيجارة التى فى يدك. أسمعها منى. لقد فعل ذلك ملايين، ومن المؤكد أنك تريد أن تعيش لنفسك ولأهلك. ولا تريد أن تعيش مريضاً، ولا أن تموت وحيداً بعد ذلك.

أسمعها منى. لست حاقداً على الذين يدخنون ويجدون متعة فى ذلك. لأننى حاولت أن أدخن ولم أفلح فى أن أجعل التدخين عادة. حاولت أن أجد فيه أية لذة فلم أستطع. وأذكر ان الرئيس الكوبى كاسترو عندما علم أننى لا أدخن السيجار ولا أجد فيه متعة كاد يلقى بى فى أحد المحيطين: الهادى أو الأطلسى. وأصر على أن يعلمنى كيف أدخن. وأمسك سيجاراً طويلاً وغمسه فى القهوة حتى أبتل جانب منه. ثم قضمه بأسنانه. وأشعل السيجار وقال لى: تستطيع الآن أن تدخن.

وظللت أسعل حتى الصباح. ومع ذلك أصررت على أن آتى معى بشنطة مليئة بالسيجار الكوبى الفخم. وفى الطريق إلى مصر أقتنعت بأننى لا أصلح للتدخين. ووزعت الشنطة على الأصدقاء المدخنين.

وقيل لى أن تشرشل عاش حتى التسعين يدخن.. وتذكرت آخرين عاشوا حتى المائة والخمسين يأكلون الزبادى!

فليس لطول العمر أو قصره دخل فى التدخين. فالأعمار بيد الله، والمرض بأيدينا.. والسيجارة رمز لذلك: فهى كفن أبيض حول جثمان أوراق شجرة تنبت فى المناطق الحارة!

وأمس قال لى الأمير فيصل بن فهد راعى الشباب فى السعودية أنه قرأ لى مقالاً أحذر فيه من التدخين.. قبل أن يكمل المقال أسقط السيجارة من يده وقتلها تحت قدميه.. وإلى الأبد!.

وأنت حاول أن تبدأ بنفسك ثم حاول أن تقنع غيرك.. لأنه ليس من حق أى انسان أن يفسد عليك هواء الأتوبيس والغرفة والسينما بدخان سجائره.. فالذين يدخنون يفسدون علينا الهواء، وينقلوننا معهم إلى حيث النهاية التعيسة.. إذن لا بد أن نكتم أنفاس هؤلاء الأنانيين الذين يعكرون صفو الهواء الذى نقيناه عندما فطمنا أنفسنا عن التدخين!



لا ألوم أحداً من الأخوة العرب على أنه جاء إلى مصر وسهر وسكر وضرب وهرب. وأنه وأنه.. فهو لم يقتحم بيتاً، ولا ألقى بنفسه على أحد.. وإنما هو وجد باباً مفتوحاً فدخل، وسريراً ناعماً فنام، وأحضاناً دافئة فاحترق، ودخاناً أزرق فاختنق، وطولب بالأجر فدفع..

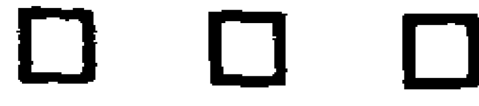
وقد حدث ذلك كثيراً وطويلاً في بيوت لا يمكن حصرها، ولولا ان سيدة ماتت قتيلة أو منتحرة في بيت الملحن بليغ حمدى، ما عرفت الملايين شيئاً من هذه الفضيحة التى فيها كل عناصر المأساة والمهزلة ــ وكل مايدعو إلى حقد الناس وشماتتهم أيضاً. ففى هذه الفضيحة: جنس ومال ومصريون وعرب وخمر وحشيش.. وفيها شهود الزور وفيها الذين يعلمون ويسكتون. والذين يزورون وهم يعلمون. وفيها «القوادون» تجار وسماسرة الملذات، والذين هم عار على مصر!

فما الذي نقوله للكثيرين من الشباب؟ وكيف نجرؤ أن نواجه الصغار بالحقيقة؟ وما هى الأعذار التى نقدمها للذين يخافون على الدين والأخلاق والوطن والتربية والتعليم؟ وهل هذه هى القاهرة، وهل القاهرة هى مصر؟ وهذا الذى حدث يمثل كم فى المائة من حياة الليل فى بلادنا؟

بعض الناس الطيبين يتساءلون: إذا كانت السعودية تمنع أية امرأة من دخولها إلا إذا كان لها «محرم» فلماذا لا نفعل ذلك وبلادنا مقدسة عندنا كما ان السعودية مقدسة؟ ولكن السعودية لاتشترط المحرم إلا لمن يقوم بأداء الحج أو العمرة ــ هذه هى تعاليم الإسلام. وليست السعودية كلها مقدسة.

فهى لا تشترط ذلك لمن يزور أية مدينة أخرى غير مكة. وإذا كانت تفعل أحياناً، فلأسباب الأمن وحماية المجتمع ولمنع الهجرة.. وقداسة بلادنا سياسية.. ولا يوجد مكان فى العالم ليس به فساد. فحيث يوجد الانسان توجد أمراضه الجسمية والأخلاقية ــ الجنة نفسها كان بها شيطان!

ولا أظن أحداً يعطف على أطراف هذه الفضيحة ــ ابتداء من بليغ حمدى وانتهاء برجل الأمن السابق الذى يعمل سكرتيراً للمليونير السعودى. فهم جميعاً غارقون فى الوحل الذى يضعه الناس لهم فى كل بيت ــ وليس ذلك إلا جزاء من العقاب!



لا أعرف من أين أتينا بهذه التسمية : الانسان العربى ..

لا بد أنها جاءت من لحظة انحطاط للروح المعنوية فحاولنا أن نرفع أنفسنا بأنفسنا فقلنا الانسان العربى ..

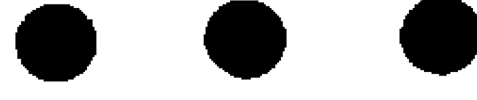
أى أننا لسنا مواطنين عرباً ، وإنما نحن بشر من نوع خاص ..

ولا يصح أن يقول الانسان المصرى والأنجليزى والايطالى والفرنسى .. فهم جميعاً بشر « ــ انسان » ولهم أماكن جغرافية ينتسبون إليها ، ويتحددون بها . فكما ان هناك قارات وهناك عائلات لغوية وعائلات لونية وعلائلات عنصرية ودينية .. وكلها تفرق بين الناس .. وفى نفس الوقت تجمع الناس تحتها ولكنهم جميعاً يوصفون بأنهم بشر .. أى كلهم انسان !

ونحن نتحدث عن « الانسان المصرى » ــ ؟! ــ ونعطى لأنفسنا صفات خاصة ، لا نظير لها عند بقية الشعوب الأخرى ، وهذا يحتم علينا أن نصف أنفسنا بأننا أنسان آخر ــ أو أننا غير بقية الشعوب .. ولكننا لم نمض فى دراسة كل ذلك .. فنقارن بين الانسان المصرى والانسان الهندى والانسان الأمريكى .. ونخرج بنتيجة حتمية ان الانسان المصرى ، الذى هو أنا وأنت مختلفون تماماً فى عدد العيون والأصابع ومداخل ومخارج الجسم الانسانى .. وأننا هبطنا إلى الأرض من كوكب آخر .. إلى آخر الغلط والمغالطات التى لا تفيد غير « تضخيم » الشخصية المصرية وتعقيدها ولومها لوماً عنيفاً على أنها « انسان آخر » .. ومع ذلك فهو انسان متخلف .. فكأن نعطيه لأنفسنا ، نأخذه بسرعة وبعنف ..

ولابد أن شعوباً أكثر علماً تسخر من هذا الجهل والغرور معاً.. فينطبق علينا ما قلناه على أنفسنا: يا أمة ضحكت من جهلها الأمم!

ولكننا نقبل هذه الغلطة العلمية لأنها تنفخ فى كبريائنا، وتوقد غرورنا، وتجعلنا نمشى فوق رءوس بقية خلق الله دون سبب معقول!



شيء لا هو غناء ولا هو أداء قد أنتشر الآن . وهو مقبول من الناس ، لأنه جديد ، ولأن الذين يقومون به شبان جادون مخلصون مثلاً : فرقة المصريين . لا يعجبنى كلامها ولا أداؤها ، ولا تطربنى فهم ليسوا مطربين . وإنما هم وسط بين الأغنية والمونولوج فى أطار جديد .

وسبقهم إلى ذلك محمد نوح . ولا يعجبنى محمد نوح أنه فى كل مرة يظهر على المسرح يعتذر عن اللون الذى يقدمه . وهو ليس فى حاجة إلى ذلك ، فما دام الناس يصفقون له ، فهم إذن سعداء بما يقدمه لهم . فالأعتذار للناس يصيبهم بالخجل من أنفسهم . لأن معناه : أنهم يحبون شيئاً يستحق الأعتذار عنه ..

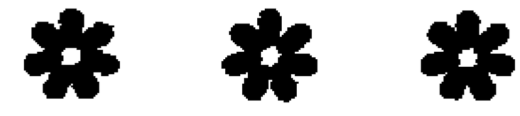
وفى ليلة واحدة استمعت إلى أغنية لعفاف راضى أسمها « القمر » ليست غناء .. وإنما هو وتر رقيق ناعم يتردد جميلاً . وسمعت أغنية « غرباء » لهانى شاكر أنها هى الأخرى وتر هامس حنون حزين ، جميل أيضاً . وكل منها تستغرق بضع دقائق ..

ثم إلى فايزة أحمد فى أغنية قصيرة : أنها أروع ما عندنا من جمال الصوت والأداء والحضور والبلاغة الموسيقية ..

وأخيراً إلى السيدة وردة الجزائرية وجردت نفسى من كل أنفعال سابق وأعطيتها أذنى . وقد أساءت أستخدامها تماماً حين ملأتها بالأوتار الممزقة والطبول المهشمة ..

ويبدو أن السيدة وردة قد تجاوزت «عمرها الأفتراضى» فى الغناء. وهو الخطر الذى يهدد بعض المطربين والمطربات.

ولذلك يتمسك الناس بالصوت الجديد، أو بالأداء الجديد، حتى لو لم يكن جميلاً!



لا بد أنك رفعت رأسك بسرعة إلى فوق لأن أحداً قد ألقى عليك ماء أو تراباً أو قشر لب أو فاكهة. حدث كثيراً..

ولا بد أن لاحظت على نفسك وعلى غيرك أنه فتح نافذة السيارة وألقى عقب سيجارة، بدلاً من أن يضعها فى «طفاية» السيارة التى أمامه..

أنها نفس ظاهرة ألقاء الحيوانات الميتة فى النيل..

فلماذا؟

لا بد ان يكون الكسل واللامبالاة والجهل.

فالذى يلقى الزبالة والكلاب والسيجارة بدلاً من أن يلقى هذه المخلفات فى المكان المخصص لذلك، وجد أنه من الأسهل أن يلقى بها على طول ذراعه.. فالذى يركب سيارة مثلاً أمامه «طفاية». ولكن وضع السيجارة فى طفاية يحتاج إلى أن يفتح الطفاية وأن يضغط على السيجارة مرة وثلاثاً حتى تخمد أنفاسها.. وهذا يرهقه!!

أسهل أن يلقها والعة من النافذة. وكذلك الذى يلقى عليك مخلفات البيت.

ثم أنه لا يبالى بالآخرين، ولا يحترمهم. ولا يسأل نفسه ان كان يلوث ملابسهم أو يحرقها..

ثم أنه جاهل لأنه لا يعرف نهاية الزبالة التى يرميها عشرة ملايين من

سكان القاهرة وحدها فى الشارع كم يؤدى ذلك إلى القذارة والقذارة إلى جذب الذباب .. وكم يؤدى ذلك إلى أرهاق الكناسين وتجار الزبالة ..

وهو لا يفكر أيضاً فى دفن الحيوان الميت فى شاطىء النيل .. أو بعيداً عن النيل . ولكن أسهل من أختيار مكان الدفن ـــ أى جرجرة الحيوان أو حمله إلى مكان بعيد ، وحفر الأرض أو أحراقه أن يلقى به فى النيل ..

ومئات غيره يفعلون ذلك .. وهكذا يتجمع فى النيل كل المخلفات الانسانية والحيوانية والنواتج الكيماوية ..

وكل ذلك علينا أن نطهره مرة أخرى ، ليكون شراباً طهوراً ـــ كم تتكلف الدولة ؟ كم تأخذ من ميزانيتها . وكان فى وسعها أن توفر ذلك ، لو أن أحداً من المواطنين قد بذل جهداً قليلاً ، أو فكر أو كان لديه أدنى احساس بالآخرين !

ومن يقرأ « الخطط التوفيقية » لعلى باشا مبارك ، يجد أن المصريين فى القرون الثلاثة الماضية يفعلون ذلك ـــ ألا ترى أن « القذارة » عاهة مصرية قديمة ؟!



مع خطابات من عدد من الأصدقاء أساتذة جامعة أسيوط جاءنى شاب مهندس يريد أن يتفرغ للغناء. يقولون أن صوته جميل. يكفى أن أسمعه يقلد عبدالحليم حافظ. وجاء الشاب. قال إنه يريد أن يسمعنى بعض الآيات القرآنية. وخلع الجزمة وتربع على الكرسى: بسم الله الرحمن الرحيم أنا فتحنا لك فتحاً مبيناً.

ووجدت صوته قبيحاً ونطقه شنيعاً. وأذنه مغطاة بالشمع.

وجاء دور عبد الحليم حافظ. فطلب منى أن أختار أية أغنية فقلت: أغنية سواح.. من أجمل ماغنى عبدالحليم حافظ ولحن محمد الموجى وكتب محمد حمزة!

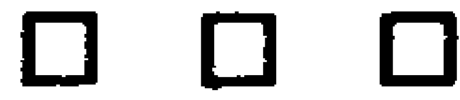
قلت: أنت فى حاجة إلى تدريب كثير وطويل جداً، وإذا كنت تغنى يجب أن تتوقف تماماً. ولا تصدق الذين يقولون أن صوتك جميل ولا حتى الأساتذة الذين حملوك هذه الرسائل. إنهم مجاملون أرادوا التخلص من ألحاحك. وأنا أرى انك لحوح. وإنك صاحب جرأة، ولكنك لست صاحب موهبة.. إلا إذا..

فقال وكأنه لم يسمع كلمة واحدة مما قلت، وكان الشمع قد سد ما بقى من ثغرات فى أذنه: إلا ماذا؟

قلت: إلا إذا كنت تريد أن تتعلم أفضل وتتذوق أعمق.. أى أن تكون لك ثقافة غنائية موسيقية!

وأخترقت كلماتى حاجز الصوت بينى وبينه فقال لى: هل رأيت سيادتك البرنامج الذى ظهرت فيه الأستاذة بثينة فريد عميدة الموسيقى أنها أمتدحت صوتاً قبيحاً جداً. وأنا صوتى أحسن وأريد أن أصل إلى التليفزيون ثم أموت بعد ذلك!

والحق معه. فالسيدة بثينة فريد كانت مجاملة أكثر مما ينبغي. ولم يعجبنى تعليقها ولا تفسيرها ولا تبريرها.. وإذن كان الصوت الذى علقت عليه قبيحاً أقبح.. بل ما كان يجب أن يكون لها رأى.. فأما أن تقول الحقيقة، وأما أن تسكت. فلا قالت الحقيقة ولا سكتت.. وهذا الشاب أحد ضحاياها. وقد أرسلته إليها لتقديمه للتليفزيون وليموت على يديها!



في سنة ١٩٦٠ كنت أتباهى بأننى أول من سافر إلى الكونغو بسيارة جيب فوصلتها فى سبع ساعات. وهى حقيقة. بل أول من ركب سيارة جيب كانت تمشى بظهرها. وتوقفت فى الخرطوم ساعة واحدة. ثم واصلت الطريق إلى الكونغو حيث توقفت فى مطار كوكيا تفيل. وهذا صحيح.

ولكن لا بد من تفسير. فقد ركبت فى طائرة أمريكية حربية مع قوات الطوارىء المصرية بقيادة اللواء سعد الشاذلى. وجلست أمام عجلة قيادة سيارة جيب فى داخل الطائرة.

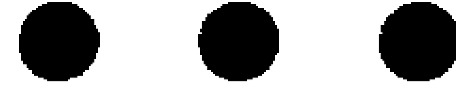
والسيارة قد أدارت وجهها إلى باب الطائرة ــ وكان يشاركنى فى هذه السيارة الزميل فوميل لبيب مدير تحرير «المصور»!

وكنت أضيف إلى هذه الحادثة الفريدة أننى أول كاتب مصرى يدور حول الكرة الأرضية فى ٢٢٣ يوماً ــ رويتها فى كتابى «حول العالم فى ٢٠٠ يوم».. وكان ذلك فيما بين يونيو سنة ١٩٥٩ وسنة ١٩٦٠..

ولكن وجدت من هو أكثر تفوقاً: رائد الفضاء الألمانى الشرقى سيجمونديان الذى دار حول الأرض فى سفينة الفضاء السوفيتية ساليوت ٦. لقد ركب دراجة مثبتة فى السفينة وراح يحرك ساقيه طول الوقت. فكان أول من دار «حول» الأرض فوق دراجة بلا توقف فى ساعة ونصف!!

ولكن واحداً فى التاريخ هو الذى قرر أن يدور حول الأرض.. يدور حولها وهو على سطحها لافوقها فى طائرة أو سفينة فضاء وإنما على قدميه .. هذا الرجل اسمه ديف كونست فقطع ١٥ ألف ميل وأهلك واحداً وعشرين زوجاً من الأحذية .. وقتل الأفغان واحداً من أخوته .. ولم تسمح له الصين بعبور أراضيها .. فما كان منه الا أن ذهب إلى استراليا فسار على قدميه مايعادل المسافة داخل الأراضى الصينية .. ووصل هو وأخوته إلى كاليفورنيا يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٤ أى بعد أربع سنوات ونصف من بداية السير..

وقد أوصى إذا مات أن يحملوا جثمانه، على حسابه، فيعبر الأراضى الصينية فى نفس الطريق الذى كان ينبغى أن يقطعه وهو حى!



من عشر سنوات سألنى الرئيس الفلبينى ماركوس عن القذافى . ثم نظر إلى خريطة على الحائط مندهشاً جداً للمسافة الشاسعة بين ليبيا وبين جزيرة مندناو التى يعيش فيها المسلمون ويلقون قنابل ومدافع تشجيعاً لهم على الأنفصال من الفلبين. ومصر تقف مع الفلبين ضد المسلمين — لا باعتبارهم مسلمين طبعاً ، ولكن لدعوتهم الأنفصالية عن الدولة الأم .

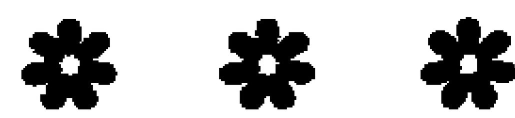
وسألت الرئيس ماركوس ان كان يعرف القذافى فأجاب : أنه لا يعرف إلا أنه رجل غنى ينفق أمواله على المتاعب فى كل مكان ، دون أن يجنى من ورائها شيئاً .. أى انه إرهابى من أجل الأرهاب !

ولا بد أن تكون زيارة زوجة الرئيس الفلبينى إلى ليبيا بعد ذلك ، لمعرفة القذافى أكثر أو محاولة التأثير عليه .. ولم أتابع نتائج هذه الزيارة . وان كان من الواضح ان القذافى لم يعد يبعث بالمواد المتفجرة إلى الفلبين ، وإنما حولها إلى ايرلندا وبريطانيا وأيطاليا وغيرها ..

قال لى سفير صينى : أنه من الممكن ان يكون هناك مفكر فوضوى أو زعيم أرهابى .. ممكن . ولكن ان يفكر رجل مثل القذافى فى تحويل الصين (ألف مليون) إلى الإسلام بالقوة فهذا جنون .. فنحن لم نستطع ان نحولهم إلى الشيوعية إلا بصعوبة !

وقد نجح القذافى فى عمليات أرهابية كثيرة . ولن يكتفى . وكلما أرتكب جريمة ، ازداد خوفه ، فهو عدو لعشرات الدول . وكلها تحاول

أغتياله . ويكفى ان تراجع صور الحرس الخاص للقذافى فى السنوات الأخيرة . فأكثر حراسه من الأوروبيين فهو لم يعد يثق فى مواطنيه . ولم يعد يثق فى الرجال ، فقد تولت الفتيات حراسته أيضاً . ولم يعد يطمئن إلى بيت واحد ، فلديه عشرات البيوت والخيام .. وفى الليلة الواحدة يذهب إلى بيت ، ويبعث بحراسه إلى بيت ثان ، ويدعو ضيوفه الأجانب إلى بيت ثالث ، وإذا تحدث فى التليفون فمن بيت رابع .. ويغير السيارات والطيارات .. وقد أزداد خوفه على أولاده وزوجته . فهم لا يقيمون معاً فى بيت واحد ، بل كل واحد من أولاده فى بيت .. ولقاؤه بزوجته تتولاه المخابرات .. تتولى تدبيره وأخفاءه . ولذا فإن لم يكن القذافى مجنوناً ، فمن المؤكد أنه سوف يكون كذلك !



سألت الرئيس الأمريكي جيمي كارتر عن كتابه المقبل. فقال أنه أشترك مع زوجته في تأليفه وأنه سوف يصدر في مايو القادم. وأنها تجربة مشتركة تعبر عن حياتهما الزوجية، والتي أستغرقت أربعين عاماً.. وعن حياتهما الأجتماعية والسياسية، والأنتخابات التي نجح والتي فشل فيها.. أنها تجربة غريبة عليهما.

قلت: ليست غريبة تماماً.. في الأدب الأمريكي نماذج من هذا النوع. أهمها وأروعها تجربة الكاتب المؤرخ الكبير ول ديورانت وزوجته السيدة اريل ديورانت.. ألفا معاً كتاب تاريخ الحضارة ــ وهو أروع ما ظهر في اللغة الأنجليزية في عشرات السنين. ثم ألفا معاً قصة حياتهما. فكان كل واحد منهما يكتب فصلاً..

وإذا بالرئيس الأمريكي جيمي كارتر يفرح وتظهر عليه سعادة الأطفال وهو يقول: نعم.. قرأته.. عندي نسخة منه. وطلبت من المؤلفين ان يوقعا عليها!.

لو رأيت الرئيس الأمريكي كيف قال هذه الكلمات القليلة.. لو رأيت النور على وجهه.. لو رأيت براءة الأطفال.. لو رأيت كيف قال أنه كان حريصاً على ان يوقعا على هذه النسخة.. كأنه ليس رئيساً لأمريكا، كأنه طفل صغير أهداه كاتب كبير أحدث كتبه، ثم وقع عليها..

لقد أسعدتني كمؤلف يا سيادة الرئيس دون أن تدري.

فهو رئيس لأعظم دولة فى العالم، لقد أسعده ان كاتبين أهدياه كتاباً وأضافا إليه التوقيع ..

لقد توفى الكاتبان العظيمان . وقد روت الزوجة هى أيضاً أن من أسعد أيام حياتها أن زوجها كتب أهداء لها ــ كمؤلف لا كزوج !

وقد حكى لنا ونستون تشرشل فى لقائه بستالين وروزفلت وكاى شيك فى بوتسدام، ان ستالين فى نهاية اللقاء قد طلب إليه أن يوقع فى الأتوجراف . قال تشرشل : لقد كنت سعيداً انه طلب منى ذلك كمؤلف لا كرئيس وزراء بريطانيا !

مثل هذا الشعور هو الذى يجعل الأدباء والشعراء والفنانين يرضون عن نصيبهم فى هذه الدنيا .. أنهم أبقى وأطول عمراً من الرؤساء والملوك ..

كأن السماء قد خيرتهم بين العرش والقمم الباردة . فاختاروا الأبدية الباردة ومعها العذاب والفقر!



فى وقت واحد قامت مظاهرات الطلبة فى باريس وفى شانغهاى وفى العاصمة بكين وفى الما اتا عاصمة جمهورية كازاكستان السوفيتية .

وفى فرنسا كانت أعتراضاً على تحديد الدخول للجامعات مع زيادة المصاريف .. وفى الصين أحتشد ألوف الطلبة يطالبون بالحرية والديمقراطية .. وأنضم إليهم عدد من العمال . تعرض لهم البوليس . ويقال أعتقل وضرب .. ولكن البوليس نفى أنه أعتقل وأنه أستخدم العصا . ولكنه طالب بضرورة حفظ النظام والأمن وضبط النفس — ثم أن المظاهرات ضد القانون .

والتف الطلبة حول الصحفيين الأمريكان يسألون أن كانت هناك مظاهرات فى مدن أخرى .. وتظاهر الطلبة ثم العمال فى الما اتا .. ولكن بسبب ان الدولة قد عينت رجلاً من جمهورية روسيا بدلاً من رجل آخر من جمهورية كازاكستان ذات الأغلبية الإسلامية . وأن الدولة حريصة على سيطرة الروس على مراكز الحكم والأدارة والسياسة فى هذه الجمهورية الأسيوية ..

وكان الرئيس بريجينيف الذى تهاجمه الصحف السوفيتية الآن وتتهمه بكل الصفات غير الماركسية .. قد أوصى بضرورة تشجيع الأقليات على المشاركة فى الحكم والمكتب السياسى واللجنة المركزية للحزب الشيوعى ..

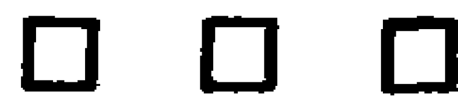
وكان جورباتشوف السيد الحالى للكرملين قد أتخذ سياسة تشجيع الأقليات ، فأختار وزير خارجيته شيفردنادزة فى المكتب السياسى ، وهو

ثانى مواطن من جمهورية جورجيا يصل إلى هذا المكان الرفيع ــ أما الأول فقد كان الزعيم ستالين ..

وفى بعض ا لجامعات الصينية علق الطلبة لافتات على جدران الجامعة والمدينة يطالبون بمزيد من الحرية الشخصية والحريات العامة .. ولكن أخبار هذه القلاقل لم تنشرها الصحف الكبرى . وإنما تسامع بها الطلبة وتناقلوها ..

وفى نفس الوقت نشط بركان فى جزر هاواى ، وكان خامداً من ٢٧ عاماً .. وتدفق هذا البركان دليل على الأحتباس الطويل للغازات والغضب ثم أتيحت له فرصة فانطلق . فهل الذى حدث حريق موضعى .. غضب فى احدى المدن .. رمز .. وبعد ذلك يخمد ويصبح ماضياً ، أو هو مقدمة لما هو أكبر ؟ .

سؤال مبكر جداً . وسوف نرى .



لا بد أن تكون شخصية سعد زغلول هى الساحرة الباهرة أما أسلوبه فى الكتابة فليس كذلك.

وما كتبه أستاذنا العقاد عنَ سعد زغلول. يعتبر من أروع الدراسات التاريخية والسياسية والنفسية. وقد كان الأستاذ العقاد من أشد الناس أعجاباً بسعد زغلول.. حدثنا عنه كثيراً. وضرب به وله الأمثالَ فى الشجاعة والصدق والزعامة، حتى لم تمتلىء عين العقاد بأى زعيم سياسى آخر..

وما كتبه الأستاذ مصطفى أمين عن سعد زغلول جعل منه فيلسوفاً وقاضياً ومؤرخاً وثائراً وسابقاً لعصره ومتقدماً على كلَ العصور. وكما كانت عبارة العقاد محكمة منطقية، فعبارة مصطفى أمين كانت من نار ونور من أجل أن نقيم تمثالاً لسعد زغلول فى كل عبارة وصفحة وكتاب وميدان وكل قلب!

حتى ظهرت مذكرات سعد زغلول التى نشرها وراجعها المؤرخ الكبير د. عبدالعظيم رمضان مفاجأة. فعبارة سعد زغلول ركيكة وفيها أخطاء املائية ونحوية ولغوية. وتركها د. عبدالعظيم رمضان كما هى دون اشارة إلى ذلك. ولو فعل لكثرت الهوامش.

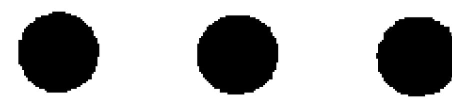
والأمانة تقتضى ان تنشر المذكرات كما تركها صاحبها، وكان سعد زغلول حريصاً على ان تبقى كذلك وان تنشر أيضاً كما هى. وهذه المذكرات تتناول الهام والتافه فى حياته اليومية. وهى أقرب إلى

« الأعترافات » .. والتفريج النفسى .. فهو يخفف من وطأة ضغوطه وتوتراته النفسية بأن يقول ويحكى ما يدور بينه وبين نفسه .. وطبيعى أن يتحدث الانسان إلى نفسه فيقول : يا واد .. أنت عملت أيه النهاردة .. ولا يقول : ما الذى ضيعته اليوم يا سيد .. أو يا أستاذ .. أو يا زعيم ..

فقد تحرر سعد زغلول من قيود حياته اليومية وقيود النحو والصرف والفصحى وكأنه تمدد على كرسى الأعتراف يقول صادقاً بلا حفاوة لصناعة الكلام — فكان الصدق عنده أهم من الفن — ربما !

فأين ما كتبه سعد زغلول مما أبدعه الزعيمان المفكران والأديبان الكبيران تشرشل وديجول ؟

وتشرشل قد حصل على جائزة نوبل فى الأدب ، وديجول يعتبر من كبار المفكرين أصحاب الأساليب فى الكتابة الأدبية ..



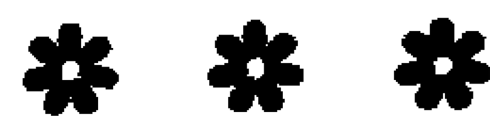
تصور كلباً قد أمسك بنطلون أحد المارة. فإما أن تقتل الكلب، وإما أن تخلع له البنطلون. وهكذا تنتهى محاولة تمزيق البنطلون أو الساق التى فى البنطلون.. ولكن إذا كان هذا الكلب أسداً موجوداً فى كل خلية من خلايا الجسم الانسانى، لا أحد يستطيع أن يقتل الكلب ولا أن يتخلى له عن ملايين ملايين الخلايا.. إذن فهذا المرض الجنسى الذى هو السرطان ليس إلا ملايين ملايين الكلاب تمزق إنساناً تحت جلده. وهو وحده يقاوم ويتساقط. أما الدواء فهو عبارة عن محاولة إطلاق النار على أسد وسط مليون مليون كلب. فالرصاص الذى يتجه لقتل الأسد لا يصيب إلا ملايين الكلاب. وهكذا تجد ان المصاب بهذا المرض يتوجع من الدواء أكثر من الداء.. وان الذى يوجع ليس الكلب الذى ينهشه، ولكن الكلاب الأخرى المذعورة من الكلب الأسود. شىء كهذا يصيب جسم المريض.

ويكفى أن يصاب المريض بهذا الداء، فتنحط معنوياته. فهو مرض سىء السمعة. والطب أمامه عاجز. فلم يعرف منه إلا القليل. والقليل الذى يعرفه الطب، يشبه دعاء أهالى المريض: نوع من حسن النية والمشاركة الوجدانية!

والله سبحانه وتعالى هو الذى ألهم أطباء من مثل د. محمود محفوظ ود. رضا حمزة، أن يكون الابتسام أسلوبهم فى الحياة، وأن تكون جرعة الأمل والتفاؤل هى طعامهم اليومى. ومن هذا الأبتسام وهذا التفاؤل يهون على المريض الألم، وتقصر ساعات العذاب.

هل كان هذا المرض معروفاً قبل ذلك ؟ . لا ندرى . ولكن ليس بعيداً أن يكون قد أصيب به بعض الناس ، ولكن أحداً لم يعرف ما هو ولا ما هو أسمه . ولكن الطب الحديث قد دلنا عليه .. والحياة الحديثة المليئة بالمواد الكيماوية السامة والاشعاعات القاتلة ، والانفعالات النفسية المحرقة للخلايا ، كلها قد ساعدت على أنتشاره .

والذى نعيبه على الأطباء من أنهم جامدون لا ينفعلون ولا يهتزون لأوجاع المرضى وحزن أهليهم ، هو من فضل الله علينا وعلى مرضانا .. فلولا ذلك ما أفلحوا فى تطوير وسائل التشخيص والتحليل والبحث عن دواء لهذا الداء .. والله وحده هو الذى يلهم المرضى هذا الاستسلام لقضائه ، .. وان عذابه رصيد من الحسنات والجنات عنده بعد ذلك .



الملك الحسن كيف استطاع أن يسكت العالم العربى كله، حكومات وشعوباً وصحفاً تطبع فى باريس ولندن.. وهو الذى استضاف المغاربة من اسرائيل لعقد مؤتمر كبير فى هيلتون الرباط ــ مؤتمر من يهود اسرائيل حضره اعضاء الكنيست يتقدمهم الوزير هارون أبو حصيره ــ جده الحاخام أبو حصيره الذى له ضريح بالقرب من دمنهور يزورونه رسمياً كل سنة..

لقد اكتفى الملك الحسن تعليقاً على الشتائم واتهامه بالخيانة والعمالة بأن قال: هذه مسألة داخلية!

أى أنها من شئون المغرب، أى من شئونه هو وحده.

وأكثر الدول تطرفا قالت: ان الملك لم يطلعها على ذلك!

ولكن بعد أن علمت فما الذى فعلته؟ لا شىء!

أهى شجاعة الملك الحسن. أهو ضعف العرب وتخاذلهم وتفككهم!

أهو إيمانهم الخفى بأنه لا بديل عن السلام، وأن هذا السلام يبدأ بالحوار.. وأن العرب إذا كانوا يحسدون اسرائيل على يهود أمريكا، فلماذا لايحسدون الملك الحسن على مغاربة اسرائيل، الذين يستخدمهم فى الضغط على السياسة الاسرائيلية.. ويستخدم اموالهم وخبرتهم فى اقتصاد المغرب..

والملك الحسن سياسى موهوب فهو يبيع الفوسفات للسوفيت، ويعطى تسهيلات لامريكا ويعقد المؤتمرات الاسلامية فى بلاده، ويستضيف

مغاربة إسرائيل والاسرائيليين، وهو أمير المؤمنين، أكثر الناس حبا للفن والشعر والغناء والحياة..

وهو قبل ذلك الذى استضاف المصريين ليلتقوا بالاسرائيليين قبل مبادرة السادات فعنده التقى السيدان حسن التهامى وموشى ديان. وكانت اللقاءات بعلمه.. ومن المغرب وفيها تم الاتفاق على رحلة السادات إلى القدس..

أنها ــ إذن ــ الواقعية الجديدة فى السياسة العربية ــ ربما!



الأكل مثل: كرة القدم. أناس يأكلون وأناس يتفرجون وأناس يحسبون اللقمة على الذين يأكلون..

فهناك أناس يهجمون على الطعام بقصد أن يلقوا به فى شبكة المعدة. وهذا هو المهم. ولكن ليس من الضرورى أن يجدوا لذة فى الطعام. لأن هناك فرقاً كبيراً بين أن تأكل وبين أن تستطعم الذى تأكله. وأكثر الناس يجلسون إلى الطعام وتمتد ايديهم هنا وهناك وبسرعة غريبة يختفى الطعام وينتهى كل شىء بعد ذلك. وبعد انتهاء الطعام يهجمون على مجموعة من العادات الأخرى: مثل النوم أو النزول إلى الشارع أو الذهاب إلى المقهى.. بنفس السرعة وبنفس المعنى. أما المعنى: فهو الانتهاء من هذا الذى أمامهم!

وهناك أناس يتفرجون على الأكل.. ينظرون إلى الذى أمامهم. وقد يختار الواحد منهم لقمة من هذا، وملعقة من ذلك. ثم يدفعون كل شىء بالماء أو الشراب.. والطعام فى حد ذاته ليس هو الاهم.. وإنما الفرجة.. المشاركة.. العقدة.. الكلام أثناء الطعام.. المهم هو «جو» الطعام وليس الطعام نفسه. ولذلك بعض الناس يجد متعة فى أن يذهب كل يوم إلى مكان.. أو إلى بيت.. لتصبح للاكل لذة.. فهو يقوم بعملية «تغيير هوا» ليكون للاكل طعم مختلف!

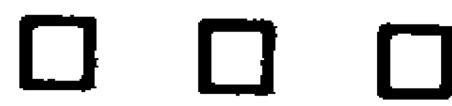
وهناك أناس يحسبون الاكل باللقمة والملعقة. وهؤلاء هم المرضى.. أو هم الذين لا يريدون أن يتضاعف وزنهم. فالمريض يأكل ويحسب كم

لقمة وكم كوبا . وأين يذهب هذا وذاك ، وما الذى يفعله اللبن مع السمك ، وما الذى يفعله البيض مع الكعك .. وما هى الاقراص التى يأخذها قبل وبعد وأثناء الاكل . إن الأكل يصبح نوعا من الحرمان المدروس ، أو من الجوع المنظم أو الخوف الطبى ..

فى تقرير لمؤسسة التغذية يقول : أن أكثر الناس حريصون على الانتهاء من الطعام ــ أى أنهم لا يأكلون ولكن يتخلصون من الطعام . وهم بذلك لا يتذوقون ولا يجدون لذة فى الطعام ..

والذى لا يجد لذة فى الطعام ، أو لا يحاول ، لا يجد لذة فى أى شىء آخر .. لأنه إنسان يشعر أن الأكل « مهمة » ويجب أن يقوم بها والسلام .

وكذلك حياته يريد أن ينتهى منها أو ينهيها والسلام ، أو من غير سلام !



بسبب العمليات العسكرية فى اثيوبيا والصومال واريتريا وتشاد سوف يتضاعف عدد الجراد الذى يقضى على النباتات التى هى طعام الإنسان والحيوان. اى أن الجراد سوف يمسح الأرض تماما لكى تكون قبوراً مسطحة للذين لم تقتلهم القنابل والصواريخ!

وبذلك يقوم الجراد بتحقيق نوع من العدل العنيف ــ لأنه سوف يسوى بين «الظالم» الاثيوبى و«المظلوم» الصومالى فى الموت!

فقد حذرت منظمة الزراعة هذه البلاد المتحاربة من أن هناك تكاثرا فى الجراد تنبغى مقاومته بالمبيدات الحشرية أرضا وجواً. ولكن المتحاربين قد شغلتهم معارك الإنسان عن تحديات الحشرات التى سوف تقضى على الجميع. ولذلك تضاعف عند الجراد لأن أحداً لا يقاومه، ولأن الحرارة والرطوبة الشديدة تشجع على تكاثره.

وتدل الخرائط التى رسمتها سفن الفضاء على أن جيوش الجراد تتجه من الهند إلى باكستان مكتسحة حقول الارز. وأنها أيضاً تتجه من جنوب المغرب إلى تشاد.. ومنها إلى أثيوبيا والقرن الافريقى..

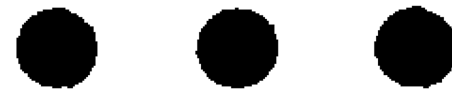
أما حركات الجراد فعلى شكل سحب سوداء قاتمة تضم ثلاثين مليون جرادة وتزن كلها خمسين ألف طن..

وقد بلغت مساحة أحد جيوش الجراد سنة ١٨٨٩ فوق البحر الأحمر حوالى ألفى كيلو متر مربع..

وقد رصدت سفن الفضاء سبعين جيشا من جيوش الجراد تتقدم فى اتجاهات مختلفة. ولكن أحداً لا يعرف بالضبط حدود هذا الزحف الرهيب فقد تتجاوز هذه المناطق التى رصدتها سفن الفضاء إلى شمالها أو جنوبها .. فالجراد ــ مثلاً ــ فى سنة ١٨٦٩ قد وصل من غرب أفريقيا إلى انجلترا مارا بالمحيط الأطلسى وبحر الشمال!

ويتوقع العلماء أن يبلغ زحف الجراد قمته فى شهر أغسطس القادم.

فهل هذا هو الجوع الذى سيؤدى إلى وقف القتال فى أثيوبيا والصومال وتشاد واليمن، بعد أن فشل الجوع إلى الدم والدمار من تحقيق السلام القائم على موت جميع المتحاربين!



في يوليو سنة ١٩٥٩ قابلت الدلاى لاما الأب الروحى للبوذية فى التبت. وكان بيته عند قمة جبال الهملايا. ذهبت إليه متظاهراً بأننى مريض أطلب منه الشفاء وأمتنان الشعب المصرى الكريم. وعالجنى ببركاته. وكانت البركات على شكل زكام أصابنى فترة طويلة. وكلفنى أن أنقل هذه البركات إلى الشعوب العربية قاطبة. ويؤسفنى أننى لم أتمكن من ذلك..

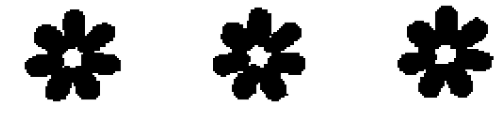
وكانت الصين قد طردت الدلاى لاما فلجأ إلى الهند. وأعلنت الصين أنها أطالت عمر الدلاى لاما. فقد كانت التقاليد تقضى بقتله عندما يبلغ الواحدة والعشرين.. وهو الآن قد تجاوز الأربعين. ووقع فى مصيدة السوفيت فاستدرجوه لزيارة معبد بوذى بالقرب من لننجراد؟! وسوف يسافر لأنه ما دام عدوا للصين فهو صديق لروسيا.

وسوف يذهب إلى روسيا على أنه خرافة حية..

وقد أعلن الدلاى لاما أنه سوف يحرر الصين (ألف مليون نسمة) بجيوشه القوية بالإيمان ـــ ٩٤٢ من الكهنة. وأن الاتحاد السوفيتى سوف يساعده على ذلك؟!

وعلى الشعب الصينى أن يحترس من الآن. فقد يباغته الدلاى لاما فى أية لحظة بهجوم مفاجىء.. أو بغارة من بركاته الأكيدة المفعول. وقد عانيت أنا شخصياً من هذه البركات فاحمر لها وجهى وأنفى وعيناى.

ولما قرأت فى الصحف أخيراً أن وباء الانفلونزا قد انتشر فى الصين، وأن الابر الصينية لم تفلح فى القضاء عليه، أيقنت أن بركات الدلاى لاما قد حلت رغم أنف الادارة الصينية الجديدة؟!



مسكين ذلك الرجل الذى يدق بابك فى اوقات قريبة من الليل أو النهار، يطلب إليك أن تدفع ما استهلكته من الماء. قد يجيء فى وقت غير مناسب لك. ولكن هذا الوقت هو الوقت المناسب له هو، فعليه أن يجمع الفواتير. ألوف الفواتير.. فقد يكون تجميعها لنفسه، أو لغيره من الزملاء الذين قاموا بأجازة. والدافع الكبير وراء اصرار هذا المحصل هو أنه يتقاضى عمولة قدرها ثلاثة مليمات على كل فاتورة يحصلها بعد الـ ٨٠٠ فاتورة الأولى وهذه العمولة تصل فى الشهر الواحد إلى جنيهين وأحياناً تبلغ ثلاثين قرشاً!

وهو لذلك يصعد السلالم الطويلة وينزل مئات المرات. والبوابون فى العمارات الكبيرة يمنعونه من استخدام المصاعد؟!

ثم أن هذا المحصل يواجه الناس وحده بملابس ممزقة واحذية مهلهلة وفى حافظته عشرات الالوف من الجنيهات. وبلا حراسة.

جاءنى اسماعيل محمد مفتش مرفق مياه سيدى بشر. وقال: أنه ذهب إلى النقيب مسعد محمود حسان بنقطة سيدى بشر قسم المنتزه. وطلب إليه أن يحميه من تاجر خضروات كاد يفتك به. فعامله النقيب مسعد محمود حسان بمنتهى العنف وطلب إليه أن يخرج وإلا.. فذهب المفتش ومعه المحصل وطلب التحقيق فى ذلك. واتجه إلى اللواء على دارز مساعد مدير الأمن. فأجرى التحقيق بنفسه.. ولا نتيجة لهذا التحقيق ولا أثر.. والمشكلة أمام هذا المحصل والمفتش معا الآن: إلى من يتجه إذا هدده

أحد، أو اعتدى على أموال الدولة أحد، هل يذهب إلى نفس النقطة التى رفضت حمايته؟.. هل الشكوى سوف تجعل من هذه النقطة كلها خصماً له وعدواً؟.

أنها ليست مسألة مواطن. وإنما مواطن مضاف إليه الدولة. وهيبة القانون أو الذين ينفذون القانون.

إن فى استطاعة أى محصل أو مفتش لا ضمير له أن يكسب ألوفا فى أى وقت.. فمن السهل عليه جدا أن يفرط فى أموال الدولة.

ولكن إذا وجدنا مواطنا عنده ضمير، وهو لذلك حريص على أن يطبق القانون على الصغير والكبير فمن الواجب أن نحميه وأن نشد ازره، وأن لم يكن ذلك لاسباب «إنسانية»، فليكن لاسباب مالية يحملها ويتجول بين أناس يتلمظون ولا يريدون أن يدفعوا مليماً ثمنا للماء الذى شربوه!



السيدة جاكلين كيندى أوناسيس: صورة من صور التحدى.. أى أنها تتحدى كل القواعد المعروفة للمرأة المحظوظة. فالمرأة المحظوظة هى الجميلة جداً التى يتسابق عليها الناس.. أو المرأة الذكية جداً التى تخيف الناس ويرون فى الزواج منها إنتصاراً عليها.. أو المرأة الغنية التى تشترى أجمل الشباب بفلوسها.

ولكن السيدة جاكلين لا جميلة ولا هى ذكية، ثم أنها شحيحة جداً. ففلوسها تزيد ولا تنقص. ثم أنها نحس على كل من يقترب منها:

وهناك رجال كثيرون يريدون أن يتحدوا النحس بالزواج منها. قيل: المليونير السعودى عدنان خاشقجى.

وقيل اخرون من اصحاب الاموال فى العالم كله. وكل هؤلاء جميعاً لديهم حب استطلاع شديد: فهم يريدون ان يعرفوا من هى السيدة التى كانت تعمل مصورة صحفية ثم استولت على أغنى وأقوى شاب فى العالم: جون كيندى!

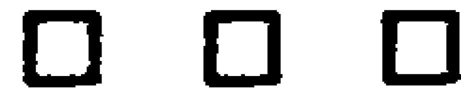
ولم يكد يمضى على وفاته وقت طويل حتى قررت أن تهرب من الصحفيين والسياسيين فى أمريكا إلى احدى جزر اليونان مع رجل مليونير هو أوناسيس..

وعندما كانت فى جزيرة اسكوربيون التى يملكها اوناسيس استطاع احد المصورين الايطاليين أن يصورها عارية تماما. وأن ينشر هذه الصور..

واستطاع صحفى ألمانى أن يحصل على نص عقد الزواج المبرم بينها وبين اوناسيس والذى يقول : لا يحق للزوج ان يدخل غرفتها قبل أن تكمل زينتها !

ومعنى ذلك أن العالم قد عرف صورتها عارية ، وعرف أنها بدون ماكياج لا يمكن أن يراها أحد..

إذن فالذى يغرى الناس بها شيء آخر: هو أن لها ماضيا.. أى أنها قطعة من التاريخ القديم : أنتيكة !



من حق أنور السادات أن يشعر بالاعتزاز بنفسه وبلده والعروبة لأنه استطاع ان يحقق الكثير، وأنه قادر غدا وبعد غد على أن يعطى لنا وبنا ومن اجلنا أضعاف الذى اعطاه.

ان ما صنعه انور السادات لمصر وللأمة العربية هو أنه رفع عن كاهلنا: العناء النفسى بسبب النكسة العسكرية التى ادت إلى نكبة نفسية، وخيبة املنا فى أى شيء..

وليست نكسة ٦٧ أو هزيمة يونيو بعيدة عنا. فبعدها لم يكن لدى أى انسان أمل فى أحد أو فى أى شيء. وفى ذلك الوقت تحولت مجالسنا إلى مآتم ومسيراتنا إلى جنازات. أما الفقيد فهو مصر واما المشيعون الذين يتغامزون ويتلامزون فهم الأمة العربية كلها!

وصدقت علينا عبارة قلتها واتمنى لو اننى لم اقلها: إذا انهزمنا فنحن مصريون، وإذا انتصرنا فنحن عرب!

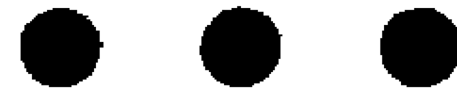
وانتصرنا فى أكتوبر ١٩٧٣. وحدث تغيير طفيف جدا فى السلوك العربى العام.. فبعد أن كان من حق كل إنسان غير مصرى أن يضع ساقا على ساق وأن يريح احدى ساقيه بأن يمدها فى وجوهنا لاننا انهزمنا فى يونيو ٦٧، أصبح يضع ساقا إلى جوار ساق ثم ينهض ينحنى احتراما وتعظيما للوجه الذى يراه امامه فى المرآة.. فقد حدث بعد حرب اكتوبر أن عشقت الامة العربية نفسها وامجادها وعظمتها على التحدى وقدرتها على التحدى والتصدى للصهيونية العالمية..

وقبل ذلك استطاع أنور السادات أن يصفى مراكز القوى ــ وكان ذلك عملا فى غاية الجرأة.

وبعد ذلك أشار إلى جيش سوفيتي (١٧ ألف جندى) أن يخرجوا من مصر، وهو عمل لم يحدث فى التاريخ، ولم يولد بعد من جرؤ عليه.. لأنه اخطر قرار اتخذه أنور السادات فى حياته!

وانتقل انور السادات من الحرب إلى السياسة إلى الدعوة إلى السلام، فى ظل الاستعداد للقتال.

اننا ننظر إلى ما حققته مصر بأنور السادات، بالأمان والاطمئنان والامل وعظيم الاحترام، أما ما تبقى فى القلب من مشاعر فهى خليط من الاشفاق والاحتقار لمن اعلنوا حرب الكلام لا على اسرائيل ولكن على مصر التى نذرت نفسها للسلام مع الجميع وللجميع!



فى المعركة الانتخابية فى واشنطن لاختيار العمدة: سمعت العمدة الجديد والعمدة القديم ومن يريد أن يكتسح الاثنين ولاحظت أن التليفزيون قد اعطى للجميع مساحات زمنية متساوية ليقول كل منهم ما يشاء ويتهم من يشاء.

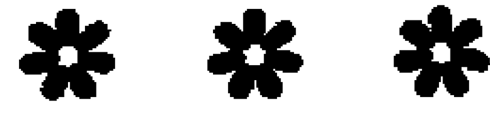
قيل للعمدة القديم: أنك لم تبن بيوتا ولا أصلحت مدارس ولا ضاعفت المواصلات والكهرباء التى تنقطع من حين إلى حين ولا حللت أزمة المساكن ولم تمش فى الشوارع ولم تزاحم الناس فى الاسواق.. أنت تعيش فى برج عاجى!

والعمدة زنجى وسوف يكون زنجيا إلى الابد، لأن ٨٠٪ من سكان العاصمة واشنطن من الزنوج.

ولقد رأيت بيوت الزنوج: جميلة وقصورا شاهقة وحدائق فخمة. ولهم عربات لا يجرؤ اى مواطن مصرى على أن يشتريها مهما كان وضعه فى سلم المكاسب والارباح التجارية الحرة فى مصر ــ فهى عربة طويلة عريضة ولها صوت نفاث وثمنها بعشرات الألوف من الدولارات وأكثر الزنوج يركبون الكاديلاك. ولذلك فقد زهد فيها البيض. لأن السيارات الكاديلاك ليست حلا للمواصلات، ولكنها حل لعقدة الرجل الأسود الذى يريد أن يكون فخما ضخما وأكبر من حجمه ليساوى الرجل الابيض تماما أو يكون كالرجل الابيض وزيادة!

أما رد العمدة فيصلح أن يكون ردا لمحافظ القاهرة الصديق سعد مأمون قال : والله ياخواتى أن مشكلة الاسكان والمياه والكهرباء والمواصلات ليست مشكلة العاصمة واشنطن . أنها مشكلة قومية .. مثل مشكلة احتلال اليهود لسيناء .. كما لا يستطيع أن يسأله اين تذهب اموال قناة السويس .. ولكن الذى يجب أن يوجه للمحافظ هو فقط ما يدخل فى اختصاصه .. ولذلك فأنا برىء من كل هذه التهم . ولذلك أدعوكم إلى انتخابى .

وانتخبوه ونجح !



مادامت القاهرة كلها تعرف هذه القصة فسأحكى احدى بداياتها. كان ذلك فى الصباح الباكر. جاءنى رجل عرفته بصعوبة. فقد كان صاحب البيت الذى أسكنه. رجل مهندس معمارى هادىء وهانىء. وفجأة اختفى الرجل شهورا ثم عاد شاحبا هزيلاً مطلقاً [بتشديد اللام] فقد طلبت إليه زوجته الطلاق ورفض فغيرت دينها ــ فأصبحت حرة. ولكن العلاقة لم تنته هكذا وبهذه السهولة فالذى بينهما كزوجين عشر سنوات، شىء كثير. فالبيوت كلها قد كتبها لها. وأعطاها الذهب والماس والمال والاولاد. وجاء يطلب منها بعض ما ترك لها. رفضت. وهددته أن سمعته يدق بابها أو يتعرض لها فسوف تبلغ الشرطة لأنها أصبحت زوجة لرجل آخر ــ وأى رجل.

ولكنها فى الحقيقة لم تكن قد أصبحت زوجة له. ولكن فى « حكم » الزوجة. ثم أصبحت الزوجة..

وهذه السيدة المعروفة، معروفة بأشياء كثيرة ــ مزايا أو عيوب خلقية ــ بضم الخاء وكسرها. ومن بين هذه العيوب الخلقية جنونها بالفلوس. ومن أجل هذه الفلوس ذبحت الرجال واحدا وراء آخر وبأعصاب هادئة وصحة جيدة وشباب متجدد وشهية مفتوحة ــ هل هى سالومى قاتلة الانبياء. أنها سالومى ولكن ضحاياها ليسوا من الأنبياء وإنما من الاغنياء!

وكلما رآها مجتمع القاهرة مع وجه جديد، تهامسوا قائلين. الوجه الجديد.. أو الضحية الجديدة.. وهو بالفعل وجه لضحية، يظهر ثم

يختفى.. ولكن السيدة تظهر ولا تختفى.. ولا أحد يعرف بالضبط أين تذهب الضحايا، ولا أين ذهبت أموالهم ولا تسربت إلى خارج مصر، ولا مصير الشقق المفروشة الكثيرة التى تملكها أو استولت عليها..

ليس مهما أن نجد لهذه السيدة صفة أو اسما.. وإنما هى مستمرة.

ــ جريمة مستمرة باسم: مصاصة الدماء أو الذهب..

هل تشغل نفسك بأن تسأل: أين تعثر على هؤلاء المغفلين؟ أنها غريزة سمك القرش الذى يشم رائحة الدم فيتجه إليه ليمتصه حتى الموت ــ موت القتيل وطول عمر القاتل..



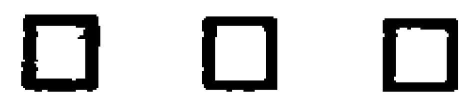
معذور جداً كل وزير أعلام حاول أن يصلح الاذاعة والتليفزيون . من المؤكد أنهم جميعاً حسنو النية صادقوا العزم ابتداء من د . عبدالقادر حاتم والقانونى البارع د . جمال العطيفى وانتهاء بالصحفى الكبير عبدالمنعم الصاوى .

وما هو الاصلاح المطلوب ؟

هذا هو أسهل سؤال لأصعب إجابة . فالاذاعة والتليفزيون هما عبارة عن ملايين صحف تصدر كل لحظة لتصل إلى مئات الملايين من القراء والمشاهدين وتدخل عليهم بيوتهم من الخليج إلى كل المحيطات . فالخطأ فيها فادح والصواب فيها على أوسع نطاق .

ومنذ أيام نشرت هيئة الاذاعة البريطانية شكواها ، وهى أكبر هيئة اذاعية فى العالم وأعرقها وأبعدها أثراً فى الشرق الأوسط .. وكانت تشكو من العمالة الزائدة ومن التدخل الحكومى ومن نقص الفلوس .. أما الفلوس فلا تكفيها الاعلانات فى التلفزيون . ولا تكفيها المعونات . ولا توجد معونة حكومية أو غير حكومية ليست مشروطة . وتشكو من تدخل الدولة .. فليس من المعقول أن تكون هذه الهيئة أخطر من أسلحة الطائرات والدبابات والغواصات والصحف والبرلمان ، ثم تتركها الدولة هكذا على هواها تحت أى اسم ، ولكن ذلك الاسم هو اللفظ السرى السحرى : الحرية .. وشكواها الكبرى هى من زيادة الموظفين . وهى فى ذلك متساوية مع الاذاعة والتليفزيون فى مصر. فربع العدد الموجود يكفى جداً لتكون عندنا اذاعات ومحطات متنافسة ..

ولن يكون اصلاح الاذاعة والتيفزيون فى مصر بأن يجىء وزير جديد. أو رئيس جديد.. ولكن لابد من تنظيم شامل له فلسفة. ونحن لسنا على عجل لاصلاح ذلك ولكن لابد أن يكون هناك علاج لكل العيوب الفنية والادارية والأخلاقية الموجودة فى هذا المبنى الذى لا ترابط بين أقسامه أو بين رؤسائه أو بين العاملين فيه.. والذى تهزه المنافسات الفنية التى تجىء إليه من أصغر الدول العربية، ولن يقوى على منافستها.. لأن هذه الدول الصغيرة تنافسنا بنجومنا وفنانينا وبأموال صعبة ــ أى بالعملات الصعبة البعيدة عن أنف الضرائب والجمارك!



جلسنا حول المرشح للحزب الوطني، أنه زميل دراسة. وكان غارقا فى السياسة منذ المدرسة الثانوية. خطيب فصيح ــ كان ولايزال. وتناقشنا: ما الذى يمكن أن يقوله للناس: فكل شيء قد قيل. قال احدنا: يا أخى حدثهم عن مصر الآن وكيف كانت قبل ذلك.. وقل لهم ان الحكومة التى استطاعت أن تحقق للشعب كل ذلك، فى وسعها ان تقدم لهم اكثر..

قال آخر: بل الافضل ان تختار انت موضوعا محددا. وتحدث الناس عن الذى سوف تفعله أنت، ولو ساعدك الناس، فسوف يكون المشروع اكمل واعظم واسرع وانفع، ألست صاحب شركات. قل لهم عن احدى الشركات التى تديرها باشتراكية وتوزع ارباحها بالعدل..

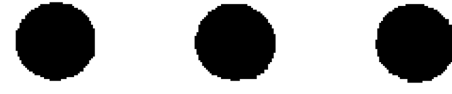
قال ثالث: رأيى أن تحكى لهم قصة حياتك. كيف أنك بدأت من حيث يبدأ كل ابناء الطبقة الفقيرة الذين تعلموا معتمدين على الله وعلى انفسهم. وكيف انهم رغم كل المصادرات وكل الارهاب والسجون، استطاع ابوك وعمك وانت واخوك وأنت من بعدهم، أن تحقق ما تفخر به مصر.. قل لهم أنك إنسان عادى جداً، وان فى استطاعة كل إنسان أن يكون مثلك إذا عمل.. وقد انفتحت الفرص التى لاحد لها أمام كل الناس.

وذهبنا معه. ولم يكد يراه الناس حتى صفقوا له. لولا أن واحداً من

بين الجمهور قال صارخاً : مليونير.. لص .. سرقتم اموال الشعب .. وجئت تتحدث عن الاشتراكية والحرية ؟ !

وكأنه لاعب ماهر، بل هو لاعب ممتاز، اعطيت له الكرة ليسدد أول هدف .. والهدف الثانى وثالث ..

وترددت اسماء كثيرة كافحت معه ونجحت .. ودخلوا السجون ظلما ، وجردوا من اموالهم الحلال ، ولكنهم مع الحرية والامان ، بدأوا من جديد .. حتى كان مليونيرا ولكنه ليس لصا ، لا هو الآن ، ولا كان .. وصفق له الناس ، وأقسموا أن يختاروه ..!

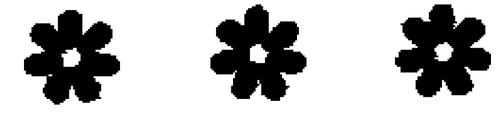


شيء عجيب حقا أن تنفتح الابواب وغرف الطعام والقمار فى القاهرة للشاعر نزار قبانى الذى قرر أن يعيش فى مصر؟ أى فى البلد الذى انفرد بكراهيته وحقده واحتقاره فنظم فيها عشرين قصيدة ترددت فى اذاعات بيروت وبغداد ودمشق وطرابلس. وقد اتخذت هذه القصائد موضوعاً واحداً. خيبة امل الأمة العربية فى مصر وشعب مصر وجيش مصر وقيادة مصر فى الماضى والحاضر والمستقبل. أما الكلمات التى استخدمها فهى نابية فاجرة داعرة.

وقد فكرت احدى دور النشر الصغيرة فى القاهرة أن تعيد طبع هذه القصائد وتوزيعها مجاناً. ولكن القانون المصرى لا يسمح بهذه السفالة الشعرية!

وقبل أن يجيء الشاعر نزار قبانى إلى القاهرة نشرت له الصحف أن كل ما تبقى من لياليه المأجورة فى بيروت هو مبلغ ١٥٠ ألف جنيه — مع أن التهجم على شعب مصر وجيش مصر قد اكسبه الملايين. وبسرعة اهتدى الشاعر التاجر إلى نوع من «التضامن العربى» فأعلنت سيدة عراقية مقيمة بالقاهرة أنها قد عثرت له على الشقة المطلوبة ولكنها ليست على النيل وليست مزودة بقاعة طعام كبرى. ولكن سيدة كويتية مقيمة بالقاهرة قد اعلنت أنها وجدت الشقة وأنها سوف تدفع له ربع مليون جنيه! وسيدة لبنانية سوف تهديه بيتا صغيراً فى المغرب، وأنه يستطيع أن يستأنف رسالته النبيلة من هناك، فيشتم كل شعوب المشرق العربى الذى أعطاه الكثير جداً ليشتم مصر.

وفاتنا في مصر أن نعاقب الذين أهانوا مصر وشتموها وتجنوا عليها .. وفاتنا أن نقفل الأبواب وأن نفتح له النوافذ ليتفضل مشكوراً فيلقى بنفسه منها ــ وسوف نعد له جنازة حارة ــ فالجنازات والسير فيها والبكاء على الذين ماتوا : عادة فرعونية قديمة !



مادمنا .نطلب للفلسطينيين حق العودة إلى وطنهم، فاليهود يطلبون أيضا حق العودة إلى أوطانهم فى مصر والعراق والسودان وسوريا.. أما فى المغرب ففيها أكبر جالية يهودية : ثلاثون ألفاً.. ولذلك أعلنت بعض الدول العربية أنه لامانع من عودة اليهود إليها. وسوف تعاملهم هذه البلاد العربية كمواطنين من الدرجة الاولى. لأنه لا توجد درجات للمواطن فى بلادنا. فنحن جميعاً مواطنون من الدرجة الأولى. أو مواطنون على درجة سواء أمام القانون.. وتقدم كثير من اليهود إلى سفارتنا فى باريس يسألون عن شروط العودة. لاشروط. من يريد أن يعود إلى مصر فالباب يسع الجمل بما حمل.. ولكن بعض الصحف الاسرائيلية هاجمت هذا القرار الذى أعلنه الرئيس السادات بأنه لامانع من عودة اليهود المصريين.

قالت الصحف الاسرائيلية أن هناك خطة عربية خبيثة هدفها تشجيع اليهود العرب على العودة إلى بلادهم الاصلية. فإذا حدث ذلك فسوف تواجه اسرائيل أكبر كارثة هجرة فى تاريخها ــ هجرة منها وليست هجرة إليها! لأن ٧٠٪ من المواطنين فى اسرائيل من اليهود الشرقيين والذين يتكون منهم ٨٠٪ من الجيش الذى حارب سنة ١٩٦٧، ١٩٧٣. فكل الجنود والضباط من اليهود الشرقيين بينما القيادات العسكرية والسياسية من اليهود الاوروبيين، الروس والبولنديين والالمان.. فإذا أضفت إلى ذلك أن الحياة فى اسرائيل لم تعد محتملة وأن التمزق النفسى والسياسى والدينى قد بلغ قمته. وأن اليهود الشرقيين يشعرون أن العبء كله يقع عليهم. وأن اليهود الغربيين هم الذين يسيطرون على كل شىء. وهم سكان المدن.

أما سكان الصحارى والمستعمرات فهم اليهود الشرقيون ، وإذا عرفنا أيضا أن اليهود خارج اسرائيل اسعد منهم حالاً وأكثر استقراراً وأماناً ، أدركنا أن الرغبة فى الهجرة من اسرائيل إلى أى مكان هو أملهم القريب والبعيد .. ولذلك بدأت الصحف الصهيونية تحذر من هذه الخدعة التى أعلنها العرب وتقول أن الدعوة إلى عودة اليهود ، ليست إلا دعوة إلى اضعاف اسرائيل عسكريا ، وتعميق التفرقة العنصرية فى داخلها .. وأن هذه الدعوة هى حرب جديدة أعلنها العرب فى داخل اسرائيل !

حيرونا أن دعوناهم قالوا : خدعة ؟
وأن رفضنا عودتهم قالوا : تعصب ؟ !



اعجبتنا عبارة المؤرخ هيرودوت عندما قال: أن مصر هبة النيل. فالنيل هو مصدر الحياة.. والطمى هو الارض. وعلى جانبى النيل وفى احضانه قامت الحضارة الفرعونية..

وبعد ذلك اتهمنا المؤرخ هيرودوت بأنه اراد أن نظل مرتبطين بالنيل، فلاحين. والاحتلال الانجليزى ارادنا كذلك -لا نهتم بالصناعة، ليأخذ الانجليز القطن ويصدروه لنا نسيجا واقمشة. ونظل عالة عليهم!

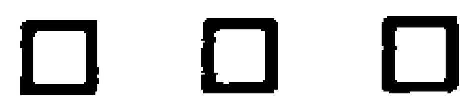
فاتجهنا إلى المدينة موظفين.. أفندية.. لا فلاحين!

وبعد أن خرج الانجليز والاجانب اتجهنا إلى الصناعات الثقيلة ثم الصناعة الخفيفة.. وهجمنا على الارض الزراعية نجردها من الخضرة انتقاما منها لانها هى التى كانت وصمة عار لنا.. فالاتراك كانوا يعيروننا بأننا فلاحون، والانجليز يشجعوننا بأن نظل افندية، إذن لابد أن نكون عمالاً وصنايعية ومهندسين.. فذبحنا الاشجار لتقام البيوت، ومحونا الارض المزروعه من أجل المصانع. وكذلك من أجل إقامة البيوت وفتح الشوارع.

والمدن سحبت الفلاحين ليعملوا فيها موظفين وعمالاً.. وسحبت الدول العربية الفلاحين لزراعة اراضيهم بأجور أعلى.. ولم يعد الفلاح حريصا على الأرض، حتى اصبحنا نستورد كل ما كنا نجده فى ارضنا، «والفلاح راح يشترى من المدينة ما كان يزرعه! اتلخبطت الارض تحتنا والمادة الخام فى ايدينا، وتسولنا ضرورات الحياة. ولا حياة لمصر اليوم وبعد غد إلا بالعودة إلى الارض الزراعية. إلا بالإنطلاق إلى الصحارى

المصرية فى كل اتجاه.. واذا كانت أوروبا قد عرفت احزاب الاشجار الخضراء، احتجاجاً على تلوث البيئة، فإننا فى مصر احوج من العالم كله إلى حزب الاشجار الخضراء والتربة الخضراء.. لأن لدينا عداء للحياة وتقديسا للموت.. وهذا واضح فى المدن الجديدة التى تقام فى الصحارى ننسى أن نجعل فيها حديقة.. أو مساحات كبيرة خضراء ـ لأننا نعلم أننا سوف نتجاهلها أو إذا تذكرناها قتلناها!

فالزراعة صناعة أيضاً. الأرض نفسها اكبر المصانع وانشطها واغرزها ثم أن زراعة الارض علم. وتصنيع ثمرات الأرض علم.. ولا أمن ولا أمان لنا فى مستقبلنا إلا عن طريق الأرض التى هى هبة النيل.. والنيل بعد أن تناقص من الطمى أخذ يجرف الشاطئين كأنه يسترد ما وهبنا فلسنا جديرين بهذه الهدية العظيمة ـ إلا إذا عدنا إلى الأرض أكثر احتراما لها، وعلما بها، وحرصا على مستقبلنا!



حتى البلاد التى بها غابات، تريد مزيداً من الأشجار.. أى: مزيداً من المساحات الخضراء، مزيداً من الحياة والازهار والثمار والطيور. فأعظم الانجازات الوطنية التى تقوم بها الجزائر الشقيقة هى أنها كلفت مئات الألوف من الشبان بزراعة اربعين مليون شجرة فوق الجبال ــ واطلقوا على ذلك اسم «الخدمة الوطنية»..

ومنذ آيام طالب الرئيس جعفر نميرى شعب السودان الشقيق بأن يواجه زحف الصحراء عليه، بأن يزحف على الصحراء ــ هى تهدده بالموت الاصفر، وهو يتحداها بالحياة الخضراء.. أى على الشعب السودانى أن يقوم بالتشجير فى مواجهة التصحير ــ أى تحويل الأرض المزروعة إلى صحراء.. وذلك بألا يزرعها أو بأن يترك الرمال والجفاف عليها فتكون صحراء..

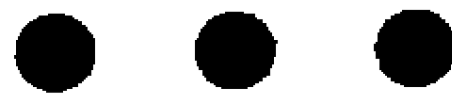
أى من رأى الرئيس نميرى أن نواجه «المفقود الشجرى بزيادة فى الأشجار» وقد رفع شعاراً هو: شجرة لكل مواطن.. يزرعها فى بيته أو أمامه أو فى الطريق أو شواطىء الأنهار والمسطحات المائية..

وقد كتبت هنا كثيراً وفى مجلة «أكتوبر» أطالب بأن نزرع شجرة. كل واحد. ولم أتعب من تكرار ما حدث فى «كوم أوشيم» يوم ذهب الرئيس محمد نجيب فزرع شجرة ليفعل ملايين المصريين كذلك.. وماتت الشجرة وفعلنا كذلك ــ حين اقتلعنا الاشجار وتركناها تموت. وزحفنا بالتجريف والمبانى على الأرض المزروعة. وناديت بأن يطبق معنى الحديث

الشريف حتى إذا قامت القيامة يجب أن نزرع شجرة ــ أى حتى لو لم تكن هناك فائدة من زراعة الاشجار يجب أن نمضى فى ذلك أى يجب أن نستمر فى زرع الحياة فى وجه الموت..

بل وطالبت بأن يكون هناك حزب أخضر لحماية الحياة من تلوث الماء والهواء والطعام.. تماماً كالحزب الأخضر فى ألمانيا. وهو الذى يطالب حكومته بإبعاد المصانع، وتخفيف تلوث الهواء بعادم السيارات.. وابعاد المطارات بضوضائها وعادمها وسمومها عن المدن ومحاربة الأسلحة النووية.

فى استطاعتنا أن نزرع ما يعادل عددنا: ٤٨ مليون شجرة، ولكننا لا نريد!



كما أنه لا يحق لك من لعب «الكرة الشراب» أن يكون مدربا للأهلى أو الزمالك فكذلك كل من لعب فى الفريق القومى أن يكون حكما دوليا. فهناك شروط يجب أن تتوافر للاعب القومى والحكم الدولى من الممارسة الطويلة والنزاهة وحسن الخلق..

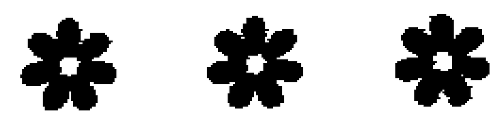
والإنسان حيوان سياسى ـ أى أنه بالغريزة يدبر حياته العائلية وعلاقاته الاجتماعية والسياسية. ولكن كونه سياسيا بالغريزة لايؤهله أن يكون صاحب نظرية. لأن النظرية لها مبادىء. وهذه المبادىء يجب أن تكون أملاً يؤدى إلى اصلاح الاوضاع الوطنية..

وكذلك ليس كل من حفظ جانبا من القرآن الكريم أو كل القرآن الكريم، قادراً على أن يكون داعية للإسلام أو صاحب مذهب فيه لأن القرآن الكريم والشريعة والفقه وأصول الدين والفلسفة القرآنية كلها علوم صعبة معقدة.. وقد يتوافر لأحد من الناس الكثير، ومع ذلك فشخصيته وسلوكه وصوته وعجزه عن الأقناع لا يجعله داعية للإسلام..

وإستخدام العنف فى الملعب وفى السياسة وفى الدين، ليس هو الأسلوب الأفضل فى الأقناع. فأنت لست فى حاجة إلى عصا لكى تضربنى لأقتنع وبأن ٢+٢=٤ ولا أنت فى حاجة إلى قنبلة لكى تقنعنى بأن الله خالق السماء والأرض وما بينهما. وإنما تقول لى ذلك وتتركنى فإن اقتنعت كان بها، وإلا فلكم دينكم ولى دين. وأن أستوضحتك أقنعتنى بما لديك من علم وتجربة وقدرة على التنوير والهداية.

وإن سار أناس طيبون بسطاء وراء الذين يزعمون لأنفسهم هذه القدرة الخارقة فذلك حال البسطاء والسذج فى كل زمان.. فما من واحد رفع صوته ويديه وأشعل النار فى عينيه، إلا وجد من يمشى رواءه.

ولكى واجبنا صحافة وتليفزيونا واذاعة وتربية وتعليما. أن نوضح للناس من هو هذا الذى نستمع إليه ونمشى وراءه ونطمئن إلى هدايته.. ويجب أن نصبر على الشباب الطيب، والله ولى الصابرين..!



أنا حريص على مشاهدة برنامج «المصارعة الحرة» ولكننى لا أجد متعة فى ذلك وإنما مشاعرى خليط: من الدهشة والقرف!

وفى كل مرة أحاول أن أفهم لماذا اهتم بهذا البرنامج وربما كان السبب هو عكس المتعة التى أجدها فى مشاهدة برامج أخرى فى عالم الحيوان مثلا الدرفيل وهو يقلد الإنسان ويتعلم من الإنسان بسهولة.. وكذلك حيوانات السيرك وهى تطيع الإنسان إذا ضربها وإذا ركبها كالفيل والاسد والنمر والقردة والكلاب والخيول.. فهذه الحيوانات تبين مدى سيطرة الإنسان على الحيوان، حتى جعلها أقرب فى تصرفاتها إلى الإنسان.

على عكس ذلك تماماً ما يفعله المصارعون الأحرار: فهم يتحركون كالفيلة ويقفزون كالقرود ويتصارعون كالنمور ثم يصرخون وينقضون كالضباع.. إن هؤلاء الناس أقرب إلى الحيوانات فهم إذن يمسخون الإنسان ويجعلونه حيوانا وربما كان ذلك هو سبب شعورى بالقرف عند مشاهدتهم.

وفى نفس الوقت يندهش الإنسان لهم وهم منقضون بهذا العنف، أو كيف يتحملون هذه الضربات الخشنة بالرجل واليد والرأس والحذاء، وكيف يتساقطون كالحجارة.. ولذلك يخيل إلينا أن هذا تمثيل أى أنهم يمثلون الضرب ويمثلون السقوط، كما يمثلون الحيوانات المفترسة.

ولأن هذا تمثيل، أو قريب من ذلك، فإننا نجد النقاد الريا ضيين يتابعون هذه الأعمال العنيفة بهدوء فالسيد فريد حسن المعلق الرياضى على

هذه المباريات : هادىء الصوت أو ضاحك النبرة ويقول أحياناً : هذه خنقة جيدة ــ أى أن أحد اللاعبين قد خنق زميله بمنتهى الجمال !

وإذا كان السيرك هو مدرسة تطويع الحيوان للإنسان و فأن المصارعة الحرة هى مدرسة « تخشين » الإنسان ليكون حيواناً أو قريباً من ذلك !



اعجبنى برنامج فى التيفزيون البريطانى هو من نوع المسابقات ذات المكافآت المالية الكبيرة، تدفعها الشركات بسبب الاعلانات التى تظهر بشكل ما فى البرنامج.

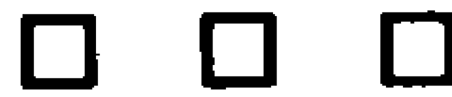
يظهر صاحب البرنامج فيقول مثلاً: موضوعنا ــ مثلا ــ على باشا مبارك الذى ولد فى برمبال الجديدة بمحافظة الدقهلية سنة ١٨٢٤. ونحن نعرف أنه تعذب كثيراً فى كتاب القرية. لقد ضربه «سيدنا» فهرب. فذهب إلى رجل آخر كان يقسو عليه أيضا فهرب.. وذهب إلى رجل ثالث كان يضربه أيضا فهرب.. ثم ذهب إلى القاهرة وتعلم فى مدرسة الهندسة ليكون مهندساً. وسافر فى البعثة الخامسة التى أوفدها محمد على إلى فرنسا ــ البعثة الأولى كان بينها رفاعة الطهطاوى. أما على مبارك فقد كان فى «بعثة الانجال» ــ فقد أوفد محمد على باشا عدداً من أولاده فى هذه البعثة. من بينهم حفيدة اسماعيل ــ (الخديو اسماعيل). وأينما كان على باشا مبارك يذهب، فالحقد والدسيسة وراءه ــ هل كان ذكياً جداً؟ هل كان مخلصاً جداً؟ هل كان ريفياً ساذجاً جداً؟ فما من حاكم مصر إلا اذاقه الهوان حتى قرر أن يترك التعليم ويشتغل بالتجارة. واشتغل بزراعة الأرض.. وهو أول من فكر فى تأسيس شركة لبناء المساكن. ولكن أحداً لم يطاوعه. وهو أول مصرى طرد من عشر وظائف متوالية. وهو فى نفس الوقت، أول مصرى فى التاريخ يشغل خمس وزارات فى وقت واحد..

السؤال: من هى السيدة التى دق بابها فى الساعة الثالثة صباحاً فلما قالت له: من أنت؟ أجابها باللغة الفرنسية: أنا المحب المخلص والعاشق الولهان، والذى جاء يبوس الأرض تحت قدميك! ولما لم تفهم السيدة راح يضحك من نفسه ثم قال لها باللغة العربية: أنا الابن البار المخلص جئت اقبل قدميك قبل يديك..

وفتحت له الباب واغمى عليها من الفرح والبكاء.. فراحت تصرخ وتزغرد! الإجابة عن هذا السؤال: أنها والدته!

أما البرنامج فيشترك فيه على الشاشة مئات.. والمستمعون يشاركون بالتليفون.

وهى مناسبة لتعليم التاريخ الوطنى، وتعميق الثقافة العامة ــ ويمكن تنفيذه فى مصر!



ونحن نتعلم ركوب الدراجات والسيارات أيضاً يقال لنا : لا تنظر إلى يديك أو قدميك .. انظر إلى الامام !

أى أن النظر إلى تحت وفوق وإلى ما الذى تعمله لكى تتحرك الدراجات والسيارة سوف يؤدى إلى ارتباكك .. إلى اصطدامك ، فلا تتقدم بسلام !

ونحن فى حاجة إلى مثل هذه النصيحة الآن . ولا أبرىء نفسى ولا أحد . فما الذى نجده فى كل الصحف المصرية والعربية نحن لانتقدم فكلنا نهاجم كلنا . وكلنا نلعن الجميع . واليسار يرمى الطين على اليمين واليمين يعيد الوحل إلى اليسار والذين يدعون الله أن يحمى مصر من يسارها ويمينها ، يستخدمون الطوب والطين أيضاً .

والذين يحاولون أن يسدوا الباب الذى يأتى منه الريح ، يسدون الباب ببراميل من القطران . والذين يتغنون ويرقصون ينسون الباب والريح ويجعلون الليل أشد سواداً مما تحتوى عليه البراميل . والذين يعبون المشروبات الملونة التى تشعل الرأس والذين ينامون مخدرين .. والذين يهدمون والذين يهاجرون ، لاينسون فناجين البن السادة ـ مضاعفة للمرارة أو حداداً على مصر !

فنحن لاننظر إلى أقدامنا فقط ، وإنما نحن ننظر وراءنا فى غضب ، وأمامنا فى يأس .. ومن الغضب على الماضى واليأس من المستقبل ، نشعل

مصابيح الغاز السام لاجيال بريئة لاذنب لها إلا أنها ولدت فى العشرين عاماً الماضية.. وإلا أنهم صدقوا ما سمعوا وما قرأوا ولا يزالون يقرأون.

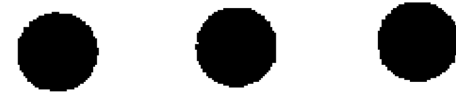
ونلقى منهم احترام الأب والعم والخال والاستاذ والرئيس.

هل من علاج ؟

نعم.. أن ننظر وراءنا مرة وأمامنا مرتين.

هل من علاج آخر؟

نعم.. أن يكون اتفاقا معلنا بيننا جميعاً. فلسنا ابرياء مما حدث. فقد كنا شهوداً عليه. ولسنا أبرياء مما سوف يحدث، فنحن شهود ومتفرجون.. والذى يسيل من أقلامنا، ليس مداداً وإنما هى دماؤنا ودماء الآخرين!



فى البلاد المتحضرة يسبح القانون فى بحر من القيم الاخلاقية.. بل أنك لست فى حاجة إلى قانون ليقول لك: إذا وقفت سيدة فى الاتوبيس، فاترك لها مقعدك. ولست فى حاجة إلى قانون لكى تضع الورقة فى جيبك بدلا من أن تلقى بها فى الشارع..

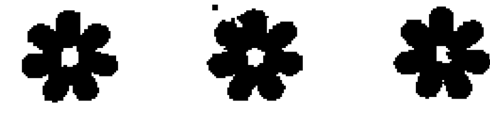
ثم ما هو ذلك القانون الذى يجعل مواطنا مصريا فى أقصى الشمال من أمريكا يعلق خريطة ممزقة لمصر. عمر هذه الخريطة ثلاثون عاماً. سألناه: ما هذه؟ فقال: إن هذه الورقة لها لون خاص وعطر خاص.. أنها رائحة مصر.

فسألناه: إن كانت لهذه الورقة دلالة خاصة عنده..

وعرفنا أن الورقة ليست لها أية دلالة خاصة. ولكنه لا يملك إلا هذه الخريطة. واتفقنا على أن نبعث له خرائط وصوراً وكتباً عن مصر. وعلمنا أنه أقام لها معرضاً فى قرية فى شمال الاسكا تبعد عن أى مكان متحضر مئات الأميال. أنه صاحب الفضيلة د. عبدالرحمن أحمد الخضيرى. إن لم يكن من أبناء مصر الطيبين، فهو واحد من أولياء الله الصالحين!

ثم ما اسم هذا القانون الذى يجعل مواطنا مسكينا يجد حقيبة بها عشرات الألوف من الجنيهات. لم يره أحد عندما التقطها. ولن يراه أحد إذا أخفاها فى بيته وأودعها أحد البنوك وراح ينفق منها مدى الحياة. ثم أن هذا المواطن يلتقطها من الأرض ويلقى بها فى قسم الشرطة ويمضى دون أن يترك اسمه. والقانون يعيطه جانبا من هذا المال. ولكنه يرفض!

رأيت أحد المشتغلين بسياسة مصر اطال لحيته، مثل عرابى باشا. ثم اختصرها مثل تروتسكى أولينين أو هرتسل. ثم أشار عليه بعضهم أن يطلقها مثل حسن البنا ــ والرجل صريح من كراهية لكل هؤلاء.. ولكنه يريد أن يختار لنفسه صورة من الكذب والضحك على ذقون الناس. فما اسم هذا القانون الاخلاقى الذى يدعى أنه ينتمى له ؟!



هذه القصة المفيدة والتى لها معنى اليوم وكل يوم انقلها عن كتاب ممتع حقا لفضيلة الأستاذ أحمد حسن الباقورى فى موضوع لا يخطر على بالك أنه من الموضوعات التى تشغل رجلا عالماً متفقاً فى أدب الدين قبل أن يكون أدب الدنيا. الكتاب أسمه «فى عالم الصيد»..

ينقل الباقورى عن المؤرخ الكبير المقريزى أن سيدة اشترت جوال دقيق بألف دينار. واحتاجت إلى من ينقل لها الدقيق إلى البيت. ووجدت عدد من اللصوص يحملون دقيقها وينهبون الدقيق شيئاً فشيئاً. عملاً بالحكمة التى تقول: حاميها حراميها..

ومن الدقيق الذى تبقى صنعت كعكة. أخذت الكعكة ووقفت على باب قصر الملك المستنصر تدعوا الله أن يوفق الملك الذى يباع فى عهده الرغيف بألف دينار!

وضاق الملك واستدعى الوالى وهدده بأنه أن لم يعالج مشكلة الدقيق والرغيف فسوف يأكل الناس كل شىء وسوف يهدمون الدولة على رأس الملك والوالى..

وأهتدى الوالى إلى فكرة. فأخرج اللصوص والقتلة من السجون. وأتى بهم أمام تجار الغلال فى مصر. وأمسك السيف وقطع رقاب اللصوص واحداً واحداً وهو يقول: «سرقتم أموال الشعب.. سرقتم طعام الشعب. ولذلك فلا علاج لهذه الرقاب إلا بقطعها!

ورأى تجار الغلال مصير اللصوص. فاستعانوا بالوالى أن يكف عن قطع بقية الرقاب.

وخرج تجار الغلال، أى لصوصها أيضاً، وفتحوا مخازنهم وطرحوا الغلال فى الأسواق..

وكان الجوع قد دفع الناس إلى أن يأكلوا لحم الكلاب والقطط...

والشعوب كالأفاعى، تزحف على بطونها.. فإذا خلت بطونها، امتلأت أفواها بالمرارة وقلوبها بالحقد وأيديها بالسلاح تقتل بعضها.

ونحن لا نشكو من قلة الدقيق، وإنما شكوانا من كثرة اللصوص — فلنتعلم من التاريخ!



فات الهيئات العسكرية فى مصر أن تحتفل بمرور قرنين على ميلاد فيلسوف العسكرية فى كل العصور: كارل فون كلاوسفتس. هذا الجنرال الالمانى الروسى لم يشتهر بمعاركه الفاصلة أو انتصاراته الساحقة، وإنما بفلسفته العميقة فى فهم الحرب وأساليب الحرب وأسبابها وأهدافها، كما لم يفعل أحد.

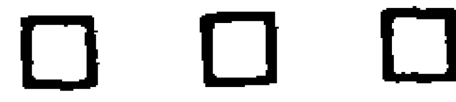
وهو قد ولد فى مدينة بورج فى ألمانيا الشرقية. ثم دفن فى احدى مدن بولندا ونقله الألمان فى سنة ١٩٦٠ ليدفن فى المدينة التى ولد فيها. ومن الغريب أن العسكريين فى الشرق والغرب لم يعرفوا عظمة هذا الرجل. وإنما الذى اهتدى إلى عبقريته فيلسوف الشيوعية فريدريش انجلز. ولذلك فقد احتضنه الشيوعيون منذ وقت طويل. وقرأ الزعيم لينين ماكتبه كلاوسفتس «عن الحرب» عندما كان فى منفاه فى سويسرا سنة ١٩١٥. وأضاف لينين إلى كلاوسفتس الكثير من التعديلات.

وللفيلسوف الروسى كلمات خالدة لأنها صادقة ونافذة. ومن أهمها عبارته الشهيرة: إن الحرب هى استمرار للسياسة ولكن بوسائل أخرى. أى أن الحرب هى السياسة والسياسة حرب. وأن الحرب هى الصراع الذى لا يحسمه إلا الدم. والسياسة هى الأساس. حتى الجيش سلاح سياسى لتحقيق السلام.

وعندما ذهب مستشار ألمانيا هيلموت شميت إلى الصين حدثوه عن

هيام ماوتسى تونج بكلاوسفتس. وقالوا له: لم يكن لماوتسى تونج علاج معروف للأرق إلا هذا الفيلسوف.

ولكن فيلسوف العسكرية كان فى حاجة إلى فيلسوف آخر، مات دون أن يهتدى إليه. فلم يفلح الرجل فى أن يفهم المرأة. تقدم إليها. أحبها طلب الزواج منها فرفضت وأدهشه ذلك. ثم أنطوى على نفسه. ووجد لها عذراً ولنفسه أيضا: فلم يتسع وقته ليقرر إن كان الحب هو الكراهية ولكن بوسائل أخرى!



لا اعرف بالضبط اسماء المجلات أو الكتب التى كنا نقرؤها ونحن أطفال. هل كانت هناك مجلة اسمها: سمير التلميذ..

ولكنى أذكر تماماً أن أول كتاب جلست أقرأه وأردد ما فيه من عبارات جميلة أو من شعر اخلاقى هو كتاب «ادب الدنيا والدين» ولا أظن أن احداً من الأطفال والشبان يعرفونه الآن ــأو يجد ضرورة لذلك. ولكنه من الكتب التى أحنيت رأسى فيها كثيراً. والذى حفظته منها لايزال كما هو فى رأسى: مئات الابيات وعشرات العبارات الحكيمة..

ولم يكن كتاباً مسليا. فليست فيه قصص ونوادر ولا ما يشغل الخيال ويطلق فيه النار فى كل الاتجاهات، فأذا بى أطير بأجنحة طيور ألف ليلة وأدير حواراً فى داخلى مثل حيوانات «كليلة ودمنة» وهانس اندرنسن والأخوين جريم، مما يعرفه التلامذه الصغار الآن!

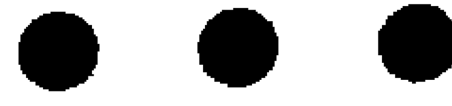
ولما بدأت اختار لنفسى ما يعجبنى قرأت «روايات الجيب» التى كان يقدمها فى عبارة سهلة الاستاذ عمر عبد العزيز أمين ومعها أيضاً روائع الأدب العالمى.. وقرأت بعد ذلك «جولات» الأستاذين ثابت.. وعرفت بعد ذلك قصص الكيلانى..

ولما ذهبت إلى معرض كتب الأطفال وجدت عوالم أخرى لم أكن أعرفها..

فالطفل يجد كل ما يريد وفى كل شىء.. كتبا صغيرة انيقة الشكل جميلة الصفحات سهلة العبارة.. فى العربية والانجليزية. ويجد لعبا من

الورق ومن المعدن .. ويجد لعبا كهربية وأخرى الكترونية ومعها كتب .. أنه لايجد غرابة فى كل ذلك . فقد رآه على شاشة التليفزيون ..

وأنا لم أر السينما إلا بعد أن تخرجت فى الجامعة ، ومع الاستقلال فى الحياة والرأى اقتنيت أول راديو فى حياتى .. أما طفل اليوم فمعلوماته أكثر وخياله أوسع ، ولكن اعتماده على الآخرين أكبر وعلى نفسه أقل .. وهو مشاهد من الدرجة الأولى وقارىء من الدرجة الثانية ـ فالكتب ليست شاشات تليفزيونية وطفل اليوم كثير الكلام ، لأنه لا يقرأ فالقراءة هى حسن الاستماع لما يكتبه الآخرون !



أجد من الضرورى أن أتابع أحياناً برامج الأطفال. فأنا أريد أن أعرف ما الذى يقال لهم. ولا أظن أننى أحن إلى الطفولة، فقد كانت طفولتى حزينة بائسة. كطفولة كل ابناء الريف.

فقد كنا نتسابق فى ركوب عصا، على أنها حصان.. وكنا نتسابق فى أن نأكل بصلاً أكثر من الآخرين، فنأكل ونبكى ونمرض.. وكان بعضنا يقوم بوضع التراب بالقوة فى عيون الاطفال وكان أقاربنا يرون فى ذلك «بشرة خير» فسوف نكون اطباء للعيون..

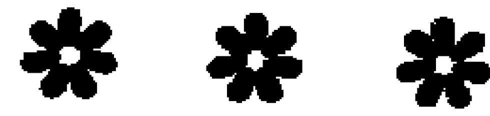
أين هذا من لعب الأطفال اليوم؟ من اللعب الموسيقية والالكترونية والأتارى وبرامج التليفزيون والحفلات المدرسية والاغانى والرقص والكتب الانيقة والكتب الموسيقية والكتب المجسمة..

رأيت برنامج السيدة صفاء قطب. وادهشنى اننى لم اسمع كلمة البعبع ولا العفريت ولا أمنا الغولة ولا أبو رجل مسلوخة.. إلى آخر الاشباح والخزعبلات التى ملأت حياتنا وسودتها وأغرقتها فى الطين!

ومنذ أيام وجدت طفلاً صغيراً فى مكتبى. جلس على الكرسى وجعل يكتب فحاولت أن أخرجه بالقوة فلم أفلح.. فأطفأت النور. فظل جالساً. فأغاظنى أنه لا يخاف. ولو حدث ذلك لى ولجيلى، لملأنا الدنيا صراخاً.. ولكنى وجدته يتسلل فى الظلام ويحاول أن يدير التليفزيون مع أنه لم يبلغ الثالثة من عمره!

وسارعنا إليه نصحح محاولاته في ادارة التليفزيون ــ أى أننا لم ندع فرصة تفوت دون أن نعلمه شيئاً جديداً!

وإذا كان الاصلاح ضرورياً، فالتربية والتعليم هى البداية. والطفل هو المستقبل. فلنعلمه كيف يفكر بيديه. ويتخيل ويبدع صوراً وقصصاً. وأن ننتقل معه بشجاعة من لعبة إلى لعبة ومن قصة إلى قصة.. ومن معنى نفسى إلى معنى اجتماعى. وأن ننقل هذه التربية المثيرة من التليفزيون إلى البيت ومن البيت إلى المدرسة ومن المدرسة إلى الشارع..



مع بداية التليفزيون تحولت جميع المسارح فى القاهرة إلى استديوهات تعمل لحساب التليفزيون. وقد كنت عضواً فى لجنة قراءة النصوص المسرحية، ولجان التحكيم المسرحى. وأذكر أنى فى احدى المرات جلست وحدى اراقب مسرحية «جلفدان هانم» من تأليف المرحوم الأديب والشاعر على أحمد باكثير وبطولة محمد عوض الذى كان تلميذى فى قسم الفلسفة بالجامعة. فلم يتمكن بقية أعضاء اللجنة من الحضور. وكان من حقى أن اعترض على العبارات الخارجة والمشاهد النابية فتتغير هذه المشاهد أو يحذفونها فوراً.

ولم يكن مألوفاً فى ذلك الوقت، أن يعيدها الممثلون فى غياب الرقابة. وفى أوائل الستينات نشطت كل المسارح الكوميدية الحديثة والعالمية ومسرحيات العبث أو اللامعقول. أنا شخصياً ألفت أربع مسرحيات وترجمت للمسرح والتليفزيون سبع مسرحيات والفضل يرجع إلى حماس د. عبدالقادر حاتم والأستاذ سيد بدير والمرحوم حسن حلمى مدير التليفزيون فى ذلك الوقت.

ولاتكاد المسرحية تظهر للجمهور حتى تنقل بعد أيام إلى التليفزيون وظهرت كل المواهب الشابة على المسرح وفى التأليف المسرحى.

لقد كان عندنا عطش وجوع إلى الفن المسرحى. وأحسسنا فى ذلك الوقت أننا نعوض الذى فاتنا. وأننا مثل كل العواصم الأوروبية عندنا المسارح التقليدية وعندنا المسارح التجريبية. فكل المسرحيات المعروضة فى

باريس ولندن قد ظهرت على المسارح المصرية مثل مسرحيات « العبث » أو اللامعقول للكاتب الفرنسي يونسكو والكاتب الايراندى بيكيت وغيرهما. وظهرت لتوفيق الحكيم مسرحيات العبث التى استنكرها طه حسين فور ظهورها ووجد فيها نوعاً من الهذيان ونوعاً من انعدام المنطق، وظهور اعراض المرض والشيخوخة على الحضارة الغربية. ولكنها انتشرت وظهرت محاولات لشبان يقلدون الحكيم والمؤلفين الأوربيين..

بمنتهى الصراحة: اختفى الجد وانتشر الهزل والهزل انتشر بجهوده الذاتية، وضعف الجهود الرسمية!



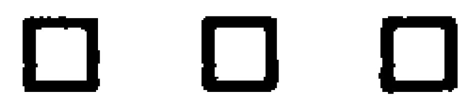
رأيت على شاشة التليفزيون شرحاً لعبور قواتنا فى أكتوبر ١٩٧٣ ، وقام بالشرح عدد من الخبراء العسكريين وقد بهرت واعجبنى واقنعنى بأن الذى قامت به قواتنا عمل عظيم .. والذى اعجبنى هو أن شرح العبور كان علميا بسيطاً : بالرسم والصورة والكلمة الهادئة ولذلك أرى أن يعم ذلك فى دور السينما ، وأن يوزع على المدارس مطبوعاً مكتوباً . فانتصارات أكتوبر هى أعظم إنجازات مصر العسكرية كما أن مبادرة السلام هى أروع خطوات السلام ، وقمة كامب دافيد هى أكبر إنجازات السلام ، وأن ما سوف نتفق عليه مع أمريكا واسرائيل هو « النمط » الذى سوف يتحقق به السلام الحقيقى فى الشرق الاوسط ..

ونحن قد ظلمنا أنفسنا كثيراً ولا نزال ، فلو أننا أستعرضنا الكتب والدراسات والندوات والافلام عن حرب أكتوبر فأننا نجدها قليلة ، والكثير من هذا القليل لاقيمة له . مع أن التجربة هائلة وأثارها بعيدة . ولكن اسرائيل بسرعة أصدرت كتباً ومحاكمات وتقارير ونشرات وندوات وأكاذيب ومبالغات حولت هزيمتها فى أكتوبر إلى نصر عظيم ــ هى التى تقول ذلك !

ولكن بسرعة انتشرت هذه الكتب بعشرات اللغات بينما دراساتنا أكثرها صحفى ، أى سطحى .

ولكن يبدو أن هناك لعنة « عربية تصيب كل شىء عربى .. فالعرب مختلفون وممزقون وأكثر ضراوة على أنفسهم من اسرائيل ، فبدلاً من أن نقرر

حقيقة واضحة وهى أننا جميعاً شاركنا بما نستطيع، فأننا نهزم أنفسنا دون أن نقيم شيئاً على انقاض معاركنا الكلامية.. فبينما عدونا يتفرج على خيبتنا، ويبنى عليها صروحاً من المجد والتخويف والارهاب.. حتى إذا ما ظهرت بادرة السلام، لم نستفد منها.. وإذا ما خطونا نحو السلام فزعنا من ذلك، وفضلنا أن نلعن الظلام بدلاً من أن نشعل شمعة.. وأن نبكى على ويلات الحرب، بدلاً من أن نتطلع بالامل والعمل إلى تباشير السلام!



فى ايران بدأو يقتلون اليهود فى الشوارع وفى المستشفيات. ويهدمون معابدهم ويحرقونها وغداً يحرقونهم. واليهود فى ايران، كما هم فى كل مكان، يمثلون الرأسمالية المستقلة مصاصة الدماء. ويمثلون السمسرة العالية بين القادرين من أصحاب السلطة وأصحاب الفلوس. وهم فى إيران يمثلون الاحتكارات الكبرى لصناعة وتجارة السجاد العجمى والذهب والماس والبنوك، وكان اليهود قد استقروا فى ايران شعباً يضم سبعين ألفاً، وديناً ضمن الاديان المعترف بها: الاسلام والمسيحية واليهودية والبهائية. ولهم عضو فى البرلمان.

ومن مفاخر إيران أن الملك قورش هو الذى أعطى لليهود الحق فى الحياة الكريمة فى فارس القديمة واعادها إلى القدس وسمح لهم أيضاً ببناء الهيكل الذى هدمه ختنصر البابلى.

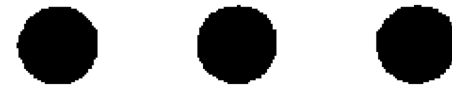
ولهذا السبب فإن إيران عندما احتفلت منذ سنوات بقورش العظيم ومبادئه الإنسانية الرفيعة، قامت كل أجهزة الدعاية اليهودية بتمجيد ذلك الامبراطور العظيم رمز التسامح الدينى..

ولكن تاريخ العذاب اليهودى والاضطهاد يبدأ هكذا: بارتفاع المد الدينى فى منطقة من المناطق، فإذا ارتفع المد الدينى أحست الاقليات أنها المقصودة. فتتعصب الاقليات وتتماسك. وهذا التماسك يؤدى إلى التآمر من جانب الاقليات والاتصال بأعداء الاغلبية وهذا يثير منصب الاغلبية أو تقع أزمات اقتصادية تؤدى إلى الثورة على الأغنياء وعلى سماسرة الأغنياء اليهود..

واليوم يقف العالم كله وراء السلام. أى ضد حكومة اسرائيل وضد رئيسها بيجين بصفة خاصة. فقد ادعى أنه يريد السلام حتى فاز بالجائزة التى أعطيت له بقشيشاً. ثم عاد ينكر أن هناك كلمة اسمها السلام.

وهذه هى الشرارة الابدية لاشعال النار التى تأكل أمثال بيجين وتذيب دموع اليهود: بكاء عليه من جديد وإلى غير نهاية!

وإذا كان لابد أن نختار لبيجين اسماً جديداً يناسب أحداث العصر فليكن اسمه «شرارة العداء للسامية» فى الربع الأخير من القرن العشرين!



سبحان الذى يغير ولا يتغير. لقد اعترض أساتذة وطلبة جامعة كولومبيا على قبول د. هنرى كيسنجر عضوا فى هيئة التدريس!

وكيسنجر كان يملأ العين والأذن ويهز القلب ويوجعه أيضاً.. ويرى فيه الامريكان صورة التسامح فهو اليهودى الذى هاجر إلى بلادهم وأصبح الرجل الثانى فى أمريكا والمهندس الأول للأمن القومى والعلاقات الدولية. وهو الذى أخترع الوفاق أو لف الورود حول رأس نيكسون وبريجنيف.. ونيكسون وماوتس تونج.. وهو الذى أنهى حرب فيتنام وفك الأشتباك فى الشرق الأوسط..

وهو الذئب الذى يفتك بقلوب العذارى.

وألمانيا ترى أنه ألمانى، أولاً وأخيراً وأنه واحد من الألمان النابهين الذين يعيشون فى أمريكا.. والذين أطلقوا صواريخها وأقمارها الصناعية.

واليهود يرون أنه واحد من هؤلاء الذين بشرت بهم التوراة.. أحد أمراء اليهود الذى ترك بلاده وسافر بعيداً ليقود الجميع!

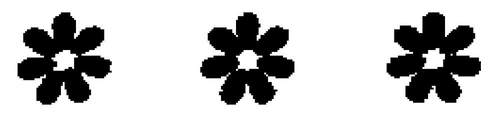
ولكن علماء كولومبيا اختلفوا حول كل ذلك. فالطلبة والأساتذة تظاهروا يطالبون برفضه. لأن سلوكه فى حرب فيتنام وفى مذابح شيلى وفى فضيحة ووترجيت كان لا أخلاقياً. وإن هذه الصفات كافية لرفضه من أية جامعة..

وقال أساتذة وطلبة آخرون: أن الجامعة إذا رفضت قبول كيسنجر فهى قد حكمت على نفسها، ولم تحكم عليه. فمعنى ذلك أنها لا تعرف التسامح،

ولا تقبل وجهات النظر المختلفة فى السياسة أو فى إدارة الحروب .. فالجامعة مكان لوجهات النظر المعددة فهل يقبل د . كيسنجر أن يختلف عليه الناس بهذه الصورة الحادة ؟

هل يصبح أستاذاً جامعياً رغم أنف الكثيرين من الأساتذة والطلبة ؟

أعتقد أنه سوف يقبل ذلك ، لأنه أعتاد على المظاهرات أمامه ووراءه ترميه بالطوب وبالورود .. ثم ينجح فى النهاية . ويكون نجاحه صاروخاً شديد الدوى كثيف الدخان شاهق الارتفاع .. وإلا كان إنساناً تافهاً . والناس لايتفقون إلا على حقيقتين : أن الموت حق ، وأن قوانين الضرائب باطلة !



لقد أضفنا لقائمة المخاوف الوطنية شيئاً جديداً : المخدرات .

فالناس يتحدثون ويبالغون فى هذا الذى أصاب شباب مصر أما الأطفال فيقلدون الكبار. ولا يعرفون فداحة هذه اللعبة الخطرة التى سوف تظهر نتائجها المرضية والأخلاقية بعد وقت قصير.. أما الشباب فطبيعى أنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك كثيراً.. فعدد كبير يدمن الجنس والأفيون ويشم الهيروين والكوكايين..

ويفزع الناس لما يقال من أن أطفال المدارس يلعبون بالنار.. دون أن يلفتهم أحد إلى بشاعة هذا الذى يتعاطون. ويقال أيضاً أن عدداً من الشباب يسافرون إلى الريف ليجدوا من يحقنهم بالمورفين ــ فبعضهم لا يجرؤ على ذلك فى القاهرة .

وسمعت أيضاً عن الذين تخصصوا فى صنع أقراص الهلوسة . وبعضهم من طلبة الكليات العملية . أما الأسعار فهى فادحة . ولكى يحصل الشبان على تكاليف ذلك فهم يسرقون ويخطفون وغداً سوف يقتلون . وليس أمامهم إلا المضى فى هذا الطريق أو التوبة بالأنضمام إلى الجماعات المتدينة ففيها يقلع عن هذا الادمان ، بادمان شىء آخر ويبقى سخطه على الناس أشد ، ورغبته فى الأنتقام أعنف .

ويقال عن الفنانين ، رجالاً ونساء ، أنهم يشمون الهيروين والكوكايين . وان « الشمة » الواحدة تساوى مائة جنيه ويقال أكثر. وبعض الفنانين يستخدم أنبوبة من الذهب .

وأنا على يقين من أن بعض الفنانين وغيرهم من الأغنياء يفعلون ذلك. ولكن صناعة الثرثرة والاثارة تضيف إلى هذه المعلومات الصحيحة الكثير من الخيال والطرائف غير المعقولة.

وأرى ان الحالة خطيرة جداً.. وانها ليست مهمة أجهزة الأمن وحدها.. وإنما كل أجهزة الدولة ووسائل الأعلام يجب أن تحذر من فداحة كل ذلك.. فهذا مرض يهدد حيوية مصر ويبدد الكثير من الطاقة والمال ويصيبها بالتسوس والأنهيار على نفسها!



أننى أدعو إلى الأمتناع عن التدخين. لأنه ضار. وليس هذا أكتشافاً أهتديت إليه وحدى، وإنما هى حقيقة يعرفها كل الذين يدخنون، ولا يجدون هذه الدعوة المخلصة قادرة على إقناعهم.

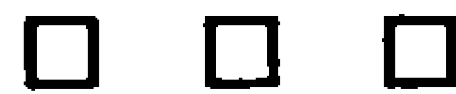
ولكننى أقلعت عن ذلك، كلاماً أو كتابة، لأن الناس عادة لا يحبون الذين ينصحونهم. ففى النصيحة نوع من التعالى على الناس. ومعناه: أنتم لا تفهمون وأنا أفهم. أنتم ضعاف الأرادة وأنا قوى. وفى هذه النصيحة نوع من الكذب على النفس. لأن معناها: أننى حريص على صحتكم، حرصى على صحتى أيضاً. والحقيقة أننى أخاف من تدخينهم فى وجودى. ففى وجودهم ضرر من الممكن أن يصيبنى..

وعدلت عن النصيحة، لأسباب أخرى. وهى أن الهواء العادى، أى الخالى من دخان السجائر، مسموم. ففيه ما هو أخطر من النيكوتين ومن ذرات السجائر— ذرات الورق المحروق. والتحليل الكيميائى للهواء العادى به كل أنواع الأبخرة والغازات السامة وذرات المعادن المستخدمة فى عمليات الأحتراق..

وكل شوارع العواصم الكبرى مسمومة تماماً بارتفاع مترين على الأقل. ولذلك فالسير فى شوارع المدن ضار وقاتل.. وإذا كان الناس لا يزالون أحياء، فليس ذلك يسبب أختفاء أسباب الأصابة بكل أمراض الصدر والقلب، وإنما بسبب «عبقرية» الجسم الانسانى.. فهى التى جعلته قادراً على التكيف مع السم، وقادراً على المقاومة وابتلاع وأمتصاص كل هذه المواد الضارة وأختزانها إلى فرصة أخرى.. تجىء فى الأربعين أو الستين.

وليس صحيحاً أن كل المصابين بالسرطان من المدخنين ولا من مدمنى الخمور ولا أكلة اللحم المشوى على الفحم، ولا الذين يعملون فى رصف الشوارع وأستنشاق الزفت ولا المشتغلين بأستخدام الأشعة فى علاج السرطان..

ونحن فى حياتنا العادية يغلب علينا أسلوب الأب والأم. ومن عادة الأبوين النصح الشديد والتوجيه العنيف. وهى أيضاً من عادات أكثر الكتاب ــ فعذرة!



المصريون الذين كانوا يطالبون بأن نترك الحروف العربية، وان نكتب بالحروف اللاتينية. قد ماتوا قبل أن يعرفوا نتيجة ذلك فى تركيا فقد قرر كمال اتاتورك الغاء الخلافة الإسلامية من ستين عاماً، والغاء الحروف العربية أيضاً. والأتراك اليوم يكتبون بالحروف اللاتينية واستعانوا على نطق الكلمات بالشكل الألمانى والسلافى للحروف المتحركة وهم يرون فى ذلك ضبطاً وربطاً للنطق التركى الصعب، كانوا قد أفتقدوه فى الحروف العربية.

وقد أدى أستخدام الحروف اللاتينية، إلى ان الشعب التركى فيما عدا العواجيز والشيوخ، أصبح غير قادر على أن يقرأ كل تاريخه القديم فى الكتب وفى النقوش على مساجده وقصوره.

فقد أنقطعوا تماماً عن ماضيهم وان كانوا فى نفس الوقت قد وجهوا جهودهم الثقافية إلى ترجمة تراثهم إلى الحروف الجديدة، ثم ترجمة الفكر الغربى أيضاً واليوم أقروا بعجزهم تماماً عن نقل تراثهم فى لوريات الحروف اللاتينية ولذلك هناك اتجاه إلى أعادة تعلم الكتابة العربية.

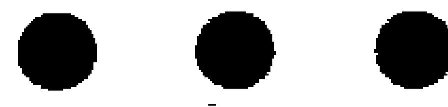
ولكن أحداً لا يجرؤ على الجهر بذلك خوفاً من أن يؤدى إلى الأنحراف بالآثار العميقة لهذا القرار الخطير الذى أتخذه أتاتورك ــ وهو الزعيم المقدس الذى لا يمكن نقده أو مراجعة تماثيلة فى كل مدينة أو قرية.

فقد قفز أتاتورك ببلاده الأسيوية الأوروبية الإسلامية، إلى الغرب

أبتداء من الحروف اللاتينية ومروراً بالدولة العلمانية رغم أن ٩٩٪ من سكانها مسلمون .

والإسلام فى تركيا معناه ان المسلم هو الذى ليس يونانياً ولذلك فهناك مسلمون لا يؤدون شعائر الدين وهناك مسلمون يؤمنون حقاً وصدقاً ولكنهم لا يجدون الكتب الكافية التى تحدثهم عن ذلك، أو التشجيع من العالم الإسلامى .

أن مفكرينا القدامى الذين كانوا يتلهفون على الافلات من الحروف العربية ، أنقذهم موتهم من هذه الكارثة التى كانت ستصيب مصر والعالم العربى والإسلامى !



وبعد ساعة من مناقشة حادة، أحسست أنه أقفل باب عقله فى وجهى! مع أننا كنا نتناقش فى قصة يومية فى كل بيت وفى كل وقت: من أين نبدأ اصلاح حالنا فى مصر.

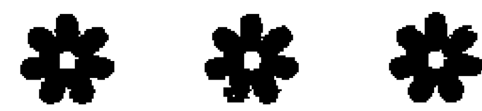
والبداية أن نعرف ما هو هذا الحال الذى لا بد من اصلاحه: البيت.. الشارع.. المدرسة.

وأتفقنا على انها كلها فى حاجة إلى اصلاح. وان الأصلاح يبدأ منا وبنا فلا يمكن تطبيق شيء دون ان يكون هناك أشخاص يفعلون ذلك. ولا يمكن أن ينجح هؤلاء الأشخاص دون أقتناع. ولا يكفى أن يكون الأقتناع نظرياً لتحقيق ما نريد. فلا بد أن نؤمن بقدرتنا جميعاً على تنفيذ ما نراه اصلاحاً لحالنا. وأقتناع بعض الأفراد لا يكفى. وإنما يجب أن يكون مقرراً هنا علينا ــ أى نفرضه جميعاً على أنفسنا وأن نبدأ فوراً الآن. باتخاذ أى قرار.. مثلاً: فتح حنفية الماء ثلاث ساعات كل يوم وكل انسان متروك لضميره.. أو جمع الزبالة ونقلها إلى مكان بعيد عن البيت أو خارج المدينة لمن يستطيع ذلك.. أو الا يكون الراديو أو التليفزيون مسموعاً لدى الآخرين.. أو نأكل مرة فى الأسبوع.. أو ليكن من كل أسرة واحد يصيد السمك من النيل فى يوم الأجازة..

وكان من رأينا معاً ان الشعوب أطفال يجب أكراهها بالضرب على تناول الدواء. فالعودة إلى الكرباج ضرورية.. أما فتح السجون من أجل سلامة ورفاهية هذا الشعب الكثير الفقير فليس من رأيى!

وكان وزنه كبيراً ، ومسرفاً فى التدخين . وقلت له : ما رأيك لو بدأت بالصيام يومين فى الأسبوع طوال هذا العام وأن تكف عن الشاى والقهوة والسيجارة حتى ينقص وزنك ..

أى طلبت إليه أن يبدأ بنفسه ! لما قلتها أنطفأت كل الأنوار فى عينيه ، وكذلك الرغبة فى الكلام !



الله سبحانه وتعالى وحده الذى يعرف أين تذهب هذه الأموال التى يلقى بها المصريون فى صناديق النذور..

ذهبت مع أصدقاء إلى مسجد السيدة زينب رضى الله عنها، كان الوقت ظهراً، والمسجد أمتلأ. وفى جانب من المسجد صلينا. ثم أتجهنا إلى حيث الضريح. ووقفنا وقرأنا الفاتحة. وتزاحمنا. ورحنا ندور حول الضريح الذى تلألأ بالأنوار والمصابيح، والعطور والبخور يجىء من كل أتجاه. ووجدت صديقى قد فتح حقيبته. وأخرج منها عدداً من المظاريف. وراح يلقى بها الواحد وراء الآخر فى صندوق النذور.. عشرة.. عشرون ولابد أنها تضم مئات الجنيهات. سألته. وسمعت الذى توقعته. فبعض أقاربه نذروا لله أن نجح فلان دفعوا للسيدة زينب كذا، وان شفى فلان وضعوا فى صندوقها كذا..

ومن عشرين عاماً قامت احدى المؤسسات العلمية بدراسة للخطابات التى يبعث بها المواطنون إلى الله فى صندوق بريد سيدنا الحسين وسيدتنا زينب رضى الله عنهما.. وكلها خطابات تتحدث عن متاعبهم النفسية والمادية والأجتماعية.. وعجزهم عن حلها.. فلا يبقى الا أن يدقوا أبواب السماوات..

وقد رأيت «حائط المبكى» بالقدس وكيف يتزاحم عليه اليهود يضعون أوراقاً بين الصخور.. أنها شكاواهم إلى الله..

ورأيت فى الطريق إلى «غار حراء» بمكة المكرمة اناساً يربطون فروع الشجر بقطع من القماش.. ورأيت من يعلق خطابات إلى الله..

وبعض المتشددين يرون ذلك حراماً لأنه لم يرد فى حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا جاء فى القرآن شيء من ذلك.. ولكنى أرى ذلك حلالاً، فهم اناس طيبون يستريحون نفسياً إذا فعلوا ذلك.. فليفعلوا..

ولا أحد ينسى ما قاله شاعرنا البائس حافظ إبراهيم عندما سمع بمئات الألوف من الجنيهات فى صناديق النذور، ولا شيء من ذلك فى يديه:

من لى بحظ النائمين بحفرة
قامت على أرجائها الصلوات

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم
وبألف ألف يرزق الأموات!



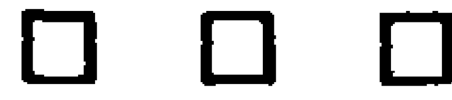
لا أذكر ان سيدات مجلسى الشعب والشورى قد دخلن أمتحاناً من أجل الدفاع عن حقوق المرأة ــ أو حتى الدفاع عنها وعن الأسرة والطفل. ولكن أذكر حادثة واحدة. كانت قد أحتضنتها مجلة «أكتوبر» منذ سنوات.. الحادثة أن سيدة من السويس كانت تسكن شقة. ثم فوجئت بأن عضواً فى مجلس الشعب قد أستولى عليها وطردها هى وأبنتها فى الشارع. سيدة من المهجرات. وكان لها دور نبيل أثناء أحتلال إسرائيل فى سنة ١٩٧٣.

فإذا كانت سيدات مجلسى الشعب والشورى يبحثن عن قضية نموذجية ليكون لهن رأى وموقف، فقد كانت هذه هى القضية. ولكن لم يكن لهن رأى ولا موقف. إذن لقد فاتت هذه الفرصة النادرة، التى تجعل لوجودهن فى مجلسى الشعب والشورى، مبرراً حقيقياً. وضاعت الفرصة وخرجت السيدة من الشقة إلى الرصيف. وبقيت سيدات المجلس فى مكانهن. ولكنهن سقطن فى أول أمتحان ــ يستوى فى ذلك من كان لها رأى، والتى سمعت بالقضية ولم تشأ أن يكون لها رأى. والتى كان لها رأى، لم تذهب إلى أبعد من ذلك..

والآن جاءت فرصة أخرى وهى «قانون الأحوال الشخصية» ــ أحوال المرأة وعلاقاتها بزوجها وبيتها وأولادها ومستقبل مصر. نريد أن نعرف ان كان هذا القانون قد أستخلص للمرأة حقوقاً من أنياب الأسد الذى هو

الزوج وفقهاء القانون والشريعة ، وان كانت المرأة حريصة على أن تحتفظ بالذى كسبته .. أم أنه يستوى عندها أن تكسب وأن تخسر. فأن كانت سيدة واحدة تريد قضية وتريد تحدياً وتريد هدفاً لحياتها ، فما هى الفرصة التى لا يصح أن تضيع بسبب شهر الصيام ولا بسبب الأجازة الصيفية والبرلمانية ..

والا فالمرأة لم تكسب هذه المقاعد وإنما شغلتها فقط ، فانشغلت المرأة عن قضايا ملايين النساء اللاتى يتطلعن إليهن فى أمل .



كلمة أعتذار واجبة أتقدم بها للسادة الكرام الذين يهنئون بالعيد وبمناسبات مختلفة. فأنا لا أعرف عناوينهم لأشكرهم على هذا الفضل النبيل.

وهى ظاهرة عجيبة حقاً. فهناك قراء يحرصون على تقديم التهنئة بحلول شهر رمضان وبالعيدين. وأنا أعرف أسماءهم. وقد قمت بعمل أحصائية وسجلت أسماءهم ومواعيد التهنئة التى تجيء قبل حلول المناسبة. فوجدت أن بعض هذه الأسماء لم تتغير من عشرات السنين. ويدهشنى أكثر أن تجد انساناً كريماً يلتفت إليك، ثم لا يتوقع منك رداً أو أمتناناً. أنه وجد لديه رغبة فى أن يهنئنى ففعل. وأحياناً تجد أنه قد بعث بأكثر من برقية. كأنه أحس — ولا أعرف كيف — ان برقيته الأولى لم تصل، فأرسل أخرى!

أو أن أحد القراء فى مصر أو فى العالم العربى، أحس أن كاتبه المفضل مريض أو حزين أو متشائم أو ليس فى «الفورمة» فيدعو له بالخير والصحة والعافية ويطلب من الله أن يخفف عنه.. ويكون هذا الأستشعار عن بعد، صحيحاً!

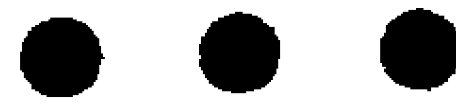
كنت أتلقى خطابات المعايدة والأستفسار عن الصحة من سجين خفيف الدم. وعرفت أنه يبعث لرئيس الدولة ببرقيات مماثلة. ولكنه أنقطع من خمسة أعوام. تذكرته. فسألت، قيل مات. وعرفت أن له أبناً يسير على طريق والده فى السرقة وفى تهنئة عدد كبير من الناس!

وكان لنا صديق فى الستينات سجين مدى الحياة. وكان له كارت مطبوع. عليه هذه العبارة: عبدالرحمن أحمد عبدالرحمن: موسيقى وحلوانى وساعاتى وترزى ومطرب وصحفى ويقول: اللهم زدنى علماً ونباهة وفطنة!

أى أن لديه كل هذه المواهب والقدرات ويطلب من الله المزيد ــ وهو بكل هذه المواصفات يهنىء بالعيد وبالصحة.

لقد خرج من السجن ومن الحياة منذ سنوات..

ان القارىء المجهول الذى يحبك ويهنئك، يجد متعة شخصية فى أن يؤكد لنفسه انه أنسان يفعل ما هو واجب، دون أن يلقى جزاء على ذلك.. فهو انسان مثالى لا يبغى شيئاً من وراء ذلك.. فشكراً متأخراً للقراء الكرام، أدام الله ما بيننا من محبة!

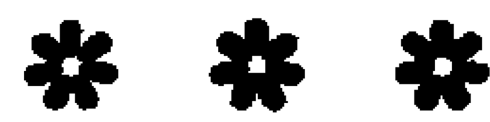


من عشرات السنين كانت أهم الحوادث اليومية أن أحداً رَكب على الشمال ــ ركب الترام أو المترو أو الأتوبيس، ثم سقط على الأرض أو أصابته سيارة أخرى فسقط جريحاً أو ميتاً، وتضاءلت هذه الأحداث، إذا ما قورنت بالأحداث الأخرى.

ومن عشرين عاماً كان من أهم ما تكتبه الصحف يومياً ان احدى العاملات في كافتيريا هيلتون قد عاكسها أحد الزبائن أو ان الصينية وقعت من يديها لأنها تعثرت.. وتنتهز الصحف فرصة هذا الحادث فتصف لنا ملامح وجهها وجسمها وتظل الصحف تتابعها حتى تختفي من هيلتون ــ لأنها تزوجت من أحد الزبائن!

وكثرت العاملات في الفنادق والمطاعم ولم يعد حدوث شيء من ذلك يستحق الكتابة والآن تسهب في وصف حوادث العنف: القتل والأغتصاب والأنتحار.. وكلها من معالم المدن الكبرى والتوتر العصبي، والضيق الأجتماعي، والعناء الأقتصادي، والشعور بالفشل العام، وكل ذلك مألوف في المجتمعات الكبرى ولذلك لا تلقى هذا القدر الهائل من الحفاوة الاعلامية والدعاية المضادة كما أن أحداً لا يكتب عن عادم السيارات لأنه ما دامت هناك سيارات كثيرة فلا بد أن يكون لها أحتراق، وإذا كان أحد يشكو من هذا الأحتراق فلعل أحداً من العلماء يفكر في طريقة للتخفيف من سموم هذه المواد الكيماوية ولكن سوف يبقى عادم السيارات والمصانع، ولم يعد يتحدث عن عادم السيارات وإنما

العالم كله مشغول بالتراب الذرى ومخلفات القنابل التى يفجرها الغرب والشرق تحت الأرض وتحت الماء. ويطلقونها فى سفن الفضاء تدور حول الأرض— حتى هذا قد أعتدنا على سماعه وقراءته.. كما أننا لم نعد نستنكر الحروب في لبنان والعراق وفيتنام وايرلندا وأمريكا اللاتينية فقد أعتدنا على قراءة ورؤية ذلك.. ولا أتوقع أن تتوقف أحداث العنف فى القاهرة ولكن أتوقع فقط أن نعتاد على ذلك، لأن الأسباب التى تدفع إلى الجريمة موجودة وتزداد قوة وعمقاً.. سوف نعتاد على ذلك. كما أعتدنا على التدخين والحشيش والغش والتهريب... والسخط على أنفسنا. وكل شيء!



كان من رأى موشى ديان الا يرفرف العلم الاسرائيلى على الضفة الشرقية للقناة حتى لا يؤدى ذلك إلى أستفزاز المصريين. أى أن يبقى الأحتلال حقيقة دون أن يكون هناك علم يذكرنا بذلك..

وكان من رأى آخرين أن يبقى العلم الاسرائيلى فى مكانه لكى يعتاد المصريون على رؤيته عالياً فوق رءوسهم المنكسة حتى يعتادوا على هذا الهوان!

والمعنى فى الحالتين: أننا سوف نعتاد على وجود القوات الاسرائيلية على أرضنا وأننا لن نفعل أكثر من ذلك. أى أكثر من أستنكار الأحتلال بعلم وأستنكار العلم بغير أحتلال..

قد وقفت آمالهم عند هذا الحد ووقفنا بيأسنا على الضفة الغربية لقناة السويس والضفة الغربية لنهر الأردن أيضاً..

ثم كانت حرب ١٩٧٣ التى أستعادت القناة وعشرة كيلو مترات من الضفة الشرقية ولم تكن الأرض وحدها هى الهدف وإنما القدرة على العبور والقتال والصمود والنصر بعد ذلك. وقد نسينا الآن ما كان من أمر قواتنا المسلحة وروعة التخطيط والأداء ودقة التصويب والصمود وبراعة السادات السياسية.

أما إسرائيل والعالم كله فقد تحدثوا عن ذلك وتهاوت القيادات اليهودية فى العالم وكان ضحاياهم أكثر من القتلى.

وكانت أفدح خسائرهم : أكاذيبهم وغرورهم . فمن أكاذيبهم أنه لا أمل لنا فى مصر.. ومن غرورهم أن أحداً لن يقهرهم على أى أرض . ولم تنسحب إسرائيل إلا من الأرض المصرية ثم أنها أضافت أرضاً جديدة وأحقاداً كثيرة .

أما نحن فقد فاتنا أن نسجل كيف كانت الحرب والنصر ونسينا كل ذلك .. ونحن فى مصر ننسى بسرعة .. ولا أحد منا يعرف كم هى بالمئات الكتب التى ظهرت عن الحرب بيننا وبين إسرائيل ـ أكثر هذه الكتب لم تصدر فى مصر ولا باللغة العربية ..

ولم تنته معاركنا بعد ـ لا مع إسرائيل ولا مع العرب .. فكما يولد السلام من الحرب . فمن السلام تتولد الحرب أيضاً ـ فاللهم أحفظنا !

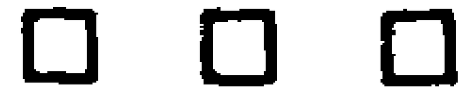


تعمير سيناء له معنى أكبر من ذلك: أننا قد أنتصرنا بالحرب والسلام فعادت لنا هذه المساحة الهائلة من أرض مصر، التى كانت من ألوف السنين طريقاً ومقبرة للغزاة. فسيناء هى المكافأة عن الحرب المنتصرة والسلام ثمرة للحرب والذى هو أيضاً مهدد بالضياع إذا عدنا إلى القتال..

وتعمير سيناء دعوة إلى ملايين الشبان المصريين بأن يغامروا. وهى مغامرة محسوبة. فهناك الأرض والماء والحياة العجيبة.

وكانت سيناء مثل «الخطيئة الأولى» فى أعماقنا. مثل خطيئة آدم عليه السلام وحواء، عندما أكلا من الشجرة المحرمة.. فانزلهما الله من الجنة إلى الأرض. فالحياة على الأرض هى بسبب الخطيئة، ولذلك لا بد من التكفير عنها بالتوبة والصلاة، حتى نعود إلى الجنة مرة أخرى.. فى كل حروبنا مررنا بسيناء. وأنهزمنا عليها وكان ضياعنا تحت رمالها، كما ضاع قوم موسى أربعين عاماً فوقها.. وكان أملنا دائماً أن نهزم من هزمنا، وأن نطرد من طردنا.. حتى كانت أنتصارات مصر سنة ١٩٧٣.. لقد كانت نصراً عظيماً، ولكن نكسة ١٩٦٧ كانت أعمق.. فنحن خرجنا سنة ١٩٧٣ من سجن ١٩٦٧، محطمين نفسياً ومادياً. ولكنا خرجنا. وفرصتنا الآن أن نكفر عن خطيئة فقدان سيناء، بتعميرها وتحويلها من صحراء إلى جنة..

وأخشى أن يكون تعمير سيناء، تليفزيونياً فقط ــ أى مشاريع تظهر فى المناسبات القومية على الشاشة، تولد فى الخطب وتدفن فيها أيضاً.. ولكن خوفى هذا يرتد إلى، عندما أيقنت صدق هذه النيات الرسمية والشعبية، وحقيقة المشروعات التى قامت وتقام بالأيدى السعيدة والقلوب المؤمنة.



فى الصحف الفرنسية اعلانات : مدرس للغة الانجليزية ولكل المستويات يمكن الأتفاق على الأجر معه شخصياً. مدرس للرياضيات يتقاضى عن الحصة لمدة ساعة عشرين جنيهاً.

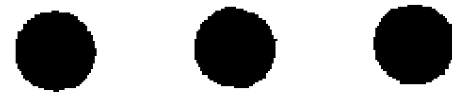
لقد بدأ موسم الدروس الخصوصية فى فرنسا أيضاً ويسمون هذا الموسم : ربيع المدرسين. ولكن هذه الدروس الخصوصية أنتشرت فى فرنسا لنفس الأسباب التى لدينا ولأسباب أخرى.. مثلاً : تدريس الرياضيات للأطفال فى جميع المراحل ضرورى لأن الآباء لا يعرفون الرياضيات الحديثة ولذلك فهم عاجزون عن مساعدة أبنائهم.

ولأن الطبقة المتوسطة لديها طموح عظيم فى أن يكون أولادهم أحسن حالاً فقد دفعهم ذلك إلى تشجيع الدروس الخصوصية لأن تحسين الحال لا يجيء إلا عن طريق النجاح فى المدرسة.. ثم ان الدروس الخصوصية احياء لعادة أقطاعية قديمة ــ فقد كان أبناء الأقطاع لا يذهبون إلى المدارس وإنما تجيء المدارس إليهم ــ فلهم مدرسون خصوصيون.

وفى فرنسا أيضاً يرون أن أنتشار الدروس الخصوصية دليل على ضعف مستوى التعليم نفسه وضعف المستوى الأجتماعى والمادى للمدرسين ولذلك فكثير من المدرسين ــ أيضاً ــ يفرضون على تلامذتهم هذه الدروس الخصوصية وإلا فلا نجاح مضموناً لهم فى أمتحانات النقل بين السنوات أو الشهادات العامة. ولم تستطع الدولة أن تفعل شيئاً لأن المدرس حر وولى أمر الطالب حر أيضاً.

وأباء الطلبة مشغولون فقط بنجاح أولادهم وليس بتفوقهم... لعلهم يتصورون خطأ أن النجاح هو الطريق إلى التفوق. مع ان تفوق الطالب لا يكون بسبب نجاحه المستمر.. فقد يتفوق الطالب فجأة لأنه كان فاشلاً مغموراً معظم الوقت إلا أن التفوق ليس فى النجاح أى الأنتقال من سنة إلى سنة ومن مرحلة إلى مرحلة وإنما يتفوق الطالب لأن هناك موهبة كامنة نحن نعطيها فرصة الظهور...

وكثيراً ما كان التعثر العنيف سبباً فى ظهور الطلبة المتفوقين أو العباقرة.. فما أكثر الذين تعثروا وسقطوا.. وكان لسقوطهم دوى أدى إلى أنفتاح رؤوسهم على العالم أو على أسرار الكون!



هناك عبارة للمؤرخ الكبير لورد أكتون تقول: ليس قبل مائة عام، يكون المؤرخ حراً فى أن يكتب ما يريد!

أى ان الانسان من الممكن أن يروى الأحداث وهو طرف فيها.. ان يعايشها ويكتب سوف تكون الدماء حارة والألوان حية والأصوات واضحة ولكن لن يكون حراً، لا بسبب هذه الزحمة اللونية والصوتية، ولكن لأن صانعى الأحداث وشهودها أحياء ولأنهم أحياء فلن يكون على حريته.. سيكون خائفاً، أو سيكون مجاملاً وهكذا لن يكون دقيقاً فى وصف الأحداث!

أو بعبارة أخرى: معايشة الأحداث تجعل منك أديباً، أو شاعراً أو رساماً ولكن تحرمك من أن تكون مؤرخاً منصفاً.

فلكى تكون منصفاً، يجب ألا يهتز الميزان فى يدك. ويجب أن تكون معصوب العينين والأذنين، فلا ترى أحداً يخيفك أو تخيفه، والا تسمع رجاء ولا شكوى وأن تنشغل فقط بما يمليه عقلك على ضميرك على قلمك!

ويضرب لورد أكتون مثلاً صغيراً قد أحتار هو فى حله. جاءه طفلان صغيران يختلفان على من يكون له تمثال «بابا نويل».

فقد دخل الطفلان غرفة نومه، ورأى أحدهما التمثال وأخذه وخطفه الثانى وتمزق التمثال بينهما. وطلبا إليه أن يحسم الخلاف بينهما. والطفلان دخلا غرفة لورد أكتون اذن.. ولم يعرف أيهما الذى دخل أولاً، وأيهما الذى

رآه، وأيهما الذى مزقه فكتب رسالته المشهورة : (إلى ولدى العزيزين .. لست مؤهلاً للحكم فى هذه القضية. أحفادكما أقدر منى .. رفعت الجلسة !).

ولذلك أرى أن الكثير مما تنشره الصحف والمجلات عن مصر الحديثة يدخل فى باب الأدب والفن ويخرج من باب العلم ـــ أى علم التاريخ المنزه عن الخوف والغضب ولذلك فمعظم هذه الكتابات أقرب إلى الخناقات والخصومات الشخصية .. وتسوية الحسابات ولذلك يتخذ الكاتب أسلوب الدفاع عن النفس .. كأن هناك تهمة .. والتهمة هى ان يكتب فى هذا الموضوع .. فإذا فعل ، فيجب أن يقول : أنا .. وهكذا يقف أمام الموضوع أو القضية وليس إلى جوارها .. وقد ينسى القضية ، لأنه شخصياً قد أصبح هو القضية !



مثل هذه العبارات ليس من السهل فهمها ولكنها حقيقة : أن الكون يتسع ويتراجع إلى الوراء ؟ فما هو الوراء وما هو الأمام ؟ لا نعرف ..

ومثل هذه العبارة : ان الزمن يؤثر فى المادة كما تؤثر كرة من الحديد وضعت فوق مخدة من القطن !

ما هو هذا الزمن وما وزنه ؟ لا نعرف . ما هذا المكان أو المادة التى لها نعومة وخفة مخدة القطن ؟ لا نعرف !

ان الآرصاد سجلت ساعات تدق بانتظام فى مكان بعيد عنا ألف ألف ألف مليون سنة ضوئية . والمعنى البسيط لهذه الساعات التى تدق أن هناك أتصالات بين كائنات بعيدة ، أو حضارات بعيدة . وان هذا الأتصال اللاسلكى منظم . فما هو المعنى ؟ لا أحد يعرف ..

وقد صدرت ستة كتب لرواد فضاء أمريكان يؤكدون ظاهرة واحدة هى : ان أجساماً غريبة الحجم واللون والسرعة كانت تلاحق سفن الفضاء ليلاً ونهاراً .. وأنهم صوروها . وعندما طبعت الأفلام كانت بيضاء تماماً . فما المعنى ؟

وكتاب سوفيتى يقول : ان أحد رواد الفضاء السوفيت ، قد وجد هذه الأجسام الغريبة فى داخل السفينة .. وأنه لم يفلح فى تصوير لونها أو حجمها أو تسجيل سرعتها أو ذبذبتها .. طبعاً ولا كيف ظهرت ولا كيف أختفت . ولكن كل ما يذكره ان وجودها فى السفينة قد أصاب جميع الأجهزة بالرعشة والهذيان !

في مذكرات أحد علماء هيئة الفضاء الأمريكية صدرت في العام الماضي جاءت فيها هذه الواقعة : أنه عندما كان جالساً وحده يتناول غداءه وجد في المقعد المواجه له كائناً غريباً لا هو ضوء ولا هو ظل ولكنه مثل سحابة لها شكل انسان.. وأختفى!

المعنى هو ما قاله الله تعالى : وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً!



مشغول أنا بالتاريخ الفكرى للخمسين عاماً الماضية. فأنا دائماً دائب البحث عن علامات للطريق.. عن خريطة لوجدان مصر.. وكما تتحدد الخرائط بالطول والعرض والأنهار والجبال والبحار فكذلك هذه الرقعة الفكرية فى العالم العربى وفى مصر بوصف خاص..

فأنا أبحث عن «العلامات» أى الفكر الذى هو علامة فى الطريق.. أو الكتاب الذى هو أهم تضاريس المعاناة الفكرية والأدبية..

وأنا أتساءل عن دلالة التماثيل فى الشوارع عندنا.. لماذا نحن نصنع تماثيل للسياسيين فى الشوارع أما الأدباء ففى حديقة صغيرة لا يراها ولا يراهم أحد.. وإذا كان لأم كلثوم تمثال، فهو فى مدينة المنصورة بلدها ــ يتغطى بهباب القطار ــ تمهيداً إلى دفنه لحقارة شأنه ولأنه أهانة لصاحبته العظيمة فليست عظمة أم كلثوم أنها ولدت فى محافظة الدقهلية ولكن أنها أجمل الأصوات فى تاريخ الغناء العربى وان مكانها فى قلب العواصم وأولها القاهرة.

ألا يدل ذلك على الأثر الضئيل للفكر والأدب والشعر فى حياتنا..

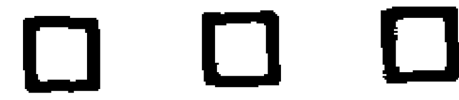
فهل هناك كتب تعتبر علامة فى الطريق؟ هناك، ولكن لا أثر لها لأن المتعلمين فى بلادنا قليلون جداً والمثقفون أقل كثيراً.

وكان الأستاذ العظيم العقاد يقول: لو قرأ الناس كتابه عن «الله» لوجدوا فيه عبارة يستحق عليها الأعدام ولكن الناس قرأوا، أو بعضهم قرأ ولكن لم يفهم..

ولذلك خرج كتابه وأعيد طبعه ولم يلق من الناس ما كان يستحقه، .. أو ما كان يتمناه المؤلف من هز العقول!

ولو قرأ الناس «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ.. أو قرأوا «عودة الوعى» لتوفيق الحكيم أو قرأوا «المنطق الواعى» لزكى نجيب محمود لزلزل أعمق أعماقهم..

لو قرأوا «معالم فى الطريق» لسيد قطب.. لو قرأوا من تاريخ الألحاد فى الإسلام» لعبد الرحمن بدوى.. ولذلك تحيرت تماماً فى رسم علامات الخريطة الثورية للفكر المصرى!



ما دمنا نحل المشاكل، فنحن أكبر منها وما دمنا نعجز عن حل مشاكل أخرى، فهي أكبر منا. وفي جميع الحالات لا نستطيع أن نحلها وحدنا.

وبعض المشاكل تحتاج إلى أن نضعها في المقدمة ــ أي أننا نغير ترتيبها في كشف الأهمية بالنسبة لنا.

وجميع المشاكل يجب أن نحلها ونشرحها ونوضحها. ويكون ذلك بالعقل والحساب..

وطلبة الأقتصاد والعلوم السياسية يعرفون حكاية «التفاحة»..

فقد جلس عدد من علماء النبات والوقاية والتجارة والبنوك والخارجية والداخلية أمام تفاحة. وأمسك كل واحد ورقة ليكتب فيها ما الذى يعود على الشعب وعلى الأنسانية من زراعة التفاح..

وأنطفأ النور، فلم يشعروا بذلك. وتوقف جهاز التكييف. ودخل الجرسون بالمشروبات. ولكن أحداً لم ينتبه.. وإنما ألتصقت عيونهم بالورق، كما ألتصقت أصابعهم بالقلم. وتركزت ثقافتهم وتاريخهم، ودارت آمال البشرية هالات حالات حول رؤوسهم..

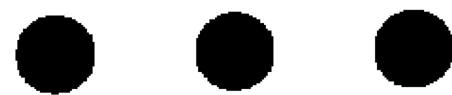
ودخل طفل صغير.. ونظر إليهم ولكن أحداً لم يهتم به. ووجد مقعداً خالياً وجلس، ومد يده إلى التفاحة وراح يأكلها.

أنتهت المشكلة.. وهذا هو الحل..

لقد نسى العلماء فى أوراقهم أن حل مشكلة التفاح هو أن يأكلها أحد .. !

ليس هذا الحل هو كل الحلول . ولكنه أهم الحلول . وليس حل المشاكل سهلاً هكذا . ولكن هناك حلول سهلة .. والحل والمشكلة توأمان ــ وسوف تكون هاتان الكلمتان لخمس سنوات أخرى ، أكثر الكلمات الشعبية عند الذين يواجهون الشعب ويستعجلهم ليلاً ونهاراً ، ان ينزلوا بالجنة من السماء إلى الأرض !

ورغم إستحالة ذلك ، فإن كثيرين يعدون الناس بها .. وأغرب من ذلك أننا نصدقهم !



كل الحروب تتضمن عنصراً دينياً. ولذلك فكل الحروب صليبية. وهى لذلك لن تنتهى..

وأمامك ما يجرى فى العالم كله: ماذا يحدث فى أيرلندا شمالاً وجنوباً. خلاف مذهبى مسيحى بين البروتستانت والكاثوليك..

ماذا يحدث بين روسيا والصين، خلاف مذهبى شيوعى! ماذا بين روسيا «والشيوعية الأوروبية»؟ خلاف على من الذى يأمر الشيوعين فى العالم فيطيعون، هل هى موسكو وحدها أو أن كل العواصم الأخرى يجب أن يكون لها رأى مثل بلغراد وبكين؟

ماذا بين دمشق وبغداد؟ خلاف مذهبى بعثى!

والذى بين إيران والعراق؟ خلاف بين الشيعة المسلمين.. ثم الذى فى لبنان.. إنهم المسلمون السوريون يساندون الموارنة المسيحيين الذين يساندهم اليهود، ضد المسلمين اللبنانيين والفلسطينيين؟

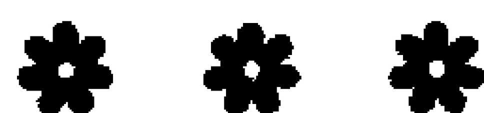
وماذا يجرى فى جزيرة مانداياو بالفلبين إنهم المسلمون فى حرب مع المسيحيين الكاثوليك ويموت منهم الألوف شهرياً!

ولماذا يقف إثنان من الحاخامات فى إسرائيل فى استقبال الرئيس السادات متجاورين ولا يكلم أحدهما الآخر؟ إنه الخلاف الدموى بين الأشكنازيم الغربيين والسفرديم الشرقيين.. ثم بين هؤلاء الذين يسمون أنفسهم «حراس المدينة» فى إسرائيل ويطالبون بالجنسية الأوروبية لأنهم

يكفرون بدولة إسرائيل .. ثم من هؤلاء اليهود المصريون المحتقرون جداً فى إسرائيل أى «القراءون» ومن أسمائهم: عبدالله وعبدالرحمن وعبدالعظيم، وتنظر إليهم إسرائيل على أنهم كفرة.

وغير ذلك فى كل مكان..

ما المعنى؟ المعنى أن فى الدنيا مذاهب دينية وسياسية تخلق الحرب وتجعل الحقد أكبر، والحب أقل.. إن هذه المذاهب نوع من الكراهية المنظمة!



يا ترى هل يبدو مستشفى المعادى جميلاً هادئاً ونظيفاً أنيقاً، وأطباؤه دواء، وممرضاته ملائكة؟ هل يبدو ذلك لو كان الانسان مريضاً أو زائراً لمريض.. أم أنه يبدو هكذا فقط عندما يكون الانسان محباً للأستطلاع فقط..

فعندما كانت أمى مريضة، أنقلب الأطباء فى عينى وأذنى إلى سفاحين، والممرضات إلى مصاصات للدماء.. مع أنه لا ذنب لأحد فيما أصابها، وفى نهايتها.. أنهم جميعاً حاولوا وتعبوا، بل أن الممرضات بكين تأثراً، مع ان الممرضات لا يبكين عادة، فقد رأين كل أهوال المرض، ومعارك الميكروب وهزائم الطبيب والصيدلى فى هذه الحروب غير المتكافئة!

وكلما زرت عدداً من الأصدقاء المرضى، كنت أرى كل شىء بطيئاً.. الهواء والماء والدواء.. فقد كنت أتعجل له الشفاء، مع كل ملعقة شوربة، ومع كل حقنة ومع كل حبة.

ولو ذهب شاب تخرج حديثاً فى الجامعة إلى مستشفى المعادى، لتمنى أن يفرش حصيرة وينام فى حديقتها هو والفتاة التى يحبها.

ولا يمكن أن يبدو مستشفى المعادى هكذا لامعاً باهراً فى عيون الأطباء والممرضات. فهم جميعاً لا يرون ذلك، وإنما عيونهم وأذانهم على أوجاع الناس. وهم لا يسمعون إلا كلمة: آه ولا يرون إلا لون الدم.. وتمضى

الشهور ولا يرون الأشجار حول المستشفى ولا يشمون هواء خالياً من العقاقير.

إنها إذن مسألة نسبية: فلو ذهبت إلى أحد مخرجي السينما أثناء تصوير أحد الأفلام فأنت ترى النجوم والكواكب في أزياء مستعارة وتحت أصباغ غير حقيقية.. ولكنهم جميعاً مخلوقات جميلة.. ولو ذهبت إلى طبيب مختص في الأمعاء وحاول أن يعرض عليك ما أهتدى إليه الطب الحديث، لفتح لك بطون المرضى وقدم لك أحشاءهم.. وأهم ما يشغله من هذه الأحشاء ليس السليم منها ولكن الملتهب المتعفن. أن هذا أجمل ما عنده.. وكذلك يفعل طبيب التحاليل وطبيب القلب وطبيب الصدر..

وعندما سألني اللواء صبرى إسماعيل مدير المستشفى: ما رأيك؟ قلت: رائعة! وكأنه ينتظر هذه الأجابة فقال: فعلاً رائعة!

وكل واحد منا يقصد شيئاً آخر!!



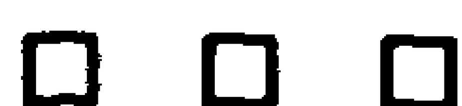
كنت ولا أزال، ممن يفضلون الأذاعة على التليفزيون ولكنى لا أدعو إلى ذلك وإنما هذا رأى شخصى ومزاج. فأنا على راحتى عندما أستمع إلى الراديو. حر تماماً فى أن أختار من بين مئات المحطات على كل الموجات فى جميع ساعات الليل والنهار.. بينما أنت لست حراً وأنت جالس مفتوح العين أمام التليفزيون. أننى أدخر نور عينى للقراءة والكتابة..

وباعتبارى مستمعاً قديماً، فإننى لا أجد بين الأصوات الأذاعية اليوم تلك الأصوات المعبرة تماماً من مثل محمد فتحى وحافظ عبد الوهاب وبابا شارو وعبد الوهاب يوسف والراعى والبشرى والحديدى وجلال معوض وفهمى عمر وسعد لبيب وصلاح زكى وتماضر توفيق وصفية المهندس وهمت مصطفى وسامية صادق وبديعة رفاعى ومديحة نجيب وأمال فهمى وأبلة فضيلة وثريا عبد المجيد. وغيرهم. فالأصوات كثيرة جداً. ولكن الصوت الذى تشعر بأن له صفات خاصة فى حجمه وفى أدائه مختلفاً عن الآخرين.. ليس كثيراً..

والسبب هو أن البرامج الأذاعية كثيرة على جميع القنوات والمحطات وهذا العمل الهائل محتاج إلى عدد كبير من العاملين. ولا بد من ملء هذه الخانات بسرعة ودون تدقيق فى الإمتحان أو فى الفرز أو التدريب. ولذلك كثيراً ما أستمعت إلى أصوات مشروخة وإلى حروف متآكله أو متساقطة. بل هناك أصوات «معيوبة» كما أن هناك وجوهاً «مضروبة» فى التليفزيون ـــ وربما كان السبب واحداً فى الحالتين..

ومن الأعذار المقبولة أن العمل الأذاعى شاق جداً مهلك قاتل، وان الأغراء المادى ليس كبيراً فى مصر. ولذلك فهذه الأصوات التى نسمعها هى أفضل ما يمكن شراؤه من حناجر!

وعندما تحتفل مع الأذاعة هذا الشهر بعيدها الذهبى فلأن دورها وفضلها التعليمى والترفيهى كان عظيماً فهى المدرسة الأولى فى مصر وهى أيضاً النموذج لكل الأذاعات العربية فى العالم ــ وعقبال مائة سنة!



من مظاهر الديمقراطية أن تكون أحزاب، وأن تكون للأحزاب صحف. وأن تكون هذه الصحف قادرة على أن تقول ما يقوى مركزها، ويضاعف المؤمنين بها. وقد تحقق كل ذلك فى مصر. فليس فى وسع أحد أن يمنع أحداً من أن يقول ما يعجبه على النحو الذى يعجبه فى المساحة والوقت الذى يعجبه.

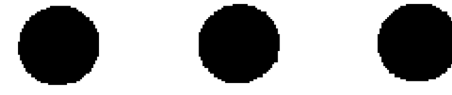
وكثير ما قالت الصحف القومية، أنها يجب أن تواجه صحف المعارضة وأن ترد عليها.. ولكن غلبت عليه «الصنعة» الصحفية، فهاجمت الحكومة. وكانت أكثر أنتشاراً وأشد قسوة من صحف المعارضة. وهكذا أنضمت الصحف القومية إلى الصحف المعارضة، وبقيت الحكومة وحدها ــ منتهى الظلم!

ثم أعتدلت مسارات الصحف، فظهرت صحف الحكومة وصحف المعارضة، بملامح واضحة وان كانت صحف المعارضة أقرب إلى المزاج العام، فهى تبالغ فى الجوانب السيئة من كل شىء. فلا يزال المزاج العام سلبياً يائساً..

وكان ذلك فى الشهور القليلة الماضية شيئاً محيراً. فقد كان من الصعب على القارىء أن يعرف وجه الصواب، وجانب الخطأ. أو كان من الصعب ان يعرف ما هو المطلوب من الحكومة أو من الحزب الحاكم، فأغلبيته ضخمة..

أما الآن فقد أتضحت الصورة: برامج الأحزاب نشرت ونوقشت، ورأى الناس ممثلى الأحزاب فى التليفزيون. وهو تقليد جديد.

وكل يوم يضاف إلى الديمقراطية مكسب جديد.. وقد أختفت، أو يجب أن تختفى كلمة «خائن» أو «عميل».. فلا أحد كذلك. وإنما نحن جميعاً وطنيون مصريون.. وإذا أرتفعت النبرة فى الحوار، فليس ذلك إلا لكى يسمعنا أكبر عدد من الناس.. ومهما علت الأصوات وشردت ونشرت فهى دليل على ان الحزب الحاكم لا تخيفه الحرية الممنوحة لخصومه، بل أنه حريص على بقائها ــ حماية للديمقراطية وسلامة وتقدم مصر..



هذا الشاب أمسك مسدساً ولوح به أمام البابا أراد أن يثير الناس وأن يفزعهم تماماً كما لو كان قد حاول إطلاق النار عليه، ثم لم يفلح.... إنه يلعب بالنار يكوى قلوب المؤمنين والناس الطيبين.. وفى المرة السابقة كان الذى أعتدى على البابا مسلماً لأسباب شيوعية، أما هذه المرة فهو مسيحى، لأسباب جنونية.

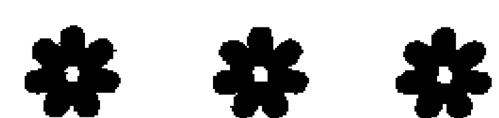
وليست هذه المحاولة وغيرها من قبل أو من بعد، إلا أعتداء على الدين وعلى القيم الأخلاقية، والذين يمثلونها. ولذلك فالرصاص الذى أنطلق على الرؤساء والزعماء ليس إلا أعتداء على السلطة أو الحكومة أو القانون أو على الذين يمثلونه..

والمعنى واحد وهو أننا فى زمان يضيق فيه الناس بكل ما هو سلطة. أو مذهب أو قانون. أو نظام. أو دين. ليس كل الناس يفعلون ذلك. ولكن عندما يتمسك الناس بقانون يحاول آخرون أن يتنصلوا من ذلك أو يرتدوا أو يهربوا. ففى عصرنا تتجمع كل عناصر التشدد الدينى والسياسى وكل نزعات التحلل السياسى والأخلاقى..

ولكن القانون أقوى لأن الناس يريدون لحياتهم أن تستمر ولأمنهم أن يبقى ولمصالحهم أن تدوم.. بل إن القانون يحمى الخارجين عليه ويمكنهم من الدفاع عن أنفسهم فالذى قتل كيندى مايزال حياً، والذين أصابوا البابا وريجان والسادات ما يزالون أحياء. لأن القانون الذى تآمروا عليه قد ضمن لهم حق الدفاع عن أنفسهم. ومن قبل الباباوات والرؤساء والأنبياء

والقديسين.. ومن قبل هؤلاء كان هابيل وقابيل أحدهما قتل الآخر، مستهلاً الحلقة الأولى من سلسلة لا تنتهى لحقد الانسان على الانسان!

وإذا كانت الأغتيالات لها هذا الطابع الدينى، فالحروب كلها مقدسة — مع الأسف!



ألتفت المرشح إلى الجالسين إلى جواره وقال: أسألوهم.. لقد كنا نسافر معاً إلى أوروبا.. وكنا نشترى الجبنة السويسرى ونشترى الجوز واللوز لأطفالنا.. خوفاً من أن يعيش أطفالنا ويموتوا دون أن يعرفوا ان هناك شيئاً أسمه لوز وبندق.. فقد كانت هذه فاكهة نادرة فى عهد الرئيس الأسبق جمال عبدالناصر.. أسألوهم.. لقد كانت مصر سجناً كبيراً لا دخول ولا خروج! أسألوهم.. أما الآن فاذهبوا إلى محلات البقالة والسوبر ماركت.. وأمامكم أعلانات التليفزيون.. ما الذى ليس فى مصر من أطعمة ومشروبات وصناعات. ما الذى لا يمكن شراؤه بالتقسيط وفى استطاعة مصر أن تكون أحسن وان تكون أعظم وأروع.. أن المناخ العام فى بلادنا يشجع على العمل وعلى الأنتاج.. أخرجوا من القاهرة.. أذهبوا إلى الضواحى.. ما الذى ترون؟ عمارات وشوارع ومدناً ومصانع.. للمصريين وبأيديهم وبفلوسهم.. لقد كان.. وسوف يكون الصعب ممكناً.. وقد كان الممكن مستحيلاً.. أسألوهم..

ووقف كل واحد يروى قصة.. كيف كان الخروج بقرار من مجلس الوزراء. وكيف كان المبلغ المسموح به خمسة جنيهات لكل مسافر. وعلى كل مسافر أن يسرق وأن يهرب أموالاً وعليه أن يعود إذا عاد حافياً عارياً وإلا سلخوه فى جمرك المطار. بينما كان رئيس وزراء مصر فى ذلك الوقت يعود وحده بطائرة قد أمتلأت بالسجاجيد وعشرات الشنط من الأقمشة والملابس لكى تباع فى السوق السوداء وهى قصة معروفة.. أما الآن ففى أستطاعة أى أحد أن يسافر وان يشترى وان يعود بعشرات الشنط.. ووقف

ثان وثالث يقول: كيف أنفتحت الدنيا أمام الجميع الصغير والكبير.. حتى الفلاح سافر إلى العراق والأردن والسعودية يزرع ويبنى.. ويعود إذا أراد ليشترى أرضاً وبيتاً.. ألا ترون أن الأبواب والنوافذ مفتوحة على مستقبل أفضل؟



يا أخى أنا قلقان على مصر!

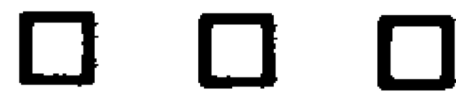
تسمعها من كثير من الناس. والذى يقلقه على مصر هو أنه يريدها أن تكون أرفع أى أكثر تقدماً. وان تكون أنظف. أى أقل تلوثاً ــ هواء وماء وأرضاً وعرضاً..

وكلنا يتمنى لبلده وأهله ذلك. ولكن القلق يبدأ عندما يتمنى أحدنا ذلك غداً صباحاً، أو بعد غد. فهذا الوقت لا يكفى لأصلاح طفل، فما بالك بشعب متعدد النوعيات والفئات والطبقات والدرجات والنظريات..

أما أنه من الواجب أن نقلق على بلدنا وأهلنا فطبيعى. أما ان نحدد لذلك يوماً أو عاماً، فهذا هو الخطأ ــ لأنه أستعجال لتغيرات جذرية لا يمكن أن تقع أو تتم أو تظهر آثارها فى عام واحد أو حتى عشرة أعوام. ولابد أن ننظر إلى الوراء عاماً أو عشرة أو عشرين لنعرف ما الذى حدث. وما الذى أدى إلى ما نحن فيه. ان الذى وصلنا إليه، لم يولد ويكبر فى عام ولكن فى أعوام.. والذى ولد وترعرع ليس شيئاً واحداً... أى نقصاً واحداً وإنما عشرات من «النواقص» والعيوب والخلل والزلل والهزائم والنكسات، ثم ردود الفعل المضادة لكل ذلك...

وليست التحولات التى تمر بها مصر أو تحاول الا تجهيزاً للمسرح لتظهر وجوه جديدة وأصوات جديدة، ونظرات ونظريات..... وحتى إذا لم يفلح مجلس الشعب فى دورته هذه ان يفعل ما كنا نتمناه، فدورة ثانية

وثالثة ... فمصر عمرها يقدر بعشرات الألوف من السنين. والمقارنة بين مصر وبريطانيا أو بينها وبين اليابان، ظالمة لنا. والمقارنة بين مصر وأى بلد عربى آخر ظالمة لهذا البلد العربى. ولذلك يجب أن نقيس بلدنا بظروف بلدنا وان نحاسب أهلنا بمقاييس ومعايير مجتمعنا. والذى يقلقنا على مصر، هو الا يقلق أحد عليها... مكتفياً بوضع اليد على الخد والبكاء على الماضى وكأنه لا مستقبل له ولنا!



سؤال من احدى الاذاعات العربية. ما الذى تنصح بقراءته فى شهر رمضان؟

والجواب: أنا لا أنصح بأن يقرأ أحد شيئاً. وإنما الانسان يقرأ لأنه يحب القراءة.

وأنا أنتسب إلى هذا النوع من الناس الذى ولد والكتاب فى يده.. أى كتاب لأى أحد. فى أى موضوع. وقد أقرأ كتابين فى وقت واحد.. وقد أقلب فى عشرات الكتب معاً.

وفى رمضان يكون الجو العام دينياً روحياً شفافاً ولذلك نجد أنفسنا فى رحاب الله وكلمات الله، والذين يجتهدون فى تفسير ما أنزل الله.. وفى الأقبال على السيرة النبوية ــ أى على كفاح الرسول عليه الصلاة والسلام فى نشر الرسالة وفى أنارة الطريق.. ثم هو قدوة حسنة. وكل الذين معه يحاولون ان يكونوا كذلك. أعرف اناساً «يختمون» قراءة المصحف الشريف مرة ومرتين فى الشهر الكريم وأعرف من يعكفون على تفاسير القرآن الكريم أو شروح السيرة النبوية أو الأحاديث.. أو التنقل بين المساجد وراء الخطباء والمحدثين. وأعرف قليلين يفضلون ان يذهبوا إلى المدينة المنورة للأستشفاء الروحى.. فالمدينة المنورة تشفى النفوس وتعالج القلوب، وترد الروح التى فارقت أجسادنا تحت أثقال الحياة اليومية الفاسدة، والأفكار الملوثة والصراعات الدموية.

أما الأغنياء— أغنياء المعانى فهم الذين يجلسون مع أنفسهم— فلديهم الكثير من الحسابات التى يجب تصفيتها، ولديهم الأحاديث المؤجلة مع النفس، ولديهم ما يجب تنظيمه وترتيبه. فهذا الشهر العظيم هو فرصتهم السنوية التى منحها الله لعباده— وبينهم وبين أنفسهم يقرأون ويكتبون ويتأملون، وهم سعداء على كل حال!



قابلت شاباً مصرياً عائداً من ألمانيا . جاء متأخراً بعض الوقت ، فلديه برنامج لحزب جديد أسمه «حزب الأشجار» ــ أى الدعوة إلى زراعة الأشجار فى كل مكان فى مصر، فعلى الرغم من أننا فلاحون أولاد فلاحين ومن ألوف السنين، فإننا أصبحنا أعداء لكل أرض مزروعة .. ولكل زهرة يانعة ، وشجرة طالعة .. أى أننا أعداء للحياة بصورتها النباتية والحيوانية .. وعداوة الحياة تماماً كالحرية لا تتجزأ . فالذى يعادى النبات عدو للحيوان ، عدو للانسان .

هل لأننا تعذبنا بأرضنا ، واحتقرنا الغزاة لأننا فلاحون ، كرهنا الأرض وزراعة الأرض، وأصبح العدوان على الأرض المزروعة ، أعتراضاً صارخاً على كل من يصفنا بأننا فلاحون .. فنحن نقضى على الأرض، أى على حيثيات الحكم بأننا فلاحون ..

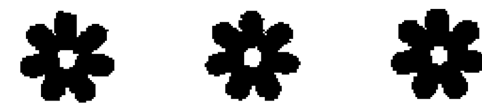
أو هل هى غريزة التخريب والتدمير أو حب البكاء على الموتى ، من الأباء والأجداد ، والأشجار المقلوعة ..

ان أرضنا الزراعية لم تزد الا قليلاً عما كانت عليه أيام الخديو إسماعيل أى منذ مائة سنة ..

الدعوة إلى زراعة الأشجار، هى دعوة إلى حماية البيئة النباتية والحيوانية والانسانية .. هى دعوة إلى مقاومة التلوث والسموم الكيماوية التى ملأت الماء والهواء والخضروات والألبان واللحوم ..

ليست متأخرة جداً هذه الدعوة أيها المصرى المحب لبلادك ، فأمامك فرصة أخرى فى أنتخابات قادمة .. وفى أستطاعتك الآن أن تدعو للحزب الجديد الذى سوف يضم الفنانين والشعراء وعشاق الجمال ودعاة السلام وهم فى كل حزب وكل دين !

وقد قرأت برنامج الحزب : شاعرى رقيق لطيف .. ولكنه لا يحدثهم عن الرغيف الذى يجيء من القمح ومن الذرة .. ولا كيف يجعل الطعام والشراب أرخص وأوفر .. وإنما هو يحدثهم عن « الترف » الفكرى والفنى .. ولذلك فالحزب فى حاجة إلى « توطين » إلى تمصير .. وبعض الوقت !



سيء مفرح حقاً أن نفتح كل يوم أحد الكبارى الجديدة فى وسط القاهرة، تخفيفاً لزحمة المرور، فتتعلق اللافتات كأنها ألسنة تزغرد بأسماء الشركات التى ساهمت فى هذا الانجاز العظيم وتنتهز هذه المناسبة لتكشف عن سر عظمة «المصريين أهمة».. أما هذا السر فهو: العمل شرف.. العمل واجب.. الواجب دين.. من أجل مصر قام الكوبرى.. ومن أجل الكوبرى تهون أرواح الشهداء.. إلى آخر هذه العبارات التى لا نظير لها فى أى بلد متحضر– فقد رأيت قاعدة «ناسا» لأطلاق سفن الفضاء الأمريكية، ولم أجد شيئاً من ذلك.. مع ان المسافة الحضارية واسعة جداً بين بناء كوبرى بين شارعين أو مدينتين وبين بناء سفن تصل بين كوكبين.. ولم أجد أسماء الشركات ولا صورة السيد المحافظ بمناسبة رصف شارع أو تغطية حفرة أو ازالة الأدوار العليا لأسباب شخصية؟ ولكن فى مصر أمكن وسوف يحدث..

وقد رأينا الروس وهم يبنون «السد العالى» فلم نقرأ لهم شعاراً واحداً لتمجيد العمل والعاملين– أنهم يعملون فقط!

وفى امكانك قبل ان تصل إلى كوبرى الجيزة الذى أغلقوه أخيراً لأجراء الاصلاحات بعد شهر واحد من أفتتاحه، ان ترى ماذا أصاب كوبرى أكتوبر.. لقد ظهرت الحفر وخرجت أحشاء الكوبرى، والتوت ... الحديدية.. ولم يقترب أحد لأصلاح شيء..

أما كوبرى الجيزة فقد بدأت الاصلاحات بعد البناء مباشرة.. حين قفزت الأعواد الحديدية تحت عجلات السيارات. وبدأ دفن الحديد فى الأسمنت.. وأختفت كل الزغاريد وكل اللافتات التى أعلنت عن أسماء الذين آمنوا بالعمل وأعجبوا كثيراً جداً بعبقرية «الانسان» المصرى — الذى هو أعجوبة البشر.. لماذا؟ لأننا نؤمن بأن هناك نوعين من البشر: مخلوقات الله كلها ثم المصريون. لماذا؟ والجواب: لا يوجد سبب علمى ولا سبب عملى ولا سبب أخلاقى.. ولكننا نحن نقول ذلك.. ثم لا نقول ما الذى يحدث بعد انجاز أى عمل..



رأيت بور سعيد يوم كانت حاملة الطائرات الامريكية يوجيما تقف عند مدخل القناة. فانتقلنا إليها بإحدى طائرات الهيلوكوبتر وكانت مدينة عائمة. ولا أعرف ما الذى تفرجنا عليه. ولكن كل ما كان عندنا هو شعور بالامتنان للذين ساعدوا فى تطهير القناة من الألغام والأسلحة ومخلفات الحرب.

ولم يكن فى مدينة بورسعيد أحد.. اللهم إلا مطعم جـــانولا الذى يعتز العاملون فيه بأنهم موجودون رغم كل الظروف ليؤكدوا لأنفسهم وغيرهم أن بورسعيد. مدينة لا تموت، وأن العالم كله إذا كان يعيش على الماء الحلو، فهى تعيش على الماء المالح والكلمة الحلوة.. وإلا بعض المقاهى فى الحى الغربى..

وعلى الرغم من أن الشوارع مظلمة، فإن عيون الناس مضيئة بالأمل والإصرار على الحياة. وكان لهم وكان لنا، ما أردنا تمنينا فعادت الحياة إلى القناة وإلى بورسعيد وإلى مصر، وإلى السفن العالمية.

ويومها دعينا أو استدعينا إلى احدى كاسحات الألغام البريطانية وقابلنا القبطان الانجليزى. أنه صورة طبق الأصل لما نعرفه فى الكتب عن القبطان الانجليزى بقوامه الممدود ووجهه المشدود ولغته التى تخرج من أنفه.. وبسرعة عاتبنا على أن الصحف المصرية تكتب عن جهود الامريكان أكثر من غيرهم ــ وكان على حق فى ذلك!

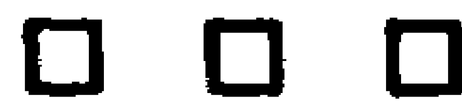
ويبدو أنه لم يكتف بهذا التلميح فذهب إلى أبعد من ذلك فى أخذ الثأر فوراً فقال: أننى أقترح على الحكومة المصرية أن تجفف القناة لتستخرج منها كل علب الفول والعصير التى امتلأت بها. والتى تحدث فى أجهزة اكتساح الألغام، ما تحدثه الألغام نفسها..

ولم يكتف بذلك فقال: أريد أن أعرف منكم ما الذى يجعل إنساناً يمشى إلى جوار القناة ومعه علبة صفيح فارغة، لا يلقى بها فى الصحراء بدلاً من القناة؟

ونسينا أن نسأله: ولماذا لا تكون هذه العلب من الجانب الاسرائيلى؟

فتطوع أحد الخبراء بالرد قائلا: الجنود اليهود يستخدمون العلب البلاستيك.. وبقدر سعادتنا بما رأينا، وبما تمنينا، فإن هذا القائد الانجليزى قد نكد علينا ورأينا فى صورته وصوته: كرومر وكيلرن وأيدن!

ولكن أين هو وأين هم جميعاً الآن؟



لا توجد عندنا وسائل لقياس الرأى العام، لمعرفة نبض الفكر السياسى أو الأجتماعى.. فنحن لا نعرف ما الذى، ومن الذى يحبه الناس أو يكرهونه. ولماذا؟ أننى أتحدث عن الهيئات المعروفة الموثوق بها، ولا أتحدث عن أجهزة الأمن وجمع المعلومات وتحليلها لمساعدة الدولة على الدراية بما يحدث فى البلد وبين الناس..

فالصحف العالمية تطلعنا من حين إلى حين، وفى الأزمات الفكرية أو الدولية، بما يقوله الناس.. على شكل أرقام أو أسماء.. كم فى المائة يكرهون ريجان وكم فى المائة يبغضون الخمينى. وما رأى الناس فى الشهور الستة الماضية أو فى مثل هذا الوقت من العام الماضى..

ونشرت مجلة «لير» الأدبية الفرنسية أن أوروبا كلها عندما أختارت أعظم عشرة أدباء كان الشاعر الأنجليزى شيكسبير رقم واحد، والشاعر الالمانى جيته رقم ٢، والروائى الأسبانى سرفانتس رقم ٣، والشاعر الايطالى دانتى رقم ٤، والأديب التشيكى كافكا رقم ٥، والروائى الفرنسى بروست رقم ٦، والروائى الألمانى توماس مان رقم ٧، والمسرحى الفرنسى موليير رقم ٨، والروائى الأنجليزى جويس رقم ٩، والروائى الأنجليزى دكنز رقم ١٠..

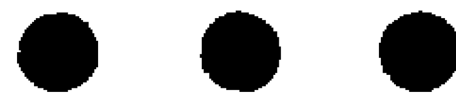
ولكن عندما أجرى هذا الأستفتاء عند الأنجليز (أعظم عشرة أدباء فى العالم) لم يختاروا أديباً أنجليزياً واحداً!

وأنزعج الأدباء والنقاد وراحوا يسألون ويدرسون لماذا لم يعد الأنجليز

يرون فى أدبائهم العظام أحداً يستحق الأهتمام. أنها مأساة أدبية وفكرية تستحق الدراسة. وعكفوا على الدراسة..

لا أعرف هل يحدث نفس الشيء ــان يحدث ــ ولم يجد الناس فى مصر أديباً مصرياً قديماً أو حديثاً، يستحق القراءة..

لا أظن. أى لا أظن أن أحداً سوف يجرى هذا الأستفتاء، ولا إذا أجراه أن يهتم أحد بهذه المأساة؟!



في مثل هذه الأيام من كل عام يتردد هذا السؤال : ما الذى سيفعله الشباب ؟ والسؤال ينطوى على تكريم للشباب وسوء فهم أيضاً . فنحن عندما نسأل عن الذى سوف يفعله الشباب معناه أننا عندما نريد أن ننجز شيئاً فأننا نتجه إلى القادرين على العمل . وليس أقدر من الشباب ، وليس أحوج منا إلى أعماله وانجازاته وحيويته من أجل مصر ..

ولكن فى هذا الوقت من العام يكون الشباب قد خرج من معركة طويلة اسمها الامتحانات المتوالية الشاقة التى « تهد حيله وتكسر عوده » ، وترهق أعصابه . وهو لذلك فى حاجة إلى الراحة . أى يحتاج إلى الراحة فى نفس الوقت الذى نتطلع إليه لكى يعمل .. ويضاف إلى ذلك حرارة الجو ، وأن الدولة كلها فى أجازة ..

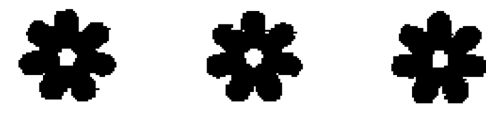
وإذا كان هذا الشباب نفسه يذهب إلى الخارج ليعمل ، فلاسباب عديدة من بينها اختلاف الجو والعمل والدافع إلى العمل ثم الفسحة ..

وعيب هذا السؤال التقليدى السنوى : أننا نتصور أنه لا وقت للعمل إلا فى الوقت غير المناسب أى فى الصيف بعد الامتحانات . مع أن العمل مطلوب طوال السنة . فلا يوجد شىء لا يمكن إنجازه فى بقية فصول السنة . ثم أنه ليس من الضرورى أن يعمل كل الشباب فى وقت واحد . فى الصيف مثلاً .

أن هناك أعمالاً كثيرة يمكن انجازها فى الشتاء : هل توجد مواسم لمحو الأمية ؟ هل لا يمكن زراعة الاشجار إلا فى الصيف ؟ ألا يمكن رصف

الشوارع ــإذا فكرنا فى ذلكــ فى الربيع أو الخريف؟ ثم أننا لم نحدد بوضوح: ما هو المطلوب بالضبط من الشباب؟ ما الذى نريده منه؟ ما هو النقص الذى لا يستطيع أحد سوى الشباب أن يكمله؟

وإذا اتضحت الإجابة عن هذه الاسئلة. فهناك أسئلة أخرى أكثر غموضاً: ما هى الهيئة أو الوزارة أو المنظمة الحزبية أو النادى الرياضى أو الاجتماعى أو الدينى الذى يتكفل بذلك، ثم يكون فى النهاية والبداية مسئولاً عن النجاح والفشل، وتقويم الفشل طريق إلى نجاح جديد؟. وقبل توضيح كل ذلك فمن الصعب أن نلوم أى شاب على أنه لم يفعل شيئاً من أجل مصر، ما دمنا لم نطلب إليه شيئاً محدداً!



هل كانت قلوبنا تطلع وتنزل مع كرة القدم لو كانت ليبيا أو سوريا أو الجزائر هى التى تلعب فى كأس العالم؟

أكثر الناس يقولون: نعم. أنهم عرب. فأكثر الشعوب التى رفضت المبادرة صفقت لها ولحرب أكتوبر رغم أن قادتها قد رفضوا ذلك، وغالطوا شعوبهم. ولكن العقول تكذب والقلوب لا تكذب..

ويكفى أن نسأل أى أحد، أو تسأل نفسك، كيف كان حالك وتونس تلعب وتحاول وتقاوم وتكافح.. أن ملايين المصريين، ولا بد أن ملايين العرب أيضاً، وربما الافارقة جميعاً كانوا يتمنون لدولة عربية أفريقية أو دولة من العالم الثالث أن تفوز بكأس العالم..

والواقعيون المعتدلون يهنئون أنفسهم على وصول تونس إلى هذه المرتبة.

ويكفيها ويكفينا هذه المرة أن نصل إلى هذا المستوى الرفيع والذى سوف يدفع شعوباً أخرى عربية أو أفريقية إلى مرتبة أبعد من ذلك..

وحدث نفس الشيء، ونحن نتفرج على فريق ايران.. فإيران دولة لا عربية ولا افريقية ولكنها دولة إسلامية صديقة. ولو أنتهى كأس العالم على أن تلعب تونس وإيران، هنا فقط ينقسم مئات الملايين من العرب بعضهم على بعض.. ويرون أن الصديق أهم من الشقيق.. أو الشقيق هو الصديق.. ونحمد الله أن ذلك لم يحدث ولن يحدث، إذ يكفى العالم العربى والاسلامى ما فيه من تمزقات فى «الجد» ولا داعى لأن يتمزق فى «اللعب» أيضاً..

ولا أضيف جديداً إلى مشاعر الناس ، غير أنني ابديت أسفي على أن تونس لم تستطع أن ترفع رءوسنا إلى السماء ، فتأتي لنا بالكأس .. ولكن يكفي تونس فخراً وسعادة هذه البهجة التلقائية الصادقة التي اهتزت لها قلوب الملايين ، وأقلام النقاد ، وحناجر المعلقين ، أنها من اللحظات العميقة التي ذابت فيها فوارق الأرض واللغة والسياسة والدين والجنس في فرحة نبيلة خالصة ..

وهذا كله هو أعظم وأعمق وأبقى هدف سجلته تونس ، واحتسبه العالم كله أنتصاراً للحب والتضامن .. أن هذا الهدف ليس لتونس فقط ، إنه لكرة القدم .. أنه للرياضة القادرة على تجريد االناس من أنيابهم وأظافرهم وأحقادهم طمعهم وجشعهم وتحويلهم إلى بشر يحبون بلا مقابل .. يكفي أن الذين يلعبون عرب أيا كانوا وأيا من كانوا ، فألف مبروك لتونس وللعرب أيضا !



يشغلنى كثيراً أن أعرف ما الذى يصيب الاصوات الغنائية فى مصر.

بعض الاصوات تظهر قليلاً، ثم تختفى بالتدريج.

أحد الاسباب أن يكون الصوت ضعيفاً وأن يكون صاحبه قد تدرب قليلاً. فلما أصبح معروفاً توقف عن التدريب، وأسرف فى السهر وفى التدخين وفى الشرب.. مما يؤدى إلى ضعف صحته.

أو يكون ظهوره غير طبيعى: فرقعة.. ضجة.. أى ليس ظهوره نمواً هادئاً محسوباً.

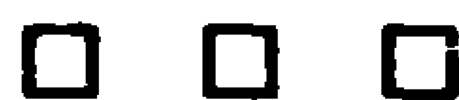
ولكنى الاحظ أن «الحنجرة» المصرية ـ وأنا استعرض كل الاصوات الجديدة ـ حجمها الصوتى ضعيف.. وكذلك الصدور المصرية لا تستوعب إلا هواء قليلا، ولذلك فأنفاسها منقطعة. أى أن عيوبها خلقية.. أو أن بها عيوباً، ولكن أحداً لم يحاول صقلها بالتدريب على الغناء وبالتدريب على التنفس تحت الماء ـ فكل المطربين العالميين يتدربون على التنفس تحت الماء.

لأن الغناء: تنظيم للتنفس!

فلا تبقى إلا الاصوات النسائية المغربية والسورية: عزيزة جلال وسميرة سعيد وميادة الحناوى. أنها جميعا أصوات سليمة وقوية. ولكنها متقاربة مما يصعب على الاذن أن تميز وتفرق بينها. فليست لها الشخصية الواضحة، التى لأم كلثوم وفيروز وليلى مراد وفايزة أحمد وصباح وشادية وسعاد محمد ونجاح سلام.

وأهم من كل ذلك ليس لدى واحد من هذه الأصوات الجديدة : الصبر على الكفاح وعلى مواجهة مصاعب الظهور والزحمة الشديدة أمام الميكروفون والشاشة .. وعلى مقاومة اغراء الشهرة والمال وفتنة الجنس .. وكذلك البقاء في صحة وعافية ـــ أحسن الامثلة على ذلك الموسيقار محمد عبد الوهاب والسيدة أم كلثوم .. وهما مثلان باقيان على الموهبة والارادة ..

هل ننتظر بعض الوقت .. عشر سنوات .. عشرين . طبيعي أن نفعل ذلك ، فلا نملك إلا الصبر على قضاء الله وقدره !



لو قال لك أحد أنك حساس، فهو يعنى أنك تتأثر بسرعة .. أو أنك مصاب بمرض الحساسية أو مصاب بالأمراض الكثيرة التى تكون الحساسية أحد أسبابها .. أى أنك واحد من ٥٠٠ مليون يعانون من نفس هذه الأعراض. أما هذه الاعراض فهى التهاب الجلد وظهور الحبوب وضيق النفس وانقباض المعدة وتقلص الأمعاء وارتفاع الضغط. لماذا ؟

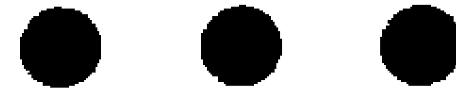
أحد هذه الاسباب : اللبن .. أو التراب أو «الوبر» الذى يتطاير من الأقمشة الصوفية .. أو بعض الروائح .. أو المواد الكيماوية التى نستخدمها فى ابادة الحشرات .. هذه المواد تشمها مباشرة أو تمتصها النباتات التى تأكلها الابقار فتظهر فى اللبن بعد ذلك.

أو المواد الكيماوية الموجودة فى الماء والهواء بسبب عادم السيارات والمصانع أو دخان السجاير ..

ولكن إذا قرأت فى الصحف أن ابا قتل ابنه لخلاف بينهما على امرأة، وأحسست بدوخة كلما رأيت صورة للاميرة ديانا تحمل طفلها الصغير فأنت مصاب بمرض الحساسية. أما تفسير ذلك فهو أن الاب اسمه «داود» والمرأة اسمها «دولت» .. أى أن حرف «الدال» فى اسماء ديانا والابن والمرأة هو الذى يطلق النار فى جسمك .. وهذه ليست حساسية كيماوية .. وأنما هى حساسية نفسية اجتماعية أخلاقية دينية.

ويذهب المتحمسون لنظرية الحساسية إلى أن كل ما نسميه بالادب الرومانسى والادب العذرى، ليس إلا حساسية مرضية، أصيب بها بعض

الفنانين.. وأن الشعر الجميل الذى تغنينا به طويلاً كان من أعراض الحساسية.. التى أدت بشعراء الغزل عند العرب والتروبادور فى اسبانيا والرومانسيين فى أوروبا أن يسعلوا وينزفوا دماً.. فقد كانوا مصابين بالسل.. إذن لم يكن هذا الشعر الجميل الرقيق الذى تغنى به الاصحاء، إلا من أعراض الحساسية..



١ ــ عندى مقياس لمعرفة كيف يتكلم الشباب لغتهم العربية. وذلك في البرامج التى تلتقى فيها الكاميرا بالطلبة فى الشوارع.. أولاً: هؤلاء الشباب يتكلمون بسرعة جداً. وفى هذه السرعة تتأكل الحروف وتتساقط وثانياً: مفرداتهم اللغوية قليلة جداً.. ولذلك نجدهم يتهتهون ويتأثأون وثالثاً: معلوماتهم قليلة بما يدل على أنهم، لايقرأون بدرجة كافية..

وقد ادهشنى كثيراً جداً أن أجد طلبة فى الجامعة، يتحدثون فى الاذاعة والتليفزيون وكأن اللغة العربية لغة ثانية أجنبية.

وافزعنى وأثار غيظى أن أجد بعض الطلبة يقولون: أن لغتهم العربية ضعيفة. ويكون هؤلاء الطلبة فى مدارس أمريكية أو فرنسية. وهو عذر قبيح جداً ومرفوض فوراً من أى مصرى.

وأذكر أننى كنت عضواً فى لجنة امتحان مذيعات التليفزيون. وكانت أمامنا طالبة جميلة ومعلوماتها جيدة. وصوتها سليم ولكنها لاتعرف كيف تنطق حرف القاف. وكان اصرارى على سقوطها رغم اعتراض بعض أعضاء اللجنة وسقطت وكان لابد من ذلك. لأنها لاتعرف أن تنطق أحد حروف الهجاء فإذا ظهرت على الشاشة كان ذلك دعوة لان يفعل الصغار والكبار مثلها.. وبذلك تساعد على تساقط بقية الحروف مثل الفاء والذال والظاء والصاد وغيرها..

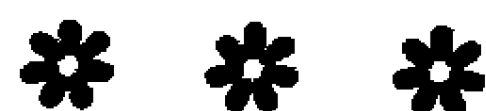
ولا أجد عذراً من أى نوع للسادة الضيوف الذين يظهرون على الشاشة ويتدحرجون إلى أخطاء النحو والصرف والإنشاء والبلاغة. لقد كان تشرشل

السياسى الحائز على جائزة نوبل فى الادب، يقرأ من ورقة وسمع منه الناس أجمل العبارات وأقواها .

أذكر أننى هاجمت أحد وزراء العمل بسبب خطاب القاه وكان مليئاً بالأخطاء .

وحدثنى الوزير فى التليفون وقال : أنت تهاجمنى لأننى من العمال .

فقلت : بل لأنك وزير.. فنحن لا نعرف ما الذى نقوله للأطفال .. هل نقول لهم لا تدرسوا لا تقرأوا ، فإن الجهل بالنحو سوف يجعل منكم وزراء فى المستقبل .. !



أول جريمة فى التاريخ هى أن أخاً قتل أخاه، أما أسباب الجريمة فلا تهم، وقد حاول القاتل أن يتبرأ من دم أخيه فقال عبارته الشهيرة: وهل أنا حارس لأخى؟

أى أنه من الممكن أن يفترسه أحد الوحوش، ويعجز هو عن حمايته.. أو أنه لا شأن له بأخيه، فكل إنسان يحمى نفسه بنفسه، فهو لايستطيع أن يكون حارساً له، أو لا ينبغى له ذلك!

والنتيجة أن يموت أخوه لأى سبب، ولا يحق لابيه آدم أن يحاسبه على ذلك!

ففى هذه الجريمة الأولى فى التاريخ خليط من اللامبالاة والغضب والحقد والكذب وضيق الأفق..

وآخر جريمة ارتكبها أخ ضد أخيه هى جريمة بيلى كارتر شقيق الرئيس كارتر، والمجرم سكير مستهتر، لايهمه أخاه، وفى نفس الوقت لايريد أن يعيش ويموت فى الظل بينما ينفرد أخوه بكل الأضواء، ولايزال سراً غامضاً من الذى استخدم بيلى ليكون وسيطاً بين أمريكا وليبيا وإيران، مع أن العلاقة بين ليبيا وايران ليست نموذجية، فليبيا قد اغتالت أحد أئمة الشيعة.. ولا أحد يعرف كيف اقنعوا شقيق الرئيس الأمريكى من أن يكون مرتشياً بدلاً من أن يكون وسيطاً، ولا من أرتضى أن يكون الوسيط مخموراً لايعرف ما يفعل ولا ما يقول ولا من الذى دفع بهذه الوساطة الى أقصى حدود الفضيحة، ولا من الذى اختار للفضيحة أن تكون وقود

المعركة الانتخابية في أمريكا: تماماً كما كانت فضيحة ووترجيت مصيدة الهزيمة للرئيس السابق نيكسون.. وكان من الممكن أن يقع نيكسون في فضيحة أخرى، فشقيق الرئيس نيكسون هو الآخر «عورة» اجتماعية وأخلاقية ومادية، ولكن نيكسون استطاع أن يسيطر على كل خطوات أخيه وأن يحبسه في خوف دائم.. فهل يسقط كارتر لحماقة أخيه؟ فهل كارتر حارس لأخيه؟

لابد أن يثبت أنه ليس كذلك، وقد ينجح كارتر وينسى الناس ما فعله أخوه كما نسى الناس أن كيندى قد أهمل في التبليغ عن وفاة أحدى عشيقاته.

أن الناخب الامريكى مخلوق عجيب.. لأنه الانتاج المشترك: للصحافة والتليفزيون!

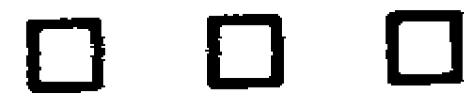


أصبحت أجمل الاغنيات هى الاعلانات. فالصوت الجميل مرح والموسيقى حية ولا تستغرق إلا دقيقة أو دقيقتين. وفى هذه الفترة القصيرة شيء مثير عن الساعات والتليفزيونات والمياه المعدنية والعطور. وهذه الاعلانات الغنائية تقتحم نشرة الأخبار والأفلام حتى اعتاد الناس على الضيق بها. ولكن لاحيلة لأحد من المستمعين أو المشاهدين فى منعها. لأن هذه الاعلانات غالية الثمن ــ وبسبب هذه الاعلانات تستطيع الأذاعة أو التليفزيون أن تقدم أحسن الخدمات لملايين المستمعين. فهل هو سلطان الاعلان؟ أو هو الملل من الأغنيات العادية التى أصبحت طويلة أو غير مفيدة، وهى لذلك لاتقول لنا شيئاً مفيداً؟ وهى لا تفعل ذلك لأنه لايوجد حافز قوى عند المطرب والمؤلف والملحن. هل الاغنية الاعلانية درس عملى ناجح لما تفعله المنافسة العنيفة بين الشركات المنتجة للساعات ومواد التجميل؟

إن شركات الاعلانات قد انتقلت خطوة أكبر. فهى التى تنفق الآن على البرامج أو المسلسلات ثم تقدمها هدية للمستمعين. ولأنها قادرة على أن تدفع أكثر، فإن أحسن الفنانين قد اتجهوا إليها. وبذلك تكون الشركات قد دخلت فى منافسة مع الدولة.. وتغلبت عليها أيضاً. وبهذه المنافسة تستطيع الشركات أن تختار نوعية البرامج والمسلسلات وتفرضها. وهى عادة لاتختار إلا المادة الجذابة.. ولايجذب الناس إلا الذى يسليها ويريحها ويمتعها، وبذلك نترك للدولة البرامج الجادة أو الجافة أو ذات الهدف

التاريخي أو التربوى. وفى نفس الوقت: أقل عدد من النجوم الذين يرتضون المكافأة القليلة والعمل القومى!

وليس أمام الدولة إلا أن تقبل المنافسة وترفع الاجر إلى مستوى الشركات وإلا فعليها أن تدافع عن الانتاج المتواضع الذى تقدمه لنا بعد ذلك!



لابد أن قصص الأغنياء تضاعف فى تعاسة الفقراء. ولكن الشىء الوحيد الذى يسعد الفقراء أن يجدوا فى هذه القصص تدخلاً للعناية الألهية التى اعطتهم المال وأفقدتهم الصحة، أو أعطتهم الولد ولم تهبه الوفاء والامتنان لوالديه!

ومن بين قصص الأغنياء جداً التعساء جداً: السيدة بربارة هاتون صاحبة محلات وولورث المنتشرة فى كل عواصم العالم. هذه السيدة تزوجت نجوم زمانها، وإذا ما طلقت النجم اللامع أتجهت إلى الأمراء المفلسين..

وفى كل مرة تتزوج كانت تنسى أن تسأل نفسها: ولكن لماذا؟

وعندما تجد الاجابة على هذا السؤال فإنها تترك زوجها إلى زوج آخر، لقد حدث ذلك سبع مرات. ولو كانت لديها الصحة الكافية أو الذاكرة القوية. لفعلت ذلك عشرين مرة.

سألها أحد أزواجها: ما الذى يشغلك ونحن لم نتزوج إلا من شهر واحد؟ قالت: من الذى سوف يجلس مكانك فى العام القادم.

قال الزوج: ولماذا العام القادم؟ فى استطاعتك أن تختاريه الآن.

قالت: أرجوك أن تعطنى فرصة.. وأعطاها الفرصة للبحث عن رجل آخر. ولم يمض وقت طويل حتى جاء رجل من بعد رجل حتى ماتت فى الأسبوع الماضى.

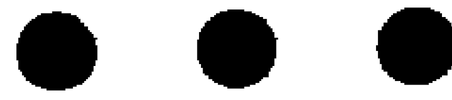
أما ثروتها فهى بمئات الملايين.. ولكن شقاءها كان مصدره هذه الثروة أيضاً. فكل من يريد الزواج منها، ينظر إلى ثروتها ألف مرة وإلى وجهها مرة واحدة. حتى تزوجت رجلاً غنياً جداً. ولكن ذلك لم يسعدها أيضاً. فقد قالت له يوم أن أنفصلت عنه: أنت تريد مالى.

قال أنا أغنى منك.

قالت: أنت تعرف أنى مريضة. وأننى سوف أموت لترث نصف ما أملك.

وكان هو الرجل الوحيد الذى أحبها لشخصها والوحيد الذى سار وراء نعشها..

ولكنها ماتت دون أن ترى دموعه على خده.. فقد كانت دموعاً صادقة. ولكنها جاءت بعد فوات الآوان ــ فما أفقر الأغنياء جداً!



نشرت صحيفة أمريكية خطاباً لعالم الأنف والأذن د. روزن هذا الخطاب كتبه بعد رحلة فى أواسط أفريقيا. يقول فى خطابه لزوجته: «أمضيت ليلة جميلة. وأجمل ما فى هذه الليلة أننى شاهدت حفلة زواج. اعترف لك بأن الناس فى غاية الرقة. وأن مشاعرهم فى منتهى «الرقة» .. وأكثر شيء اعجبنى فى هذا الزفاف أن العروسين قد أعربا عن الوحدة الكاملة بينهما عندما جرحت اصبعها بأظافرها .. وفعلت نفس الشيء مع عريسها. والتصقت الأظافر الدامية .. وهنا دقت الطبول وتعالت الصيحات. وأخلى المكان تماماً. فقد اعتبرت القبيلة أن الزواج قد تم».

وليس فى هذه العبارة الطويلة التى كتبها العالم الكبير د. روزن شيء جديد .. إلا اسرافه فى استخدام كلمات «الرقة» بين هؤلاء البدائيين. ولكن أهم من ذلك كله هو تفسيره لهذه الرقة والشاعرية. يقول د. روزن: أما السبب الوحيد فهو أنه لا توجد ضوضاء فى هذه المنطقة من العالم. وحيث لا توجد ضوضاء تكون الاعصاب أهدأ. والاعمال متوازية والقلب سليم واحتياجات الإنسان معقولة. وذلك فالحب والزواج والابوة والبنوة والتماسك الاجتماعى والديمقراطية الحقة ـ كلها من أهم معالم هذه المجتمعات البدائية.

أما الجنون والتشنجات وضغط الدم والذبحة والاختلال العام فهى من أهم معالم العصر الحديث وكذلك ظاهرة الانتحار.. بل أنه يرى أن الجرائم الفردية والجماعية والحروب كلها بسبب أوجاع الضوضاء.. وانتشار

المنبهات والمهدئات.. أو على الاصح انتشار المهدئات التى تصيب الإنسان بالخمول فتدفعه بعد ذلك إلى استخدام المنبهات، كل ذلك سببه الضوضاء..

أما الذى يؤدى إلى بعض الانحرافات والجرائم فى أواسط أفريقيا فهى الخمور. وهذه الخمور يتعاطاها الناس لأن الهدوء ممل.

وهذا الملل يغرى بالبحث عن وسائل للتغيير. ومن أهم الوسائل التى يستخدمها الناس لتغيير المزاج العام الخمور.. التى تؤدى إلى النشوة والنشوة التى تؤدى إلى الرقص.. والرقص الذى يلقى بالناس على الأرض حتى الصباح.. وكل صباح.

ولذلك يرى العالم الكبير د. روزن فى كتابه الذى صدر أخيراً ويضم رسائله إلى زوجته: أن ابناء المدن محكوم عليهم بالجنون مادامت عندهم ميكرزوفونات وتليفونات ومنبهات ومنومات إلا.. إذا ألغوا الحضارة كلها.. وقطعوا آذانهم تماماً ـ ومعنى ذلك أنه لا أمل لنا فى حياة معقولة إلى ما شاء الله!



كنت أزور استاذاً مصرياً في «مدرسة الدراسات الشرقية» لجامعة لندن. لم أجد إلا القليل جداً من الطلبة. أكثرهم يتناولون الغداء. الهدوء جامعي. والنظافة أوروبية والكلام همس وكل واحد يحمل الصينية ويقف في الطابور لا أحد يقول لأحد شيئاً حتى الذين يقولون يختصرون. جلسنا نتناول غداءنا انتقلنا إلى مكان آخر لنشرب القهوة وجدت طالباً يتكلم في التليفون وقد وضع حذاءه القذر على أحد المقاعد. المقعد ممزق. نظرت إلى التلميذ وجدته شرقياً.

وعند خروجنا من المدرسة وجدت لافتة كبيرة تقول: اللصوص نشيطون هنا.. احترس. إذا كانت لديك أموال أو أشياء قيمة اتركها عند البواب!

اللصوص؟ طبعاً من الطلبة أنهم يسرقون أموال زملائهم.. لامن مكاتبهم وإنما من جيوبهم. نشالون؟ وفي جامعة لندن؟

وفي المترو نفس اللافتة. وفي المحلات التجارية مضافاً إليها: أن اللصوص سوف يلقون عقابهم مهما كانوا ــأي مهما كانت الكميات التي اشتروها أو البلاد أو العائلات التي ينتسبون إليها..

وفي مكتبة كبرى وجدت هذه اللافتة: يمكن تخفيض ثمن الكتب لاعتبارات أخلاقية، فلا داعي لأن نسرقها!

وسألت أحد الانجليز: من الذي يسرق؟

فقال ضاحكاً: ليس الانجليز!

وفى احدى محطات المترو تحت الأرض وجدنا هذه العبارة: الزحام هو أنسب جو للصوص!

أى لا داعى لأن تزاحم فى المترو وأن تنحشر.. اختر العربات قليلة الركاب. كيف؟ أنها نصيحة.

وأمام أحد الكباريهات هذه اللافتة: لا تخف نحن نسرق القلوب فقط!

ترى لو رأينا ــ لأى سبب ــ أن نعلق مثل هذه اللافتات فى مصر، فما الذى نقوله نحن عن أنفسنا أننا نفضل أن تنتشر السرقات وكل أنواع الجرائم وأمراض الصيف دون أن ننبه أحداً إليها.. لماذا؟ أسأل نفسك! وقبل أن تجيب أقول لك: أننا نكره الصراحة!



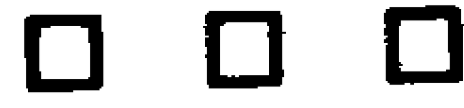
كلنا قرأنا عن «المهجر» أى البلاد التى هاجر إليها أبناء سوريا ولبنان. وفى هذا المهجر كان نشاطهم عظيماً وكان عائد نشاطهم أموالاً تدفقت على سوريا ولبنان. وكنا نعجب لذلك. وتسعفنا الكلمات فنقول أنهم: فينيقيون.. أى أنهم فينيقيون ونحن فراعنة. والفراعنة مرتبطون بالأرض لا يبرحونها. كأنهم يخشون ان غابوا عن مصر أن يختفى النيل أو الهرم. وظل المصريون محصورين بين الصحارى شرقاً وغرباً والشلالات جنوباً حتى الوادى الأخضر لم يحاولوا أن يوسعوه حتى لايتباعدوا وبقيت هذه «السيئة» ملازمة لنا حتى الآن. فالمدن الجديدة ملاصقة للقاهرة وحتى الشوارع فى المدن الجديدة ضيقة ـ شوارع مدينة نصر ومدينة السادات ومدينة العاشر من رمضان.

وعرفنا أن المهاجرين من ابناء اليونان فى كل مكان. وقيل لو ذهب إنسان إلى القمر لوجد جرسونا يونانياً يقول له: تحب تشرب ايه؟

ونسينا أن إسرائيل قامت بايدى وجيوب وعقول المهاجرين فى كل مكان. وأمريكا نفسها ليست إلا دولة المهاجرين. فلا يوجد أمريكى حقيقى إلا الهنود الحمر.. نحن دخلنا فى عالم الهجرة متأخرين. وكان أول دخولنا إلى البلاد العربية.. ولم تكن هجرة وإنما كانت اعارات رسمية وعقوداً شخصية ورحلات سياحية دينية.. ولأن المصريين المهاجرين لم يلقوا عناية الدولة، فقد اضطربت حياتهم، وخرجوا على القوانين كأنهم حاولوا معاقبة مصر على اهمالها فكانت فضائحهم الشخصية عاراً وطنياً، انتهى كل ذلك، والحمد لله فهم اليوم على رؤوسنا وفى عيوننا.

فهم قواتنا الشعبية فى مراكز متقدمة. يرون ويسمعون ويتعلمون ويبعثون إلينا بأموالهم وأفكارهم. وبذلك تتجاوز بهم مصر حدودها الجغرافية، وتتقدم بهم إلى الأمام.

إن الكثير من القيم والموازين والمكاييل تعتدل فى أيدينا منذ الاهتمام الرسمى الجاد بأبنائنا فى الخارج!



هذا الطاغية الجميل.. ألف شهر زاد التى تحكى لألف مليون شهريار اروع الحكايات والأستعراضات والأخبار فى الأرض وتحت الأرض وفى الكواكب وفى أعماق النفس والقلب: التليفزيون..

لا أنت قادر على مقاومته ولا أنت قادر على التخلص منه.. ويشكو علماء النفس من أثره على عقول الكبار وأجسام الصغار.. وعيون الجميع.. ويشكو علماء التربية من أن الناس لم يعد عندهم وقت للقراءة..

ويشكو علماء الاجتماع من أن هذا الساحر العظيم قد قطع ألسنة الناس، فلم يعد أحد يكلم أحداً.

فما اجتمع رجل وامرأة إلا كان التليفزيون ثالثهما..

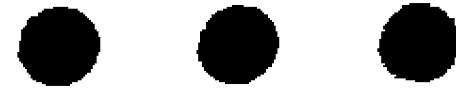
ومن التليفزيون تدفقت النصائح تقول: أبعد مترا أو مترين.. لا تأكل أمامه.. لا تشرب.. لا تنم.. اغلق التليفزيون حتى تريح عينك وأذنك وصوتك.. وحتى يذاكر أطفالك.. فلن يفوتك شىء.. غداً سوف تجد برامج أخرى مماثلة وربما أفضل.. أننا فى عصر ادمان المخدرات الصفراء والبيضاء.. وأكثرها خطورة المخدرات الملونة من طراز بال وسيكام..

ولن يتوقف أحد عن الفرجة على التليفزيون مهما كانت النتائج.. فالناس أصبحوا يجدون فيه نعيم الحياة، وكبرى ملذاتها..

دولة واحدة على هذه الأرض هى التى استطاعت ومن عشرين عاماً أن تعرف خطورة الجهاز على الثقافة وعلى الحياة العائلية. هذه الدولة هى ايسلندا فهى تجعل الشاشة سوداء كل يوم خميس لا تليفزيون!

مرة واحدة خرجت عن هذه القاعدة يوم هبطها ريجان وجوربا تشوف..

ويوم الخميس من كل أسبوع، يتفرغ الناس لحياة الأسرة والقراءة أو لعب الشطرنج. لم يعترض أحد وإنما وجدوا فى الخميس الأسود انقاذاً لحياتهم العقلية والفنية ولعائلاتهم.. فهو يوم الحرية من التليفزيون. أنه يوم توفير الطاقة وترشيد الفلوس ويوم الأسرة.. وسوف تستجيب الدولة لمطالب الشعب (ربع مليون نسمة) بجعل شهر يوليو من كل سنة شهراً أسوداً بلا تليفزيون لتكمل راحة الناس فى أجازتهم السنوية ــ ما رأيك؟



اذكر أن باحثاً جاء إلى القاهرة يطلب المساعدة في اعداد معرض لرسومات الأطفال. واختاز موضوعاً: السلام كما يراه الطفل..

أما فكرته فبسيطة. معه الورق والأقلام. ودخل أحد الفصول وقال: ليرسم كل واحد منكم ما الذى يفهمه عن السلام.. ما الذى سمعه فى البيت أو فى التليفزيون.. أى شىء!

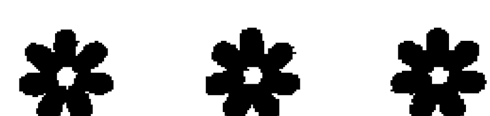
واشترط أن يكون ذلك بسرعة.. ورأيت اللوحات بعد ذلك.. ومن الغريب أن أكثر الأطفال استخدم اللون الأحمر فى رسم الطيور والحيوانات وبعض الوجوه والذين استخدموا اللون الأحمر استخدموا اللون الأخضر، فى كتابة أسمائهم.. أما الذين استخدموا اللون الأخضر، فقد وقعوا باللون الأحمر. أى أن السلام أحمر وأخضر.. حرب وحياة بعدها، أو أمل فى ذلك.

والملحوظة الثانية أن الأطفال قد ملأوا الورق من أوله لآخره.. فالحياة عند الطفل مليئة بكل شىء..

طفل واحد فقط هو الذى رسم صورة لرجل وامرأة. ولما سئل قال: بابا وماما.. وبين الدموع التى نثرها حول اللوحة عرفنا جو الأسرة التى يعيش فيها. فالسلام فى البيت قبل أن يكون فى الشارع، أو سلام البيت يفيض على الشارع.. أو إذا عم السلام فى البيت. انتقل إلى الاسرة الأكبر.

ومنذ يومين شاهدت معرضاً لرسومات الأطفال.. أنها نفس الصفات: الخطوط كبيرة والوجوه ضخمة واللوحات ممتلئة واللون الأحمر يتوارى فى اللون الأخضر والعكس. وملامح الوجه مثل ملامح الحياة غير متناسبة. فالعين أكبر من الفم. والبيت أكبر من الشارع، واللوحة أصغر من أن تتسع لكل ما يدور فى خيال الأطفال. والاستغراق فى الرسم والتعبير، لم يدع للطفل مكانا يوقع فيه.. فهو قد نسى أنه من الضرورى أن يخصص مكانا لاسمه..

وقد قرأت وفهمت واسترحت فالأمل فى هؤلاء الأطفال وليس فى الذين يتفرجون عليهم!



فسدت متعتى وأنا اتفرج على فيلم عن الزعيم الانجليزى « كرومويل » الذى قضى على الملك شارل الأول لأنه ألغى البرلمان فجاء كرومويل وألغى البرلمان والنظام الملكى وأقام حكومة استبدادية شاذة فى تاريخ التطور الدستورى الهادىء فى بريطانيا.

والفيلم ممتاز ولكن الفيلم انقطع ٢٦ مرة لتظهر كلمة « نادى السينما » ومعه موسيقى جميلة. لولا أن سماعنا لها أثناء سرد الأحداث وتطورها يجعلها قبيحة ومفزعة. ولا أعرف السبب الفنى الذى أدى إلى هذا الخلل. ولكن لابد أن هناك سببا يؤدى إلى تكرار مثل هذا القطع فى هذا البرنامج وفى أفلام أخرى كثيرة. ولابد أن هناك سببا آخر لرداءة الألوان والوضوح فى الأسابيع الماضية..

ولا أعترض على الخلل، ولكن الاعتراض على أن يكون بهذه الكثرة المروعة!

وتفرجت أيضا على جانب من فيلم اسمه « المغامرون » بطولة شارل بوابيه وآخرين. موضوعه تزوير احدى مسرحيات شكسبير. الفيلم ممتع. لولا أن شيئاً غريباً قد حدث.. ففى وسط هذا الفيلم يظهر اعلان عن سيارة جديدة ومزايا عجلاتها ومقاعدها واعتدال سعرها واقتصادها فى الوقود. وهذا يؤكد أن الفيلم لم يشاهده أحد قبل عرضه فى التليفزيون أو أن أحداً قد شاهده وهو نائم، ولم ينتبه إلى أن شكسبير الذى توفى ١٦١٦ لايمكن أن يكون قد رأى أو سمع عن سيارة كاديلاك موديل سنة ١٩٧٥!

وهى أخطاء سببها الاهمال أو السهو أو الجهل. ومن الممكن اصلاحها وتفسيرها وتبريرها.

ولكن الذى لا أعرف كيف يمكن لأى أحد أن يبرره هو المسلسلات الساقطة. أى التى تم انتاجها وشراؤها وعرضها وارغام الناس على مشاهدتها.. فما معنى هذا السخف؟

ولا أريد أن اسمى مسلسلات أو أعمالا فنية بالذات، فهى معروفة ومعروضة كل يوم..

إن فيلماً جيداً نراه على عشرين مرحلة أفضل من فيلم تافه تراه فى جلسة واحدة!

وإن كنا نحلم بأن يجىء يوم ونرى فيه أعمالاً جيدة فى عشرات الحلقات دون أن ينقطع العرض. وقد حدث ذلك فى كل المسلسلات البوليسية وفى مسلسلات بيتون بليس وأغنياء وفقراء. وليس ذلك على الله ببعيد!



أطلعت بمزيد من التقدير على مقال سيادتكم بتاريخ ١٩٨٦/٩/١٧ ولى تعقيب على ما جاء به :

١ ــ أن كل الركاب خاضعون للتفتيش بل يتاح للغالبية منهم المرور من الصالة الخضراء، وتجرى عمليات اختبار عشوائية على بعض الحقائب وهو ما يحدث حالياً فعلاً. كما أن التفتيش بأسلوب بعثرة محتويات الحقائب مرفوض وأن التدريبات التى يتلقاها رجال الجمارك فى هذه المواقع كفيلة باكسابهم مهارة التعرف على المحتويات مع المحافظة على نظامها. والامر يتطلب بصراحة تعاونا وتضامنا بين المواطن والجمارك بحيث ينبه الراكب الذى يساء معاملته رئيس الوردية إلى ما يرتكبه رجل الجمارك حتى يمكن تصحيح الموقف فوراً.

٢ ــ أن تطوير الاجراءات المتخذة فى الجمارك عملية مستمرة بقصد التيسير وإزالة الاختناقات التى قد تشكو منها الجماهير، وتتخذ من التطوير أداة لتحسين الأساليب وليس تعقيدها.

٣ ــ أنى أرحب ببحث أية حالة لسوء المعاملة أو للتعقيدات خلقها سوء التصرف فى أى موقع جمركى لاتخاذ القرار ومعاقبة المتسببين.

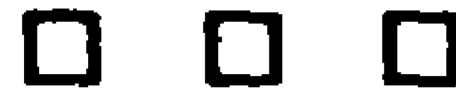
وأكرر تقديرى الشخصى لسيادتكم وشكرى للنقد البناء الذى تتفضلون به من آن لآخر بما يساعدنا على تلمس الطريق.

رئيس مصلحة الجمارك
فتحى حسن سلامة

شكراً جزيلاً على هذا التوضيح والتأكيد على سلامة الاجراءات وحسن المعاملة واستعداد مصلحة الجمارك لتصحيح الخطأ أن وقع. ولكن يحدث أن يجيء المصرى المغترب الذى يكاد قلبه يقفز من بين ضلوعه عندما يرى أرض بلاده. وفجأة يجد نفسه فى المنطقة الجمركية ويرى الذى يفتحون الحقائب وتنفذ أصابعهم إلى ما وراء كل شيء..

ولكن يجب أن ينتبه العائد إلى وطنه العزيز، أن هذا ليس سلوكاً خاصاً ولا أن أحداً يريده ألا يعود إلى بلاده، وألا يندم على أنه فكر فى ذلك... وإنما هناك اعتبارات كثيرة: التهريب والأمن..

ومع ذلك فكل شيء يتم برفق وبأدب واحترام لمشاعر الناس. أكرر الرجاء.. فإن كان العائد مهرباً أو مزعجاً للأمن، فالقانون بكل مواده ورجاله فى غاية اليقظة لمعالجة ذلك..

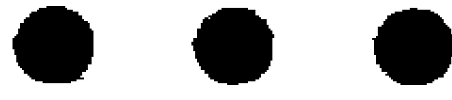


كانت فرصة مؤلمة يتحسر فيها الإنسان على شبابه، وعلى قدره لأن الله خلقه كاتباً عربياً. فقد جلست أمس إلى المؤلف الالمانى الشاب فيليب فاندنبرج الذى أصبح مليونيراً لأنه ألف كتابين أثنين. الأول عن الملكة «نفرتيتى».. ثمن النسخة الواحدة ثمانية جنيهات وقد طبعه ٨٥ مرة فى عشرين لغة فى سنتين. وكان من حصيلة هذا الكتاب الواحد فيلا أنيقة على قمة جبل فى ألمانيا ــ ولو كانت عندى مساحة لتركت العالم الأثرى د. على حسن يروى كيف دارت به الأرض عندما رأى جمال هذه الفيلا وروعة ما فيها من تحف ووسائل للراحة. أما الكتاب الثانى الذى جعله مليونيراً مرة أخرى فهو كتاب «لعنة الفراعنة» الذى ظهر فى عشرين لغة. أما الكتاب الثالث الذى فرغ منه فهو «رمسيس الثانى» وقد جمع له جبالا من المعلومات وألوف الصور. وأرسلت له دور النشر سكرتيرات وعقولاً الكترونية لتكون فى خدمته قبل أن يظهر الكتاب فى كل عواصم الدنيا فى وقت واحد.

أما أسلوبه فى العمل فهو أنه يقرأ كل ما كتبه الآخرون عن الموضوع الذى يعنيه ويسجله بصورة تفصيلية دقيقة. أما العلماء والباحثون فإنه سجل تعليقاتهم على أشرطة. أما الأماكن الأثرية فإنه يسجلها أيضاً بالكاميرا. ويظل كذلك عاماً أو عامين. ثم بعد ذلك يجلس يكتب على مهل سنة أو ثلاثة أرباع السنة.

وكان سؤالاً ساذجاً جداً عندما قلت له: ولا تزال تعمل فى الصحافة؟ فأجاب: بالطبع لا!

وكان من الضرورى أن أتوقع ذلك. لولا أننى ــ وغيرى من المؤلفين العرب ــ لا نتصور أن أحداً يستطيع أن يعيش من التأليف. كيف؟ وأين يطبع كتبه؟ وكيف يهرب من ارهاب الضرائب وسخافة قانون خنق المؤلفين وكان من الواجب ألا أساله مطلقاً. فقد رأيت من قبل كيف كان يعيش المؤلف الأمريكى همنجواى فى مدينة هافانا عاصمة كوبا.. ورأيت الغابات والحيوانات والقصر الجميل الذى كان يعيش فيه الكاتب شهراً من كل سنة. ورأيت البيتين المجاورين على قمة جبل سويسرا وكيف كان يعيش فريدريش ديرنمات فى واحد منهما ويكتب فى الآخر.. ورأيت القصر الساحر الذى أقامه الاديب الإنجليزى سومرست موم على شاطىء الريفيرا.. ثم كيف كان يعيش استأذنا العقاد فى ركن من بيت امتلأت أرضه بالأحذية وجدرانه بالكتب. ومات يرحمه الله عن تسعين كتاباً!. كأنه ما عاش ولا فكر ولا كتب ولا كسب!



أعود فأوضح ماكتبته منذ أيام: أن صحتك فى أصابعك. انتهت الحكمة الصينية والهندية. وكل ماهو مطلوب منك هو أن تضغط باصابعك على أصابعك ثلاث مرات يومياً ولمدة ثلاث دقائق. لماذا ؟

لأن هناك نظرية صينية هندية تقول بأن الجسم الإنسانى ملىء بالتوصيلات الكهربية.. يمكنك أن تقول أن الاعصاب هى أسلاك كهربية. وكثيراً ما حدث ماس أو تلامس بين الأسلاك يؤدى إلى انقطاع التيار الكهربى. هذا الانقطاع هو المرض..

وكما أن لكل كتاب فهرساً، أو كما أن لكل بيت من البيوت تابلوها لعدادات النور أو مفاتيح النور. فيدك هى التابلوه.. أو هى فهرس الكتاب ـــيداك. وليس فى استطاعتى أن أرسم لك خريطة التيار الكهربى فى جسمك. ولكن دون دخول فى تفاصيل لا تفيدك كثيراً، فعليك أن تضغط باصبعين على اليد الاخرى.. على الاصابع وكف اليد وما تحت الكف على الجانبين.. وفى المسافة بين الرسغ والكوع. يدك اليمنى.. ثم بعدها يدك اليسرى..

ولا يوجد وضع خاص للجسم أثناء هذه التمرينات اليومية. وإنما كل وضع يناسبك: جالساً واقفاً نائماً فى بيتك فى الطريق إليه فى دوره المياه.. فقط أن تضغط باصابعك على أصابعك.

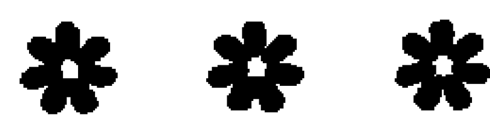
وهناك تدريبات أخرى مثلاً: إذا أنت ضغطت على ذقنك فى ستة

مواضع فإن هذا من شأنه أن يقضى على الإمساك.. وهناك أماكن عن الرسغ للتنشيط الجنسى.

وهناك تدريبات لتغذية الارادة وتدريبات للامتناع عن التدخين، أى لتجعلك أقدر على أنقاص عدد السجائر،

وعيب هذه اللمسات اليومية أنها بسيطة وأنها سهلة فنحن قد اعتدنا على العقاقير والمضادات والمقويات والمنبهات وعلى الروشتات الطويلة وعلى أن نرى الطبيب يقلب فينا يمينا وشمالاً، وعلى أن نتطلع إلى وجهه انتظاراً للمعجزة..

ولذلك فنحن لا نأخذ مثل هذه اللمسات مأخذ الجد.. ولكن الإتجاه الذى يكتسح العالم الآن، هو العودة إلى الطبيعة.. إلى الفطرة.. إلى الطب بلا طبيب والدواء بلا صيدلية.. وإلى أيدينا وليس إلى أيدى الآخرين ــ ولا تتوقع أن تصبح فى يوم وليلة أجمل وأقوى إنسان فى العالم!



عذبني صاحب الجلالة الملك رمسيس..

فقد تابعت هذا الملك العظيم. وقرأت تلك الدراسات الطويلة عن الرجل العظيم الذى طرد اليهود من مصر وخلق عندهم «عقدة الطرد» فى كل العصور. وألفوا عنه وعن أنفسهم السفر الأول فى التوراة وهو سفر «الخروج» من مصر.. وأصابهم بلعنة الخروج والطرد من كل بلد.. حتى فى اسرائيل نفسها.. فهم لا يزالون مطرودين حتى فى الأرض الجديدة التى استقروا عليها!

وقد شاهدت «الخروج» عندما كان يتم تصويره فى فيلم «الوصايا العشر» بالقرب من أهرام الجيزة.

ثم تابعت خروجهم من كل أرض ولألف سبب.. وقد أخرجهم رمسيس من مصر وهم يعانون عقدة الشتات أو عقدة الضياع.. والتيه.. ومازال اليهود يريدون أن يؤكدوا للعالم ــ كذبا ــ أنهم هم أيضاً الذين أخرجوا رمسيس المريض من مصر.. أى كما أخرجهم أخرجوه!

ولكن العذاب الحقيقى هو الذى عانيته مع د. موريس بيكاى.. الطبيب الفرنسى الذى اكتشف مرض رمسيس ودرسه وتعمق فى ذلك. وقلب الدنيا على رؤوس كل العلماء الفرنسيين.. ووقف منه العلماء الفرنسيون موقفا عنيفا. حتى ليخيل إليك أنك فى إحدى مسرحيات الرعب! يقوم فيها موريس بيكاى بدور رمسيس ويقوم الآخرون بدور اليهود..

وقد جاء موريس بيكاى إلى مصر، وكلمنى فى التليفون من باريس خمس مرات.. يحذر وينذر وينبه. وهو لا يمل ولايكل. ويستطيع أن يروى نفس القصة ألف مرة وبحماس كأنه يحكيها لأول مرة..

وكما تفضل مشكوراً وخصنى بإضطهاده! فإنه قد أشرك معى الصديق محمود أبو وافية.. فقد لاحقه فى باريس. وفى كل مكان يجد نفسه فيه يروى له خوفه من موت رمسيس مرة أخرى فى أيدى العلماء الفرنسيين الـ.. والـ.. هذه النقط ترمز لشتائم بالفرنسية يصعب ترجمتها إلى العربية، أو لعله لا يليق!

وفى آخر مرة كنت فى باريس فوجئت بمحمود أبو وافية فى التليفون يضحك قائلاً: جاءك موريس بيكاى؟

قلت له: فى عرضك فى طولك..!

ولم أكد أضع السماعة حتى كان الباب يدق فى الساعة السادسة صباحاً.. ولم يكن السفرجى يحمل طعام الأفطار وإنما د. موريس بيكاى يحمل آخر أخبار رمسيس الثانى!



نشرت الصحف اليوغوسلافية «أوراق» الرئيس السادات التى تنشرها مجلة أكتوبر. فزاد توزيع الصحف خمسين ألفاً فى كل الأيام. ومعنى ذلك أن القراء اليوغوسلاف يرون فى الذى يقوله الرئيس السادات صدى فى نفوسهم. وأنه قال ماتمنى أن يقولوه هم أنفسهم. فما الذى قاله الرئيس السادات: أنه حكى حكايته مع السوفيت. أى حكاية مصر فى عهد السادات الذى يبدأ فى سنة ١٩٧٠. ومصر فى حالة حرب. ولم تكن المسافة بعيدة بين ذلك اليوم والنكسة. فالنكسة قد أهدرت كرامة المصرى والعربى. ولكن المصرى يريد أن يثأر لما كان. فقد كانت الظروف الدولية أقوى. والضغط الداخلى أعنف. وكانت الحسابات كلها مخيفة دقيقة. فقد أخطأت القيادة فى كل شىء..

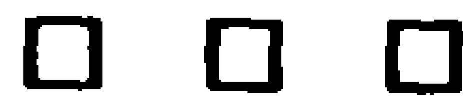
ومات جمال عبد الناصر دون أن يحصل على ما أراد من الروس. رغم الخدمات الجليلة التى قدمها للروس. مات الرجل دون أن يعطوه ما يجعله قادراً على أن يعيش الأيام القليلة بأمال كثيرة..

وتسلم أنور السادات مصر فى حالة أسوأ مما كانت عليه أيام عبد الناصر. ففى الداخل كانت مراكز القوى تستعد لوراثة عرش مصر بالقوة أو بالحيلة. تقدمها جثة هامدة للسوفيت..

واليوغوسلاف والصينيون أيضاً الذين ترجموا هذه الأوراق وسوف يصدرونها فى كتاب. قد عانوا من روسيا أيام ستالين وأيام خروتشيف أيضاً. وستالين هو الذى قال: من هو تيتو هذا؟ أننى أستطيع أن أسقطه بأصبعى فلا يكون له وجود.

ومات ستالين. وعاش تيتوبطلاً عظيماً. ووصف السادات بأنه من أعظم شخصيات العصر.. أن الرئيس السادات عندما نشر هذه الأوراق لم يتوجه بها فقط إلى أبناء شعبه وإنما إلى الأمة العربية وإلى التاريخ.. يروى ما حدث له وبنفسه. حتى لا تكون هذه الفترة الخطيرة من تاريخ مصر العوبة فى أيدى المؤرخين. وهو شاهد على عصره وصانع لأحداثه وأمين على مسئوليته.. وقصة مصر مع السوفيت نموذجية أو نمطية حدثت فى مصر وقبلها فى الصين ويوغوسلافيا. وسوف تتكرر فى أى مكان آخر. ومن هنا كانت أهميتها فهى: عبرة وعظة.

وهذه هى قيمتها التاريخية والأخلاقية أيضاً!



لا أعرف من أين دخل محيي الدين ابن عربي الفيلسوف الصوفي الأندلسي (١١٦٥ـ ١٢٤٠م) مجلس الشعب. من أي باب مع أي مشروع. ولماذا اتخذ مجلس الشعب هذا القرار العاجل المستعجل بتحريم كتابه «الفتوحات المكية». وهذا الكتاب قد طبع في مصر منذ أكثر من ١٥٠ عاماً.

وابن عربي هذا فيلسوف يرى الكون صورة لله.. ويرى الكائنات مفردات في قاموس القدرة الالهية. فإذا كانت قدرة الله مطراً فنحن قطراتها، وإذا كانت القدرة شمساً فنحن شعاعها.. والله في كل شيء وكل شيء. وقد تأثر ابن عرابي بفيلسوف مصري اسمه أفلوطين، وفيلسوف اغريقي اسمه أفلاطون.. وتأثر به فيلسوف هولندي اسمه اسبنيوزا. وهي قضايا فلسفية أمضينا سنوات طويلة في دراستها.

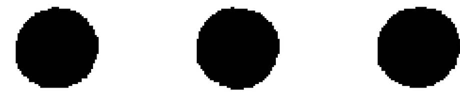
وليس جديداً على ابن عربي أن يتهمه أحد بالألحاد والزندقة. فقد اتهمه العلماء في زمانه. لأنه لا يفرق بين المذاهب والاديان في تفسيرها لحكمة الله.. وهو يرى أن كل إنسان يحاول أن يهتم وأن يتذوق «التجليات» و«الفيوضات» الالهية.. تستوي في ذلك الاديان السماوية وغير السماوية. وهذه المساواة بين الاديان هي التي أغضبت منه العلماء.

فما دخل مجلس الشعب بقضية فلسفية صوفية متخصصة جداً، مع أن هناك قضايا شعبية حيوية عاجلة قابلها مجلس الشعب بأغلبية ساحقة من المقاعد الخالية!

ومن العجيب حقاً أن ابن عربى أبا بكر محمد بن على محيى الدين الحاتمى الطائى الاندلسى، قد تعرض للاغتيال فى مصر منذ سبعة قرون!

فهل نهنىء أنفسنا نحن المصريين، على هذا الاصرار على قتل ابن عربى حياً أو ميتاً ـ!

وإذا كانت هناك نصيحة لأحد فى هذا الموقف الأليم، فأننى اقترح أن يشترى كتاباً للإمام جلال الدين السيوطى فى دفاعه عن هذا الفيلسوف المتصوف.. الكتاب عنوانه «تنبيه الغبى فى تبرئه ابن عربى» ـ والله أعلم!



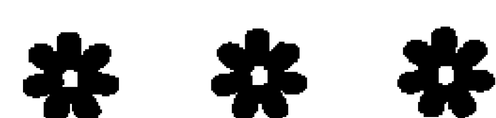
في هذا العام تمر مائة سنة على ميلاد اثنين من أشد الأعداء هما: ستالين وتروتسكي. وتنشر الصحف والمجلات العالمية كيف اغتال ستالين رفيق الطريق ليون تروتسكي. وتنشر الصحف أيضاً مذكرات خروتشيف الزعيم السوفيتي الفلاح الذى عاش أمياً حتى الثلاثين من عمره، ثم علمه الحزب القراءة والكتابة حتى أصبح زعيماً لروسيا.

وعلى طريقة السوفيت اغتالوا هذا الرجل حياً. تآمر عليه برجنيف وكوسجين وبودجورني وأطاحوا به.. فوجد الرجل نفسه قعيداً في احدى الحدائق العامة ومن حوله بعض احفاده.. ونشرت الصحف أنه مات هادئاً مطمئناً راضياً بما حققته الثورة السوفيتية من انجازات في العالم كله.

أى أنهم لم يقتلوه. وإنما هو الذى مات من شدة الفرح!

وكما فعل خروتشيف بستالين فعل برجنيف بخروتشيف. والفلك دوار. فقد محا خروتشيف اسم ستالين من كل دوائر المعارف ومن كل الكتب.. وكانت هناك مدينة اسمها ستالنجراد، غيروا اسمها أيضاً.. وكذلك فعل برجنيف بسلفه العظيم خروتشيف. وكل الذى عابه برجنيف على خروتشيف قد وقع فيه. فقد عاب عليه أنه انفرد بالسلطة. ولذلك جاء برجنيف واثنان آخران يحكمون روسيا.. ثم أطاح برجنيف بالاثنين الآخرين وأصبح هو رئيس الدولة، سكرتير عام الحزب الشيوعى، القائد الأعلى للقوات المسلحة، وربهم الأعلى، وحامل جميع نياشين لينين..

والصراع الدائر الآن حول فيتنام هو صراع الأسماك الكبيرة والصغيرة في بحر الماركسية اللينينية: روسيا والصين وفيتنام. وإذا كانت روسيا هى «أم» الشيوعية، فإن الصين هى «دادا» الشيوعية.. أما فيتنام فهى التى تقوم بدور اليتيم على مائدة اللئيم.. والعالم يتفرج على الاساليب المختلفة للشيوعية فى قضائها على نفسها بنفسها!



رأيت فى مدينة كولمبو بسرى لانكا عدداً من الرهبان الهنود يمشون حفاة على النار التى درجة حرارتها ٣٠٠ مئوية. ولم يضعوا دهونا أو مواد عازلة فى أقدامهم. وعندما خرجوا من النار طلبوا إلينا أن نلمس أقدامهم لنرى إن كانت النار قد تركت فيها أثراً. فلم نر.. وسبقنا إليهم عدد من العلماء الامريكان والألمان.. هذا يقيس الضغط وذاك الحرارة.. ثم يسارعون بالكشف عن المعدة وعن قاع العين..

بقى أن نفهم لماذا لاتحترق أقدامهم والتفسير طويل. ولكن يمكن إيجازه هكذا: فى داخل الجسم الإنسانى قوة هائلة على التحمل. وفى داخل العقل الإنسانى، الشعور واللاشعور، قدرات ضخمة معطلة. فإذا أفلح الإنسان فى تنشيطها واستدعائها بصورة منظمة فإنه يستطيع كل شىء. فالله خلق الإنسان على صورته. والله سبحانه لانهاية لقوته، والإنسان قوى جداً أقوى وأعظم واروع مما تتصور. ولكن نحن لا نجرب ذلك.. وكنا فيما مضى نرى «الرفاعية» يضعون المسامير تنفذ من جانب من الوجه إلى الجانب الآخر.. وترى الواحد منهم قد وضع السيف فوق بطنه، ونفذ من ظهره فإذا خرج السيف يكون لامعاً نظيفاً ليست به قطرة دم واحدة.. ودون أن يترك أثراً واضحاً فى البطن أو الظهر. كيف؟ ليس إلا هذا التفسير الذى يقول به الهندوكيون واتباع مدرسة «الزن» اليابانية، وهى مثل كل شىء فى اليابان هى نفس المذهب القديم بعد أن ادخلوا عليه التحسينات!

واستخدام المغناطيس فى علاج الإنسان كما يفعل د. بارون فى

باريس ليس إلا تصحيح مسار المغناطيس الموجود فى الإنسان مضافاً إليه رغبة الإنسان القوية فى الشفاء. وعلى ذلك فالصحة = إرادة الصحة + اثارة قواه الكامنة الهائلة + تصحيح مسارها من الخارج!

ونحن نلاحظ فى حياتنا العادية أن الواحد منا يذهب إلى الطبيب موجعاً فلا يكاد يدخل العيادة أو يجلس إلى الطبيب حتى.. يخف الألم أو يزول..

وماذا حدث؟ الجواب: لقد شجعك الطبيب على أن تريد الصحة لنفسك.. فكانت لك الصحة.. بعض الوقت أو كل الوقت!



كان أهل هونج كونج يسخرون من اصرار الصين على استعادة جزيرتهم بالذوق أو بالقوة. أما بالذوق فهو عن طريق التفاوض مع بريطانيا. وقد تفاوضت وسوف يستردون جزيرتهم قبل نهاية القرن. أما القوة فمستحيل لأنه لايوجد مكان يوقفون فيه سياراتهم ودباباتهم ـــفالجزيرة مكدسة بالمشاة والسيارات ولا موطىء لقدم.

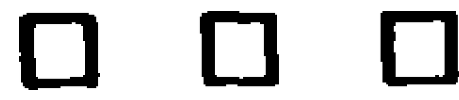
ولا ينافس هونج كونج إلا بعض شوارع مدينة الجيزة. واختر لنفسك شارعاً أو شارعين رئيسين وسوف تلاحظ أن تصلب الشرايين قد أصابها.. أى يترسب فيها الكلوسترول على الجانبين وبذلك تكون حركة الدم من القلب وإليه ضعيفة جداً.. نفس الشىء فى الشوارع: العربات على الجانبين ولا أحد يقول لأحد لماذا أنت هنا.. بل إننا نسمع عجباً أن هذه السيارات بموافقة واتفاق تام.. أو بعبارة أوضح: أى أن العطلة وسد الشوارع بعلم ومباركة من الضابط فلان الفلانى. ولا أميل إلى تصديق ذلك. ولكن ثبات هذه الحالة يؤكد ذلك. فرجل المرور، ان ظهر، يمر على السيارات وكأنه لايرى ولا يسمع ولا يتكلم ـــكأنه!

شىء عجيب أن تتحول الشوارع إلى مواقف للسيارات. وأن يتجول رجال المرور معجبين بذلك. ويكون معنى «الانضباط» هو انضباط رجال المرور. يمرون كل يوم، أن فعلوا، ولايرون مخالفات فى الشارع. وإذا وجدوا المرور واقفاً، وقفوا، وإذا وجدوه متحركاً تحركوا. وإذا سمعوا اجهزة التنبية أطلقوا هم أجهزة التنبيه وانطلقوا.. وهم بذلك يسايرون الشارع وحركة الشارع، أو انعدام الحركة.. وهكذا بدلا من أن يحركوا

الشارع فإنه قد قيدهم، بدلا من أن يضبطوه .فقد اعتقلهم .. وهكذا مادامت الشوارع لم تعد شوارع، فالمرور لم يعد مروراً.

وبعض الناس الواقعيين المنصفين يرون أن «دور» المرور لم يأت على الجيزة .. فالحركة قد بدأت فى القاهرة والانضباط أيضاً. وإذا نجحت هذه التجربة الصادقة المخلصة فى العاصمة الكبرى. فليس بعيداً أن تنتقل عدواها إلى الجيزة .. وربما إلى قلب الاحياء الشعبية فى القاهرة ..

وإن كان من رأيى أن الانضباط يبدأ فى البيت .. أى أن الإنسان ينزل من بيته منضبطاً اخلاقياً وعملياً ولذلك فالانضباط غير «الضبطية» ليست من مهام وزير الداخلية وحده ـ ولكن كل الوزراء والبيوت والمدارس والمساجد!



صدر كتاب اسمه «صفحات من التاريخ الأدبى لتوفيق الحكيم من واقع رسائل ووثائق». وهو يضم عدداً من الخطابات أرسلها وتلقاها. فأعاد نشرها وعلق عليها موضحاً ما جاء فيها.. إلا أنه لم يفعل ذلك فى حالة واحدة. فقد تلقى خطاباً من العقاد يشكره على كتاب بعث به الحكيم.. وفسر الحكيم ذلك بأنه كان قد أرسل للعقاد مسرحية «يا طالع الشجرة» فلم تعجب العقاد. وعاد فأرسل إليه كتاباً آخر يحبه عوضاً عن هذا الكتاب الذى لم يحبه.. وكان هذا الكتاب المحبوب مجموعة من المقالات روى فيها الحكيم أن عدداً من المساجين نقلوهم فى السلاسل إلى رأس البر ليروا الحكيم وكان وكيلاً للنيابة فى ذلك الوقت، فأطعمهم الحلاوة الطحينية على حسابه ـ والذين يعرفون الحكيم يرون أن هذه تضحية لاتحدث كثيراً إلا فى ظروف لها شكل الفضيحة!

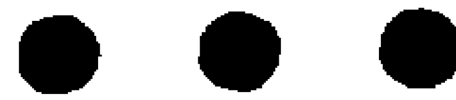
وقال الحكيم فى توضيح رسالة العقاد أن العقاد وطه حسين قد أبديا رأيهما بأشكال مختلفة وسخطهما على مسرحية «يا طالع الشجرة» سنة ١٩٦٣. ولم يشأ الحكيم أن يقول حقيقة ماحدث..

والذى حدث هو أننى جمعت بين العقاد وطه حسين والحكيم على خط تليفونى واحد. وكنت أسأل العقاد، وأعود أسأل طه حسين ثم أسأل رأى الحكيم فيما قال الاثنان. وانقل ما قاله الحكيم للعقاد.. ثم لطه حسين، وأعود للحكيم مرة ثانية.. ودارت هذه المحادثة الفريدة أكثر من أربع ساعات ثم نشرتها بعد ذلك. فلم يحدث أن ألتقى الثلاثة حول موضوع واحد هو. أدب اللامعقول الذى خرج به الحكيم على الناس فى مصر،

وإن كان معروفاً فى أوروبا منذ أكثر من ثمانين عاماً.. ثم اتخذ صورة صارخة فى العشرين عاماً الاخيرة..

أما الذى لا يعرفه الحكيم الآن، وتعرفه السيدتان صفية المهندس وسامية صادق فهو أن الحديث التليفونى للحكيم مسجل على شريط طوله ساعتان. وفى هذا الشريط آراء للحكيم فى كل خلق الله من الكتاب والشعراء والمطربين.. وأن الحكيم قد استخدم عبارات لا يجرؤ عليها «حماره» ثم كان أكثر أيلاماً من «عصاه» إذا نزلت على أنوف الناس.. وقد سمع العقاد هذا التسجيل وله رأى مسجل أيضاً فى هذا الشريط..

وأنا احتفظ بهذين الشريطين وديعة عندى إلى حين صدور طبعة جديدة من هذا الكتاب على شكل كاسيت لرسائل الحكيم.. وليس هذا المقال إلا «إعلاناً» عن كتاب الحكيم الذى اصدرته دار المعارف التى أتشرف برئاسة مجلس ادارتها فشكراً لصحيفة الأهرام!



للفلوس عندهم معنى آخر أهم من الفلوس نفسها !

فأستاذنا الكبير توفيق الحكيم أردت أن أريحه فقلت له : سندفع لك أى مبلغ تطلبه إذا وافقت على أن ننشر لك هذا الكتاب .

ورغم أننى جاد فيما أقول فقد أمتعنى توفيق الحكيم بعشرين قصة عن مغامراته فى طلب ما يستحق من مال عن مقالات ومسرحيات وأفلام . وأصر على مناقشتى فى المبلغ الذى سوف أدفعه له .

ومنذ شهر تناقشت مع شاه إيران السابق فى المبلغ الذى سوف أدفعه له إذا نشرت الفصل الجديد الذى كتبه عن ثورة إيران فى مجلة «أكتوبر» . ورغم أنه سيتبرع بهذا المبلغ «للوفاء والأمل» فأنه أصر على ضرورة أن يعرف !

وفى حيفا ناقشنى موشى ديان عن المبلغ الذى سوف ندفعه له لأننا ترجمنا له كتابه «قصة حياتى» فى جزءين ..

وعيزر ڤايتسمان قبل سفره إلى أمريكا تناقشنا فى التليفون عن المبلغ الذى سندفعه له إذا ترجمنا كتابه الجديد عن «السلام» ..

وقبل أن يظهر كتاب كيسنجر عن «سنوات فى البيت الأبيض» جاءنى محاميه يطلب مائة ألف دولار ثمنا لأية فصول تنشرها كاملة أو مختصرة أو فقرات مقتبسة . ثم قدم لى عقداً من ٤٢ مادة !

ويوم جاء الأديب الإيطالى البرتومورافيا إلى مصر فى الخمسينات قلت

له: من محاسن الصدف أن رواية لك قد صدرت ترجمتها اليوم. فأخرج قلماً ليكتب اسم دار النشر المصرية.

ولما عرف أننا لم نوقع على الاتفاقية الدولية لحق الأداء، أسقط قلمه فى جيبه وتراجع فى مقعده أما الذى على وجهه فهو خليط من القرف والاستنكار.

ورغم أننى قلت لكل هؤلاء الكبار أن نصيبهم لايتجاوز المائة جنية جميعا فأنهم قد أصروا عليه لأنه حق لهم، وواجب علينا.

ورغم ذلك فإننا فى مصر لاندفع لأحد من هؤلاء شيئاً!



لايعجبنى من المسلسلات الإسلامية فى رمضان أنها تقوم على مجموعة من المفهومات الخاطئة. وقد كتبت عنها هنا أكثر من مرة.

لم أجد أحداً يقنعنى بأن كل ماهو مصرى يجب أن يكون مثيراً للسخرية والهوان. فالآن ترى اليهود وفرعون يضطهدهم تمهيداً للخروج من مصر. وهذه حقيقة تاريخية. ولكن كيف يتم تصوير هذه الحقيقة؟ نجد أن اليهود أخف دماً وأكثر احتراماً. ونساؤهم أجمل وأشيك. ولابد أن يكون المعنى عندنا هو: خفة الدم سفالة، وأن الجمال دعارة. وأن الوقار تشنج وأن الحكم هلوسة — ويكفى أن تنظر إلى الملوك والوزراء المصريين القدماء!

وهذه المسلسلة هى مقدمة للإسلام. ولكنها مقدمة طويلة جداً. وليس لها مبرر فى شهر رمضان..

وكذلك نرى أن كل من هو مسلم أو يحاول أن يكون كذلك هو إنسان مهووس مخبول. عيناه زائغتان فى بلاهة، وحركاته «مسطوله».. ولم نعرف فى التاريخ أن الذين حول الرسول ويحفظون كلماته وحركاته وأحاديثه وآيات الله، كانوا على هذه الدرجة من البلاهة. إذن فلماذا نجعل المسلمين أو المؤمنين بهذا الانحطاط السلوكى والنفسى والعقلى؟

وقد اشرت قبل ذلك إلى أن الكفار فى المسلسلات الدينية كان رجالهم أذكى والطف ونساؤهم أرق. فما هو المعنى؟

ولن أتعب من تكرار أن اللغة التى تستخدم فى المسلسلات جافة غليظة خشنة. وأن هذه الجفاوة بالخشونة لايعادلها إلا الجفاوة بألوان الأزياء وفخامتها وأناقتها. واعتقد أن اللغة والأزياء بعيدان تماماً عن الواقع التاريخى.

وأكثر من ذلك أن التليفزيون مختلف تماماً عن الاذاعة.. اختلاف السينما عن المسرح فالتليفزيون يجب أن تكون حركته وحيويته أوضح، وحواره أقل وأكثر تركيزاً!

ثم أننا مادمنا قد اخترنا شهر رمضان، فقد ارتضينا جمهوراً مرهقاً يريد المتعة المفيدة التى لايجدها فى مثل هذه المسلسلات!



لاأجد أي اختلاف بين برامج مرشحي الرئاسة الأمريكية ولابينهم وبين برنامج الرئيس كارتر.

أولاً: موقف الجميع من الأتحاد السوفييتي هو التشدد وإعادة هيبة أمريكا لها. فقد اتسمت سياسة كارتر بالتهدئة وعدم الدخول في مواجهة عسكرية يموت فيها مئات الألوف من الأمريكان، فتكسب شركات بيع السلاح والعتاد ألوف الملايين من الدولارات.

ولاخلاف بينهم جميعا على ضرورة الوقوف بمنتهى القوة ــ ولكن لاحرب مع روسيا.

ثانياً: أن أوروبا قد خاب أملها في أمريكا أقوى وأغنى دولة في العالم ولذلك فأوروبا لاتريد أن تتورط في حرب مع روسيا ولاتريد أن تتخلى عن علاقاتها الطيبة التجارية والسياسية معها. فكل الدول الأوروبية تبيع وتشتري من روسيا. تماماً مثل أمريكا التي اشتركت مع السوفيت في رحلات الفضاء والقطب الجنوبي والتوازن النووي. ثم أقتسام الكرة الأرضية معاً..

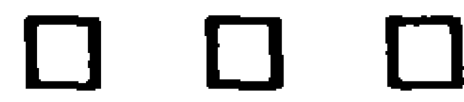
ثالثاً: العالم الثالث تجري وراءه، كل من أمريكا وروسيا وأوروبا بالسلع وتنافقه بالكُتب والاقلام وتشعل فيه نار الوطنية والقومية وتبيع له السلاح دفاعاً عن فلسفته الاستقلالية. وتكسب الملايين بالألوف!

رابعاً: العالم العربي أو العالم الإسلامي لاأحد يريد أن يغامر بخسارة العرب أصحاب البترول أشقاء مئات الملايين من المسلمين في العالم

الثالث. ففى العالم العربى: الطاقة والتقوى أو الإسلام والسلام. وحول هذه المنطقة يزحف الروس والأمريكان ويتسلل الأوربيون. ونجد الزحف تحت ستائر شفافة أنيقة من العبارات الجميلة.

خامساً: اسرائيل. لاخلاف بين جميع رؤساء أمريكا حول المساندة المطلقة لاسرائيل. ويكفى أن نستعرض أسماء المستشارين والمساعدين للمرشحين لنجد أنهم جميعاً من يهود أمريكا الذين يؤكدون المكانة الخاصة والمتميزة لاسرائيل فى السياسة الأمريكية.

إذن فالخلاف الوحيد: هو فى وجوه المرشحين. وليس هذا غريباً، فأمريكا دولة سينمائية.. تصنع الأفلام وتدمنها وتنام عليها وتصحو بها وتختار فتاها الأول وتعطيه البيت الأبيض مكافأة على ذلك!



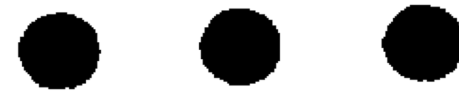
في كل مرة تتجمع محاولات دبلوماسية وسياسية للاقتراب من السلام نجد معمر القذافى، والذين يخططون له يقومون بمحاولة ارهابية تشغل الناس عن السلام. والامثلة كثيرة لأنه هو أيضاً لايريد السلام. مع أنه لادخل له ولا دور ولا وزن ولا قضية فى الشرق الأوسط فلا ليبيا دولة مواجهة ولا دولة محاربة ولا دولة معاونة وإنما القذافى ألعوبة فى يد السوفيت يأخذون فلوسه ويعطونه أحدث الاسلحة ليبعث بها إلى أثيوبيا لضرب المسلمين فى اريتريا ولضرب المسلمين فى السودان ولطرد المسلمين فى تشاد ولفض المنازعات بين البروتستانت والكاثوليك فى ايرلندا ولخطف وزراء البترول ولتمويل حركة التفكير والتهجير والتخريب الشيوعى.

ونحن لا نعرف للقذافى لوناً ولا دينا ولا هدفاً وإنما هو رجل عنده فلوس تجىء من تحت الأرض لكى يحل الأزمات المالية للاتحاد السوفيتى الذى تقاضى منه أكثر من ألفى مليون دولار فالاتحاد السوفيتى يعطيه أحدث الاسلحة لماذا؟ لا لشىء إلا لأنها أغلى ثمناً من الاسلحة القديمة وإلا لكى يستخدمها فى مناسبات غريبة لارضاء جنون صاحب رأس المال ـ أى القذافى.. فروسياً هى الشيوعية المستغلة لثروات الشعب الليبى ضد كل حركات السلام والإسلام فى الشرق الأوسط.

وليس للسوفيت سوى هدف واضح هو النظام القائم المستقر فى مصر الذى طرد لهم ١٥ ألف خبير وسد الموانىء فى وجوههم وألغى الامتيازات الاجنبية براً وبحراً وجواً.

والذى يندهش له العالم كله هو ما هى قضية القذافى؟ لأنه رجل بلا قضية وإنما قضيته التى لا حيلة له فيها هى أنه صغير مجنون تخيل أنه خليفة المسلمين ضد المسلمين وأنه خليفة جمال عبد الناصر ضد المصريين وأنه على بابا صاحب الاربعين مليار دولار وأنه شخصية تبحث عن مؤلف فظهرت لها مئات المؤلفين المصريين واللبنانيين والفلسطينيين والسوفيت.

ولو أن الرئيس هوارى بومدين توقف لحظة واحدة فى مطار الجزائر ونظر إلى لوحة على الحائط مأخوذة من كهوف تسيلى فى ليبيا وجد على هذه اللوحة كائنات عجيبة من الجواميس والابقار تطير فى الهواء لها عيون بشرية وأجنحة طيور. أن هذه اللوحة عمرها عشرون ألف سنة أنها ليست لوحة عادية أنها نبوءة بظهور كائنات عجيبة فى ليبيا مثل القذافى الذى لن تنفع معه أية وساطة لأن له هدفاً آخر لا يعرفه كل الوسطاء أصحاب النيات الحسنة: أن يحكم مصر بالحديد السوفيتى والبترول الليبى!..



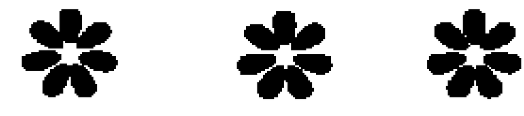
لم أدخل السينما فى حياتى إلا بعد أن تخرجت فى الجامعة. ودخلتها سراً. فقد تعلمت أن السينما والمسرح والجلوس على المقاهى عبث لا يصح ثم أننى لا أقدر عليه.. ولذلك اندهشت عندما جئت إلى القاهرة لارى عباس العقاد جالسا أمام أحد محلات بيع الكتب وأجد توفيق الحكيم جالساً فى مقهى ريتس.

وعندما سافرت إلى باريس سنة ١٩٥٠ تمنيت أن أرى مقهى دى فلور الذى يجلس به الفيلسوف الوجودى سارتر.. كيف يجلس وكيف يلتف الناس حوله وما الذى يأكله ويشربه ويرتديه ويتنفسه.. وكنت اتصور الفلاسفة من مثل سقراط وارسطو إذا ما ارادوا أن يفكروا فإنهم يمشون ذهاباً وإياباً مثل الموسيقار بتهوفن وأمير شعراء الألمان جيته.

وانبهرت تماماً كما انبهر رفاعة الطهطاوى عندما ذهب إلى باريس ورأى المرايا فى المقاهى تعكس حركة المرور فى الشارع ورأى أن المقاهى هى نصف حياة الناس فى فرنسا..

واهتديت إلى محل البن البرازيلى فى شارع سليمان باشا. وليس فيه مقعد واحد. وإنما هو موقف لمن يريد أن يشرب القهوة. ووقفت فى هذا المقهى أكثر من عشر سنوات. ظللت واقفاً أحرك رأسى يميناً وشمالاً وليس من الضرورى أن أكون متابعاً لحركة الناس أو اصواتهم أو ألوانهم وكان رأسى يدور كما تدور شبكات الرادار تلتقط المعانى والصور. وقد ألفت أكثر من ستين كتاباً، ولا اعتقد أن واحداً منها قد خلا من اسم البن البرازيلى..

ولم أعد أجد وقتاً لاذهب إلى المقاهى أو لاقف فيها .. فقد حرمت هذه « الصعلكة الروحية » أى حرية ان تتخيل أنك تفعل ما تشاء دون أن تحرك ذراعاً أو ساقاً أو لساناً ـــ واحسرتاه !



عادت الاخطاء النحوية إلى نشرات الأخبار فى الاذاعة والتيلفزيون. وعاد النطق الخاطىء للاسماء الاجنبية.. وأكثر من ذلك أننا نلاحظ أن الذين يقرأون نشرة الأخبار يتلعثمون أو يجدون صعوبة فى قراءتها وقد سمعت أخيراً نشرة الاخبار باللغة الايطالية، لم تتمكن المذيعة من قراءة النشرة. إما لأنها مكتوبة بخط سيىء.. وإما لأنها جاءتها فى الاستديو مباشرة.. أو أنها تقوم بترجمة النشرة فى نفس الوقت الذى لا تعرف كيف تقرؤها ؟!

وفى الرباط سألت الاستاذ أحمد سعيد أمين أحد كبار المسئولين فى التليفزيون عن هذه الظاهرة الغريبة العجيبة فكان رده أنه من الصعب على المذيع أن يقرأ النشرة لأنها مكتوبة بصورة مستحيلة!

ونحن ـ اذن ـ من أول وجديد أمام كل ما حاربناه فى عشرات السنين!!

وماداموا قد عادوا إلى الخطأ فلابد أن نعود إلى التنبيه العنيف إلى ذلك.. وإلى القول بأنه: لا يوجد أى مبرر من أى نوع لأن يخطىء مذيع فى اللغة العربية فى الاداء أو فى النطق.

لا يوجد ولا يصح أن يوجد!

ولايوجد أى سبب من أى نوع لأن يجهل أى إنسان متعلم مبادىء النحو والصرف ـ واستطراداً أدعوك إلى أن تضحك على برامج المسابقات.. وافتح اذنيك للمذيعة وهى تقرأ أسماء المواطنين وعناوينهم..

سوف تجد أن المذيعة لم تقرأ ولم تسمع عن اسماء المدن المصرية ولا اسماء الاعلام المصريين الذين اطلقت أسماؤهم على الشوارع ــوهذه فضيحة جديدة لم تكن على البال!

صحيح نحن مصريون. ولكننا أيضا عرب.. أو أننا عرب مصريون ولغتنا هى العربية وسوف تبقى كذلك.. وليس من قبيل الضيق بالعرب أن نكفر بالعربية.. ليس هذا هو السبب. وإنما هو بسبب الاستخفاف والتراخى.

وليس معقولاً أن نقابل انتصاراتنا العربية بانهزام اللغة العربية على ألسنة بعض المصريين، وأن يكون ذلك على أوسع نطاق فى الاذاعة، وبالألوان فى التليفزيون!



كنت قد أخذت على النشرة الجوية المصرية، أنها تتحدث عن وادى النيل، ولكنها تسكت عن الكلام على سيناء. كأن سيناء لم تعد أرضاً مصرية. أو كأن ذكر سيناء المحتلة «عورة» يحسن السكوت عليها..

مع أن العكس هو الأصح. فسيناء محتلة ولذلك يجب الكلام عنها والتذكير بها.. وشحذ الهمم وأشعال الخيال من أجل تحريرها. وضربت لذلك مثلاً أن اليهود لا ينسون ماضيهم القديم، سواء كان الماضى الذى اخترعوه أو الذى تحدثت عنه التوراة.. فمثلاً يتركون فى بيوتهم جانبا من الحائط مهدماً ـــ حتى لا ينسوا هيكل سليمان فى القدس العربية.. وحتى لاينسوا خروجهم من مصر، ولاينسوا كل ما كان فى حياتهم.. وبسبب عدم النسيان استطاعوا أن يتحدوا فى كل أرض وفى كل لون وفى كل لغة على أن يكون لهم وطن. وكان.

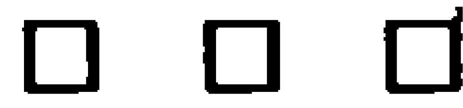
واشكر مصلحة الارصاد إن عدلت عن ذلك السهو. وأصبحت النشرة تتحدث عن الرياح التى تهب على سيناء وعن درجات الحرارة فى العريش، نهايتها الصغرى ونهايتها القصوى. لأن العريش أرض مصرية. شكراً.

ولكن العريش ليست وحدها هى الارض المصرية. ولذلك يجب أن نتحدث فى خرائطنا الجوية ـــ وبدون مناسبة ـــ عن خليج العقبة وعن شرم الشيخ وعن رأس محمد وعن ممرى الجدى ومتلا وكل المدن الواقعة على الجانب الشرقى لخليج السويس.. حتى لو لم تكن هناك مناسبة. وإنما التذكير بأنها أرض مصرية، وسوف تبقى كذلك..

ولا مانع من ذكر درجات الحرارة واتجاه الرياح فوق اسرائيل نفسها، تماماً كما نتحدث عن الرياح التى تهب على السودان والسعودية وليبيا وعلى اليونان وعلى ايطاليا وعلى القطب الشمالى.. استكمالاً للمعلومات العامة.

فلم تعد اسرائيل بعد كل ما حدث لأول مرة فى التاريخ، دولة مزعومة وليس عيباً أو اسرافاً فى الوهم أن نذكرها.

بل يجب أن نكون واقعيين وأن نتحدث عن الشىء الطبيعى بصورة طبيعية. وإذا كان الخوف من صفة بعض السياسيين فلا خوف ولا حياء فى العلم!



حب مصر والتآمر على مصر أو خيانة مصر، ليست من القضايا التى تشغلنا هذه الأيام.. وكان الرئيس عبدالناصر قد مسح اسم «مصر» من الوجود الرسمى فكان اسمنا «الجمهورية العربية المتحدة».. المتحدة مع سوريا والعراق واليمن والسودان وليبيا.. فكان الرئيس عبدالناصر يشعر بأن مصر «صغيرة عليه» ولذلك كان فى حاجة إلى دول أخرى، ولا يهم كثيراً كيف تكون علاقته أو سيادته على هذه الدول الأخرى..

وعندما اعاد السادات اسم «مصر» كان لديه شعور عميق بأن مصر «كفاية عليه»..

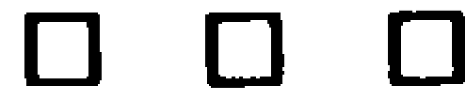
وفجأة تحاول الأغانى المتكررة العصيبة المتشنجة أن تقنعنا بأن مصر فى خطر.. مع أنه ليس فى نية أحد أن يغير اسم مصر، ولا أحد قد احتلها فجأة ولذلك فنحن نعمل من أجل تحرير الأرض والعرض؟ ولاشىء من ذلك. فما الذى اصاب مصر؟

لاشىء. وإنما هم المطربون يقلد بعضهم بعضا.. فما دام فلان قد غنى لمصر فلماذا لا أغنى أنا.. وحتى «لايقال» أنه ليس وطنيا؟ مع أن أحداً لم يقل للذى غنى أنه وطنى ولا الذى لم يغن، أنه ليس كذلك. لاشىء.

ولو كان مصر علاجها بالاغانى والطبل والزمر والرقص، ما أصابنا مرض. فنحن نفعل ذلك طول الوقت. وهذه الأغانى تشغلنا عن الحقيقة المفزعة وهى أن الذى يحب مصر ليس هو الذى يغنى لها ويتغنى بها، وإنما هو الذى يعمل شيئاً من أجلها.

إن هذه الأغانى تفتعل الخوف والخطر، حتى اعتدنا عليها ، فلم نعد نشعر بخوف أو خطر، وإنما نشعر بضيق من هذه الدروشة الفنية..

نحن فى حاجة إلى يقظة .. إلى صحوه.. إلى نهضة صناعية تجارية سياسية أدبية.. وليس إلى دوخة غنائية موسيقية!



لمن يكتب الكاتب؟

يكتب لك مباشرة فيعرض عليك، ويتسلل إلى داخلك ويحدثك عن نفسه وعن نفسك. ويكون له رأى في أفكارك أو سلوكك.. أو فى حياتنا معاً. فإذا قال لك مثلاً: لا تجلس أمام التليفزيون طويلاً، أو لا تنم بعد الأكل مباشرة، أو لا تتناول السكارين لكى ينقص وزنك.. أو ينصحك أن تأكل الفاكهة بقشرها، لأن القشر سيلولور ويساعد على حركة الطعام فى الأمعاء.. ثم يقول لك مرة أخرى لا تأكل قشر الفاكهة، لأن القشر يحتفظ بالمبيدات الحشرية، فهذه وجهات نظر يعرضها عليك وتستطيع أن تأخذ بها فوراً ووحدك..

أو يكتب لك كواحد يملك اتخاذ القرار. فأنت أخطر وأكثر فعالية من مئات الألوف من القراء. واقناعك هدف. فإذا أقتنعت كان قرارك صالحاً عاماً.

ولكن مشكلة صاحب القرار أنه مشغول جداً، وأن وقته لا يتسع للقراءة.. بل وقته لا يساعده على اتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب. ولكن عقل هذا القارىء هدف يجب أن تسلك إليه شتى الطرق فى الصحافة والاذاعة والتليفزيون لخطورة اقتناعه وقراره بعد ذلك..

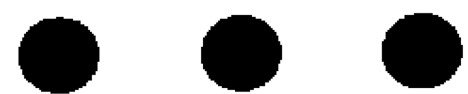
أو يكتب الكاتب لعموم الناس.. لكل القراء. ومن الضرورى اقناع الكثيرين معاً. فيكون منهم رأياً عاماً. وهذا الرأى العام له قدرة على رد الفعل. وبذلك يكون قوة تضغط على غيرها وعلى صاحب القرار.. وهذا الضغط يؤدى إلى تعديل مسار الأحداث.. وصاحب القرار يرضيه ويسعده

أيضاً أن يكون قراره صدى لشعبية عريضة.. فإذا قرر كان صداه أقوى، وكانت الفائدة منه أوسع. وبذلك يكتسب شعبية جديدة هو حريص عليها..

والكاتب كما اعتاد على أن يكتب وأن تكون للكتابة صدى، فقد اعتاد أيضاً على ألا يكون لها صدى.. فما أكثر ما قال وما أكثر ما يطالب به وما أصعب تنفيذ كل الرغبات.. لكنه لن يتوقف عن القول ولن يكف عن الاصرار..

ولابد أن يقول فإن لم يجد صاحب القرار، فسوف يجد الرأى العام الذى يضغط على صاحب القرار.

أو يقول شعراً ويغنى والناس تردد وراءه ويكتفى هو بهذا الصدى الجميل!



لم يعد على ألسنتنا سوى أن عددنا قد زاد عن «اللزوم». ولم يقل لنا أحد بالضبط ما معنى «اللزوم» ـ أي ماهو العدد اللازم لمصر لكى تعيش فى نعيم ورخاء مثل الولايات المتحدة الامريكية.

كل الذين يظهرون فى التليفزيون نرى على وجوههم الأسى والحزن لما أصاب مصر بسبب الذين يتزوجون وينجبون بالمئات بدلاً من العشرات ولم يؤد هذا الاسى والحزن إلى أن يتوقف الناس عن الزواج!

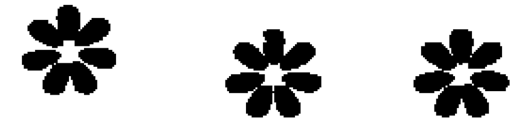
فإذا تحدث أحد عن الرغيف الابيض الذى أصبح اسود، أو عن الاتوبيس الذى تحول إلى عربة كارو، وإذا انقطع الماء والكهرباء، أشاروا إلى زيادة عدد السكان فى مصر.. مع أن تغير لون الرغيف له سبب آخر وكذلك انقطاع الكهرباء والماء..

هل تستطيع أن تقول لى لماذا يمشى الناس على الشمال؟ ولماذا يلقون بالماء من النافذة ولماذا يفتحون الراديو على آخره؟ ولماذا يسرق الأغنياء الفقراء؟ ولماذا تتأخر الطائرات عن موعدها؟ ولماذا يطيل بعض الشبان لحاهم، وتخفى بعض الفتيات وجوههن؟ لايمكن أن يكون كل ذلك لنفس السبب وهو أن عدد سكان مصر قد زاد عن اللازم..

أن مشكلة مصر: أن الناس يتكومون فى مدينة واحدة: القاهرة. وأن سكان القاهرة يحكمون ويتحكمون فى سكان المدن الأخرى. ولذلك فقد فرضنا نحن سكان القاهرة متاعبنا واضطرابنا وسوء تقديرنا للأمور على بقية

أفراد الشعب حتى تعودنا على أن نلعن أنفسنا والذين أتوا بنا إلى الحياة، والذين أتينا بهم..

مع أن هناك أسباباً أخرى كثيرة! ولكننى أخترت الأسهل، والأكثر خطأ!



الشكوى : عادة مصرية .

وليس من الضرورى أن يكون هناك سبب قوى لذلك . فأينما ذهبت فالناس يشكون ويكون للشكوى شكل خاص هو: إتهام أنفسنا بكل سيئات الدنيا . فإذا حاول أحد منا أن يفتح نافذة للهواء المنعش أو النور، امتدت ألوف الأيدى تغلق النافذة ، ثم نشكو من الهواء الفاسد ومن الظلام !

ما الذى يقوله الأدباء ؟

لا أعرف . ولكن أسألهم . ما الذى يتغنى به الشعراء ؟ لا أدرى . وعليك أن تستوضح أن وجدت أحداً ..

وما الذى يشغل المفكرين السياسيين ؟ لست على يقين مما يقولون . أنهم يتابعون الأحداث . فالأحداث اليومية هى التى خطت لهم الطريق . وهم يلاحقونها ويطاردونها إلى أن تقع أحداث أخرى . وهى جميعاً تشدنا ، ونشد بها الناس ، ونحرص على ذلك ، والناس أيضاً . أما أنها قريبة منا أو بعيدة عن مشاكلنا الحقيقية ، فهذه قصة أخرى . لأن الهدف هو أن يكون القارىء مشدوداً متوتراً مثاراً مأخوذاً مسلوباً شاكياً باكياً . وأن يوفر له الكاتب القدر المطلوب من الاثارة والشطة والنار.. وهكذا يلتقى الكاتب والقارىء فى حالة واحدة : أن يلهث الجميع !

وليكن ذلك فى نهاية الطريق . فأعذارنا مقبولة .. لقد مشينا أو جرينا وتعبنا . وهذه هى النتيجة . أو أننا حاولنا ولم نيأس ثم حاولنا حتى تعبنا .

وهذه هى حال الدنيا. ولابد أن نجد ما ينعشنا. وما ينعشنا هو شيء جديد مثير. وما يثيرنا هو ما يرهقنا. وما يرهقنا هو الذى يجعلنا نشكو ونبكى!

ماذا فى الصحف المصرية ينفع الناس؟ لا أجد كثيراً. يفضح الناس يوجد الكثير. فهل الناس اعتادوا على الفضائح؟ أو هل الصحفيون أعتادوا على ذلك؟.. هل هى طعام يحبه القراء، ومن الواجب على الصحف أن تقدمه.. أو أن الصحف تقدمه، واعتادت على ذلك، فأعتاد القارىء؟ كل ذلك.

والنتيجة: ضوضاء لونية وفكرية وضباب يخفى الطريق ويدفن الهدف.. واليوم مثل الغد، هذا الاسبوع كالذى يليه.. فكل أيامنا يوم واحد غارق فى «الشبورة» الاعلامية!

وإذا وجدت أناساً ينفخون فى الطريق، فليس لأن الدنيا حر، وإنما هم يحاولون أن يزيلوا الشبورة التى طلبوها وصنعوها، لعلهم يرون أوضح!

هل نضحك على حالنا؟ لا أظن.

هل نبكى؟ يمكنك ذلك!



إذا كان أديب شاعر قد نسبه الناس، حياً وميتاً فهو عبد الرحمن صدقى كان شاعراً غنائياً، وكان أديباً بارعاً، وباحثاً ومؤرخاً من طراز نادر بين العرب.. وكان متواضعاً، ولذلك أضاعه التواضع فى النسيان..

وكان واسع الثقافة الفرنسية والايطالية والأنجليزية والعربية. وكان مديراً للأوبرا. بواباً ومرشداً سياحياً وناقداً فنياً للحضارة الغربية، يوم كانت دار الأوبرا واحدة من أروع مثيلاتها فى الدنيا ــ كانت تقدم الباليه الروسى. وروائع المسرح الفرنسى والأنجليزى والأوبرات الايطالية والمسرح القومى..

وكان لعبد الرحمن صدقى فضل عظيم على بهجة الحياة الفنية فى مصر، وعلى اشعاعات الثقافة الأوروبية. وكان هو نموذجاً رفيعاً لذلك..

ومن أروع ما كتب عبد الرحمن صدقى كتابه عن الشاعر الرجيم: بودلير «وكتابه عن دليالى سطيح» لحافظ إبراهيم..

وربما كانت المقدمة التى درس فيها شعر حافظ إبراهيم وحياته والجو السياسى فى زمانه، أحسن وأوفى ما ظهر فى اللغة العربية عن شاعرنا حافظ إبراهيم. فقد أستخدم عبدالرحمن صدقى المنهج العلمى الحديث فى التحقيق والتدقيق والنزاهة والحب..

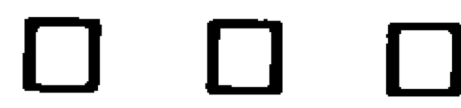
ولا أعرف، وهو صديقى العزيز، الظروف التى مات فيها. وهل مات فى مصر أو فى الخارج، هل كان مريضاً.. وما مصير مكتبته الضخمة وما

مصير مخطوطاته أن كانت له. لا أعرف. ولا تطوع أحد من أهله فدلنا على ذلك..

وأخوه وزير الزراعة السابق د. عبد الرزاق صدقى له أجتهادات فى الرسم الموسيقى.. ولكن لم أعرف له أجتهاداً فى اعادة طبع كتب أخيه، أو الدعوة لذلك.. أو تنبيه الناس إلى الأحتفال بواحد من أعلم أدبائنا وأكثرهم مرحاً وأوسعهم أفقاً..

لقد كان عبد الرحمن صدقى الضحكة العريضة والنكتة الصارخة، والموسوعة الحاضرة فى صالون العقاد وعلى الرغم من أنه كان من أحب الناس للأستاذ العقاد، فإنه كان من أشد الناس ألتحاماً به فى كل القضايا الأدبية والنقدية.. وكان يرى ان العقاد قد أرهقه الفقر.. وان مصر لو أنصفت لجعلت له مكافأة مدى الحياة. ولو فعلت لرفض العقاد ذلك.. وهاجم الحكومة والشعب والأرض والسماء..

وهو الآن صدى الضياع والنسيان، حتى كأنه ما كان ــ وهى جريمة نقدية وتاريخية!



أجمل الأصوات الغنائية فى النوادى الليلية. ولأنها تغنى ليلاً وفى الأضواء الحمراء فكلماتها كذلك.. ولأن معظم المطربين فى النوادى الليلية يرافقون الراقصات، فكلماتهم عارية. بل ان كلماتهم تساعد الراقصات على أن يتعرين أكثر..

فليس بين كل المطربين صوت مثل أحمد عدوية.. فهو أقوى الأصوات وأجملها وله نبرة وله «بحة» وألحانه جميلة وموسيقاه أيضاً. ولكنه أختار أن يغنى كلاماً فارغاً، عارياً. وان تكون أغنياته نكتاً موزونة.. ولذلك فهو أكثر انتشاراً فى السيارات والبيوت. وفى استطاعته أن يكون فى الأذاعة والتليفزيون، ولكنه اختار أن ينتشر بجهوده الذاتية..

وليس من المطربات واحدة لها صوت بدرية السيد، مطربة الأسكندرية. فالصوت سليم قوى والأداء شعبى. ولكنها ـ هى الأخرى ـ قد اختارت ليالى الأسكندرية والكاستات وأستغنت عن اذاعة القاهرة!

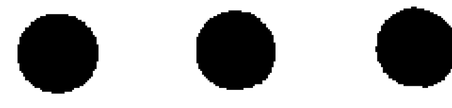
ووراء الراقصة سحر حمدى صوتان قويان. من الممكن جداً أن يكونا مطربين لو أرادا.. ولكنهما أختارا أن يكونا من بطانة الراقصة المثيرة. وان تكون الأغانى مثل فساتينها ممزقة عارية.. فإنها ترتدى فساتين ولا ترتديها. فالذى لا يكشفه الرقص تفضحه الأغنية!

ومع فرقة عمرو سليم الموسيقية صوتان، مع التدريب والصقل، من الممكن أن يكونا أفضل وأجمل. وربما كان السبب أيضاً أن النوادى الليلية تعطى مالاً أكثر وتدريباً يومياً. ولأن زحاماً شديداً على برامج الأذاعة

وقنوات التليفزيون. وان كنت أرى ان التدريب اليومى فى النوادى والجو الملوث بالدخان مع الأرهاق، يفسد الحنجرة والصدر.. ولكن رغم كل ذلك، فأحسن الأصوات الغنائية وأقواها ليست التى تعرفها..

وقد استمعت إلى مطربة مغربية أسمها «سميا» تغنى لأم كلثوم فى شيراتون. من أقوى الأصوات وأقدرها على أداء أغنيات أم كلثوم.. لولا ان ضيق الوقت يدفعها إلى استعجال الأداء.. ولولا لهجتها المغربية التى تفسد جمال «القفلات» المصرية.. ولكن يمكن تلافى هذا العيب.. المهم أن الصوت سليم والأداء واضح مضبوط..

فإن كان الملحنون الكبار يريدون أصواتاً أفضل ففى النوادى الليلية!



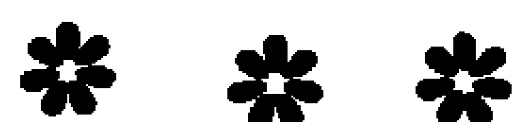
ضبطت نفسى متلبساً بالنظر إلى النيل– فأنا أعمل على شاطىء النيل وأسكن أيضاً. ومن النادر أن أراه. فقد أنكفأت على الورق، أقرأ وأكتب. وإذا تعبت أغمضت عينى عن كل شىء، ولكن أمس وجدتنى أنظر إلى النيل وتمنيت لو جاءت قوة ما وسحبتنى من شعر رأسى. من رموش عينى إلى فوق.. إلى ما فوق السحاب إلى ما فوق القمر حيث لا حياة ولا ناس ولا يوم ولا غد ولا أمل ولا يأس.. إلى حيث لا يكون شىء، ولا يكون أحد شيئاً.. أو ان قوة أخرى سحبتنى من ذراعى إلى ما تحت سطح النيل.. تحت تحت.. إلى بطن الأرض حيث لا حياة ولا أحياء..

وضبطت نفسى رافضاً للقمر والنيل.. فهذا الذى أتمناه معناه الا أرى قمراً ولا نهراً ولا سماء ولا ماء.. وضبطت نفسى حائراً لا أعرف ما الذى أريده.. وتوهمت ان هذه الحيرة بين السماء والماء، هى الفرصة الوحيدة لكى يتحرك عقلى لعله يعرف، وخيالى لعله ينطق، وحياتى فى ألا تكون حياة..

ووجدت أننى لم أطلب الا نوعاً من الهرب.. أو الهرب. من أى شىء؟ من كل شىء؟ مثل ماذا؟ مثل هذا الذى جاء فى كل الصفحات السابقة.. صفحات الذين ماتوا والذين عاشوا والذين يرفضون الحياة والموت.. والذين ينسون ان كل شىء لا يساوى العناء والعذاب.. لا يساوى السيوف والمدافع ثم النياشين توضع بعد ذلك على قبور الشهداء.. الا يكون هذا من مظاهر التعب النفسى والعقلى: من المؤكد

أنه كذلك. ومن المؤكد أننا جميعاً كذلك.. وأننا حائرون بين الذى نريده والذى لا نريده، وبين الذى نحبه والذى نكرهه، والذى نخاف منه ونخاف عليه.. وأننا بسبب هذه الحيرة لا نختار أى شىء.. وأى أحد.. فنحن لم نعد ندرى من أمرنا وغيرنا شيئاً!

أنا فى حاجة إلى ساعة من النوم العميق، بعدها نستدرك ونستأنف كل الذى أردنا أن ننساه!



فى البيت الأبيض أبراج للحمام وأبراج للصقور أيضاً.

وهذا واضح فى موقف أمريكا من الحروب الأفريقية. واضح الآن أن الأتحاد السوفيتى قد تسلل وتغلغل وتمركز فى أفريقيا. وأنتقل من دولة إلى دولة على ظهر المرتزقة الجدد من الكوبيين ــ أبناء الدولة التى لا تزال واحدة من دول عدم الانحياز؟!

ولا تزال أمريكا تتفرج أو على الأصح خائفة من ان تضع رجلها فى أفريقيا، فلا تعرف كيف تخرج منها. وأمامها التجربة المميتة: تجربة فيتنام.. فهزيمتها ومصيبتها فى فيتنام لا تريدها ان تتكرر لأى سبب وفى أى مكان.

وفى الأسبوع الماضى وقف الأديب الروسى سولجنتسين الحائز على جائزة نوبل واللاجىء إلى أمريكا يتهم الشعب الأمريكى بالصبيانية والجبن والخوف. لأن تجربة فيتنام قد أصابته بالشلل وان هذا لايليق بدولة عظمى مثل أمريكا!

ولا يزال الرئيس كارتر يفتح أبراج الحمام والصقور يوماً بعد يوم ويسأل: ندخل افريقيا أو لا ندخل؟ فإذا دخلنا هذه القارة التى ليست لها حدود، والتى بها عشرات الدول ومئات الأجناس وألوف اللغات فكيف ننتصر أو ننكسر فيها؟!

الصقور يقولون: أدخل. قبل ان تبتلعها روسيا من القرن الأفريقى حتى زائير..

والحمائم تقول له : ان هذا يهدد الوفاق الدولى . فليس من أجل مجموعة من العراة الحفاة والرؤساء الفاسدين تتورط أمريكا إلى الأبد فى قارة تكره الأستعمار الغربى الذى تمثله الدول الرأسمالية وفى مقدمتها أمريكا .. ثم ان الكونجرس لن يوافق إلا على بعض الطائرات لنقل قوات غير أمريكية ..

ويحاول السوفيت توريط أمريكا فى أفريقيا وذلك عن طريق الايقاع بينها وبين كوبا .. أو بينها وبين الدول الأوروبية أو الأعتداء على عدد من الرعايا الأمريكان .. أو أنتظار معارك أخرى تتورط فيها الدول الصديقة لأمريكا فى الشرق الأوسط أو فى الخليج .. وبذلك يمتلىء الجو العالمى كله بالنسور التى تأكل الحمائم والصقور، ويحلم الناس من جديد بالوفاق العالمى . وفى ظل الوفاق وبسبب الأمل فيه تضيع مصالح الدول الصغيرة !!



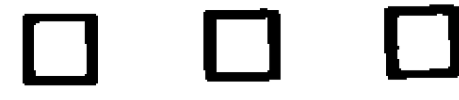
فى بلاد كثيرة عندما تجد الدولة مشكلة معقدة، فانها تلجأ إلى الهيئات المختصة لكى تساعدها على الحل. أمريكا تفعل ذلك وأوروبا واليابان مثلاً: مشكلة الشرق الأوسط. مشكلتنا المعقدة اليوم وغداً وبعد غد.. أرادت أمريكا أن تجد لها حلاً، فلجأت إلى معهد عظيم الأحترام اسمه «معهد بروكنجز» واستدعى المعهد عدداً من المتخصصين فى السياسة الدولية وفى الشرق الأوسط. وكامن بينهم برزنسكى قبل ان يكون مستشاراً للأمن القومى. والتقى العلماء وأختلفت وجهات نظرهم. ثم أتفقوا على «اطار الحل الشامل». وكان هذا الأتفاق هو الحل الوحيد الممكن. ونشر هذا التقرير قبل مبادرة الرئيس السادات بسنوات. وتلقف التقرير عدد من المشتغلين بالسياسة الدولية. ووضع كل واحد يده على خده وأنتظر حتى كانت مبادرة السادات. هنا فقط أحس العالم كله ان التقرير هو شهادة ميلاد للسلام فى المنطقة..

وهذا التقرير له أكثر من معنى.. أولاً ان الدولة لجأت إلى الذين هم أكثر تخصصاً وأكثر حرية فى أتخاذ القرار والبحث عن الحل. وثانياً ان الدولة ليس عندها متسع من الوقت لكى تفكر على مهل. فالدولة طاحونة أو دوامة أو مفاعل نووى مجنون يأكل العاملين فيه ويدفنهم أحياء.. لأن كل العاملين فى الدولة هم قطع غيار إذا «نعمت» فان الدولة تأتى بقطع غيار أخرى وإلى الأبد..

وثالثاً ان الدولة قد أختارت الهيئة المحترمة ثم أخذت بوجهة النظر العلمية وفى هذا تشجيع لهذه الهيئة ولعشرات الهيئات الأخرى على البحث الجاد.

وما تفعله أمريكا فى السياسة تفعله فى الأقتصاد والعلوم والأنتاج والطاقة ومشاكل الفضاء والبحار والمواصلات والأمراض الاجتماعية. أى ان الحكومة ليست وحدها هى التى تحل وتربط وتداوى وتواجه المشاكل..

فلا فرق بين موظفى الحكومة وعلماء المؤسسات وخبراء الشركات، لأنه لافرق بين أحد، حاكما ومحكوما، أمام المأساة: فنحن جميعاً فى سلة واحدة أو سفينة واحدة أو كرة أرضية واحدة ــ وهذه الحقيقة البسيطة جداً هى أعلى مراحل المسئولية!



أعتقل البوليس ايمى كارتر أبنة الرئيس الأمريكى السابق جيمى كارتر.. فقد تظاهرت ضد التفرقة العنصرية التى يمارسها جنوب أفريقيا. ولما كانت ايمى فى السابعة عشرة سألوها ان كانت قد حصلت على موافقة والديها. وأقسمت أنها حصلت على ذلك ــ فهى إذن ليست فتاة « قاصراً » منحرفة..

وهذه الفتاة قد أمتلأت حياتها بالنوادر أكثر من أبنة أى رئيس لأمريكا.. ففى مذكرات والدتها روزالين كارتر تحكى أنه يوم تنصيب والدها رئيساً لأمريكا، وكان الجليد كثيفاً والهواء عاصفاً، والناس بالألوف ينتظرون رؤية هذا الموكب التقليدى، توقف الموكب كله مرة واحدة.. فقد نسيت ايمى كارتر أن ترتدى جوربها، ثم أنها نسيت أن تربط حذائها!

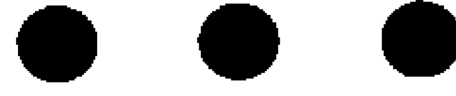
وفى احدى المرات دخلت الكنيسة وحدها وأقتربت من القسيس وهو يؤم المصلين، وفزع القسيس فقد وجد أصابع تعبث فى جيبه.. وألتفت ليجدها قد أعطته خطاباً إلى الله: تطلب فيه شفاء احدى صديقاتها وعصفورها الذى أمتنع عن الطعام منذ أيام أو يختاره إلى جواره ويبعث إليها بعصفور آخر، لأنها لا تستطيع أن تعيش بغير عصفور!

أما برزنسكى مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر فقد وصف فى مذكراته الممتعة الحياة فى البيت الأبيض بأنها مملة.. والرئيس يكون مرهقاً فهو لايتلقى إلا أسوأ الأنباء من كل العالم، ومطلوب منه أن يرد بسرعة وأن يكون متزناً، وفى نفس الوقت أن يكون قدوة للأمل والتفاؤل

فى العالم كله. وفى أحد الأيام بعث برزنسكى برسالة عاجلة للرئيس. وفى الرسالة أن المخابرات قد ضبطت ايمى متورطة فى علاقة عاطفية مع جاسوس سوفيتى فاستولى على وثائق خطيرة عن قواعد للصواريخ النووية. ومطلوب من الرئيس كارتر أن يتخذ قراراً سريعاً.

وكان رد الرئيس كارتر: يلقى القبض عليها فوراً، مع أخطار والديها!

وتسرب النبأ إلى كبرى الصحف الأمريكية التى نشرته على أنه فضيحة العصر! ولم تكن الا نكتة لمداعبة الرئيس الأمريكى ـ فقد كانت ايمى فى العاشرة من عمرها!



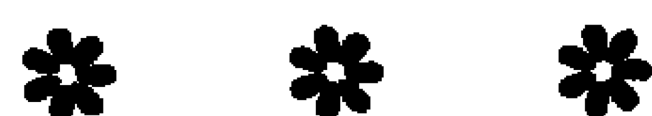
تناثرت المجمعات الأستهلاكية فى الشوارع وبالقرب من الميادين والكبارى. وبذلك تكون قريبة من الناس. وقد أعتاد الناس أن يتزاحموا أمامها وحولها. وان كانت لهم سيارات فانهم يتركونها بالقرب منها. وبذلك يساهمون مرة أخرى فى الزحام والضوضاء والقذارة.

وبناء هذه المجمعات الأستهلاكية دليل جديد على أننا نفتقد إلى الذوق الجمالى. بل ليس لدينا أى أحساس بالجمال. فنحن لا نكاد نرى أرضاً مزروعة حتى نحولها إلى خرابة أو نقيم عليها عمارة سكنية. وهذه العمارة شىء هام فى حياتنا ولكن لابد أن تقوم العمارات على جثث الأشجار.

وكذلك هذه المجمعات الأستهلاكية لابد أن نقيمها لكى نفسد حديقة، أو نفسد شارعاً نظيفاً، أو نفسد منظراً للنيل.. وذلك بأن نكدس الصناديق والعلب والزبالة فى ميدان من الميادين.. ولا لوم على العاملين ولا الواقفين أمام هذه المرافق الحيوية.. ولكن اللوم على الذين أختاروها بعناية فائقة لكى تساعد مباشرة على تشويه المعالم الجميلة أو التى يجب أن تظل جميلة فى القاهرة..

وكان فى نيتى أن أضرب لك مثلاً من اليابان.. ولكن وجدت ان المقارنة ظالمة لليابان ــ فا أبعد المسافة بيننا وبينهم أبتداء من البرتقالة التى يلفونها فى ورقة جميلة جداً وبعناية فائقة، وبعد ذلك ينحنى البائع فى الداخل وصاحب المحل فى الخارج.. لأنك تفضلت مشكوراً وأشتريت برتقالة!

وأنت فى كثير من العواصم الأوروبية تمشى أمام المحلات فلا تعرف ان كانت تبيع الساعات أو هى للمجوهرات. ونكتشف أنها محلات جزارة. ولا فرق عندهم بين اللحم والماس — فهى جميعاً سلعة يجب أن تكون نظيفة إذا عرضها، وإذا باعها وإذا حملها أحد إلى بيته..



كنا نعرف أن فى السودان فساداً عند القمة. ولم نكن نعرف أنه قد بلغ هذه الدرجة الشنيعة.. وكان الحرج هو أن تصارح أحداً بذلك دون أن يكون الرد علينا: هذا تدخل فى شئوننا.

ولم يكن أحد يقول: ولكن شئونكم من شئوننا أيضاً.. فنجاحكم راحة لنا وأنهياركم كارثة وقيام الشعب يفزعنا واستقرار الحال فى بلادكم وبلادنا سعادة للجميع.

ولم نكن نعرف عمق هذه الكارثة إلا عندما رأينا ما الذى تفعله الجماهير فى شوارع الخرطوم وفى بيوتها.

يقول السودانيون: عرفنا الأبتسام أخيراً لأننا عرفنا الأمان.. لقد كان الواحد منا يتلفت وراءه بل كنا نتصور عندما نذهب إلى القاهرة أن الحيطان المصرية لها آذان سودانية.. فنحن لا نعرف حدود التعاون الدقيق بين مصر والسودان فى ملاحقة كل من يرفع صوته ضد الرئيس السابق جعفر نميرى..

سألنى صحفى سودانى: من المعروف أنك كنت صديقاً للرئيس نميرى..

فقاطعته: لو كنت صديقاً له ما ترددت لحظة واحدة فى أن أقرر ذلك.

وهذا الحقد والغل الذى يكنه للشعب الذى أعطى لاعباً لكرة القدم أكثر مما يستحقه!

حتى المؤيدون للرئيس السابق نميرى يذهلهم هذا الأنقلاب والتقلب في سلوكه من قائد وزعيم ومصلح ومناور إلى الثورة عليه..

من أجل هذا تمنيت لو كنت عرفته أكثر وأعمق.

ان موقفه من الأخوان المسلمين ومن المسلمين شيء عجيب. وموقفه من كل الذين أستطاعوا أن يقولوا: لا.. بل ومن الذين كان فى نيتهم أن يفكروا فى أن يقولوا: لا.. وقصص ونوادر يشيب لك شعرك، تسمعها فى الخرطوم..

وليس هذا بدعة فى التاريخ.. حدث كثيراً وأنفتحت أبواب العيادات النفسية لكثير من الزعماء.. فرض الواحد منا كارثة شخصية ونكبة عائلية.. ولكن مرض الزعماء انهيار وطنى ــ وهذا ما يصيب السودان الآن ولذلك سوف يحتاج إلى وقت طويل لكى يشفى من المرض ومن مضاعفاته أيضاً!



من الغضب العام إلى السخط المنظم، تدرج الأحتجاج فى السودان على الجوع والعطش وافتقاد الشعور بالأمان، فتولدت ثورة عسكرية على الرئيس جعفر نميرى. وكما ان الشعب السودانى قد أعطى الرئيس نميرى مقاليد حياته، فقد سحبها وأعطاها لغيره من أبناء الشعب السودانى أيضاً — من أجل أمنه الغذائى وأمنه الأجتماعى والدينى والسياسى.. وهذه سنة التاريخ.

ولم يفاجأ أحد فى السودان ولا فى مصر والعالم الخارجى بما حدث فى السودان.

فقط الرئيس نميرى. وطبيعى ان يكون ذلك مفاجئاً له فالجلوس الطويل على مقعد الرياسة يجعل الحاكم لا يحسن تقدير الأمور. فهو يهول فى قدرته، ويهون من قدرة الناس حوله وأمامه. ولذلك حرصت دول كثيرة على جعل فترة الرياسة قصيرة ومرة واحدة، وعلى الأكثر فترتين — وهذا هو الفارق بين الملك والرئيس. وفارق آخر ان الملك لا يحكم.. أنه تاج على رأس السلطة، وليس رأس السلطة!

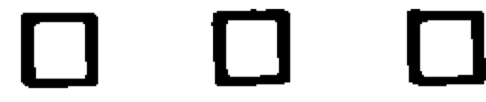
وكنا فى القاهرة نسمع عن قرب ذلك اليوم الذى يتمرد فيه الشعب ثم يثور على الرئيس نميرى..

وقد أستراح الناس فى السودان، لهذا التغيير الهادىء السريع.. وما هو إلا وقت قصير حتى تمتلىء الأيدى بالطعام والقلوب بالأمان، والعيون بالأبتسام.. وليس من مشاكل السودان فى أى وقت علاقتها بمصر. فهذه

علاقة أطول عمراً من الحكومات والحكام. والحاكم لكى يطول عمره لا بد أن يؤكد عمق هذه العلاقة وأستمرارها وتوسيع المنافذ بين مصر والسودان ذهاباً وإياباً..

وليس شيئاً كمالياً أن نتمنى للسودان الشقيق: الأستقرار فى الشارع السودانى والبيت والمدرسة والحقل والقيادة. فالسودان أحوج إلى ذلك من أى بلد عربى.. فالسودان أكبر دولة فى أفريقيا وعلى حدود ثمانى دول تدفع بالمهاجرين واللاجئين يخطفون الطعام القليل الذى تبقى للسودان..

ندعو الله أن يوفق الشعب لمساندة القيادة، والقيادة فى حماية الشعب!



رأيت قنا فى التليفزيون فقط! فلم أرها قط ـ.. الدنيا شديدة الحرارة.. ولكن الشوارع تموج بالناس.. والناس يموجون بالحماس والحفاوة بالرئيس السادات..

والمدينة أحسن بكثير جداً مما توقعت.

وكل ما أذكره عن مدينة قنا ما قاله الشاعر حفنى ناصف:

ذكرت قنا بمصر

فكدت أموت حراً!

ثم صفحات ممتعة للأديب الفرنسى جوستاف فلوبير. الذى زار مصر منذ أكثر من مائة سنة. وقد رأى القاهرة والفيوم ومدناً أخرى.. ولكن لم تعجبه مدينة مثل قنا. وله فى ذلك تفسير وشرح طويل. فهو يصف مدينة قنا بأنها مدينة الحظ والطرب. وان عدد الراقصات والمطربات فى قنا أضعاف عددهن فى القاهرة. وأن ليالى مدينة قنا هى أجمل ليالى العمر.. وأن الحياة على ضفاف النيل أروع من الحياة على ضفاف السين!

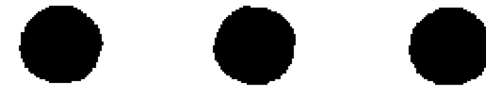
وقد سألت من أعرفهم من أبناء قنا ان كان الذى رواه الأديب الفرنسى صحيحاً. أكثرهم قال: ليست جميلة إلى هذه الدرجة!

وسألت: إذن إلى أية درجة هى جميلة ؟!

وأختلفنا جميعاً، لأن الموضوع يتعلق بالذوق. وأذكر أننى ناقشت صديقاً هو الزميل حسن دوح وكنا نجلس فى فندق شيراتون بالكويت فقال

أن مدينة المطاعنة بمحافظة قنا أو سوهاج ، لا أعرف ، هى أجمل مدينة فى العالم. ومع دهشتى أقسم ثلاثاً بالله العظيم أنها كذلك!

وطلبت من كل من يسافر إلى الصعيد أن يتحقق من هذا القسم العظيم.. وآخر الأنباء سمعتها من عبدالحميد رضوان وكيل مجلس الشعب لقد قال هو أيضاً : أن المطاعنة من أجمل بلاد العالم ــ والله أعلم!



من فوائد الحرب أننا عرفنا بلادنا وكان الثمن فادحاً. فهناك أسماء كثيرة لم نكن نعرفها إلا لأننا حاربنا عليها أو بالقرب منها: هذا السيل الهائل من المدن والقرى فى لبنان والعراق وايران وتشاد وليبيا والصحراء المغربية.

وفى أيام العدوان الثلاثى قرأنا عن رأس العش وفى حرب ٦٧ عرفنا الجزيرة الخضراء وفى حرب ٧٣ عرفنا طابا.. أنها هكذا منطقة عازلة معزولة.

وإذا كنا نقول أن مصر هى الدولة الوحيدة الأفرو أسيوية فسبب ذلك منطقة سيناء. ففيها المناجم والأماكن المقدسة عند الديانات الثلاث وفيها القناة والبترول وهى طريق المصريين الغزاة، وطريق المحتلين لمصر من آلاف السنين.

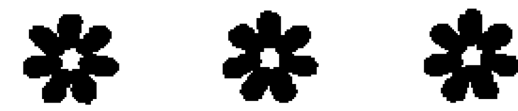
لقد كانت سيناء مفراً لا مقراً.

ولكننا اليوم بعد أن استعدناها قررنا أن نجعلها مسكناً ومزرعة وأن نملأها بالحياة.. وفى مصر ملايين من الناس ضاق بهم وعنهم وادينا الضيق وفى استطاعتهم أن يستأنفوا الحياة الجديدة بروح جديدة فى سيناء.

أن قائداً عسكرياً مثل الرئيس حسنى مبارك قد عرف سيناء قرى صغيرة ورآها من الجو مساحات صفراء ولذلك يهره الآن أن يرى الرمال تطرح النخيل، والحجارة تنبت البيوت والسراب يتحول إلى ماء إلى خضرة إلى مجمعات تسمع الأذاعة وترى التليفزيون وتبعث بأولادها إلى الأندية والمدارس والكليات وأن تكون فى النهاية قريبة من الوادى الأم.

وليس البعد عن القاهرة هو الذى أغرى المواطنين بالأقامة هناك ولا هى الرمال ولا الجفاف.. فالرمال فى كل مكان وإنما هو اصلاح الخطأ الذى وقعنا فيه طويلاً عندما هجرنا سيناء وتركناها عارية منبوذة منا. فتعمير سيناء أعتزاز لها واستدراك لغلطة تاريخية وتصحيح لمعلومات جغرافية تقول: ان الأشجار لا تنبت فى سيناء وان المياه لا تخرج منها ولا تذهب إليها وان المصريين ولدوا ليموتوا على ضفاف النيل فلا حياة لهم فى أماكن أخرى.

أننا بالحرب كسبنا السلام وأننا بالسلام نزرع الحياة والأحياء فى سيناء!



سألنى صديق ذهب يدعو إلى الحزب فى الريف: وما الذى سوف أقوله؟.. لقد تداخلت النظريات والأشخاص وتشكك الناس فى تاريخ مصر، فليس فى الماضى إلا خائن وفى الحاضر إلا جبان وفى المستقبل إلا مخرب.

وليس أمامى إلا أن أعقد معهم صداقة شخصية، وألا أن أجدد علاقاتى القديمة، وإلا أن أقول لهم: إنى لم أسرق ولم أغش ولم أكذب.

قلت: بل هذه البداية الحقيقية!

وأشرت عليه أن يتحدث كيف كان التعليم قبل ثورة يوليو.. ومن الذى كان يتعلم ومن الذى يجد الوظيفة فى أنتظاره قبل أن يتم تعليمه.. ومن الذى له حق الحياة ومن الذين ليس أمامهم إلا الموت أو الذل.. فهو ابن الطبقة المتوسطة، وقد دخل المدرسة مجاناً وأنتقل إلى الجامعة مجاناً.. وهو عندما تخرج وجد الوظيفة.. وكل أبواب المستقبل مفتوحة أمامه.. ولم يجد الأنجليز فى الشوارع. وأبوه.. خصوصاً أبوه.. لقد تنقل بين عزب الأقطاعيين.. هذا يرضيه.. وهذا يطرده.. وهذا يشتريه وذلك يبيعه.. أما الآن فكل إنسان آمن على عمله، وعلى قوته وعلى أسرته وعلى مستقبله، وتستطيع أن تذهب إلى أى مكان مرفوع الرأس لأنك من مصر التى أنتصرت..

وهى اليوم بلا خوف تطلب من كل الناس أن يكون لهم رأى مستقل وان يكون للرأى نظرية وأن يكون للنظرية زعيم وأن يكون للزعيم حزب.... وكما أرتفعت مصر بالثورة على الظلم والفساد، أرتفعت مرة أخرى بالنصر، وأرتفعت مرة ثالثة بالسلام، وأرتفعت مرة رابعة بالديمقراطية وتعدد الأحزاب.. وأرتفعت مرة خامسة عندما أكدت أن كل إنسان حر..



بريجيب باردو أنتهت كما تنتهى مثيلاتها من اللائى عشن فى الأضواء وأرتفعن تحتها.. ثم ضقن بكل ذلك. فكثيرات من النجوم العالميات قد أنتهين بعد حياة باهرة إلى كهوف النسيان أو إلى الحانات أو إلى الأديرة. فقد أكتشفن أن حياة الأنوار كانت كذباً فى كذب. صحيح أن الفن كذب جميل ولكنه كذب. وقد جربت بريجيب باردو الكذب الفنى ١٧ عاماً وجربت الزواج ثلاث مرات. ثم كانت النهاية التقليدية التى هى أقرب إلى التوبة..

كذلك أنتهت «تاييس» غانية الأسكندرية..

ورابعة العدوية فاتنة البصرة..

ومنذ احد عشر عاماً أنشغلت ب. ب. بحماية الحيوان من الأنقراض.. الحيوان ذوى الفــراء.. الدب والثعلب.. وقد أرتفع صوتها وهز الريح شعرها وكشفت عن مفاتنها وهى تدعو إلى الحب والسلام.

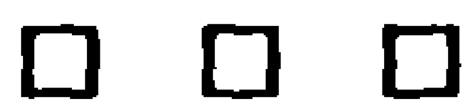
ونتيجة طبيعية: كلما عايشت هى الانسان ازدادت حباً للحيـوان..

وانتقلت إلى الرحمة بحيوانات البيت: الكلاب والقطط والطيور.. والرفق بحيوانات المعامل التى تعيش وتموت دفاعاً عن البشرية..

ويبدو أن ب. ب. لا تريد أن تخرج عن القاعدة: أى الأنتقال من الدار إلى الدير.. أو من أنوار الأستديو إلى ظلمات الصومعة. ولذلك أعلنت أنها بعد سنوات سوف تعثر على هذه الحياة المخلصة من أجل أنقاذ

الحيوان من الانسان.. أو أنقاذ الرجال من الجرى وراء نزوات النساء وشراء مئات الألوف من فراء الدب والثعلب والذئب والنمر والقرد وريش النعام وجلد التمساح والثعبان.. وإذا نجحت، فسوف تنتقل بعد ذلك إلى الدعوة إلى السلام.. إلى الحياة بلا عنف.

أى أنها سوف تهرب من الكذب مرة أخرى: فقد كانت السينما كذباً، وهذه المعركة من أجل حماية الحياة. كذب لأنها تحارب على رأس جيش هى أوله وأخره أيضاً!



من مشاهدة برامج التليفزيون الأمريكى (١٤٠٠ قناة فى كل الولايات) أصبحت أؤمن بأن شركات الأدوية هى التى تدير التليفزيون. فالتليفزيون يثير الرعب والفزع والكوابيس، لأنه يخيف الانسان أن يأكل وأن يشرب وأن يمشى وحده فى الشارع وأن يلمس أحداً حتى لا يصاب بمرض الايدز..

أما دور شركات الأدوية فهو الأعلان عن حبوب للهدوء وحبوب للسعادة وحبوب للنسيان وحبوب للثقة بالنفس لمقاومة كل هذا الرعب.

وفجأة أعلن التليفزيون عن ندوة (حياة أو موت). موضوعها: ما هذا الذى تأكله وأنت لا تعرف أنك وحش جاهل.. اذ كيف تأكل كل هذه الكمية دون أن تدرى أنها السبب الحقيقى لجلطة المخ والقلب وترسيب مستمر للكولسترول فى كل شعيرات الدم؟

أما هذا الذى نأكله فهو: اللحوم.. كل أنواع اللحوم!

وهذا تحذير لكل من تخطى الأربعين من عمره. توقف فوراً عن أكل اللحوم.

فجسمك لا يحتاج إليها. فقد أنتهى بناء كل جسمك وغددك ووظائفك. ولست فى حاجة إلى هذه اللحوم المحشوة بالمواد الكيماوية السامة والدهون من كل نوع. توقف فوراً!

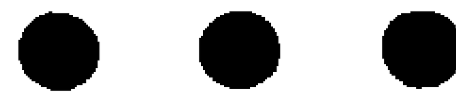
وانخفض استهلاك اللحم فى أمريكا بنسبة ٢٠٪ بسبب التحذيرات اليومية من أضرار أكل اللحوم.

أخف منها ضرراً : السمك .
وينتهى الضرر إذا لم نأكل لحماً على الأطلاق !

ثم عرضوا على المشاهدين كيف يقرفون أنفسهم إذا حاولوا أكل اللحوم ـــ لا أستطيع أن أذكر لك ذاك . فأنا قرفت بما فيه الكفاية . وأقتنعت نهائياً . وعدت إلى ما كنت عليه من أكثر من عشرين عاماً عندما لم أكن أذوق اللحوم . ولا كنت أجد لها طعماً .. وإنما فقط أضطررت إلى أكل اللحم عندما كنت أجد نفسى مطالباً أن أحكى كل يوم حكاية : لماذا أصبحت نباتياً ؟

فزهقت من الحكايات المكررة .. وسددت أفواه الناس عندما سددت فى بهذا الذى لا أحب ولا أتذوق !

ولا يهمك ما يعلنه التليفزيون هنا أو هناك عن بديل للحوم ـــ ففى بقية الأطعمة ما يغنيك عنها !



في مسلسلات التليفزيون نجد الفتاة الجامعية محتارة بين قلبها الذى أحب زميلاً لها، فقيراً، وبين رغبات والديها فى أن تتزوج عاملاً أصبح غنياً وينتهى المسلسل بأن تتزوج الغنى.

وليست هذه هى النهاية الحقيقية. وإنما هى بداية المشاكل والمتاعب العائلية والنفسية. وكلها نعرفها ولا نراها على الشاشة.

والمشكلة الآن: إذا كان التعليم لا قيمة له، فلماذا يتعلم الناس؟ وإذا كان الحب لا معنى له وإذا كانت حرية الأختيار لا قيمة لها. فلماذا يتعلم الشباب، وإذا تعلم فلماذا نريده أن يكون راضياً قانعاً مستقيماً؟

إذن فصيبة الفتاة مصيبتان: ان تتعلم وان تعاشر معظم سنوات حياتها زملاءها المتعلمين، وفى نفس الوقت ان تحتقر نفسها وتحتقرهم أيضاً. لأنهم تجار كلام، غير قادرين على أن يكونوا أزواجاً لهم بيوت وأولاد.

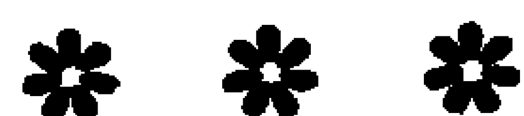
ولا يتصور أحد ولا يجب ان تظهر على الشاشة تلك المعادلة النفسية والأجتماعية والأقتصادية الجديدة من زواج بلا حب، سوف يكون حباً بلا زواج!

فإذا أرادت الطالبة والطالب معاً ان تكون لهما حياة شريفة محترمة وان يعملا معاً على تحقيق السعادة النسبية والنجاح الضرورى فانهما لن يجدا ذلك ولا يشجعهما التليفزيون فى كثير من مسلسلات الأنفتاح.

وليس أمامها إلا الكتب وإلا الأحباط.. وإلا الشعور بالغربة فى هذا المجتمع. وما دامت مسلسلات التليفزيون والأفلام تشيع ذلك بالألوان، إذن

فهذه ارادة عامة. فما الذى يفعله الشبان أمام هذه الدعوة إلى أحتقار العلم والدراسة وتقديس المال، أياً كان مصدره.

ليس هذا إلا واحداً من المصادر القوية للتمزق النفسى والتصدع الأجتماعى والدعوة للأنسحاب من الحياة.



مع حزنى على ما أصاب شعب لبنان من كل أنواع الهوان والعذاب والدمار، فإننى أبدى عجبى وأعجابى بما يحدث هناك فى حياتهم اليومية. فعلى الرغم من أن الحديد والنار والدمار والخوف وسوء الظن هو الهواء والماء لكل الناس، فإن البيع والشراء والحياة الليلية لا تزال كما كانت قبل ذلك ـ أنظر إلى صفحات المجتمع فى المجلات اللبنانية!

وقد انخفضت وأنحطت عملات عربية كثيرة فى المنطقة، وبقيت الليرة اللبنانية ذات أجنحة لها ريش طويل، فهى تعلو كل يوم. أو تستقر فى الهواء كما تفعل النسور إذا رأت فريسة على الأرض.

ولا يزال التاجر يفضل العمل فى لبنان على العمل فى بلاد عربية كثيرة: فالفلوس بألوف الملايين والمواصلات العالمية سهلة والمعاملات الشعبية والحكومية أفضل.. حتى المصريون الذين يعملون فى طباعة الكتب ونشرها وتوزيعها ينطلقون من لبنان إلى كل البلاد العربية الأخرى، لأن القيود أقل، والروتين أصبح أنقاضاً.

سألت أديباً لبنانياً قال: أننا نعايش الدمار ونرفضه ونصارع الموت ونصرعه!

سألت ديبال:

وقابلت وزيراً لبنانياً منذ أيام فى ألمانيا فقال لى: كأننا نتفرج على أحد أفلام الرعب.. وقد طال الفيلم حتى غلبنا النوم، فلم نعد ندرى أن كان الذى نراه حلماً أو حقيقة.. ثم نستأنف حياتنا العادية!

هل هى براعة لبنانية فى العمل والكسب ؟ إنها كذلك ! ..

أن المواطن اللبنانى أقوى من الدمار ولكنه أضعف من أن يحكم نفسه . لأن كل لبنانى يشعر بانه دولة . ولذلك عاش الفرد كدولة ، ولم تعش الدولة لأنها مليون رئيس جمهورية ورئيس وزراء ووزير أنهم دولة بلا مواطن واحد !



لا تقل كان أجدادنا يشربون السمن بالسكر.. لا تقل ان أهلنا فى الريف يأكلون الفطير المشلتت الساخن المصنوع من القمح والزبدة، كل يوم، ولم تصبهم أوجاع فى الكبد، ولا عرفوا قرحة المعدة، ولا تصلب الشرايين ولا وجع القلب!

لا أعرف أن كان هذا صحيحاً.. فالجسم الانسانى واحد. والذى يرهق قلب ابن المدينة، تماماً كالذى يصيب قلب ابن الريف. فالقلب واحد، وعناصر الصحة والمرض واحدة!

· صحيح.. ولكن الدهون بكل أنواعها تؤدى إلى ترسيب الدهنيات والجلسرين والكلوسترول على جدران الأوعية الدموية.. كما تترسب الأملاح فى أنابيب المياه.. أو كما تتكدس السيارات على جانبى الشوارع تماماً. فتصبح المسافة التى تتحرك فيها السيارات ضيقة. وعلى ذلك يتوقف المرور ويتصلب. أى لاتكون هنا سيولة فى الحركة. لأن الشارع قد ضاق. ولأن الأوعية الدموية قد ضاقت أيضاً. فالدم الذى يصل إلى المخ وإلى القلب قليل أيضاً.

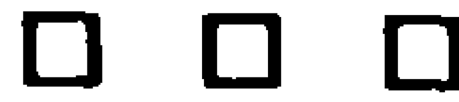
والانسان لايصاب بذلك فى سن صغيرة. ففى السن الصغيرة تكون الأوعية الدموية مطاطة. ولكن مع تقدم السن تكون أقل مرونة وأقرب إلى الصلابة. فإذا أضفنا إليها صلابة من الداخل، كانت أوعية من الفخار!

وهناك فارق هام بين أبناء المدن وأبناء الريف: التوترات العصبية.

فأبناء المدن نصيبهم من المؤثرات العصبية أكبر. وقلقهم أشد وأطول. وهذه الاضطرابات العصبية تؤدى إلى زيادة الترسيب فى الدم وفى الأوعية الدموية.. وفى أستطاعتك أن تلاحظ نفسك فى يومك العادى وفى يوم الأجازة. أو فى أى يوم تذهب فيه إلى الشاطىء أو الحقول بعيداً عن العمل والناس والمشاكل العادية. هناك فارق.

هذا الفارق معناه ان أهل الريف إذا أكلوا السمن، فإن السمن لايغلى فى عروقهم بسبب القلق والأحباط والضغط العالى والأحتراق المستمر فى عروقهم ومعداتهم وأمعائهم وقلوبهم وشعيرات المخ. وذلك للأحداث التافهة جداً التى تقع لهم فى أى وقت!

ولا خلاف بين العلماء على ان أسرع طريق إلى العالم الآخر هو المدهون بالسمن البلدى!!



ولكن أم كلثوم لم تمت. فلا يزال الملايين يسمعونها ويرونها. أنها ماتت فقط للذين كانوا يجلسون إليها ويأكلون ويشربون معها وتداعبهم وتضحكهم على أنفسهم.

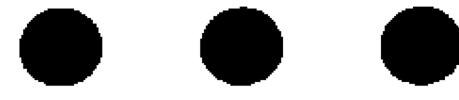
ومحافظة الدقهلية وهى تحتفل بأعظم بناتها تفاخر الأمم بهذه المواطنة العالمية التى أستطاعت ان تمتع قلوب العرب على: آه واحدة فى القارات الخمس. فبغير الفن لا حب، وبغير الحب لا حياة وبغير أم كلثوم لا تذوب القلوب وتتخذ الحياة لون الذهب وعطر الورد وأغصان السلام..

وكانت الطائرات تأتى بدراويشها من الدول العربية.. وكانت السيارات تعبر فلسطين إلى مصر.. كل يوم خميس.. وكانت حفلاتها أعظم كرنفالات الأناقة والشياكة والحفلات العائلية.. وبعد حفلات أم كلثوم علامات فى طريق الليالى الملاح، فالناس يتحدثون بها وعنها من حفلة إلى حفلة ومن أغنية إلى أغنية، ومن أغنية قديمة بأداء جديد.. ويحسبون كم مرة قالت: آه.. وكم مرة مالت يميناً وكم مرة يساراً.. وكم دمعة نزلت أو كادت تنزل في عيون المشاهدين والعازفين.. وكيف أنها بإشارة من أصبعها أسكتت ألوف الحاضرين التى تهتف بأسمها.. وكيف قامت وكيف جلست وكيف عصرت المنديل فى يدها.. ثم أنهم يقارنون بين تسجيلاتها المختلفة ويفاخرون بها أيضاً.. ونجد دراويش أم كلثوم يقولون: ان عندى تسجيلاً لأم كلثوم وهى تقول: حرمتنى من نار حبك ٣٢ مرة.. ألخ.

وأم كلثوم هى التى أطالت عمر التخت الشرقى، وأطالت السهرات.. وقد أرتضينا ذلك من أجلها وحدها. وكل محاولة بعدها للغناء مثلها، أو السهر الطويل، فشلت. لأن الناس قد أعطوا أم كلثوم وحدها هذا الحق.. أسلموها أذانهم وقلوبهم وساعات أيديهم، تفعل بها ما تشاء..

وقد حاولت مطربات أن يقمن حفلات غنائية طويلة. ولأن الناس قد أعتادوا على ذلك فى عصر أم كلثوم، فقد ذهبوا.. ولكنهم لم يجدوا ولا أحسوا بما أعتادوا عليه.. فانصرفوا عن المطربات وأقلعت المطربات أيضاً. لماذا؟ لأن المستمع المصرى قد سمح لأم كلثوم، بما لم يسمح به لأحد غيرها..

ولا تزال أم كلثوم أعظم وأروع صوت غنائى عرفناه ـــ وسوف تبقى!



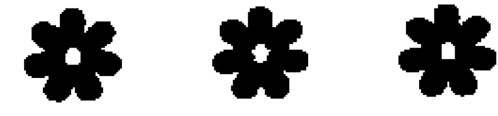
نحن ننسى كيف كنا فى شبابنا.

ومن الضرورى أن نتذكر ذلك أحياناً أنعذر الشباب أيضاً. فإن كان الشبان يتعجلون، فقد كنا كذلك. وان كانوا يتشككون فقد كانت هذه حالنا. وان كانوا يكفرون، فقد كفرنا. وان كانوا متشددين فى ايمانهم، فقد فعلنا. ومن مظاهر تشددهم ثقتهم بالنفس وبالرأى وبالجيل. وان كانوا لا يستريحون للأب والأم، وإنما للأب والأم فى البيوت المجاورة، فليس ذلك جديداً علينا..

وان حاول أحد منهم الأنتحار، فقد حاولت أنا شخصياً ذلك وفى ظروف وجدت من الصعب التوفيق بين الذى أحس به وبين الذى أريده، بين الذى أتمناه وبين الذى أقدر عليه.. بين الذى يتفجر فى رأسى، وبين عجز التعبير عنه..

ويوم ترددت على الجمعيات الدينية الإسلامية والمسيحية والبوذية والبهائية، لم أكن حائراً بائراً، وإنما فقط أريد أن أعرف... كنت أبحث عن مرآه لوجهى بوضوح كنت أبحث عن «بوصلة» تهدينى إلى القطب الشمالى والجنوبى، أبحث عن قبلة إلى الله... ويوم تقلبت بين عشرات المذاهب الفلسفية دارساً ومعذباً ويوم أخترت من بينها واحد أراح رأسى ويدى. ولكنه عذب قلبى. ولم أكن أخترت العذاب طريقاً وهدفاً، وإنما فقط أخترت الأقرب والأنسب...

ولما قيل لى أخيراً أن فلاناً الطبيب البارع قد أطال لحيته وركوعه وسجوده وأن زوجته التى تعلمت معه فى أمريكا قد تحجبت، لم أفزع لذلك ولم أشارك أباه وأمه وأباها وأمها فى الحزن... أنهما عاقلان ناضجان أختارا الأنسب والأصح بعد أن رأيا وعايشا وضاقا بتوأمين عظيمين: الحضارة والأنحلال.



لله يا زمرى !

قالها رجل أعمى كان من عادته أن يتسول أمام البيوت وفى الشارع يزمر فيكون الزمر نوعاً من أعلان أنه شحاذ.. وان الزمر ليس إلا نداء أو سلعة معروضة.. أى أننا لا نعطيه بلا مقابل.. هو زمر ونحن دفعنا الثمن. وفى احدى المرات سمع اناساً كثيرين وراح يزمر ولكن أحداً لم يعطه شيئاً.. فأقترب منه واحد وقال له: هنا جامع.. قال الشحاذ: آه.. إذن لله يا زمرى !

وأمسك الشحاذ مزماره وأتجه بعيداً عن الجامع !

ولله ما زمرنا وما صفقنا وما وجعنا قلوبنا حتى جف ريق القلم وريق صاحبه.. ونحن نتحدث عن المبانى والأندية على النيل شاطىء الجيزة: أندية البوليس والجيش والقضاة والدبلوماسيين وشيراتون أخيراً. ثم تغطى شاطىء النيل باحكام شديد.. وأصبحت هذه المبانى سداً منيعاً.

وكان الوزراء من كل لون ونوع قد استاعوا من تشويه البيئة التى هى النيل والشاطىء ومنظر النيل والأشجار على جانبيه هنا وهناك..

وإذا كان هذا الذى يحدث فى شارع من الجيزة، قد أصبح قضاء وقدراً. وأصبح المرور به نوعاً من التعود على ذلك، فإن مذبحة دموية تجرى فى المعادى. فهناك أقتلاع للأشجار بالجملة.. فمن يكون هذا الحاقد القاتل للحياة على مرأى ومسمع من كل الناس؟ ورغم الشكاوى المتعددة فإن سكين القاتل لا يزال طالعاً نازلاً على أعناق الأشجار ورقاب العباد..

والناس فى المعادى يتذكرون أيام زمان، أيام كان الساكن فى حاجة إلى اذن من الحكومة لكى يقتلع شجرة.. وكان فى حاجة إلى اذن لكى يزرع النوع الذى يعجبه. فقد كانت الحكومة تتدخل فى أختيار الأشجار التى تنسجم مع الجمال والبيئة ـ كان ذلك فى العهد الأسود البغيض السابق على ثورة يوليو المجيدة ؟!

إذن كما ان الشارع قد أنسد باحكام حتى لا نرى النيل ولا نشم الهواء. فإن قضية افساد شاطىء النيل، يجب هى الأخرى اغلاقها، ووضعها فى ملف وألقاؤها فى النيل.. تماماً مثل عروس النيل زمان ـ أى فى أعظم مقبرة للكلمة وصناعة الكلام!



في بيت كل منا فائض من الأدوية. فنحن ــعادةــ نشترى من العقاقير أكثر من أحتياجاتنا.. ثم إننا نتابع كل ما يظهر فى الأسواق من أدوية جديدة. أو أن الأطباء يفعلون ذلك.

وفى بيت كل منا زجاجات وعلب كثيرة بقيت بعد استخدامنا لها. والكثير من هذه الأدوية يفسد. وكذلك بعض الحقن والسوائل.

فماالذى نفعله بهذه الأدوية؟

لقد مررت بتجربة غريبة عندما مرضت أمى. وأتيت لها بالعقاقير من كل مكان يراه الأطباء. من أمريكا ومن سويسرا ومن بريطانيا. هل كان الأطباء حريصين على أن يضيعوا وقتى، حتى لا أشترى شيئاً، لأنه لا أمل فى شفائها؟

أو أنهم رأوا أن هذه هى الأدوية النادرة التى لا علاج بغيرها؟ الله أعلم.

وأنتقلت أمى إلى ربها. راضية مرضية، وبقيت الأدوية النادرة الغالية الثمن. وفكرت فى أن أعطيها لأحد من المرضى، لعلها تنفعه. ولم أعرف ما الذىَ أفعله. سألت. قالوا أبعث بها إلى المستشفى الفلانى. وقال آخرون: يسرقونها. قالوا: أبعث بها إلى مستشفى خيرى.

وكان الأعتراض: أن المستشفى ليس خيرياً كما نتصور. الأسم فقط.. ولكن ليس أسهل من سرقتها وبيعها فى السوق السوداء!

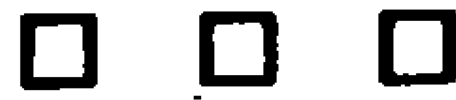
وبقيت المشكلة كما هى. ما الذى يمكن أن نفعله إذا تكدست عندنا العقاقير ولم نعد فى حاجة إليها، ولا نعرف إلى من نهديها من الهيئات أو من المرضى؟

ولم يتفق الأطباء على جهة معينة.. ولكن كان من رأيى أن نعطيها لأية هيئة.. وحتى إذا سرقت فسوف يستفيد بها أحد المرضى. ولا يوجد مريض ليس على أستعداد لأن يبيع أعز ما لديه، لكى يخف ألمه. ويتلاشى عذابه. وهذا ما يعنينى..

وجمعت صندوقاً من الأدوية. وبعثت به إلى أحد المستشفيات مع خطاب أرجو فيه أن يكون هذا الدواء من نصيب الذين يستحقونه ــ لوجه الله، ورحمة ونوراً على صاحبة الدواء الذى لم يحقق لها الشفاء.

وعرفت فيما بعد أن هذا الصندوق لم يمكث فى المستشفى سوى بضع ساعات. وأختفى.

ولكن بقيت المشكلة كما هى!



صديق العمر فتحى أبو الفضل مر بهدوء. يرحمه الله. كان أديباً عصامياً رومانسياً رقيقاً، مرحاً مجاملاً. وكان الناس عنده نوعين: أصدقاء وأصدقاء جداً. وكان يحلم مفتوح العين ويروى لنا الحكايات التى وقعت له فى خياله. وكان قادراً على أقناعنا بأنها حدثت. وكنا نجد متعة فى أسلوب رواياته. ولم نكن نعلم أنه يحلم بأن يكون كاتباً وان يكون صحفياً روائياً شاعرياً وان يفوز بجائزة الدولة، كل جوائز الدولة. ومعه حق. فهو أحسن من كثيرون جداً من الذين فازوا بها، وكان فوزهم أهانة للفائزين وللجائزة.

عاش فقيراً. ولكن لم نشعر لحظة واحدة أنه فقير. ولا كانت له شكوى. كان عزيزاً على نفسه كريماً على الآخرين.. وكان همه الأكبر بعض أقاربه.. لا أعرف كم عددهم. وكان يحمل همهم على كتفيه.. ويبكى ويبكينا معه. ولم أر فى عينيه إلا الدموع — فهو إذا فرح بكى، وإذا حزن لغيره بكى.

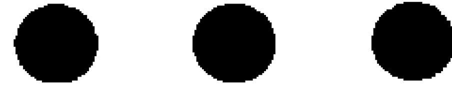
وكان فتحى أبو الفضل يسكن فى غرفة على السطوح. تمنى أن تكون له شقة قريبة من الأرض حتى يستريح من السلم الطويل. لم يستطع. ولم يفقد الأمل.. وكانت الغرفة ضيقة. ولكن كان عنده احساس دائم بأنه فوق وأنه فى القمة. لا يهم أن تكون الغرفة ضيقة، ما دام هو لا يضيق بها، ولا يضايقه ان يكون فوق السطوح، المهم أنه فوق.. يرحمه الله لقد أنتقل من فوق إلى فوق.

وفى أشد لحظات الألم، وما أكثرها جسمياً ونفسياً وأدبياً وعائلياً، لم تختف له ضحكة عريضة.. أو أبتسامة تزداد لمعاناً فى عينيه تحت منظاره الغليظ.. ولم يبق له إلا أصدقاء قليلون.. ثلاثة أو أربعة.. ولم نكن أحسن حالاً. فالسعيد جداً من له فى الدنيا أكثر من صديق. والشاعر القديم يقول:

تمسك أن ظفرت بذيل حر
فإن الحر فى الدنيا قليل

وكان فتحى أبو الفضل أقل القليل فى هذه الدنيا.

ولا أعرف من الذى أعزيه فى فقده، وإنما أمد يدى إلى يدى وأعزينى فيه.. وأبكى عليه وفيه كل ما هو كريم نبيل شجاع شريف نظيف فى هذه الحياة!



رأيت مدير احدى الشركات الألمانية وقد وضع إلى جوار مكتبه دلواً صغيراً من المعدن يتصاعد منه البخار وسط باقات الزهور. لم أفهم. سألت. عرفت أنه يخفى هذا الدلو عن عيون الناس، حتى لا يسأله أحد عن هذا المنظر الغريب.

أما هذا الدلو فهو مليء بالقهوة، الساخنة دائماً. قال لى المدير: أنه ورث عادة القهوة دون أن يشربها عن والدته. فقد كانت أستاذة فى الجامعة. وكانت تجلس ساعات طويلة فى مكتبها. وتكره أن يقاطعها أحد أو أن تنهض من مكانها لتعد لنفسها كوباً من القهوة أو كأساً من النبيذ.

ويقول ان والدته وقد ورثت هذه العادة الغريبة عن والدتها التى عاشت فى اليابان. فى منطقة جليدية. فاعتادت على أن يكون البيت دافئاً مليئاً بالبخار.

ويقول: أنه لا شيء ينعش الانسان مثل بخار البن أو الشاى.. فهو ينبه الأعصاب، ولا يؤذى المعدة..

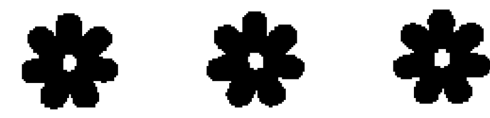
ولم أعرف، مما قرأته، أن أحداً كان يضع القهوة فى جردل إلا الأديب الفرنسى بلزاك. كان يسرف فى كل شيء أثناء الكتابة: القهوة والنبيذ والجنس..

وكان يقول: ان الكتابة والأستعداد لها يملأ الجسم بالقوة التى تغريه بأن يأكل الورق، لا أن يكتب عليه!

ولذلك فهو يظل يطفيء حيويته ، ويخمد طاقته ، حتى يصبح فى مستوى الورق .. قادراً على الكتابة الهادئة وقتاً طويلاً !

وكان الأديب الأمريكى همنجواى الذى عشق كوباً وأحبه يخلط القهوة بالويسكى بالزبدة .. ثم يشربها أو يأكلها مجمدة .. ثم يدهن بها جسمه . وكان عندما يكتب يضع على المنضدة عشرات أقلام الرصاص ، وأمام باب غرفته عشرات الأحذية الواسعة ينقل قدميه فيها .. ثم تمثالاً جليدياً صغيراً لزيوس كبير ألهة الأغريق مصنوع من البن والزبدة والخمر ويظل يلعقه .

أما الشاعر الفرنسى الرقيق بول جيرالدى فكان يأتى بفوطة مبللة فى القهوة الساخنة ، ويضعها على وجهه .. ويسترخى بعض الوقت .. ثم يكتب .. ولكنه لم يذق القهوة أو الشاى أو الخمر . وله عبارة مشهورة : ان الله قد أودع فى كل قلب ما هو أقوى من كل المنبهات والمنومات والمسكرات : الحب !



إذا وجدت نفسك تقول : والله لا أعرف ما الذى أريده من هذه الدنيا ، فلست وحدك فى مصر أو فى العالم.

وإذا كنت قد تجاوزت الثلاثين من عمرك ، ولا تزال تكرر هذه العبارة ، فمثلك ٥٠٠ مليون نسمة يتكلمون مائة وعشرين لغة .

وإذا كنت قد تجاوزت الستين من عمرك ، ووجدت نفسك تقول : هانت لم يبق إلا القليل وبمنتهى الصراحة ، أنا لا أعرف ما الذى أخذت وما الذى أعطيت .. ولا ما الذى خرجت به من هذه الحياة ، فأنت تنتسب إلى الأقلية الحاكمة والتى تبلغ ٣٠٠ مليون نسمة !

فليس صحيحاً أن . كل الناس يعرفون بالضبط ماذا يريدون . وماذا حققوا . وما الذى ينتظرهم غداً . أكثر الناس على باب الله . وباب الله واسع جداً للمتعلم والجاهل ، والغنى والفقير ، والأبيض والأسود ، والحاكم والمحكوم . وأكثر الناس قدريون ــ أنا واحد من هؤلاء الذين يعملون ولا يعرفون ، على وجه اليقين ، ما هى نتيجة كل هذا العناء .

ولا تصدق من يقول لك : لقد فكرت ورسمت ودبرت وسرت فى الخط الذى حفرته على الأرض وبين الناس إلى مستقبله . قليلون جداً من يقولون ذلك . وقليلون جداً من يستحقون أن نصدقهم !

الرجل الأمريكى الذى أخترع السيارة أسمه فورد . كتب فى مذكراته أن السيارة كانت تحدثه أثناء النوم . وأنه كثيراً ما قام من نومه فى حالة

فزع، فقد داسته السيارة بعجلاتها وحطمت ضلوعه ففكر أن يجعل لها عجلات من المطاط!

ولكن فورد هذا هو الذى قال: لو عادت بى الحياة لأخترت أن أكون راهباً فى دير!

وأديسون الأمريكى الذى أخترع ٢٥٠ أختراعاً من بينها المصباح الكهربى. يقول: ان طفلاً ضربه على رأسه بعنف فأضاءت فى عينيه شموع ومصابيح.. فى تلك اللحظة فكرت فى أختراع مصباح يضيء لى ولكل الناس، دون ضربات على رأسى!

هو أيضاً الذى قال: أخطأت طريقى إلى كل شيء. لقد تمنيت أن أكون راعى بقر، وعندى مزرعة.



كنت فى قبرص. ومنها أستمتعت إلى اذاعات عربية أقوى وأوضح. فمن بيروت وحدها أستمعت إلى أربع أذاعات بأسماء مختلفة. وهذه الأذاعات هى استئناف للقتال بصورة أخرى. أستمعت إلى أذاعة تقول: ان جندياً مسلماً هاجم أسرة مارونية وخطف احدى بناتها وقامت الحرب بين الأسرتين. ولابد أن تكون هذه أذاعة مارونية.. وأستمعت إلى من يقول: وعندما ذهب المصلون إلى الكنيسة وجدوا سيارة واقفة ببابها وخافوا أن تكون ملغومة فهربوا.. السيارة كانت لقوات شيعية ــ هذه اذاعة إسلامية طبعاً.

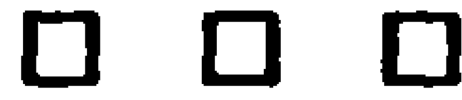
والله وحده هو الذى يعلم متى وكيف تنتهى هذه الحرب وإذا أنتهت فكم يبلغ عدد الأحياء فى لبنان الذين سوف يواصلون الحياة من جديد. كما فعل نوح عليه السلام. المهم ان ينحسر الطوفان وتهبط السفينة فى أى مكان لتبدأ الحياة على جثث مليون شهيد!.

ولكن السبب خاص بى، ولحالة الغناء فى مصر، وأفلاسنا فى الأصوات والمواهب، كان أهتمامى أكبر بالأصوات التى تغنى والتى تنشد الصلوات الوطنية والعاطفية. وأدهشنى أن أسمع وسط هذا الطوفان والأنهيارات والأنفجارات: أصواتاً جميلة قوية شابة، طويلة النفس قليلة البكاء. شىء عجيب فى هذه البلاد لبنان. فالشعب لم يمت. ولا يريد أن يموت. والحياة، كما تصورها المجلات اللبنانية بها أضواء وضوضاء.... ولم أجد من بين هذه الأصوات أسماً واحداً أعرفه.. أنها أصوات جديدة شابة قوية لم تبرح لبنان رغم الأهوال. أستمعت إلى حوار مع صاحب صوت

جديد يقول: من أمالى تكوين فرقة موسيقية وان أعيد ليالى بعلبك.. وقد حاولت فى الأسبوع الماضى. وسوف أحاول!

الله. أنه رغم كل شيء يحاول وسوف يحاول أن يغنى. أى أنه حتى لو قامت القيامة سوف يغنى!

وأدهشنى ان مطربة شابة تقول أنها سوف تسافر إلى مصر. وأنها من مصر ستبدأ غزوها للبنان ولكل العالم العربى.. ولو كانت هذه المطربة تتحدث من أية عاصمة عربية أخرى لكان كلامها معقولاً. ولكنها تتحدث من بيروت ــ فالقنابل إذن والمدافع لم تبدد أمل شعب أقوى من الموت!



رأيت ثلاثة من الملوك وقد جار عليهم الزمان : لا عرش ولا صولجان ولا هيبة !

الأول : أسد في سيرك .. رأيته من بعيد .. لا فرق بينه وبين الكلب . حتى شعر رأسه ـــ معرفة الأسد بفتح الميم ـــ ليس قائماً على حيلة .. ولاحظت أن الأسد يتمسح في الجدران .. وأنه يشمشم في الأرض .. وتأكدت أنه فعلاً أسد ، وليس خروفاً !

وفوجئت بأن أحد مروضيه قد أخرج من جيب الجاكت كيساً من الورق به سندوتش فول ! وقدم للأسد نصفاً وبدأ هو يلتهم النصف الآخر .. وبسرعة ألتهم الأسد السندوتش ـــ أول مرة أرى فيها أسداً يأكل الفول !

وقبل أن أتعجب لما أصاب جلالته قال المروض : ومن أين نأتي له باللحوم إذا كانت تذكرة الفرجة على جلالته بعشرة قروش .. بل مصيبة كبرى لو طلب الأسد أن يأكل البرسيم .. حتى البرسيم لا نستطيع أن نشتريه !

وفي حديقة حيوانات الخرطوم رأيت قفصاً كبيراً للدجاج . وفي داخل القفص ديك رومي .. بل ليس ديكاً رومياً ، وإنما قيل لي أنه نسر .. أو كان يوماً ما نسراً .. ولكن الزمان أخنى عليه .. وإذا هو في ركن من الأركان لا قدرة له على أحتمال الحرارة والعطش ولا أن يأكل الذرة !

وتحدثنا « ألف ليلة » أن النسر ملك الطيور كان يحمل الرجل ويطير به إلى قمم الجبال . فهو يعيش مئات السنين ولا يموت إلا عند القمم !

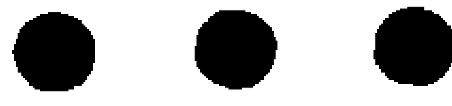
قلت لحارس حديقة الحيوان: ماذا أصاب جلالة النسر؟

أجاب الرجل وكأنه يحاول أن يتفلسف: أنه ملك بلا رعية.. على أرض بلا قمم في جو ليس به جليد.. كيف يكون نسراً وهو يأكل طعام الدواجن.. أنه مواطن عادى في جمهورية شعبية!

وفي معهد الرازى بالقرب من طهران رأيت أفعى ضخمة ــ ملك الزواحف ــ تصيب ضحاياها بسم تطلقه قذيفة على عيونهم. لا يخطىء أبداً، فإذا الضحية أعمى لا يرى. فتلتف حوله فتسحقه تماماً. ووجدت فأراً صغيراً واقفاً فوق دماغها. لم أفهم. فقيل لى أن الأفعى تفضل الموت على أن تأكل هذه الفئران التى تطلق روائح كريهة!!

ولذلك تأكل هذا الفأر يأساً من الحصول على الفئران الأخرى التى يستوردنها من روسيا ولذلك فهى جائعة تتلوى كأنها دودة قز!

.. فلا دائم إلا وجه الله!



لا يزال صوت محمد عبد الوهاب هو أجمل الأصوات وأرقها وأبلغها فى تاريخ الغناء العربى. فلا أقترب منه صوت، ولا نجح فى ذلك.. ومن العجيب أن كل الأصوات المعاصرة لم تتعلم منه بدرجة كافية. مع أنه البداية المؤكدة للأداء الجميل وصقل الموهبة الغنائية..

ومن المدهش حقاً أن أصواتاً كثيرة شابة، لم تحفظ عبد الوهاب أداء ولحناً، ولا رددت أم كلثوم ولا سيد درويش.. تماماً كما لم يقرأ الأديب الناشىء العقاد وطه حسين والحكيم والجاحظ والمتنبى وشوقى.. ولا حفظ وتوقف وتأمل آيات من القرآن الكريم..

جلست مع عدد من المتذوقين للغناء والموسيقى نستمع لأصوات جديدة..

وفى لحظة واحدة تلفتنا جميعاً بعضنا إلى بعض.. أما معنى ذلك فهو أن هؤلاء الشبان لديهم أعتقاد راسخ بأن تاريخ الغناء والموسيقى يبدأ بهم. وأن الماضى يجب أن يمضى. وأن الذى ذهب، لا يعود. أو بعبارة أخرى: عبدالوهاب له زمان مضى وأم كلثوم وقبلهما سيد درويش!!

ومن مزيج الغرور والجهل مضينا نتناقش فى هذه القضية: ما دام المشى هو بداية الرقص والسير على الحبل، فلماذا لا نبدأ بالرقص مباشرة؟ أى لماذا لا يقفز الطفل من التساند على الجدران إلىَ رقص الباليه ـــ مرة واحدة!

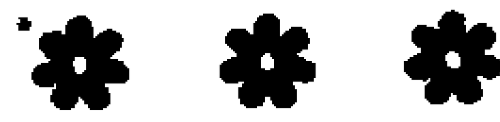
هل هذا ممكن؟ هذا السؤال نفسه ليس جاداً. ففيه الكثير من الأستخفاف بعقل الانسان، وفيه ايمان بالمستحيل.. والمستحيل هو أن يحاول الطفل الذى يحبو ان يكون راقصاً فوراً، أختصاراً لمرحلة المشى الإيقاعى والتذوق الموسيقى ـــ أى حذف تاريخ الانسان وتاريخ الانسانية!

وعلى هذا النحو دارت مناقشات سخيفة. وكانت النهاية أسخف من كل ذلك.

أما النهاية فهى: ان الأجيال القديمة تريد أن تفرض منطقها على الشباب.

سؤال أخير ونهائى: هل من الممكن لأى انسان أن يقفز إلى الهندسة والجبر والسبرنطيقا دون معرفة لجدول الضرب وان ٢×٢=٤..

فمن غير هذه المعادلة الصغيرة جداً يستحيل الوصول إلى القمر!



فى العام الماضى أحترق مكوك الفضاء الأمريكى برواده السبعة. وكانت كارثة قومية للعلماء والساسة. وأعاد العلماء حساباتهم وراجعوا الجداول والخرائط والأجهزة ووزعوا الأتهامات وغيروا المواقع. ولكن كان لابد من الأستمرار فى أكتشاف الكواكب الأخرى وبناء المدن المدارية حول الأرض والتجسس على القارات الخمس ونقل الحرب من الأرض إلى ما حولها، إلى الكواكب الأخرى ــ ان شاء الله. ومعنى ذلك ان الانسان لن يتغير. فهو ذئب لأخيه الانسان فى الكهوف تحت الأرض أو تحت سطح القمر. وكل ما فى يد الانسان قد تغير وتبدل، ولكن ما فى الانسان نفسه لم يتغير.

وبدلاً من تعطيل السباق نحو القوة والتفوق الذى هو قوة أيضاً: مضى الأمريكان فى صعود سلم التقدم التكنولوجى وذلك باستئناف رحلات المكوك ــ مهما كانت الأخطار والأخطاء.

أما أهل الضحايا فقد تلقوا العزاء يوماً واحداً. وراحوا يبحثون عن شىء آخر يوقف الدموع فى العيون والخوف فى النفوس. فما الذى أهتدوا إليه ؟

أهتدوا إلى ضرورة استمرار رحلات الفضاء ودفع الأطفال والشباب إلى السباق الهائل بين أمريكا وروسيا واليابان، من أجل أن تتفوق أمريكا على الجميع. فأقاموا مدارس للأطفال فى أماكن متعددة من أمريكا تعلمهم كيف ينظرون إلى السماء. وكيف يعرفون علوم الفضاء

ورحلات الفضاء ومخاطرها.. وفى نفس الوقت كيف يحلمون بما هو أفضل وأسرع وأقوى ــ بكل ما يجعل أمريكا أعظم.

وقد أمتلأت أيدى الأطفال بنماذج صغيرة لسفن الفضاء ومكوك الفضاء. فما هو المعنى؟

لا خوف. ويجب ألا يكون خوف. وإنما كفاح وتقدم ــ ولا بد من التضحية، ولولا هذه المغامرات الشجاعة والتضحيات النبيلة ماتقدم العالم.. ولا أتسعت أمريكا وقويت وعظمت.

فمستقبل أمريكا يجب أن يحمله الصغار قبل الكبار، أى الصغار قبل أن يكونوا كباراً، أو إلى أن يصيروا كباراً. فهى هموم العمر كله والجيل كله ــ أنهم فى أمريكا يرون عصورهم الذهبية أمامهم دائماً، فهم لا ينظرون مثلنا إلى الوراء ويبكون على الذى فات ولن يعود!



سوف يكون عندك وقت لتترحم على نهر النيل ــ لا النهر ولكن اللوحة الجميلة التى يتوسطها نهر النيل ، وأنت تنظر إليه من القاهرة والجيزة . فالنهر هبط منسوبه . نحن نعرف السبب . والنهر يزحف على بطنه ويتمسح فى الشاطئين ، فقد أتخذ اللون الأخضر الشاحب .. أما لونه « النجاشى » كما تقول أغنية عبدالوهاب ، فكان ذلك قبل بناء السد العالى ..

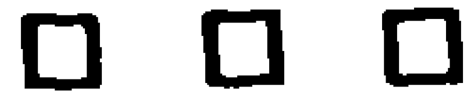
وكان لدينا شعور عميق بضرورة التستر على جثة النيل ولذلك أقمنا أندية البوليس والجيش والقضاة والخارجية على ضفته من ناحية الجيزة .. فلم يعد أحد من المشاة يراه ، وقد مشيت بقلمى فى مظاهرة تهتف ضد هؤلاء الذين أفسدوا منظر النيل ، وتفرقت المظاهرة فى كل الصحف والبرامج ، ولأن الأجهزة الرسمية قد أعتادت مثل هذه المظاهرات القلمية الكلامية ، فقد أستمروا فى بناء الأندية ..

وأكثر من ذلك ان اللافتات الضخمة عند كوبرى عباس وعند كوبرى الجامعة قد حجبت النيل أيضاً . لماذا ؟ لنفس السبب ..

ولأسباب أخرى هى : ان اللامبالاة عندنا ، شعباً وحكومة ، قد أفقدتنا الحس بالجمال .. فنحن لم نعد نشعر بجمال النهر والشاطئين والأضواء هنا وهناك .. فنحن لانبالى بها ان كانت ولا نبالى ان لم تكن .

هل أذكر لك ما يفعله الناس ، أو يعجزون عن فعله فى بلاد أخرى ؟ فى سويسرا مثلاً لا يستطيع أى انسان ان يبنى عمارة على كيفه . لا بد من استفتاء عام لسؤال الناس : كم دوراً ؟ وكم غرفة ؟ فليس لأحد حق

فى ان يحجب منظر الغابة أو الجبل ، دون أن يسأل الناس أو يقنعهم بما يريد. ولا أحد يخفى مشاهد الطبيعة ويحرم العين والأذن والأنف، لأى سبب. ولا يوجد سبب لحرمان أحد. وذلك لا بد من أخذ الرأى العام. ولا أحد لا يبالى ــ فألف رحمة تنزل على نهر النيل وأبنائه ، أن بقى له أبناء!



قال لى طبيب شاب: مرتبى ٤٥ جنيهاً تصور!
قلت: وكان مرتبى ١٥ جنيهاً تصور:
قال: ولكنك الآن!
قلت: ولكنك غداً.
قال: إن مرتبى هذا يتقاضاه الأستاذ فى عيادته من الكشف عن مريض واحد.
قلت: وسوف يكون حالك عندما تصبح فى مثل سنه وتجاربه.
قال: ولكنهم أساتذة قليلون الذين يتقاضون مثل هذه الأجور العالية.
قلت: لأن الأذكياء والبارعين قليلون.

قال: أننى أساعد أستاذى فى عيادته الخاصة سبع ساعات فى اليوم دون أجر! بينما الممرضة تتقاضى مائتى جنيه فى الشهر وربما أكثر.
قلت: وما الذى يجعلك تقبل هذا الوضع.. إذا كان أستاذك يستغلك فهو يدربك أيضاً.. لعله يرى أنه يستحق الأجر على تعليمك.. وأنه من الأشفاق عليك يعلمك مجاناً..

قال: كيف أتخذ منه قدوة حسنة!
قلت: لا أعرف ما الذى لم يعجبك فيه؟
قال: رأيته لا يصلى ولا يصوم..
قلت: لا تفعل مثله..
قال: لقد ترك لى العيادة طوال شهور الصيف التى يقضيها فى أوروبا.

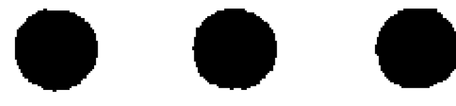
قلت : سوف تفعل مثله ..

قال : وهكذا ترى أنني وكثيرون في حالة من الضيق والقرف .

قلت : لا أجد مبرراً لضيقك .. أنه قرف موقت .. واستعجال للكسب والشهرة .. فأنت لاتعرف كيف كان أستاذك عندما كان فى مثل سنك ..

قال : كأنك لست من الشباب ..

قلت : بل معهم وكان طريقى شاقاً .. ولايزال .. فأنا مثل تلميذ يصحو من النوم الخامسة من صباح كل يوم يذاكر كأننى أمتحن كل يوم .. بل لم أشعر أننى تخرجت بعد لا من المدرسة ولا من الجامعة .. صدقنى أنها متعة كبرى ان تعمل وتعمل .. وسوف تجيء الفلوس من تلقاء نفسها ، كما يجيء الأولاد والأحفاد .. صدقنى !



هل صحيح أن الفراعنة إستخدموا راديوهات سونى وناشيونال ؟

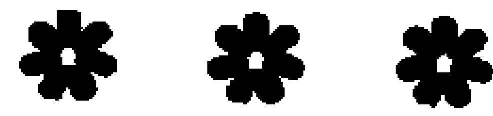
والسؤال غريب. ولكن الذى سألنى كان جاداً. وفى نفس الوقت يتهم المصريين بالتخريف والتحشيش !

أما تفسير هذا السؤال فهو أنه كان يزور القرية الفرعونية بالجيزة فى الأسبوع الماضى، ولاحظ أن عدداً من لابسات الجلاليب يغسلن الطشوت والحلل والبلاليص فى النيل. وقد علقت بعضهن الراديو فى رقبتها لتتابع الموسيقى والأغانى.. بينما زوارق الشمس الفرعونية تختفى فى أحراش البردى بين تماثيل الآلهة..

أما شرح هذا اللغز، فإنه إلى جوار القرية الفرعونية، وليس فى داخلها، يوجد منحدر تنزل إليه المواطنات يغسلن ويشربن ويلقين بالحيوانات الميتة ــ على حدود القرية. وهو منظر بشع يؤكد الفارق بين ماتعمله النساء اليوم، وما كن يعملنه فى مصر الفرعونية.. القذارة الآن والنظافة زمان.

وكنت قد تضايقت من هذا المنظر وكتبت فى هذا المكان أكثر من مرة. فذهبت لأرى فوجدت ما هو أعجب: بولدوزر يحطم سوراً والناس يتفرجون. والأمريكان فى فزع ولم يكن فى إستطاعة السيد يوسف صبرى أبوطالب محافظ القاهرة والرئيس الفخرى للصداقة الأمريكية المصرية، أن يفتح فمه بكلمة. وكل الذى إستطاعه هو أنه شرح لهم أن هذا إجراء بسيط وليس مظاهرة موجهة ضد الأمريكان..

ومعنى هذا المشهد العجيب أن د. حسن رجب صاحب القرية قد أستأجر هذه الأرض من صاحبها الذى وضع يده عليها مقابل ٣٨ ألف جنيه وأقام سوراً يمنع حاملات البلاليص والراديوهات من النزول إلى النيل. وجاء بولدوزر رئيس مجلس مدينة الجيزة يزيل السور العظيم ـ فأعتدى بذلك على القانون والذوق وهدم جزءاً لمتحف فريد من نوعه فى مصر والعالم: القرية الفرعونية التى خسر فيها صاحبها حتى الآن مليون جنيه، ويدفع مرتبات العاملين بها (٣٥٠ موظفاً) بصعوبة.. وهو سعيد وهم فخورون بعملهم التاريخى ـ بنفس الدرجة التى نخجل فيها جميعاً من مئات السياح الذين رأوا هذا الأقتحام الغاشم لأهم المعالم الأثرية السياحية الحديثة فى العالم!



لم يعترض أحد على ان تقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.. ولا أن الدين عند الله الإسلام.. ولا أن تضع هذه العبارة على رأسك وعلى صدرك ـــ فهي على العين والرأس.

ولا ان كنت مسيحياً أن تقول: المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المحبة.. والقرآن يقول: لكم دينكم ولي دين.

ولكن أن يحدث تصعيد وتسخين وتضخيم للمعنى المقصود ـــ الذي تعرفه أنت وأنا. فالذي نقصده: مسيرة صامتة أو مظاهرة استفزازية أو نوع من اخراج اللسان. فهذا هو الذي يجب أن نمنعه!

ولم يعترض أحد على العبارات التي كتبها السائقون على سياراتهم من حكم أخلاقية. أو أسماء الأغاني التي يحبونها وأولادهم ولا الأهلي ولا الزمالك.. لم يعترض أحد على هذه العبارات التي تدل على مزاج خاص أو على حالة نفسية.

فالسائق يرى ان السيارة هي مكتبة أو هي بيته. وهو يعلق على الجدران وعلى السقف ما يريد وكثيراً ما كنا نضحك على هذه العبارات ومعانيها وأخطائها الاملائية.

فما الذي حدث؟ حدث ما نعرفه جميعاً وما يضايقنا. وكان لا بد من موقف، حرصاً على أمن مصر وسلامة أبنائها وحرية عقيدتها، وابعاداً لذلك

الشيء البغيض الذى أسمه : التعصب .. فالتعصب يخلق التعصب. حتى أشيع ان الذى يضع هذه العبارات ويبيعها : رجل يهودى ! وهذا غير صحيح ! وإنما ضابط جيش متقاعد، وهو حسن النية.

وأيام حكم موسولينى ضاق الناس بطغيانه فكانوا يكتبون على الجدران كلمة «فردى» ــ وهو أسم الموسيقار الايطالى العظيم. ولكن المقصود غير ذلك : فكلمة فردى تشير حروفها إلى عبارة تقول : يعيش ملك ايطاليا ــ أى أنهم فى عصر موسولينى، يترحمون على أيام الملك فمسحوها من الجدران ولكن بقيت فى قلوب الناس !



من المؤكد أننا نستخدم الخبرة الأجنبية والأموال الأجنبية فى كل مشاريعنا الكبرى، أى أن هناك أناساً أكثر خبرة وأكثر مالاً. وأننا نحتاج إلى كل ذلك..

ولكن نحن لا نذكر بالامتنان واحداً من هؤلاء. وهو عيب أخلاقى عميق عندنا.. والأمثلة على ذلك صارخة.

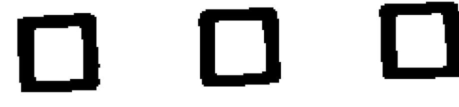
ولكن هذا العيب لا ينطبق على نظرتنا إلى الأجانب وإنما ينطبق علينا أيضاً.. فلا أمتنان لأحد.. لا من الأبن للأب، ولا من الصغير للكبير، ولا من جيل إلى جيل.. فيوم الأحتفال بوضع حجر أساس دار الأوبرا، تكلم كل الناس، إلا الخبراء اليابانيين الذين دفعوا ثمن هذا المشروع والذين صمموه والذين سوف ينفذونه أيضاً. وكان ذلك أدباً من اليابانيين. فهم أكثر الناس أدباً وهم فى نفس الوقت عضو فى النادى الضخم الفخم الذى يساعد العالم الثالث أقتصادياً دون أن يلقى تقديراً على ذلك!

ويوم أفتتاح مترو الأنفاق، ظهر على شاشة التليفزيون كل طويل عريض، وكل صاحب صوت عال غليظ.. إلا الخبراء الفرنسيين الذين صمموا وينفذون ويمولون هذا المشروع الضخم ولم يكن من اللائق أن يزاحموا المصريين فى الكلام فى ملء الشاشة..

وأصبح ذلك مألوفاً كلما رأينا مشروعاً ضخماً جديداً أن نبحث عن الوجوه الشقراء، من الخبراء، عن الفاعل الحقيقى.. ونلقى به فى الظل. أما أكثر الناس ضجيجاً فهم أقربهم إلى الكاميرا والميكروفون!

ويوم أفتتاح أفران الحديد والصلب فى حلوان، وهو مشروع من أوله لآخره سوفيتى لا أزال أتذكر وأندهش لما حدث. فقد ظهر كل الرسميين وكل الكوادر الأدارية والنقابية وتزاحموا وهتفوا بعظمة العامل المصرى والأنجاز المصرى والأرادة المصرية على تذويب الفوارق بين الثلج والحديد.. فهل الذين كانت لهم وجوه بيضاء هم السوفيت.

عرفنا فيما بعد أن ذوى الوجوه البيضاء كانوا مصريين.. وبذلك يخفون معالم جريمة: أن هناك خبراء أجانب أقاموا ولا يزالون يقيمون أروع مشروعاتنا التى تؤكد أنها مصرية مائة فى المائة!



ألتفت الرئيس حسنى مبارك فى خطابه إلى مجلسى الشعب والشورى إلى ظاهرة «الأغتراب» عند الشباب ــ أى شعور الشاب بانه غريب فى بلده، وان بلده غريب عنه. ولذلك فلا صلة تربطه بوطنه أو قضاياه. وما دام الشاب هكذا «مقطوعاً» أو «مقتطعاً»، فلا دور له. ولا يهمه أن يكون له دور ولا أن يؤدى ذلك إلى تطوير مصر.. وفى نفس الوقت إلى تأكيد ذاته.. وملايين الشبان..

وهذا الشعور بالغربة والغرابة والأغتراب يؤدى بالشباب إلى أن يفقد وسيلة الأتصال بينه وبين الناس.. وهذه الوسيلة هى «اللغة». فهو إذن لم يعد يثق فى اللغة، أى فيما يقال له فى البيت والمدرسة والميكروفون وعلى الشاشة وعلى الصحف..

ولهذا السبب كان لا يبالى بنفسه وغيره..

وغياب ثمانية ملايين مواطن، أكثرهم من الشباب، عن صناديق الأنتخاب نتيجة لشعوره بأن البلد ليس بلده، وأن ما يجرى فيه لا يهمه، ثم أنه هو شخصياً لا يهم أحداً.

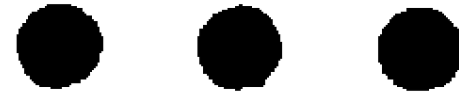
ولم يعد يثق فى أحد ــ منتهى السلبية والضياع..

وإذا نحن لم نتدارك الشبان، فسوف ينحرفون ويبتعدون عنا.

فما يزال عندنا وقت. وما نزال قادرين على أن نلتقى بهم. وأن نحاورهم وأن نفهم عنهم وان نتفاهم معهم.. فأكثر الشبان قد تعقدت نفوسهم، وارتبك سلوكهم، وظهر فيهم العداء لكل شىء.. لأننا نحن أيضاً

قد أبتعدنا عنهم، حتى أحسسنا أنهم غرباء عنا. فبدلاً من أن نعقد أواصر الصداقة ووشائج الأخوة، أرتمينا فى الغربة واللامبالاة.. ولذلك يجب أن نسارع إليهم، ونحاورهم وان نصلح الاطار العام للتفكير السياسى والسلوك الأجتماعى، والمناهج الدراسية..

شكراً للرئيس مبارك أن لفت كل المفكرين والمربين إلى ملايين الشبان وإلى طاقتهم الضائعة علينا. وقد أمكن فى بلاد أخرى كثيرة، أستغلالها واستثمارها، واسترجاعها وأطلاقها نوراً يضىء مستقبل مصر!



كنا نندهش عندما نقرأ أن أمريكا تلقى بالقمح فى المحيط. بملايين الأطنان. لأن المعروض منه كثير فى السوق. وهذا يؤدى إلى أنخفاض السعر، وحرصاً على أن يظل سعره مرتفعاً، فإنها «تعدم» الزائد عن حاجة الأسواق وكذلك كان يفعل لبنان عندما يتضاعف محصول التفاح. ونحن أيضاً «نعدم» النبات والحيوان. فنلقى اللبن فى الترع، لأنه زائد عن حاجة السوق؟! ونلقى بالفول المدمس، لأننا لا نجد العلب الصفيح، رغم توافر الصفيح.

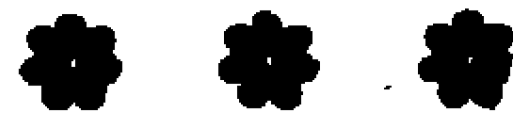
ثم أننا نترك أعواد القصب وعيدان الذرة والكرنب والقطن فى الحقل. والسبب هو نقص الأيدى العاملة. فلم يعد هناك فلاحون يعملون. أو أن هناك عمالاً أجورهم عالية.. وبعملية حسابية بسيطة نجد أن تكاليف جمع القطن والقصب والكرنب أكثر تكلفة من ثمن المحصول.. أى أن خسارة تركه فى الأرض أقل من خسارة جمعه وبيعه بعد ذلك ــ إن وجدوا له مشترياً!

ولقد رأيت فى التليفزيون فلاحاً يقول أنه ترك القصب فى الحقل، لأنه ليس قادراً على جمعه وحده ــ وحاول المذيع أن يجعله يأسف على ذلك. ولكنه لم يفعل!

وسوف يؤدى نقص الأيدى العاملة إلى أستخدام الميكنة التى تقوم بدور الانسان وبكفاءة أعظم. ولكن عيب الميكنة أنها تناسب المساحات الكبيرة من الأرض. ولذلك فالفلاح الصغير لايقدر عليها.. وإنما فى

استطاعة الجمعيات الزراعية والتعاونية أن تشترى الآلات الحديثة وتؤجرها.. كما أن هناك أتجاهاً عالمياً إلى تصغير حجم الآلات الزراعية وخفض ثمنها، لتكون فى تناول أضعف الناس.. تماماً كما أن هناك أتجاهاً عالمياً لتوفير الغسالة الكهربائية ـ غسالة الملابس والأطباق، وذلك فى غياب الخادمات.. وفى غياب الخادمة والعمال أيضاً ظهرت الأطعمة الجاهزة فى السوبر ماركت. فالمرأة العاملة تشتريها وتضعها فى الفرن وفى دقائق يكون كل شيء جاهزاً!

وليس الحل سهلاً هكذا. فمشاكلنا: عملية صناعية أجتماعية وأخلاقية أيضاً. ولذلك فنحن نحتاج إلى وقت طويل لمواجهة النقص والخلل واللامبالاة. فلن تتوقف الحياة والتطور لغياب أحد فى الحقل أو فى البيت..



أننى أختلف معك فى الرأى، ولكننى مستعد أن أدافع عن حريتك فى ابداء رأيك، والأختلاف معى ــ هذه العبارة نسبت إلى عدد من الفلاسفة، وإلى كثير من الساسة فى كل العصور..

ونحن الآن فى عصر نستطيع أن نختلف مع رئيس الجمهورية والحزب الذى يتزعمه وأن تجاهر برأيك وأن يكون لك جناح فى حزب، أو يكون لك حزب. لاخوف. فكلنا وطنيون. وكما أن للجيش أسلحة، فللرأى أسلحة. وفى أستطاعتك أن تدافع عن الحق والعدل والحرية بأسلحة كثيرة..

ولكن أسوأ وأحط أنواع الساسة هؤلاء الأنتهازيون الأنتفاعيون المتلونون أصحاب الوجهين والثلاثة.. الذين يتربصون فى داخل الحزب ليتآمروا عليه، ويخربوه من أعماقه، ويلتفوا ثعابين وأفاعى حول قيادته ليعزلوه عن الحزب وعن الشعب. فهم الذين ينطبق عليهم الحديث الشريف: «يأكلون خيرى ويعبدون غيرى».. أنهم أدعياء الأمانة والشرف والحكمة ــ وهم كاذبون يحتشدون للقفز على القيادة. فلا عندهم شجاعة الأختلاف والأنشقاق، ولا عندهم شرف أن يكون لهم حزب ــ فلا وجه ولا واجهة!

وكان أستاذنا سقراط إذا حاور تلامذته ووجد واحداً لا يسأله قال له: تكلم حتى أراك!

وهم بأسم الحرية والأمان لهم يتكلمون فى كل مناسبة فترى الوجه

المستعار، والرأى المغتصب، والضمير الغائب.. ولكنهم مخلصون فى العمل ضد الحزب الذى ستر عوراتهم السياسية والأقتصادية والشخصية.

وكلما أقتربت الأنتخابات أنكشفت سوءاتهم وأنيابهم. وسوف يعرف الحزب الوطنى اليوم وغداً، وغداً أكثر، ان المعارضة مهما كانت شرسة فهى أنبل وأشرف: فالعداوة معلنة والخلاف صريح، أما هذا «الطابور» الخفى من ادعياء الحكمة، وكهنة الأقتصاد، وترزية القانون «الساقطون المتسقطون» ــ الساقطون بلا أمتحان، المتسقطون لكل هفوات الحزب، فسوف يعلو صوتهم على الحزب، ويتعالون على قيادته، فتكون الأنتخابات هى الحفلة التنكرية التاريخية التى يظهرون فيها بألف وجه.. إلا الوجه الأبيض، وجه الأمتنان لمن أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.



الأديب والعالم الكبير إبراهيم زكى خورشيد سقط فى الطريق. مات. وهو أحد الذين ترجموا «دائرة المعارف الإسلامية» وقد شارك أيضاً فى التمهيد لدائرة المعارف العربية التى أمر الرئيس حسنى مبارك بالاعداد والأستعداد لأصدارها.

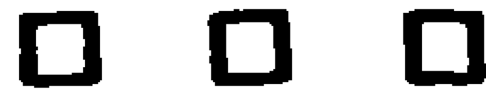
وكان من أحلام إبراهيم خورشيد أن يصبح الكتاب مثل الرغيف، سهلاً رخيصاً وضرورياً وقد عمل مستشاراً لى فى دار المعارف فأصدر سلسلة «كتابك» ــ أصغر الكتب وأرخصها. وكان الخلاف بينه وبين خبراء الطباعة والتسويق على سعر الكتاب. وكان مثالياً يرى أنه لا داعى لأن تكسب دور النشر فالكتب يجب أن تكون مجاناً أو مثل ثمن الرغيف أو نوزعها مع الرغيف.. أو يجدها القارىء فى الأتوبيس أو المترو ــ تماماً مثل الأتحاد السوفيتى الذى تتكدس فى وسائل المواصلات أشكال وألوان من الكتب لكى تكون فى متناول كل الناس وبأرخص الأسعار..

وعندما كان إبراهيم خورشيد رئيساً لمجلس ادارة التأليف والترجمة، أنعش الأدب المعاصر بكثير من المسرحيات المترجمة..

ومن أغرب ما حدث بيننا أن مؤسسة فرانكلين كلفتنى من عشرين عاماً بترجمة كتاب للمؤرخ «فان لوم» وبدأت فى الترجمة، وفوجئت بان إبراهيم خورشيد قد فرغ من هذا الكتاب. ومرة ثانية عندما أعلنت عن أستعدادى لترجمة «الروائيون العشرة» لسومرست موم فوجئت بان خورشيد قد ترجم الفصل الأول وشرع فى الثانى. فتوقفت.. وكان إبراهيم خورشيد

عالماً بالموسيقى والغناء أيضاً. وهو شرقى المزاج والذوق. وكان هو فى جلساته الخاصة يغنى ويعزف على العود. وكان لايتسامح مع أى فنان أو مطرب يفسد الفن العربى بأى نوع من الفرنجة ــ بما فى ذلك الفنان الكبير محمد عبد الوهاب ــ

وكان يجاهر بهذا الرأى، ويكشف عن تعصبه للموسيقى الشرقية، ورفضه المستمر للميوعة العربية وآخر ما كتبه المرحوم إبراهيم زكى خورشيد مشروع متكامل لترجمة وتأليف دائرة معارف عربية فى مجلد واحد ــ كخطوة أولى لدائرة المعارف العربية الكبرى فى ثلاثين مجلداً. يرحمه الله.



لماذا يظهر المؤمنون فى المسلسلات الدينية بهذه الصورة القبيحة ؟ لا أقصد الملابس المزركشة التى لا علاقة لها بالاسلام أو الجاهلية ولا بالرسول عليه الصلاة والسلام. إنما اقصد: ملامح الوجه والحركات.

«على هامش السيرة» مثلا.. وإذا كانت احدى الحلقات قد فاتتك فامامك حلقة اليوم. فالمسلمون جميعا لا يعرفون إلا الحزن والغم والكرب العظيم والا التشنج.

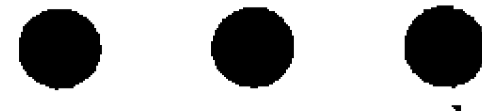
ففى هذه المسلسلة نجد أن أظرف الممثلين جميعا واخفهم ظلا هو صلاح منصور- مع أنه يقوم بدور «أبو لهب» وزوجته «سناء مظهر» شقراء حلوة أنيقة. مع أن القرآن الكريم قال فيهما: تبت يدا أبى لهب وتب. سيصلى نارا ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب. فى جيدها حبل من مسد.

حتى الشيطان الذى ظهر فى هذه المسلسلة كان رقيقا مغريا بالشر؟!.

بل أن المجاهدين والمهاجرين والأنصار لم نرهم فى مسجد واحد ولا يتدارسون تعليم الاسلام. ولكن رأينا الحانات والراقصات والكأس والطاس والفرفشة مع الكفار والمستخفين بالدين! ولا شىء يعيب الدين. ولكن العيب فى فهم الدين والايمان. هل الدين يتنافى مع المرح مع الضحك مع خفة الدم؟ ألا ترى أن هذه صورة تشويه للأيمان بالدين الجديد؟ هل المسلم يجب أن يكون درويشا مذهولا مأخوذا عبيطاً؟ إن الذى لا يعرف اللغة العربية ويشاهد هؤلاء الممثلين يخيل إليه أنها مستشفى امراض عصبية على أيام ألف ليلة وليلة..

بل أن مسلسلة أخرى «أحلام الفتى الطائر» تجرى أحداثها فى مستشفى الأمراض العقلية مضحكة ومبكية.. وفى هذا المستشفى تلتقى الحكمة والعبرة والدمعة والنكتة!

وهناك مسلسلة أخرى فى القناة الثانية: انها تجعلك تتساءل ما هذا الذى يوجع الناس فيتألمون؟ لا يمكن أن يكون الايمان موجعا ولا الدين ثقيلا هكذا.. وإنما يوجعنا بحسن نية وسوء فهم، هو الاخراج والسيناريو والاعداد.. لأنه من الممكن أن تكون مسلما وأن تكون مقبولا «مهضوما».. وبذلك تكون أكثر اقناعا بما تدعو إليه ــ والله أعلم!



لا أريد أن أضيف فزورة جديدة لفوازير رمضان.. ولكن الشيخ خاطر مفتى الديار هو الذى أراد ذلك. سئل فى «حديث الصيام» منذ أيام: ما قولك فى رجل يعمل ملاحا فى إحدى الطائرات يرى الشمس أمامه فى السماء دائما فكيف يفطر؟!

قال فضيلته: الإسلام فى ذلك صريح.. وهو أن الصيام من شروق الشمس إلى غروبها، أى أن الذى يرى الشمس لا يصح أن يفطر؟

انتهت الفتوى. والله أعلم..

ولست من رجال الدين، ولا من أهل الفتوى، لكن استأذن فضيلته فى أن اختلف معه. والمسألة كلها بالعقل. والله عرفناه بالعقل.

وتفسير الفزورة: أنه من الممكن أن تخرج طائرة من القاهرة وتتجه إلى الغرب أو إلى الشرق فيرى ركاب الطائرة الشمس عشرين ساعة متوالية. فهل يظل الطيار صائما، مع أن الدين قد أعفاه من الصيام لأنه على سفر؟ ولكن إذا أصر هو على الصيام فهل يظل صائما حتى الموت؟ وجواب ذلك عندى: أن يفطر فى نفس الوقت الذى يفطر فيه أهل القاهرة. والله أعلم! وسئل المفتى عن سكان القطب الشمالى الذين يرون الشمس شهورا ولا يرونها شهورا. فكيف يصومون وكيف يفطرون!

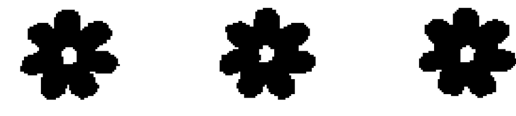
وعلى الرغم من أنه لا يوجد مسلم واحد لا فى القطب الشمالى ولا فى الجنوبى. فقد أفتى فضيلته بأن يصوموا ويفطروا تبعا لتوقيت أقرب مدينة — ولتكن جدة مثلا!

هكذا قال! وما أبعد جدة ومكة عن القطبين الشمالى والجنوبى.

ويمكن اضافة فوازير أخرى مثل: واحد سمع عند «الرست هاوس» فى الطريق الصحراوى استمع إلى آذان المغرب فى القاهرة فهل يفطر. مع ملاحظة أنه فى منتصف المسافة بين مصر والاسكندرية وفرق التوقيت بين المدينتين سبع دقائق؟

فزورة أخيرة: لو عاش مسلم فى الشمس نفسها، حيث لا شروق ولا غروب فكيف يصوم وكيف يفطر؟ والجواب: أنه لا حياة فى الشمس!

بالعقل عرفنا الدين. أى عرفنا الله!



هذه هى المرة الثالثة التى اتفرج فيها على محمد على كلاى بطل أبطال العالم.. المرة الأولى فى القاهرة عندما زارها منذ أكثر من عشر سنوات فقد طلب منى وزير الاعلام أن أجرى حديثا تليفزيونيا معه، وجدته نائما عاريا فى سريره فى فندق هيلتون، وكان مرهقا صائما، عاد من ركوب الخيل حول الأهرام وسبقته كاميرات التليفزيون إلى غرفته، وقلت له أيامها أننى لا أفهم فى الرياضة، ولكننى مكلف بمهمة سياسية دينية، فقد جمع جمال عبد الناصر كل ملوك العرب ورؤسائهم ليشاهدوك، ولابد أن تنهض وترتدى ملابسك وتظهر أمام الكاميرا..

وجهت إليه سؤالا ولم أكد افرغ منه حتى رأيت الاجابة فى عينية قبل أن أسمع الرد منه. فقد كان السؤال اكبر دليل على جهلى بالرياضة، لأننى لم أفرق بين الملاكمة والمصارعة. فقد طلبت إليه أن يعمل أى شيء على الأقل.. أن يعرض عضلاته على الناس، وغضب محمد على كلاى واعتذرت له.

أما المرة الثانية فقد وقفت فى أحد شوارع باريس تحت المطر لأتفرج عليه من سنوات، وكان الذى يهرنى حقا ليس بطل أبطال العالم ولكن روعة التليفزيون الملون.

وهذه المرة الأخيرة، وهو يلعب ضد ليون سبنكس، ورأيت محمد على بوجهه الذى لايعبر عن شيء، وانما يعبر عن مزيد من التعالى والقرف والغضب والانتقام، أيضا رأيت منافسه الذى خطف منه لقب البطولة:

شاب صغير ناشف، وظهر محمد علي كلاى طويلا عريضا، وظهر سبنكس أقرب شبها بعود من الحديد.. الأفعى يلتوى في بطنه، وظهر وراء محمد على كلاى المذيع الأمريكى يلطم خديه، ويوجع قلوبنا بالبكاء والعويل على أمجاد محمد على.. انتهت المباراة وأنا في غاية الحزن على بطل أبطال الذى أمتع العالم وهزه بعنف لسنوات عديدة وصفق الناس حولى لظهور بطل جديد، واختفاء محمد على كلاى وأعلنت النتيجة انتصار محمد على كلاى. وأسعدنى ذلك وان كنت لا أفهم سبب نجاحه.. أما السبب فهو أننى مرة أخرى لم أفرق بين اللكامية والضربة الفنية، وفى النهاية انتصر الفن. انتصرت استاذية محمد على كلاى!



من المستحيل أن تقاوم كرة القدم، لأنه مستحيل أن تقضى على لذة شعبية، ومزاج قومى. ففى كرة القدم كل ما يريد الانسان: أن يكون له رأى وأن يقف إلى جوار الذين يؤيدونه فى الرأى وأن يتعصب وأن ينافس الآخرين وأن ينتصر عليهم. وأن يهرب من التعب والأرهاق فى العمل أو فى الفكر، إلى حمام بخار أسمه: ملاعب كرة.

والانسان يلعب بالغريزة. وكذلك الحيوانات إذا شبعت لعبت ــ والحيوانات لم تطور سلوكها، ولكن الانسان أستطاع أن يطور أدوات الأكل والعمل والشرب واللعب والحياة والقتل أيضاً. لأن الانسان حيوان مبدع لأدوات حياته، وقادر على تطويرها. والحضارة الانسانية هى تخيل لحياة أفضل.

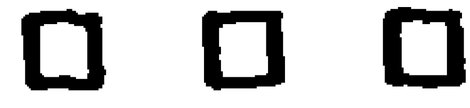
وفى السنوات الأخيرة ظهرت نظريات فى تفسير «جنون» كرة القدم الذى يشغل الشباب عن اللذات الرفيعة كالأدب والموسيقى والفن. ورأى علماء آخرون أنه لولا كرة القدم، لغرقت الكرة الأرضية فى الحروب والصراعات الجنسية واللونية والعنصرية والدينية.

وعلماء آخرون تسليماً بهذا الواقع الانسانى العالمى، يطلبون من الآباء أن يختاروا للأبن نوع الكرة التى «يحب» أن يتسلى بها.. أى بما يتفق مع صحته أو تكوينه النفسى أو العصبى.

أما علماء النفس اليابانيون فيرون أن تربيتهم القديمة قد فرضت عليهم أن يقفزوا من الطفولة إلى الرجولة مباشرة ــ دون أن يمروا بمرحلة الطفل

الكبير أو الشاب الصغير وكانت النتيجة أنهم يصدرون إلى أطفال العالم أروع وأعظم اللعب، والتى لايستخدمونها!

أما الآن فقد أستعاد الشعب اليابانى بعد الحرب براعته الصناعية، وطفولته المفقودة فأخذ يلعب ويرقص ويغنى ويعمل أفضل!



في كل مرة أستمع إلى الملك حسين وهو يعرض القضية الفلسطينية أشعر بأنه قد تدرب خلال حكمه الطويل: أن يمشي على الشوك وعلى الحبل وعلى المسامير، فهو حريص تماماً.. أو كأن أصواتاً كثيرة في أذنيه، وهو يحاول أن يختار من بينها صوتاً واحداً.. أو أن صوراً كثيرة قد أمتلأت بها عيناه.. ويحاول أن يتبين واحدة ويصف لنا الصورة والصوت، دون أن يلفت نظرنا إلى الشوك والمسامير أيضاً!

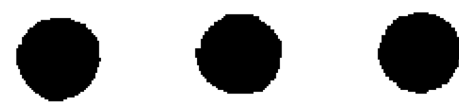
والحق معه، فليس في السياسة خط مستقيم. ولا خط واحد. وإنما أطراف متضاربة وخطوط متداخلة وأهداف متعارضة. والمطلوب هو أن تجد حلاً واحداً من طريق واحد يرضى جميع الأطراف. كيف؟ هذه هي المشكلة العربية، كانت وسوف تبقى. فكل خطوة يخطوها أى زعيم سياسي– الرئيس حسني مبارك أو الملك حسين– فهي متهمة من معظم الأطراف وما هي التهمة؟ أنها العمالة والخيانة واضاعة الوقت وتضليل الأمة العربية والخروج بها عن الخط والهدف!!

ولذلك فمن المعروف مقدماً، لكل من يحاول، أنه لن يسلم من التجريح. فإذا أستمر، رغم ذلك، فمعناه: أنه موافق على هذه المحاولة، ويرى ان الهتاف ضده شرط من شروط الأستمرار في أن يعمل ما هو أخلاقي وما هو قومي..

مثلاً: إذا كنا نحن العرب لم نتفق على حاصل جمع ٢ + ٢ فكيف نطلب من الملك حسين أو من الرئيس مبارك أن يحل لنا أية عملية حسابية.. أنه لا يستطيع حتى لو أراد، لأن النتيجة لن ترضى أحداً..

وهى لاترضى أحداً لأننا لم نتفق معاً على مبادىء علم الحساب.. رغم وضوح هذه المبادىء. فكيف نتفق على مبادىء علم السياسة، ان كانت السياسة علماً. ثم كيف يكون إذا كان لدينا شعور مسبق بأننا لن نتفق؟

لا أعرف لون الدنيا فى عينى الملك حسين. ولكن أعرف عينى الملك: أنهما مبللتان.. هل هذا عرق السهر، أو هى دموع الحزن على حالنا ــ الله أعلم!



كان المفهوم ان الأبن الوحيد مدلل. فأبواه يخافان عليه من السهر إذا ذاكر، ومن الرياضة إذا لعب، يتناوبه الأب والأم فبدلاً من أن يمشى على قدميه، يعتمد على ساقى أمه وصدر أبيه.. وفوجئنا بان ثلاثة من رواد الفضاء الأمريكان كل منهم ابن وحيد لأبويه.. بل أن واحداً ولد يتيم الأب والأم. ماتت أمه وهو فى اليوم التاسع ومات أبوه قبل ذلك بتسعة أيام. وتكفلت به جدته وخادمتها..

وفوجئنا مرة أخرى بأن أميراً سوف يكون رائداً للفضاء وليس من عادة الأمراء أن يقوموا بمثل هذه الأعمال الشاقة ــ أنه الطيار المهندس الأمير السعودى فهد ابن الأمير سلمان أمير الرياض. فهو سوف يصعد إلى الفضاء الخارجى لا لأنه أمير، ولكن لأنه طيار مهندس ولأنه شاب شجاع.. ولأنه مفخرة لبلاده ولكل العرب..

وارتفعت فى الفضاء فتيات أيضاً. ولم يكن دورهن تقديم القهوة والشاى والسندوتشات لرواد الفضاء من الرجال. بل كانت عليهن مهام شاقة.. فليست ريادة الفضاء نزهة خلوية حول الأرض وبعدها تعود إلى بيتها ومرآتها.. ولكن الغرض من هذه الرحلة معرفة أشياء كثيرة عن تكوين المرأة وعن الحمل والولادة وعن التغيرات التى تطرأ عليها وعلى وظائفها حول الأرض..

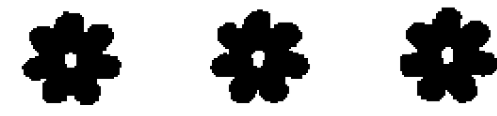
وعندما أوصلوا احدى الأمهات بأبنها فى الفضاء الخارجى سألته بالتليفون على مدى ربع مليون ميل من الأرض: هل أحسست بأى ألم فى ساقك اليسرى؟ فقال لها: لا ياماما..

فقالت الأم: أصبح على خير يا بنى!

ونامت الأم فى سريرها بينما أبنها نزل على سطح القمر. وكان أول انسان يفعل ذلك.. وقال عبارته الشهيرة: هذه خطوة صغيرة لأنسان، خطوة كبيرة للانسانية!

أما الذى أرادت الأم أن تعرفه من أبنها الوحيد فهو ذلك الألم الذى يعاوده إذا شعر بالخوف. فقد كان من عادة الأم أن تترك أبنها الوحيد ينام فى غرفة مظلمة. فإذا خاف شعر بألم فى ساقه..

وهكذا أطمأنت الأم على ان أبنها الوحيد ليس خائفاً!



أعجبنى من ست سنوات «حزب الخضر» فى ألمانيا.. وتمنيت أن يكون لنا مثل هذا الحزب فى مصر بشرط أن تكون له فلسفة أبسط كثيراً.. فينادى بحماية الحياة.. الأرض الخضراء بما عليها من أشجار وحيوان.. وانسان أيضاً. فيدعو هذا الحزب إلى ان تزرع الأشجار فى كل مكان. وإلى ان نحرم نهائياً اقامة البيوت على الأرض الزراعية.. وينادى باقامة الحدائق فوق الأحياء القديمة المنهارة..

وأن يكون من مبادىء هذا الحزب نظافة الشوارع وردم البرك واصلاح المجارى حتى لا تكون رائحة كريهة ولا حشرات ولا براغيث ولا بعوض ولا فئران. ومن مبادىء الحزب ابعاد الورش من وسط المدينة ومنع تربية الدواجن وغيرها فوق أسطح البيوت.

أى لا تلوث ولا موت للأشجار وطيور الحقل والفراشات. ومنع الضوضاء أيضاً..

وأنا أعرف عدداً من المفكرين الألمان فى هذا الحزب. وأتفق معهم فى المذهب الفلسفى الذى هو ضد الحرب وضد الأحلاف وضد الأسلحة النووية والذى يؤكد قيمة الوجود الانسانى وحرية الانسان فى أن يختار شكل واسلوب ومعنى حياته ـ والمعدة الألمانية قادرة على هضم مثل هذه المذاهب الفلسفية إلى جانب المدلول السياسى لها. غير أنى تمنيت ما هو أيسر وأسهل من ذلك لمصر ـ ولا أزال..

ولكن شيئاً ما أصاب الحزب الألمانى الذى هو «تجمع» لعدد من المثقفين ليست لهم نظرية واحدة، لها قدرتها الذاتية على أن تكون واقعاً..

كما أنه ليست هناك شخصية قوية تجذب كل الناس من كل لون، ثم تتجه إلى مصارعة الأحزاب الأخرى من أجل أكبر عدد من المواطنين..

لقد أصاب «حزب الخضر» كثير من التفكك والتشرذم وتعدد النظريات والأقطاب والأستقطاب والأنفلات فى نفس الوقت ــ وهذا هو عيب الحرية المطلقة.. المطلقة من كل قيد وأى التزام بالنظرية والحزب.. وليس بعيداً أن يتبدد هذا اللحن الجميل الذى كان يدعو إلى الحب والحياة والخير والسلام ــ مع الأسف!



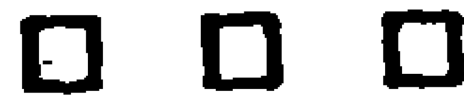
ماكنت أحب لعالم جليل مثل الشيخ محمد الغزالى أن يتدحرج إلى التعليق على شىء لم اكتبه.. فقد كتبت فى هذا المكان اقارن بين تجربتين لأثنين من الأطباء أحدهما الطبيب المشهور الذى لقح بويضة أدمية فى انبوبة ــ وقامت هذه الانبوبة بدور «الرحم الصناعى».. وبين طبيب أخر قام بتلقيح بويضة ذبابة بنفس الطريقة. وقلت أن تلقيح بويضة الذبابة أصعب جدا من تلقيح بويضة الانسان. وقلت أن الله سبحانه وتعالى عندما أراد أن يضرب مثلا لعظمته قال ان المستحيل أن يخلق انسان ذبابه.

فليس فى الذى قلته مايدل من قريب أو بعيد على أن طبيبا خلق ذبابة. ولا أنه استرد شيئا اخذه الذباب منه ــ اعوذ بالله. وانما فقط أشرت إلى أن تجربة الطبيب الثانى أصعب جدا من تجربة الطبيب الأول. ولكن لأن التجربة الأولى تتعلق بالانسان. فقد لقيت اهتماما انسانيا عالميا.. ولو كان للذباب صحف أو علماء فى الطب أو فى الدين، للقيت هذه التجربة اهتماما عظيما عندها!

ولست فى حاجة إلى أن احيل الاستاذ الغزالى إلى بعض كتبى فى الفلسفة أو فى الأديان المقارنة ليعرف اجتهاداتى فى الدين وفى الفلسفة. وأنا لا أحاول أن اقنعه بان يفعل ذلك. ولكن فقط أن يفعل مايطالب به تلامذته من الاحتياط والحرص فى ابداء الرأى فيما يكتبه الآخرون.

وخاصة إذا كان حول شيء نقل إليهم أو سمعوه أو لم يقرأوه. فيكون تعليقهم على معلومات من الدرجة الثانية.. أو على أشياء لا وجود لها. وبذلك يستوى الذين لا يعلمون والذين يعلمون العابثون الذين يعلمون حقيقة ما كتبت ثم يلعبون بالاخرين..

واستغفر الله لى ولكم!



في اسرائيل يقولون لك: ان كل شيء في بلادهم هدية من يهود آخرين في أماكن بعيدة من العالم. ولو كان في استطاعة اليهود خارج اسرائيل أن يبعثوا لهم بأرض وجبال ووديان وانهار لفعلوا.. ومع ذلك فقد بعثوا إليهم بالسلاح والمال الذى يجعلهم قادرين على حماية الأرض التى أصبحت لهم، والأرض المسروقة من غيرهم..

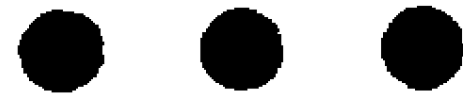
وقد رأيت في مستشفى هاداسا اسماء المئات من كل أركان العالم مطبوعة ومنقوشة على الأبواب والنوافذ والسراير والمقاعد والمصاعد ــ فكل هذه الأشياء هدايا وهبات.. ووجود اسمائهم هو امتنان لهم..

وهناك مصريون كثيرون في الخارج يريدون أن يبعثوا للمستشفيات والجامعات هدايا من نوعيات مختلفة: أجهزة وآلات وكتب. ولكن هناك عقبات تقف في وجه هذه الهدايا وتسد نفس أى انسان يفكر في ذلك عن طيب خاطر!

قابلت طبيبا مصريا ناجحا في استراليا، قال أنه أرسل جهازا للأشعة هدية منه للكلية التى تخرج فيها. فماذا حدث لهذا الجهاز؟ ظل ملقى على رصيف الاسكندرية.. وتناوبت الشمس والرطوبة على الصندوق حتى أذابت الورق والخشب.. ثم تسللت أصابع خفية إلى داخل الصندوق وخرجت ببعض قطع الغيار.. ومازالت الأصابع تدخل وتخرج حتى أصبح الصندوق تابوتا، وأصبح الجهاز جثة!

ولما وصل الطبيب المصرى إلى جمرك الأسكندرية قالوا له: يجب أن تدفع ألفى جنيه.. إذا أردت أن تخرج بهذا الصندوق ـ بفرض أن به شيئا!

والطبيب المصرى لا يسأل عن تفسير للأصابع التى دخلت وخرجت.. وانما يرى أن دخولها وخروجها عقوبة لكلية الطب التى كان يجب أن تسارع باخراج الجهاز من الجمرك. ولكن موقف الجمارك من هذه الهدايا العلمية لا يشجع أحداً على أن يبعث إلى بلده بأية هدية من أى نوع ـ رغم وجود صورة حية صارخة لتدفق الهدايا المادية والعلمية والفنية والأدبية من يهود العالم على يهود إسرائيل؟!..



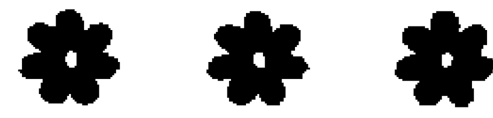
شيء واحد لا يبرح تفكيرك وانت تتفرج على الكنائس التى أصبحت مساجد، والمساجد التى أصبحت متاحف، مقدسة كالمساجد فى مدينة استانبول: وهو أن مخلفات الأسرة المالكة فى مصر قد سرقت ونهبت وتوارت فى بيوت كثيرة فى مصر، بل أن هذه المسروقات قد أدت إلى أن الكثير من اللصوص اخترعوا لأنفسهم اجدادا واصولا، تبرر وجود هذه التحف فى البيوت. أنا أعرف عشرين بيتا على الأقل!

فلا قصر عابدين متحف ولا المنتزه ولا الصفا ولا القبة بينما قصور الملوك متاحف فى روسيا السوفيتية وفى فرنسا وايطاليا والنمسا ولو كنا جعلناها متاحف يزورها المصريون والاجانب لحصلنا على تكاليفها منذ وقت طويل، ولو أننا جمعنا مجوهرات التاج المصرى كما فعلت تركيا وايران لضاعفنا الجذب السياحى تماما كما أن الاهرامات قد حصلنا على ثمنها ملايين المرات!

وفى استانبول توجد كل القصور كما كانت واجمل ولكن عيب تركيا انها لم تفلح فى تسويق هذا الجمال، فالاتراك ليسوا عالميين، وإنما هى دولة اقليمية كبيرة وقوية، وفى استطاعة تركيا أن تكون الدولة السياحية السادسة فى البحر الأبيض بعد اسبانيا وايطاليا وفرنسا واليونان ومصر، فلديها أروع المساجد والكنائس التى أصبحت مساجد والمساجد التى أصبحت متاحف. وفيها أعظم قصور السلاطين ومخلفاتهم وهى الدولة التى تشهر اسلامها فى وجه اليونان المتربصة بها فى كل مكان، والاتراك

مسلمون طيبون، يريدون أن يكونوا اعمق اسلاما، وفى تركيا كل المحاولات الجادة لأن تكون دولة معتمدة على نفسها، مهما كلفها ذلك من عناء، فكل ماتقع عليه عينك فى تركيا قد «صنع فى تركيا»، وهو أقل جودة من نظيره فى المانيا واليابان وفرنسا، وهم فى ذلك مثل كل الدول التى تريد أن تبنى نفسها بيديها.

وكما أنه فى استطاعتنا أن نتبادل «سلعة» السياحة، ففى الامكان تبادل سلعات اخرى، وانعاش مشاعر ودية قديمة، وهذا هو المكسب الحقيقى لزيارة الرئيس حسنى مبارك..



في يوم شم النسيم المصريون يفسدون النسيم في مثل هذا اليوم بثلاثة أشياء: الزحام والزعيق والفسيخ.. أما الأجانب والاشقاء العرب فيؤكدون أنهم قد اعتادوا على كل شيء في مصر إلا ثلاثة: الجوافة والمانجو والفسيخ ـ فإن لها رائحة لايطيقها إلا المصريون أو الاجانب المجاملون جدا.

وللسيدة أمينة السعيد حادثة مشهورة. فعندما انعقد مؤتمر الأدباء في بلودان بسوريا حسدنا أمينة السعيد على ذوقها وحبها لمصر فقد شحنت قفصا من المانجو لتهديه إلى صديقاتها من الأدباء.. ورجوناها أن تكون الهدية باسم وفد مصر. لعلنا نقاسمها هذه المجاملة اللطيفة. وفي يوم نزلت مع المرحوم يوسف السباعي لنشم نسيم الفجر فوق الجبل. فوجدنا كل حبات المانجو المصرية الفخمة الضخمة قد ألقيت بمنتهى العناية إلى جوار الحائط وفي صناديق الزبالة ـ أنهم لا يطيقون رائحة المانجو الخارقة الخانقة الحارقة إلخ..

وحاولت أن أقنع أحد الأطباء الألمان في شركة هوكست للدواء أنه لا علاقة مطلقا بين الفسيخ وبين القوة المعوية للمصريين. فليس بيننا واحد لا يشكو من مصرانه الغليظ ولكن الطبيب الألماني قرر أن يفحص بعض المومياوات الفرعونية. لأنه لاحظ أن الفراعنه كانوا يأكلون نوعين من الطعام هما مصدر الصحة والعافية والرشاقة عندهم: عسل النحل ممزوجا بالخل. ثم الفسيخ أو الملوحة.

وليس من السهل اقناع عالم الماني بأي شيء دون أن يكون في يدك بحث وأرقام وصور. ولا أعرف أين ذهب الرجل ولا أين ذهب في بحثه

هذا . ولكنى صاحب تجربة. وأؤكد لهذا العالم الألمانى أن الذى يأكله المصريون فى هذا اليوم يهد الحيل ويهلك المصارين.

وبذلك يكون هذا اليوم هو اليوم الذى لايشم فيه المصريون نسيا .. إنما كل واحد يستلقى على قفاه جثة خامدة كأنه عود بصل قطعوه أو فسيخة أخرجوها من الصفيحة ورموها تحتمى فى رائحتها الفظيعة فلاتقربها الحشرات!

وهناك اقتراح من الصديق عبد الحميد نوار أحد فلاحى البحيرة أنه يرجو الناس أن يطبلوا ويزمروا بدلا من النوم والكسل. وأن يستمر الطبل والزمر ثلث ساعة. لماذا؟ لأن الطبل سوف يطفش العصافير التى تأكل ألوف الأرادب من القمح فإذا طارت العصافير أكثر من ربع ساعة ماتت من الارهاق.. فاقتلوا العصافير لكى تعيشوا! الصين فعلت ذلك فانتصر على الجوع ٨٠٠ مليون نسمة!

هذا بفرض أن يقدر أحد على هذه الحركة النافعة لمصر فى مثل هذا اليوم من كل عام.



لا أنسى ذلك اليوم. فقد قيل لنا أن جلالة الملك سعود يريد أن يراكم جميعا. وذهبنا إلى مصر الجديدة وفي الطريق عرفت السبب. فقد أخبرني د. أبو النجا أننا أصدقاء مرضى الروماتزم ــ أى اننا نحن المصابين بالروماتزم أعضاء في جمعية طويلة عريضة تتشرف بعضوية الملك سعود. ولم أكن رأيت الملك من قبل. ولابد أن هذه الجمعية تلقى منه عناية خاصة لأنه هو أيضا مصاب. ورحت أفكر: ما الذى يمكن أن نعمله للمصابين أو المرضى. وما الذى يستطيع أن يفعله الملك! من المؤكد أنه سيعطى للجمعية بعض المال.. وأنا سوف اكتب عن الأساليب الحديثة لعلاج المصابين. وهذا كل ما استطيع.. وسألت نفسى: هل صحيح أن لدى أية معلومات في هذا الموضوع؟ هل أنا قادر على عمل شيء. مثلا: أنا أشكو من أوجاع في أصابع يدى.. وإذا لمست أى جسم معدنى فأننى أعطس فورا. وإذا سمعت عن انسان مزكوم اصابنى الزكام فورا. وليست هذه نكتة. انها حقيقة يعرفها الكثيرون من الاصدقاء والزملاء. ويقال: هذه حساسية. ويقال أيضا: أننى انسان موهوم.

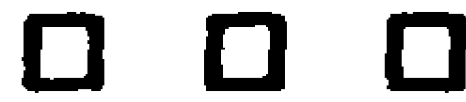
ولا يهمنى كثيرا ما يقال ولا من يقول. ولكن هذه هى حالتى. ولابد من البحث مع الشرطة أو مع الأطباء عن هذا اللص الذى يتسلل إلى أنفى وإلى حلقى وإلى عظامى فيوجعها جميعا ولأسباب تافهة. ولم يساعدنى تفكيرى في الوصول إلى شيء وكنا قد وصلنا إلى القصر الذى ينزل به الملك سعود. وكان أكثرنا من الأطباء.

ورأيت الملك. وتحدث الحاضرون أكثر مما تحدث هو.. وجاء العشاء.. وتحدث الضيوف أكثر من الملك. وانتهى العشاء وخرجت. وانفتحت شنط السيارات من الخلف وامتلأت بصناديق بيضاء كبيرة. ولا أعرف ما الذى كانت تحتويه الصناديق حتى اليوم. وهكذا ساهمنا فى علاج مرضى الروماتزم ؟!

وقد قرأت فى كتاب عنوانه «عسل النحل والتهاب المفاصل» لطبيب أمريكى معروف جدا اسمه جارفيس. يقول: بالإضافة إلى المشى وتناول عسل النحل مذابا فى الخل ثلاث مرات يوميا أثناء الأكل، فأننى انصحك ألا تتحدث فى هذا الموضوع كثيرا !!..

أو بعبارة أخرى ينصحك الطبيب العالمى جارفيس أن تضع معلقة من العسل على معلقة من الخل على نصف كوب من الماء تشربها أثناء الأكل. وهذه ليست كفيلة وحدها بالقضاء على الروماتزم. ولكن يساوى ذلك كله فى الأهمية ألا تتحدث عن الروماتزم ولا كيف تساعد نفسك أو غيرك للتخلص من آلامه ــ وهذا بالضبط ما تفعله جمعية أصدقاء مرضى الروماتزم عند زيارة الملك سعود !.

واعترف الآن بأن اصابعى قد أوجعتنى من جديد عندما تذكرت ذلك. ولكن هذا الوجع سوف يختفى حالا عندما انشغل بشىء آخر وانسى هذه القصة من أولها لآخرها وتستطيع أن تفعل مثلى أيضاً.



اتمنى مع قدوم الصيف أن تقوم أجهزة الاعلام بتقديم مصر كلها فى التليفزيون والاذاعة مثلا: كيف تعرف تاريخ مصر فى شهرين.. أو فى شهر واحد. أو أدباء مصر.. أو علماء مصر.. أو شعراءها ومطربيها.. كل ذلك وبأسلوب سهل لطيف. ولا أدعى أن كل الناس يريدون ذلك. ولكن بعض الناس ترى من الواجب ألا تتوقف عن تعريف أبناء مصر بمصر. وإذا لم يجد هذا البرنامج مليون مستمع فألف تكفى جدا..

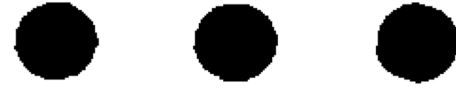
إننا نضىء الشوارع حتى تطلع الشمس.. وفى الليل ساعات لا يستفيد أحد من هذه المصابيع ولكننا نجعلها مضيئة حتى ولو لم يكن هناك أحد. لأن الانارة والتنوير والهداية من أهداف الدولة التربوية الاخلاقية.

وقد أسعدنى أننى جلست مع عدد من الشبان.. وليس صحيحا أن شبابنا مفكك أو أنهم متراخون. أو أنهم غابوا عن مصر.. لقد وجدت شبابا جادا صادقا قلقا على مستقبله.. أى على مستقبل مصر.. والذى يقلقه هو أن روح الجد أقل مما يجب وان روح البحث والتفكير والتخطيط أقل مما ينبغى.. اذن هم رجال يفكرون فى جدية. ولا يمكن أن يتقدم شعب إذا كان شبابه هازلا.. أى إذا كان رجال مستقبله لا يدركون أنهم رجال، ولا يدركون أنهم مستقبل مصر..

ومن كل ما سمعت منهم أعجبنى أنهم يريدون أن يعرفوا تاريخ مصر: كيف كنا؟ كيف أصبحنا؟ ماذا نعرف؟ كيف نفيد غيرنا؟ وأدهشنى أن وجدت منهم من يطلب قدرا مماثلا من الموضوعات والقضايا الجادة

معادلا لقضايا التسلية والمرح. لا فى الاذاعة والتليفزيون والصحف، وإنما فى الكتب أيضا.

وأنا اؤيد الأمل فى ألا تتوقف كل أجهزة الاعلام عن تعريفنا بمصر. فقد ابتعدنا كثيرا عنها. وانشغلنا بأى بلد آخر.. فأكثر المتفرجين على التليفزيون يعرفون امريكا أكثر مما يعرفون عن مصر ـ ولا لوم عليهم.

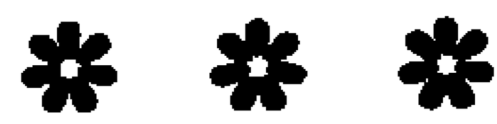


بعد أيام يخرج اليهود للمرة الثانية من مصر فقد كان خروجهم الأول من مصر سنة ١٣١٣ قبل الميلاد ولكن الفارق بين الخروجين. أنهم فى المرة الأولى أخرجوا من مصر فقد اضطهدهم فرعون واستعبدهم فجاء موسى عليه السلام وعبر بهم البحر عند البحيرات المرة وظلوا تائهين فى سيناء أربعين عاما وعندما تجلى الله لموسى من جبل سيناء اعطاه شيئين الوصايا العشر ووعدا بأرض الميعاد وأمرهم دينهم أن يتذكروا دائما خروجهم من مصر، عذابهم فى مصر.

ولكنهم هذه المرة خرجوا بالاتفاق كانت بيننا حروب ولم تسفر هذه الحروب إلا عن خسائر كثيرة والا عن رغبة عميقة فى الانتقام، حربا بعد حرب. وبعد حرب اكتوبر التى كانت أعظم ضربة لاسرائيل منذ قامت كان لابد من البحث عن وسيلة أخرى مختلفة لانهاء الحروب وكانت الخطوة العبقرية للرئيس السادات. ففى رحلة واحدة إلى القدس إلى الكنيست قفزنا فوق الخلافات والحروب وعشرات السنين ووقع العالم كله أسيرا مسحورا لهذه الخطوة الشجاعة. أقوى اعداء اسرائيل وأكبر زعماء العرب يدعوها إلى السلام وإلى أن تكون حرب اكتوبر آخر الحروب. واتجه الرئيس السادات إلى كل الامهات يعدهم بأن أولادهم لن يموتوا فى حروب قادمة فاستولى على قلوب الامهات والأطفال وعقول الرجال وأصبحت اسرائيل والعالم كله رهينة السلام العادل والشامل لكل العرب بقيام الدولة الفلسطينية إننا فى مصر قد اعتدنا، تاريخيا على دخول الغزاة وخروجهم، بينما نحن باقون ولكن اسرائيل لم تعتد على أن تتراجع إلى

حدودها ـ لأول مرة لها حدود دولية بينها وبين أى بلد عربى. إلى أن تغير خططها وتراجع تاريخها وأن تجرب الحياة فى سلام. بعد أن عاشت ولا تزال، مدججة بالسلاح ـ أليست التوراة تقول أن رب اسرائيل هو رب الجنود؟!

وحتى يتغير هذا المعنى. فهى فى حاجة إلى وقت طويل. وإلى عرق كثير وليس إلى دم غزير.



لاحظت فى المطاعم أن الجرسون الذى يخدم ليس واحدا ، فواحد يختار لك الترابيزة ، وواحد يسألك ماذا تريد ، ثم يذهب إلى غيرك ، ويجىء ثالث يكمل هذه المهمة ويجىء رابع ينقل الأطباق الفارغة وخامس يسأل إن كنت تريد قهوة أو شايا وسادس يضع الفاتورة وسابعا يودعك . وسألت إن كان هذا تقسيما للعمل : أى كل واحد يؤدى جزء محددا من المهمة ؟

وقيل بل كل واحد يجب أن يعمل شيئا أى شىء ، وليس من الضرورى أن يخدمك شخص واحد والباقون يتفرجون عليهم ، فالكل يجب أن يعمل أن يؤدى أى شىء ابتداء من المشرف على المطعم إلى أصغر جرسون .

وقد يبدو هذا عاديا ، ولكن أرجو أن تعود إلى مطاعمنا فى مصر وانا اتذكر بهذه المناسبة أننى تناولت طعام العشاء فى إحدى السفن فى النيل وقف السفرجية لابسى الجلاليب ورؤساؤهم لابسى البدل السوداء ، وطلبت من أحد لابسى البدل كوبا من الماء فأشار إلى أحد لابسى الجلاليب أن يفعل ذلك . سؤال بالضبط مالذى فعله لابس البدلة وبالضبط لماذا لم يأت بكوب الماء . وماهى الوظيفة الخطيرة جدا التى تحتاج إلى واحد ببدلة تخرج فى أحد المعاهد الفندقية . ولما فرغت من الطعام — فى السفينة — انحنى لابسو البدل انحناءة أوروبية ، وما هى اذن حصيلة مهمة هذا الأفندى أرجو أن تعود إلى السطور الأولى من هذا المقال وأن تضيف إليها أيضا : إن نظيره فى انجلترا «يقول لك اليوم» أنت لم تأكل كما يجب ولا شربت

كما ينبغي، أرجو لك عملا ناجحا لنراك غدا. مع السلامة وهو يعطيك نسخة من صحف الصباح.

قد يقول لك أيضا سيادتك مصرى؟ فتقول كيف عرفت ويرد عليك: لأن المصريين صوتهم أقل ارتفاعا من بقية الاخوة العرب.

ولا أعرف ما الذى قاله للسعودى والكويتى والليبى، المهم أن يشعر الزبون أنه موضع اهتمام شامل، ولا يهم أن يكون هذا الاهتمام من طبيعة وظيفته أو من صميم واجبه وأنه يمثل عليك أو يضحك عليك، ولكن من الذى يضايقه أن يضحك عليه أحد أو يأكل بعقله حلاوه.

أنت تقول كل يوم أهلا وتفتح ذراعيك وتعانق وتقبل وانا أعرف وأنت تعرف اننا كاذبان، ولكن لا نطيق الاهمال واللامبالاة.



كان عند السعودية مشروع خيالى ينقل جبال الجليد من القطب الجنوبى إلى البحر الأحمر إلى الموانى السعودية. وقد انشىء مكتب علمى فرنسى فى باريس. وقد درس المكتب كل احتمالات النجاح والفشل. وكل الصعوبات التى تواجه الجبال التى سوف تجرها البواخر عشرات الألوف من الأميال. تتعرض فيها الجبال للاحتكاك بالماء والتيارات الجوفية واشعة الشمس.. ولابد أن تذوب فى الطريق قبل أن تصل إلى الشواطىء السعودية.

وقد حسب العلماء كل مخاطر هذه التجربة الفريدة فى التاريخ واخترعوا اغطية من البلاستيك لهذه الجبال، واخترعوا وسائل لتخفيف حدة الاحتكاك والذوبان فى المسافات الطويلة ثم تخزين هذه المياه فى الجو الحار فى البحر الأحمر.. وبعد ذلك نقل الجليد إلى الشاطىء على شكل فيضانات صناعية... إلخ.

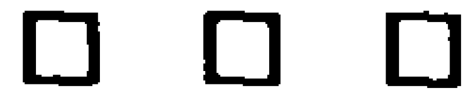
وفجأة توقف المشروع..

ولم نقرأ بعد ذلك عن الحاجة الشديدة فى السعودية إلى الماء. بل وجدنا السعودية تزرع مساحات هائلة من الأرض قمحا وقصبا وتزرع قطنا. وانها استخدمت فى ذلك الوسائل المتطورة. بل عرفنا انها تصدر القمح — أى أن القمح الذى زرعته يكفيها ويفيض عن حاجتها.

فما الذى حدث فى السعودية.

إنهم وجدوا الماء المتدفق من الجبال وفى الأمطار وكذلك الأبار الارتوازية ثم أنهم استخدموه استخداما علميا ولم يقيموا بيوتهم على الأرض المستصلحة وإنما على الصحراء الواسعة وليس على جثث الأشجار والنباتات كما هو حادث فى مصر ــ كأننا نحن المصريين قد ورثنا عن أجدادنا الفراعنة معايشة الموتى.. فلابد أن يموت تحت اقدامنا أحد، وأن يكون هذا الأحد نباتا أو حيوانا أو انسانا، وذلك بتجريف التربة الحية، واعدام النبات، وتجويع الانسان!

إن فكرة نقل جبال القطب الجنوبى، أكبر مستودع للمياه فى العالم، إلى السعودية فكرة خيالية خرافية ــ ولكن كل الأفكار التى دفعت الانسان إلى الماء كانت من هذا النوع.



هذه القصة القصيرة اعجبتنى:رجل فلاح ارهقته الديون. فلم يعد قادرا على أن ينفق على زوجته وأولاده وابقاره وطيوره. تكاثر الدائنون. فباع الأبقار والطيور ونظر إلى مافى يدى زوجته، وأعطته.أساورها فباعها تلفت إلى جيرانه وجد وجوههم قد تبدلت. حتى تحيات الصباح والمساء اختصروها فكانوا يقولون له سالخير أى صباح الخير أو مساء الخير.

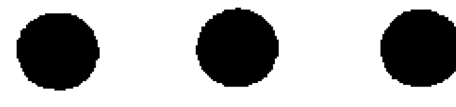
وفهم الرجل أنهم لايريدون حوارا معه، حتى لايطلب إليهم أن يقرضوه.. أمسك الرجل ورقة وقلما وكتب خطابا إلى الله: يارب انت ترى حالى. وانت أعلم بما اصابنى وكل ما احتاجه منك وانت الغنى هو مائة جنيه فقط..

واقفل الخطاب ووضع عليه طابع بريد وكتب على المظروف: إلى الله.

وكان هذا الخطاب نكتة مصلحة البريد. واخذوا يتساءلون: إن كان مالايزال فى الدنيا أحد بهذه السذاجة. ولكن واحدا تأثر بهذا الخطاب. وأيقن أن صاحبه قد ضاقت به الدنيا حقا. وفتح الخطاب. ووجد أن المبلغ المطلوب أكثر من قدرته. فحاول أن يجمع له من الزملاء والاصدقاء. وبعث إليه بالخطاب على العنوان الذى جاء فيه. وذهب ساعى البريد إلى الرجل الطيب. وفتح الرجل الخطاب وفوجىء بأن المبغ خمسون جنيها. فغضب لذلك تماما.

وأمسك قلما وورقة وكتب خطابا أخر إلى الله يقول فيه: شكرا لك يا رب. فقد كنت على يقين من أنك لن تنسانى. هذا ما قالته زوجتى وابنتى. وهذا ما رأيته فى عيون أبقارى وطيورى وأنا امسك بها وأبيعها لاناس سوف يذبحونها. ولكن أرجوك يا رب أن تبعث بالمبلغ عن طريق آخر غير مصلحة البريد لأنهم لصوص قلوبهم لا تعرف الرحمة، شكرا يا رب!

القصة للأديب المكسيكى لوبيز أى فونتيس..



ليس، والله، تعصبا لمدينة المنصورة، وإنما فقط أنا أدعوا إلى ما يجب أن يدعو إليه كل مواطن يحب بلده، أيا كان هذا البلد فى الشمال أو الجنوب، وأنا صناعتى الكتب والكتابة. وقد أردت أن أساعد بلدى وأهل بلدى على إقامة مكتبة كانت هناك.

والمهندس يستطيع أن يفعل شيئا لبلدة وكذلك الطبيب والرسام وصانع التماثيل.. ولو بعث ألوف المواطنين بالكتب الزائدة على حاجتهم إلى بلدهم لكانت فى مصر كلها مئات المكتبات العامة. وكل ما نحتاج إليه هو أن نقرر فورا، وأن يتولى المحافظون تنظيم ذلك..

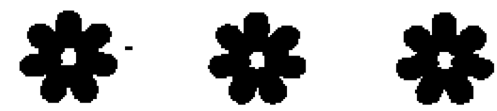
ولو قررنا مثلا أن يكون عام ١٩٨٥ هو عام «المكتبات العامة» وذلك بأن تقيم كل محافظة أو كل مدينة كبرى مكتبة عامة مستعينة بما لدى أبنائها من كتب. أو بما يتبرع به القادرون من مال لكان لنا فى كل مدينة مكتبة تزداد مئات الكتب عاما بعد عام. وهكذا فى عام واحد يكون الكثير منها فى خدمة الثقافة.. فى خدمة المجتمع.. فى خدمة مصر..

وحتى لو كنت متعصبا، فما هو هذا الذى اتعصب له؟

إنه التعصب لمدينة المنصورة، فأتمنى لها الجمال والنظافة والنظام والثقافة.. وهو مايتمناه كل واحد لبلدته أو مدينته.. ومن كل هذه التعصبات نكون قد تعصبنا لمصر وهو تعصب أبيض.. كما نتعصب للأهلى والزمالك.

وقد تلقيت هذه البرقية العاجلة من د. عماد الدين الزهيرى المقيم فى مدينة هيستون الأمريكية: قل لى كيف أبعث لمكتبة المنصورة بخمسة آلاف كتاب ؟!

وكان ردى العاجل ليس قبل أن تنسحب سكرتارية الحزب الوطنى، ويتم ترميم المبنى. بقى من الزمن شهر فأصبر.



كنت فى زورق يعبر البوسفور والماء هادئ والأنوار لمعانها هادئ أيضا وعيوننا على المآذن فإذا أضاءت فمعنى ذلك أنه قد حل موعد الافطار وانشغلنا بالطعام ولم نستعجل أن تضيع المشاهد الجميلة عن عيوننا على جانبى هذا الممر المائى فعلى اليمين استانبول الأسيوية وعلى اليسار استانبول الأوربية وسألنا إن كان الجرسونات صائمين فهزوا رؤوسهم بما معناه نعم وقبلوا أيديهم وجها وظهرا يشكرون الله على نعمة الإسلام وحولنا الاجانب ينتظروننا حتى نفطر، ورأو من الواجب أن يجاملونا فى ذلك، فرفعوا زجاجات الشمبانيا ورفعوا كؤوسهم بأنهم سوف يشربون فى صحتنا ــ دون أن يدركوا اختلاف المعانى والمشاعر على المناضد المجاورة.

ومع اختفاء الأطباق وظهور أخرى جديدة كنا نرفع عيوننا لنملأها، مثل بطوننا تماما. فالطبيعة الجميلة والغابات قد وقفت فى مؤخرة البيوت الأنيقة الصغيرة والقانون فى تركيا يمنع بناء العمارت على شاطىء البوسفور ولذلك توقف البناء تماما فى اكمال العمارات العالية. وإذا قرر أحد أن يهدم بيتا قديما فعليه أن يبنيه مشابها له فى الشكل الخارجى أما فى الداخل فليفعل مايشاء، حرصا على الملامح التقليدية والجمال التاريخى..

وفجأة نهض صديق تركى من مقعده وبصورة عصبية. ولم نفهم لعله سلوك تركى! وبعد دقائق عاد ممتنعا عن الطعام. وسألناه فقال: انها جريمة ارتكبت!

فقد لاحظ أن شيئا ماقد ألقى من السفينة. وهذا ممنوع منعا باتا فالزبالة التى يلقيها أى انسان فى مضيق البوسفور سوف يحملها التيار إلى

منطقة بحر مرمره حيث يصطاف المواطنون. ولم يفلح فى اقناع قبطان السفينة بمعاقبة الطاهى الذى ألقى هذه المخلفات.

وفى اليوم التالى عرفنا أن الصديق التركى ذهب إلى وزير السياحة والى البرلمان يرفع شكوى مسببة، فقد القى مواطن بالزبالة فى البوسفور ووافقه رئيسه على ذلك ولابد من العقاب. وتأكدنا من أنه سوف يلقى العقاب ــ عجبى!



لاسباب ليست واضحة عندى تماما يرى بعض الكتاب الانجليز أن هارولد ويلسون، الزعيم السابق لحزب العمال كان من الممكن أن يكون أعظم رئيس وزراء عرفته بريطانيا فى هذا القرن لولا ...

أما الذي يجيء بعد كلمة «لولا» فأشياء كلها شخصية. كعلاقته بسكرتيرته أو محاباته لبعض المحاسيب والأنصار. والانجليز يرون أن هذه غلطات فظيعة تسحب من فوق رأسه تاج العظمة وتجعله رئيس وزراء عاديا جدا.

ولكن من الأشياء الغريبة التى قرأتها له ووجدت فيها «عظمة» مؤكدة. أنه عندما يشعر بالارهاق بسبب العمل فإنه يستمع إلى الموسيقى «وينسى» الدنيا..

ومن مظاهر «عظمته» ـ من وجهة نظرى أيضا ـ أنه يستطيع أن يقيم جدارا عاليا ضخما بين المكتب والبيت، على الرغم من أنه يسكن فى البيت الذى به مكتبه ـ ١٠ شارع دوانتج بلندن.

كيف يفصل بين البيت والعمل وهما مكان واحد ومع ذلك يجد النوم العميق؟ وفى نفس الوقت يقول فى مذكراته التى عنوانها «حكم بريطانيا» أن الرجل السياسى يحتاج إلى صفتين هامتين جدا. أن يعرف كيف ينام بعمق وأن تكون لديه دراية واسعة بالتاريخ!.

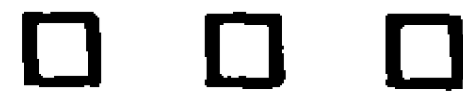
ولكن أعظم ما فى عظمة هذا الرجل أنه يقفز من فوق السلطة إلى الشارع وهو فى غاية الصحة الجسمية والعقلية وفى قمة القوة.. هذه عظمة.

فإن التاريخ لم يعرف إلا عددا قليلا جدا تركوا السلطة أو تركتهم السلطة وفيهم بقايا حياة.. أو فيهم قدرة على أن يستمروا أحياء!.

هذا هو الموقف الذى يجعله سياسيا وحاكما عظيما.. وبعض الممثلين والرياضيين يفعلون ذلك.. أو نادرا مايفعلون. فإذا فعلوا كانوا عظماء حقا!.

ومن مظاهر عظمته فى نظرى أنا: أنه يقرأ الشعر ويحفظه ويلقيه.. وأنه يغنى ويرقص. بل أنه افتتح أحد محلات الاسطوانات الذى كانت تملكه فرقة الخنافس عند ظهورها من عشرين عاما.. ثم أمر بمنحهم نياشين رفيعة لأنهم أتوا بجديد فى الموسيقى والغناء وأنهم وجهوا آذان العالم كله إلى بريطانيا بعد أن كانت الآذان والأجسام تتلوى على أنغام امريكية من عشرات السنين.. وأنهم أدخلوا ملايين الجنيهات ثمنا لأسطواناتهم ـ وهو نفس الوقت سياسى وحاكم ومفكر وشجاع!.

إن العظمة ـ ككل الأمراض الأخرى ـ مسألة نسبية!



فيلسوف الشباب أسمه هربرت ماركوزة (٨٠ عاما) أمريكى المانى يهودى. لم يفكر قط فى أن يكون فيلسوفا ولا أن يكون إماما للشباب فى العالم. ولا حتى أن يشتغل بالسياسة. ولكن الذى حدث أنه قام بمراجعة كثير من النظريات المنتشرة فى عصرنا. ونشر مقالات فى الصحف ثم كتبا. وفجأة وجد نفسه يعبر عن أفكار ملايين الشباب فى الدنيا. فهو يرى أن الناس قد تعبت أعصابهم. وأن سوء الفهم هو إحدى نتائج التعب. وأن الأفراد كالشعوب تماما. يتعبون وينسون تقدير كل شىء ولا يتسع وقتهم لمراجعة أرائهم. ولذلك يمضون فى بناء عمارت من سوء الفهم.

هو احدى نتائج التعب. وأن الأفراد كالشعوب تماما. يتعبون وينسون تقدير كل شىء ولا يتسع وقتهم لمراجعة آرائهم. ولذلك يمضون فى بناء عمارات من سوء الفهم.

وسوء الظن.. وهو لا يطلب من أى انسان أن يجمع زعماء العالم ويقفل عليهم غرفة ويستمع إليهم من ثقب الباب.. أنه فقط يطلب إلى كل إنسان أن يسجل ما يدور بينه وبين زملائه أو أصدقائه أو زوجته وأولاده.. أن الشىء المؤكد الذى سوف يخرج به: أن أحدا لا يوافق أحدا على رأى أو على ذوق أو على أسلوب أو مستقبل!.

أى أن الشعور الطبيعى عند كل الناس أنهم غرباء بعضهم عن بعض. وأن المكان الواحد والزمان الواحد واللغة الواحدة والدين الواحد والبيئة الواحدة والمعيشة المشتركة لم تجعل للناس رأيا واحدا ولا هدفا واحدا!.

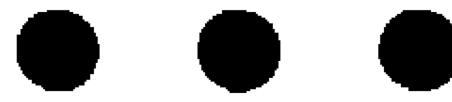
وليس أقرب إلى مشاعر الشباب فى كل العصور من أنهم غرباء فى أوطانهم .

وأن المسافة بينهم وبين آبائهم ورؤسائهم ومدرسيهم وحكامهم واسعة .. وأن الشباب يرون أنهم على حق : لأنهم شباب أصحاب حماسة والشيوخ يرون أنهم على حق لأنهم شيوخ أصحاب تجربة . والنتيجة : الكل على حق والكل على باطل ! .

ويلاحظ ماركوزة أيضا أن الاتفاقات بين الشعوب تجىء بعد الحروب وتتبعها أيضا أى أن الحياة هى ترك لاتفاقات قديمة وعقد اتفاقات جديدة .. وإلى الأبد . فالأصل أن نختلف لنتفق أو نتفق لنختلف ! ..

أى أن الخلاف هو الأصل .. والخلاف أساسه الاختلاف فى الرأى والقرار والأمل ..

ولكن الفيلسوف ماركوزة لكى يريح الشباب ونفسه يقول : يجب أن نأخذ الدنيا على علاتها ، والناس أيضا ، وفى عبارة واحدة : لا أنت مستريح وحدك ولا مع الناس ! .



في حوار مع طالبات من كلية السياحة، كان من رأيي أن تنشيط السياحة ليس فقط بما تقوم به وزارة السياحة من تطوير الخدمات في الفنادق أو بناء لفنادق جديدة في كل الأماكن الجميلة والتاريخية في مصر— وإنما بتعاون وزارات الداخلية والخارجية والصحة والمواصلات والمالية والاقتصاد والمحليات.

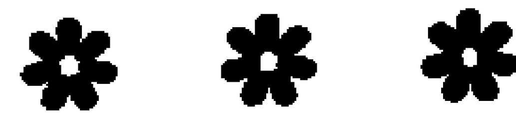
فالسائح قبل أن يصل إلى القاهرة تكون صورة مصر هي التي دفعته إلى أن يجئ وينفق ويتفرج ويعود سعيدا يدعو لمصر، أو ساخطا يدعو عليها وعلى الذين أوقعوه في حفر القاهرة وأيدي النصابين من تجار الآثار..

فالسائح عندما يهبط أرض مصر ما الذي يجده في المطار وكيف يستقبلونه وكيف يراقبونه ويفتشونه وكيف لون الأرض ونور السقف والسيارات والطعام في الشارع والتراجمه والمرشدون وكيف يكون تغيير العملة واللغة التي يتكلمها كل الناس وأسلوب معاملة السائح الأجنبي، واحترام ظروفه النفسية والمادية— كل ذلك علم وفن. وقد تقدمت علينا دول ليست أجمل ولا أروع تاريخيا منا.

قال لي مسئول كبير: أنا لا أفهم شكاوى الشركات السياحية.. أنهم يكسبون عشرات الملايين!.

بل أنا الذي لم أفهم معنى هذه العبارة، هل هو يعترض على أن يشكو أحد؟.

وهو يعترض على أن الشركات تكسب؟ فما المانع أن يكسبوا مئات الملايين؟ إننا نريد لكل من يعمل أن يكسب وفى ذلك رواج لعشرات الصناعات الأخرى وتشغيل للألوف من عمال الفنادق والمطاعم والصيانة والنظافة والمطارات. والسياحة نشاط قومى يشارك فيه كل إنسان برأى وابتسامة ومعلومة.. السياحة هى أن نبيع جمال مصر إلى اناس سوف يصبحون دعاة لها فى كل مكان.. ولانها الصناعة الأولى فى مصر فمن الواجب أن تهتم بها هيئات علمية وفنية كثيرة..!.



.... هذه النقط سببها أننى رفعت يدى عن الورقة، لكى أحيى على البعد، عسكرى المرور المغربى.. فهذا الرجل الواقف فى الشارع المعترض لكل السيارات يستطيع بأصبعه أن يوقف أى انسان عند حده.. أن يجعله يتسمر فى الأرض وفى أمكانه أن يتركه كذلك حتى نهاية العالم. وقد رأينا الضبط والربط فى مدينة الرباط أثناء انعقاد مؤتمر القمة.. كان شيئا رهيبا. فلم يكن فى استطاعة أى وزير، أن يتجول دون شارة يضعها على صدره. وكانت هذه الشارات تتغير كل يوم.. وكم من الوزراء ساروا على أقدامهم لأن سياراتهم بلا شارات..

وكم من السيارات دخلت المؤتمر بعد أن تركت ركابها أعضاء الوفود، لأن الركاب بلا شارات!. وتروى ذلك كله للمغاربة فيضحكون ولكن لا يعترضون.

سألت أحد السائقين عن سر عظمة هذا الأمبراطور عسكرى المرور فقال لى أنه أكثر من امبراطور.. لأن عسكرى المرور تقف وراءه كل قوانين الدولة. تقف حائطا منيعا. فهو يستطيع أن يسحب رخصة السائق لأية غلطة، لمدة ستة أشهر وسنة.. ولا مناقشة فى ذلك. وفى استطاعته أن يجعلك تدفع غرامة مائة جنيه لأى سبب تافه. ويجب أن تدفعها أو تترك سيارتك فورا. ولا مناقشة فى ذلك.. وقد حدث أن صدمت سيارة أحد الوزراء طفلا. فأمسكه عسكرى المرور. ودخل الوزير السجن. ولكنهم اخرجوا الوزير بعد خمسة أيام. والمهم أنه دخل السجن كأى مواطن. ومن هنا كانت عظمة عسكرى المرور..

طبعا عظمة القانون أو سيادة القانون. لأن عسكرى المرور لاقيمة له إذا لم يكن القانون الذى يمثله ويحميه قويا محترما..

إن إشارات المرور ليست عظيمة ولا امبراطورة عندما تقف عندها السيارات، وإنما القانون الذى وراءها.. ولست فى حاجة إلى أن أقارن بين عساكر المرور وضباط المرور الذين تدوسهم السيارات فى مصر.. ولا بين القوانين التى تصدر بالمئات ولاوزن لها ولاقيمة، ولا نجد أحدا يطبقها، ويتحمس لتطبيقها.. ويجب ألا نلوم العسكرى الغلبان، وإنما يجب أن نلوم أنفسنا لأننا جعلناه غلبان مسكينا محتقرا.. لأن القانون الذى وراءه ليس قانون، وإنما هو حبر على ورق.... وهذه النقط هى قطرات أسى وأسف وحزن على أنفسنا لأننا نقول كثيرا، ونفعل قليلا!



طبيبان عظيمان أترحم عليهما هما : أنور المفتى وعدلى الشيخ . فهما على درجة عالية من العلم، وعلى درجة رفيعة من حسن الفهم والتعامل مع الناس . وكلاهما رجل متواضع يحب الناس ، فأحبهما الناس ..

قال لى أنور المفتى : ما شكواك ؟

ــ شكوى كل المصريين : مصرانى يا دكتور ؟

ــ ومن الذى قال ان مصرانك هو الذى يوجعك ؟

ــ أنا ؟

ــوهذه هى أيضاً شكوى كل الأطباء المصريين : ان المرضى المصريين يعالجون أنفسهم ، ويشخصون الداء والدواء ، وعند الأزمة الشديدة يذهبون إلى الأطباء .. تفضل حضرتك أرنى بطنك يا حضرة الدكتور !

وتمددت ودارت يد أنور المفتى فى بطنى وصرخت .. وأكتشف الدكتور المفتى أننى صرخت حتى عندما لم تكن يده على بطنىــ وانكشفت بذلك حالة حادة من الوهم الشديد عندى .. وسألنى : ما هى أحب الأطعمة إليك ! فذكرت له أطعمة كثيرة .. قال لى : إذن استمر فى اسرافك فى تناول عسل النحل .. ولكن ضع عليه بعض مسحوق الفحم .. وبعض النباتات الملينة .. وتعال بعد عشرين يوماً !

وعدت إليه سليماً مستريحاً .. و« انفضحت » أمامه فكل العقاقير التى أعطانى اياها لم تكن سوى أطعمة عادية بها بعض الأعشاب التى تساعد على اللين وتمتص الغازات !

وتسلمني من بعده د. عدلي الشيخ .. وهو رجل لطيف خجول لدرجة انه لا يفرض عليك العلاج وإنما يجعلك تتصور انك أنت الذى تعالج نفسك.. قال لى: دعنى أر بطنك.. وبلمسة من أصابعه هنا وهناك قال لى: لا علاج.. لأنه لا مرض.

ــ كيف وهذه الأوجاع. لقد عرضت نفسى على أطباء فى اليابان وفى أمريكا واستراليا والهند والصين.. وقالوا لى..

ــ خد لك أجازة كل أسبوع. وأمش على رجليك.. وأجلس على أى شاطىء.. وتعلم صيد السمك.. أى شىء غير القراءة والكتابة..

يعنى لا مرض ولا علاج، لأن العلاج هو الا أقرأ والا أكتب، وإذا فعلت ذلك مرضت رأساً وبطناً وجيباً أيضاً!

ومشيت وجريت على علاج د. عدلي الشيخ واسترحت.. ونسيت بعد ذلك كل الذى قاله..

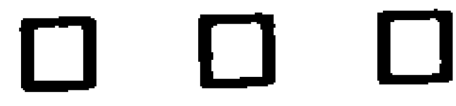
وتمددت أمام د. افرى جونز طبيب ملكة بريطانيا.. وقلت له قصة حياتى. وما الذى قاله الأطباء وكيف كان ردى عليهم. وسألنى الرجل: ليس عندى ما أضيفه إلى الذى قالوه ولا إلى الذى قلته.. أنت تعرف الداء والدواء.. أنت الطبيب وأنت المريض وأنت الدواء!

ثم التفت قائلاً: إذا كان لابد من ان أصف لك علاجاً فهو: الانتظام فى الأكل والنوم.. وأفضل ان تكون الوجبات كثيرة وصغيرة.. وشىء ثالث ان تمشى على رجليك مشية عسكرية نصف ساعة كل يوم.. وشىء رابع ان تسف ملعقتين من «الردة» كل صباح..

واستوضحته هذه النقطة الأخيرة فأجاب: عليك ان تأكل الردة فهى مفيدة للمعدة والمصران.. فأبناء الحضارة الغربية جميعاً مصابون بالامساك

لأنهم يأكلون العيش الأبيض والعيش الفينو الخالى من الردة الموجودة فى العيش البلدى الذى تذوقته فى مصر وأعجبنى !

ان الصحة فى طعام الفقراء ! الذين يمشون ولا يركبون السيارات ويأكلون العيش الأسود الذى أكثره ردة والباقى قمح أو ذرة ــ ولكن احداً لا يرضى عن حاله .. وعدم الرضا هو أحد أعراض كل مرض !



صديق جاء من الكويت. وقبل أن يدخل بيته ألقى بحقائبة عند البواب وطلب من السائق أن يذهب به إلى وسط المدينة.. ومنها إلى الجامعة فى الجيزة ثم إلى حى الأزهر والحسين. وبعد ذلك إلى كبارى أكتوبر والجلاء والجامعة. وضرب كفا بكف وحمد الله على سلامة مصر!

فقد امتلأت أذناه بالاذاعة العربية وتوجعت عيناه مما نشرته الصحف من أن المظاهرات فى شوارع مصر. والمتاريس فى كل مكان. والمعتقلون يساقون بالألوف إلى السجون. وأن الرصاص ينطلق من النوافذ والشرفات وأن مصر قد احترقت بنيران السخط والغضب على السلام..

وعاد الرجل إلى بيته ليطلب الكويت. ويختار بعض الأقارب والأصدقاء. ولم يسعفه التليفون بأن يمد يده فيصفع أويبصق على الألوف من الكذابين والمضللين فى الاذاعة والصحافة وغيرهما!

وأهم شىء كان حريصا على أن يراه هو أن يذهب إلى مبنى الجامعة العربية. ولم يكن قد دخله فى حياته. دخل من باب إلى باب ولم يجد ما تقوله الصحف كل يوم من أننا علقنا المشانق للسوريين فى الجامعة.. ثم أخرج من جيبه ورقة تضمنت أسماء المحلات الفلسطينية فى شوارع سليمان وعدلى وشريف.. لقد كانت المحلات عامرة بالمصريين يأكلون ويشربون ويدفعون والفلسطينيون يكسبون عشرات الملايين ــ ١٩ تاجرا منهم فقط يملكون سبعين مليونا من الجنيهات وهو مالا يملكه ١٩ مليونا من المصريين ــ

فلا تزال مصر أم هذه الدنيا المجنونة بالحقد والغيرة من مصر!

يعجب العلماء بقدرة الأدباء على اختيار كلماتهم بعناية جميلة. فالأدباء والشعراء هم الذين اخترعوا مثل هذه التعبيرات: شباب العمر.. زهرة العمر.. العصر الذهبي.. الطفولة الأولى.. والمراهقة الثانية.. سن اليأس.. وهي جميعا تعبيرات ليس لها معنى علمي واضح. وإنما هي عبارات يصورون بها الحالات النفسية أو النشاط العقلي أو الكسل النفسي أو الركود الابداعي عند الناس..

فلا أحد يعرف بالضبط متى يبدأ الشباب ومتى ينتهي. فمن الممكن أن يظل الانسان شابا، أي مليئا بالحيوية والابداع حتى سن متأخرة. ومن الممكن أن يخمل الانسان ويتبلد في المراحل الأولى من حياته.. فلا علاقة لشهادة الميلاد بحيوية الانسان وقدرته على الامتاع والابداع والاستمرار.

وإنما هناك عناصر أخرى تحدد الانسان: نشاط وظائفة العضوية وعلاقاته الاجتماعية وقدراته العقلية. فكلها معا تؤدى إلى ما يمكن أن يوصف: بحيوية الانسان..

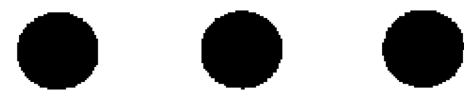
ولذلك أمكن أن يقال: أن الحياة تبدأ بعد الخمسين أو بعد السبعين. والمعنى المقصود هو أنه رغم أن هذه السن المتأخرة التي يجب أن يصاحبها هبوط في النشاط فإن أناسا استطاعوا أن يواصلوا قدرتهم على العمل والعطاء عند هذه السن وبعدها!

وكان يقال من عشرات السنين أن هناك عددا قليلا من الغدد السحرية مسئولة عن حيوية الانسان. ولكن وظائف الأعضاء والطب

والكيمياء قد اهتدت إلى أن هناك عشرات من الغدد تعمل بتنسيق أوركسترالى على تحقيق ما نسميه بالحيوية والاستمرار!

ولا يستطيع أى انسان أن يحاسبك على الذى ترتكبه فى رمضان من ارتباك شديد لكل وظائفك الجسمية والنفسية والعقلية.. فمن المؤكد أنك تستمتع فى بعض ساعات اليوم بصفاء رائع.. ولكن لا يلبث الطعام أن يغطى الدنيا أمامك ويكثف فوقها التراب والضباب والنوم حتى تصبح كوما من اللحم منهارا حيث تجلس وحيث تنام.. فقد أعلن مدفع الافطار حالة الطوارئ فى كل جسمك.. وليس عقلك إلا أقلية مضطهدة — أى عاجز عن فعل أو فهم شىء من كل الذى قلته لك منذ لحظات!

فلنتحدث فى ذلك بعد رمضان!



أطفالنا محظوظون ببرامجهم فى الاذاعة والتليفزيون. ودنياهم غير دنيانا طبعا .. وهى الآن أفضل وأجمل ..

ولما سئل توفيق الحكيم مرة عن الفرق بين جيله وجيل ابنه المرحوم إسماعيل، قال: كانوا يسألوننا: ما هو الشيء الذى إذا عبر البحر لم يبتل. وكنا نقول إنه العجل فى بطن أمه .. وأما الجيل الجديد فيقول: إنه الطائرة!

والطائرة لم تعد هى الجهاز العجيب الذى يبهر الطفل .. بل إنه الصاروخ والقمر والهبوط على القمر .. والانسان الآلى .. والڤيديو ..

وعرض هذه الأجهزة والحديث عنها للطفل، عنصر هام فى تربيته أو فى شرح مفردات العصر الذى يعيش فيه ..

ولكنى رأيت فى التليفزيون الأمريكى إلى جانب ذلك، من يهتم بأشياء أخرى .. فهو يحدث الأطفال عن معنى الانتخابات والاستفتاء، عندما تقترب الانتخابات الأمريكية .. ويحدث الأطفال عن الزلازل والبراكين فى أى مكان من العالم .. ويحدثهم عن خطف الطائرات وكيفية الخروج منها .. وعن المجاعات فى العالم .. وعن انتقال العدوى .. وعن معنى الزكام وكيف يمكن الوقاية منه ـــ كل ذلك بالصور والأفلام.

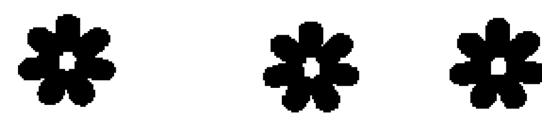
أى أن التليفزيون الأمريكى يربط الأطفال بأحداث العصر. وبذلك يتابعون أخبار الدنيا .. ويعطى للآباء مادة للكلام مع أطفالهم .. وبذلك ينمو الطفل عضوا فى أسرة أكبر وأوسع ..

ولقد شاهدت برنامجا فى التليفزيون الأمريكى عن انقراض الحيوانات وخاصة الفيل. ولماذا ؟ وانقراض الأفاعى، وسبب ذلك..

أى كيف إن صناعة العاج والأقبال عليها قد أدى إلى قتل الأفيال لاستخدام أنيابها فى صناعة العاج. وكيف إن حرص السيدات على صناعة الشنط من جلد الثعابين قد أدى إلى رواج الشنط وقتل ملايين الثعابين.

ولما سقطت طفلة من فوق السطوح، انتقل البرنامج وعدد من الأطفال إلى مكان الحادث ووقفوا فوق السطوح، ليروا جميعا كيف إن انخفاض السور وإهمال الأم من الممكن أن يؤدى إلى ذلك.

فبرامج الأطفال عندنا تعزل الطفل وتغلق عليه عالمه. لا بأس. ولكن لابد أن تفتح له الباب على العالم الأوسع ليفهمه.. وليصبح قادرا على الحياة والتفاعل معه فى كل مراحل حياته!



اسرائيل دولة غريبة عجيبة بين الدول. فهى دينية ملحدة سياسية اقتصادية رأسمالية شيوعية.. كثيرة الشكوى والبكاء، وهى تثير حولها الشكوى والبكاء والدموع، وهى تموت من البرد، ولكنها تشعل النيران فى كل اتجاه، فقيرة جدا، ولكنها تملك كل فلوس الاغنياء اليهود. وأكثر الكلمات شعبية عندها: السلام والأمان. وهى دولة عسكرية فى حالة تعبئة قصوى منذ أربعين عاما. وفى هذه الأعوام الأربعين لم تتوقف عن القتال. ويبدو أنها لن تتوقف. فهى لا تزال مهددة فى يومها وغدها. وهى محاطة بأكثر الناس عداوة لها، وليس هناك أى أمل فى سلام شامل.

ولا يهمنى كثيرا ما الذى يحدث فى اسرائيل من خلافات. فهى طبيعية بين الشعوب اليهودية الخانقة المختنقة فى إسرائيل. ولا وفاق بينها.. لا فى الدين ولا فى المذهب ولا فى اللغة ولا فى لون البشرة ولا فى التاريخ. والوزارة الوطنية الحالية صورة كاريكاتورية لذلك. وهى متصدعة ولكنهم قادرون على التماسك، فقد جربوا ذلك مئات السنين. ولا شىء يمسكهم بعضهم إلى بعض إلا الحرب.. أى إلا أن يهددهم أحد فى أمنهم. هنا فقط تتحد الألوان واللغات والمذاهب ويمسكون مدفعا واحدا مصوبا ضد العرب، وتتحد ميكروفوناتهم وصحفهم فى كل مكان ضد العرب المعتدين الغزاة!

ولا شىء يمزق إسرائيل ويفرق بين صفوفها المتفرقة إلا السلام.. ولو حدث ــ ولن يحدث ــ ان صالحتها الدول العربية جميعا، لهاجر نصف يهود إسرائيل إلى شواطىء ميامى، حيث يوجد أجمل «جيتو» يهودى..

ولخربت المستوطنات.. واخليت اسرائيل من سكانها الغاضبين الخائفين.. ولذهبوا وراحوا ينعمون بسعادة أغنياء اليهود فى أمريكا.

ولكن يهود اسرائيل ويهود العالم يعرفون بالضبط ما الذى يريدونه من العرب.. أو ما الذى يريدونه لاسرائيل بين العرب وفى مواجهتهم وضدهم واستعدادا للقائهم فى الحرب والسياسة. وليس هذا حال العرب.

وأفضل من أن ننشغل نحن كثيرا بالخلافات بين شامير وشارون وبيريز وبيرتس، أن ننظر إلى أنفسنا ونتساءل: وما هذا الذى يمزقنا ويقطعنا ويجعلنا «نشارة» على خشبة المسرح السياسى.



اللهم أجعله خيرا ــ نقولها عادة عندما نكتشف أننا ضحكنا كثيرا !

أى أننا أسرفنا فى الضحك، ولذلك يجب أن نتوقع العقاب على ذلك .. مع أننا عندما نسرف فى الحزن والغم لا نقول : اللهم عوضنا عن ذلك خيرا !

وكثيرا من الناس اعتقدوا أن نكسة ١٩٦٧ كانت بسبب الاسراف فى الاهتمام بكرة القدم .. فكانت النكسة عقابا قوميا . أى لأننا تجاوزنا حدود اللهو، كان لابد أن يجىء الحزن نتيجة لذلك . مع أن الذين أسرفوا فى اللعب ليسوا هم الذين انتكسوا فى الحرب . فالعسكريون كانوا يعيشون فى الكهوف ، بينما المدنيون يعيشون حياتهم العادية ، دون أن يدروا بعذاب العسكريين وهوانهم . ولما جاءت العقوبة ، كانت من نصيب الذين لم يلعبوا كرة القدم !

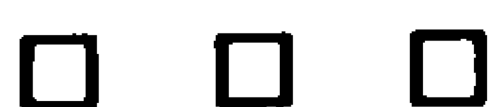
فهل الهجوم على فوازير رمضان شىء من ذلك ؟ هل نحن نستكثر على أنفسنا أن نضحك وأن نستمتع بمجموعة من الفنانين الناجحين : البطلة والمخرج ومؤلف الأغانى والملحنين والراقصين .

ومن الغريب أن الذين لم يتابعوها ينتقدونها أيضا .

ولابد أن نتساءل معا : ما هو الشكل المطلوب وكيف يكون حتى لا نتجاوز بذلك الحدود المسموح بها .. أى الحدود التى يكون من ورائها الغم والكرب العظيم ؟ .

ومن المؤكد أن الذين شاركوا فى عمل الفوازير ليس عندهم وقت للضحك عليها والاستمتاع بها.. فالانسان لا يضحك إذا رأى نفسه يروى نكته.. لأنه لا يذكر إلا تعبة، وإلا عيوبه، وأسفه على أنه لم يكن أفضل فى أدائه.. ولكن من المؤكد أيضا أنه كان فى استطاعة جميع العاملين فى الفوازير أن يكسبوا مئات الألوف لو انتجوها فى بلاد عربية أخرى.. غير أنهم فضلوا ملاليم مصر على ملايين غيرها ــ أما أسف هؤلاء الفنانين بعد ذلك، فبسبب عدم الامتنان لهم من الذين يخافون على أنفسهم اذا أسرفوا فى الضحك!

أو لأسباب أخرى..



لى صديق عاقل ومنطقى. وكل شىء له معنى وله أول وله أخر. له وجه يشبه الراديو.. وطبع بارد هادىء شفاف. وعداد أرقام. لاينفعل. ونحن نصفه بأنه حاسب الكترونى. وأنه استطاع، أن يخلع قلبه من صدره ويضعه فى مكان ما، باعتبار أن القلب مثل الزائدة الدودية لاضرورة له فى هذا العالم.

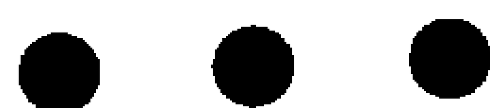
وقد اعتاد على أن نصفه بذلك. واعتدنا على أنه لايعلق بشىء! ومنذ أيام جلست إليه. وقلت له: قل لى..

وقال الرجل ما لم أصدقه. فهو انسان ككل الناس. وله فلسفة تقول: أن مايخصنى لايهم أحدا. وليس من الطبيعى أن يهتم أحد بأحد. وانما الناس من عادتهم أن يتسلوا على مصائب الأخرين. وهو لايريد أن يكون تسلية لأحد. أو مثيرا لاستطلاع الناس.. انه يحب..

وهذا الحب قد جعله مراهقا يجرى على التليفون ويضع اذنه على باب محبوبته ولو استطاع أن يزيل الجدران بعينيه أو أذنيه أو أظافره لفعل. ولاسلطان له على مشاعره. انها تفترسه من داخله. انها تزلزله وتزعزعه. انها قد جعلته صغيرا بلاعقل، مراهقا بلامنطق، انه ليس الحاسب الالكترونى. وانما هو جهاز تكييف ياتى بالهواء من ناحية و يزفره باردا أو ساخنا من الناحية الأخرى.. وهو كجهاز التكييف يحترق ليستمتع الأخرون.. وهو لايشكو من شىء. ولايشكو أحدا. أن دوره فى الحياة هكذا.

وقد استراح إلى أن كل انسان له دور.. فواحد دوره: أن يكون شجرة تكتوى بالشمس، وينام الناس فى ظلها.. وواحد دوره أن يكون الشمس نفسها، يضىء ويكون مصدرا للحياة، مع أن الشمس نفسها ليست بها حياة..

مصيبته الكبرى: أن الحب ليس حلا لمتاعبه، وانما الحب نفسه هو المتاعب.. فقد أصيب بالذى لا علاج له، لأن الحب لا هو داء ولا هو دواء وإنما هو العقل والجنون معا!



أمسك أى صعيدى من الطريق العام أو من زوار التليفزيون والاذاعة واقفل عليه الاستديو واجعله يقرأ معظم مسلسلات رمضان.. فإذا نجحت فى ذلك فقد حققت المعجزة التى أطالب بها من عشرين سنة.

فلا الاذاعة ولا التليفزيون يعرف كيف يتكلم الصعايدة والدمايطة والبدو.

وإذا كان عندك أى شك فى جدية ما قلت الآن، فانتظر مدفع الافطار حتى تنهال عليك الملونات والمسجلات وتصاب بذهول لأنك لن تعرف من أى البلاد هؤلاء الناس الذين ملأوا الميكروفون والشاشة.

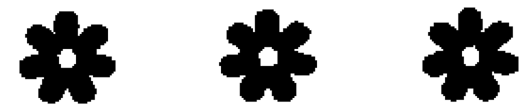
ورغم انتشار أجهزة التسجيل وقبلها الاسطوانات فنحن لا نحتفظ فى «مكتبة» الاذاعة بتسجيل اللهجات المصرية الصحيحة.

ومن المؤكد أننا لا نحتفظ باللهجات العربية.. فقد اخترعنا لأنفسنا «لهجة سينمائية» لا وجود لها فى الجزيرة العربية أو الصحراء الغربية. واقتنعنا بأن المصريين هكذا يتكلمون فى محافظاتنا النائية، والعرب فى السعودية، والشوام فى سوريا ولبنان والأردن، والمغاربة فى تونس والجزائر ــ منتهى الاهمال والكسل واللامبالاة والتزييف.

وما يقال عن اللهجات يقال أيضا عن الأزياء.. فالذى تراه على الشاشة من ملابس العرب على أيام الرسول عليه الصلاة والسلام، لا نظير لها الآن فهى تركية فارسية قوقازية؟

وإذا اعدنا السمع إلى لهجات المسلسلات فمن المستحيل أن تكون عربية وإنما هى بدوية لبنانية تركية قبرصية.. ومن المضحك حقا أن نجد مجموعة من الصعايدة «يطجنون» وكأنهم جنس بشرى مختلف عنا تماما؟

ثم ما هى ضرورة أن يتكلم الصعايدة لهجة صعيدية؟ ألا يوجد صعايدة قد نسوا لهجتهم؟ أنا لم أعد أعرف لهجة أبناء الدقهلية. فقد بعدت عن موطنى ومولدى كل سنوات الدراسة.. إذا كانت الضرورة تقتضى ذلك، فالضرورة لها أحكام: ومن أحكامها الأمانة التى تحتم أن يكون الانسان جاداً لا مستخفا بملايين المستمعين.



الحديث النبوى الشريف يقول: أبدأ بنفسك ثم بمن تعول. أى عليك أن تبدأ بالنظام والنظافة والتدبير فى حياتك أنت، وبعد ذلك أطلب هذا من أى انسان آخر فى بيتك أو فى مكتبك. أو بعبارة أخرى كن أنت النموذج الصحيح لما تطالب به غيرك من الناس. أى يجب أن تكون قد اقتنعت أولا، وعن طريق اقتناعك تستطيع أن تقنع الآخرين..

وهذا الحديث من الممكن أن يكون اجابة على السؤال الذى له ماض سحيق ومستقبل طويل عريض أن شاء الله: وما الذى نفعله من أجل مصر!

فى استطاعتك أن تفعل أى شىء، وكل ما تستطيع. لماذا؟ لان الذى تحتاجة مصر هو كل شىء من كل انسان.. من الورقة التى نلقيها فى الشارع إلى أقفال الحنفية حتى لا يتساقط الماء فى بيتك إلى عود الكبريت تصنعه وتبيعه وتستهلكه. وكل هذه أشياء صغيرة، ولكنها ليست تافهة. فكل شىء مترابط بعضه ببعض فى المجتمع كترابط أظافرك بالمراكز البعيدة فى مخك.. كل شىء مترابط ولكنك تنسى ذلك، أو لا تدريه..

مثلا: إن انكسار حنفية المياه فى ميدان التحرير قد أدى إلى وفاة تلميذ صغير فى شبرا.. تلميذ وحيد أبويه قد اشتريا بكل ما فى وسعهما ملابس جديدة. وبخراه من عين الحسود قبل أن يخطو عتبة الباب. ثم حدث ما حدث. لماذا؟ لأن الحنفية عندما انكسرت فى ميدان التحرير تحولت كل المواصلات وتزاحمت وتعطلت وتغيرت الطرق.. واختنقت

شرايين المرور فى وسط القاهرة وفى شبرا مما أدى إلى أن طفلا صغيرا مات فى مكان بعيد عن انفجار ماسورة المياه..

أن الاديب الالمانى اشنتسلر له قصة معروفة تقول أن فراشة استطاعت أن تنقل التاج من رأس إلى رأس فى أحدى الممالك.. لقد هربت الفراشة أمام انسان يلهث فى طريق خطأ فوق أحد الجبال. فطارت الفراشة ودخلت نافذة غرفة نوم ولى العهد وولى العهد طفل صغير. ولم يكن قد رأى فراشة فى حياته.. فلما فوجىء بها مات.. وانتقل العرش إلى أسرة أخرى، والسبب أن رجلا أخطأ طريقه إلى قمة الجبل فى مكان بعيد عن ولى العهد وعن الخلافات فى الأسرة المالكة..

فكل شيء مرتبط بعضه ببعض.. أنت والذين حولك فى أسرتك وفى المجتمع وفى مصر كلها:

قالوا...

** أحترس: هذا أفضل.. إلا فى الحب!

** الناس كذابون مرتين: لأنهم يكذبون وبسبب المرور!

كل شيء مضحك مادام يحدث لانسان آخر!



لا أعرف عمدة باريس، ولا أنت تعرفه. ولكن إذا عرفت البرنامج الذى أعده جاك شيراك عمدة باريس فأنك سوف ترفع يدك بالسلام والتحية لهذا الشعب الفرنسى العظيم.. فهذا الشعب هو الذى اختار هذا العمدة. والعمدة يريد أن يؤكد لابناء باريس، وفرنسا كلها، عظيم امتنانه.. ومن مظاهر امتنان جناب العمدة أنه أعلن برنامجه للسنوات القادمة..

فقد أعلن أنه سوف يجعل باريس مركزا فنيا عالميا. وأن تلتقى فى باريس كل الروائع العالمية. بعد أن سرقت لندن منها هذا المركز الحضارى فكل مؤلف مسرحى لابد أن يعرض أعماله فى لندن و وألا كان شخصا مجهولا. فإذا عرفه الانجليز فقد عرفه العالم كله. قال لى الكاتب السويسرى ديرنمات: أن مسرحياته أثارت اهتمام القارئ السويسرى عندما قرأ عنها فى الصحف الانجليزية!

وأعلن العمدة أنه سوف يجعل الثقافة فى متناول الجميع.

وقبل ذلك أعلن الفيلسوف الفرنسى مالرو ووزير الثقافة أيضا، أنه غسل وجه باريس.. عندما غسل دار الأوبرا والمسارح. فقط غسل وجهها. ولم يكن فى حاجة إلى غسل شوارعها وميادينها، فهى مغسولة من مئات السنين!

وهذا العمدة الجديد قرر أن تكون باريس مركزا للنشاط العالمى ومركزا

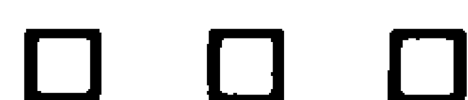
للنشاط الأقليمى أيضا. فأبناء الاقاليم يجب أن يعرضوا فنهم وأدبهم فى العاصمة أيضا.

ولذلك قرر بناء مسارح صغيرة كثيرة. لأنها أهم من المراكز الفخمة الضخمة للمسرح والموسيقى. وقرر أن يفتتح المتاحف ليلا مرة كل أسبوع حتى العاشرة مساء.

وقرر انشاء معهد للموسيقى فى باريس — ففى فرنسا كلها ٢٤ معهدا وأعلن أن هدفه هو تشجيع الشباب وأعلن أنه سوف يقدم معونات خاصة للأعمال المسرحية الجيدة. وأنه سوف يشجع مسرح الشارع والمسرح المتنقل..

ولم يعلن عمدة باريس أنه سوف يكنس الشوارع، ويرصف الأرصفة، وأنه سوف يمنع الضوضاء، ويعاقب الذين يخالفون قواعد المرور، ويقطع رقاب الذين يستخدمون الميكروفونات فى ضرب النائمين والمرضى، وأن يرش الحدائق — حتى لا يكون ذباب أو بعوض — لا شىء من ذلك. فقد تجاوزت باريس هذه المصائب المتراكمة. ولذلك فهمومها الكبرى: حضارية.

ألا ترى أن الشعب الذى اختار عمدته هذا، شعب عظيم!



لا حبا في الأطباء ولا كرها لهم، أكتب كثيرا عن الأطباء. ولكن عندما أتحدث عن الأمراض لابد أن تأتي سيرة الدواء والداء والطبيب ــ وهذا طبيعي. ولا يوجد إنسان لا يقول: آه من ألم في مكان ما في جسمه، أو ركن في نفسه.. أو علاقة تربطه بانسان.

ولابد أن أكون واحدا من هؤلاء أو كل هؤلاء. ولا يوجد طبيب لم يدر بيني وبينه كلام. ولا يوجد حوار لم أحتج في فهمه إلى العودة إلى المكتب أو القواميس أو دوائر المعارف. فأنا لست طبيبا. ولكن أريد أن أفهم ما هذا الذي يجري في داخلي أويلتوي أو يتلوى في جوانبي أو أعماقي.. أريد أن أفهم.. وهذه الرغبة في الفهم والاصرار عليه: هي المرض الذي لا علاج له. بل أنه المرض الذي أعيش فيه وأعيش عليه وأتوجع منه، وعندما أبكي على نفسي فأنني أبكيه أيضا ــ ولا مفر منه إلى أي شيء آخر..

وأتذكر الان ما دار بيني وبين طبيب الماني في برلين. سألني: طبعا بلادكم حارة. وفيها تراب. قلت: طبعا.

قال: وعملك يقتضيك أن تذهب إلى مكتبك مبكرا. قلت: لا ونعم.. فأنا أصحو مبكرا وأذهب إلى مكتبي في البيت بعد لحظات من يقظتي وأظل أعمل. وبعد ذلك أذهب إلى مكتبي لاكمل عملي..

قال: وعملك منظم.

قلت: أحاول أن أجعله كذلك.

قال : وأنت تدخن والناس يدخنون فى مكتبك. وتشرب القهوة وحدك ومجاملا. وتناقش وتتوتر أعصابك ولا تنام الظهر. وتحاول أن تنام فى الليل. ولكنك تصحو مبكرا. ومن الضرورى أن تتناول عشاءك.. لأن العشاء بالنسبة لك ليس سببه الجوع، ولكن سببه أن حالتك عصبية وأنك تتوهم أن الطعام سوف يأتى لك بالكسل والكسل يلقى بك إلى الفراش وتنام.. ثم لا تجد إلا القليل من النوم.

قلت : هذا تشخيص أو علاج.

قال : علاج ..

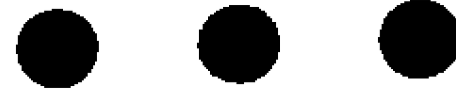
قلت : ولكن ليس هذا علاجا.

قال : لأنه لا علاج.. لأنه إذا غيرت نظام عملك تغير نظام حياتك..

قلت : ليس عندى أمل.

قال : ولا عندى علاج!

ومنذ قابلت هذا الطبيب العظيم وأنا أمشى على علاجه حرفيا !!!.



أشفقت على چاكلين كنيدى يوم مقتل كنيدى. وسبب أشفاقى أنها حرمت من هذه الشخصية الغريبة على التربة الأمريكية. فقد كان رجلا شجاعا وكان رجلا يريد السلام. والذين قتلوه هم اليهود. لأنه يريد أن يخرب مصانع الدمار الأمريكية بالسلام فى العالم. وأصحاب المصانع والمصالح هم يهود أمريكا فالذى قتله يهودى. والذى قتل القاتل يهودى آخر..

ويوم الصلاة على جثمان كنيدى.تقدم قسيس كاثوليكى يمسك يد چاكلين ويداعبها. مستغلا هذا الموقف الذليل. أو لعل هذه الذلة قد أثارته جنسيا وظلت الصحف الأمريكية تتابع چاكلين أينما راحت.. وأشفقت عليها من الذين يعيشون على النظر من ثقب الباب، فإذا لم يكن للباب ثقب خلعوا الباب أو ثقبوا الجدران.. ليرى العالم ويسمع ويتخيل چاكلين عارية..

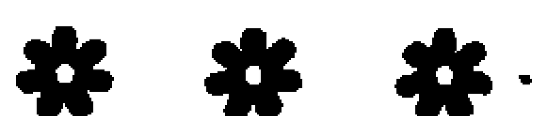
وأشفقت عليها من أبناء مهنتى فى كل مكان. وآمنت بأن الصحافة والميكرفون والشاشة أماكن لتعذيب الناس من أجل متعة الآخرين ــ منتهى القسوة على الناس من أجل الناس.

هربت چاكلين إلى أوروبا. والصحف ترشح لها كل يوم عريسا من ايطاليا ومن المانيا. ولكنها مصرة على أن تستريح. وأن تكون لها حياة خاصة. أما زوجها كنيدى فلا خوف عليه. فهو رجل دخل التاريخ. ولن يخرج منه. وقد عاش من أجل مجده هو. أما هى فقد كانت تعيش فى

ظله. هى كانت تعيش عليه، وهو لايعيش عليها ولايعيش لها. فما تبقى عنده من وقت، يعطيه لها ولأولادها.. هكذا تعيش زوجات العظماء على فتات العظمة، أو ما يتبقى منه. ولا يتبقى منه عادة إلا القليل.. والقليل هو مرضه ووحدته وهمومه الثقيلة!

وأشفقت عليها.. وتزوجت أوناسيس وأنكرها العالم كله لأنها اختارت «بدل فاقد».. فلا هو شاب ولا هو وسيم.. ولكن قررت أن تهرب مع صاحب الياخت وصاحب الجزيرة وصاحب شركات الطيران وناقلات البترول. وقالوا: أنه رجل فى غاية الفحولة.. ولا يمكن أن تكون قد اختارته بالصدفة.. وانما بالتجربة!

ومنذ شهور قليلة عرف العالم كله حقيقة الأرملة جاكلين كيندى. فلا هى هاربة من الصحفيين. ولا هى غاضبة من أسرة كنيدى. ولا هى كانت تبحث عن الحنان مع أساطير الاغريق.. ولكن هناك قصة حب. فقد كان جون كنيدى يحب مارلين مونرو، أجمل وأشهر سيدة اغراء فى التاريخ. ولابد أن جاكلين قد سمعت وتأكدت ولكنها اختارت الصمت على الهوان حتى لا ينهار زوجها، وحتى لا تكون اضحوكة العالم كله.. فلما اغتيل الرجل، كانت هى قد دفنته قبل ذلك. ولما مات لم تتوقع أن يكون انتقام السماء هكذا سريعا قاسيا، فبكت على ما أصابه وما أصابها معه ومن بعده ــ وعذرتها، ولكن لم أعد أشفق على ملايينها!.



نحن قد نسينا ويلات وانتصارات حرب أكتوبر. نسينا لأننا نريد أن ننسى العار الذى أغرقنا قبل هذه الانتصارات العظيمة. ثم أننا كمدنيين لا نعرف بالضبط معنى الحرب.. معنى الاستعداد الأليم لها. ومعنى النار التى اطلقتها قواتنا على عدونا ولا شكل النار التى رد بها العدو.. ولا سمعنا صرخات النصر ولا صرخات الألم.. ولا بالضبط ما الذى أحدثناه.. إن مناحم بيجين لم ينس فى كامب ديفيد أن السادات قد هاجمه يوم عيد الغفران ـ كأنه مفروض علينا أن نستأذن عدونا فى أن نحاربه وأن ننتظر عليه حتى يأكل ويشرب وينام ويستعد للقضاء علينا!

ونحن لم نعرف أين أصبنا عدونا.. وفى أى مكان من القلب ومن المخابرات ومن الغرور والغطرسة. كل ذلك قبل وبعد الحرب.. وظننا بسبب عدم ثقتنا بأنفسنا. أن الذى نقوله قد بالغنا فيه.. وأننا نمدح أنفسنا أكثر مما نلومها..

ولكن الذى قاله العدو كان أروع فقد صدرت كتب كثيرة فى اسرائيل.. وصدرت المحاكمة الرسمية لجنرالات اسرائيل فى تقرير معروف باسم تقرير «اجرانات».. وقد تصورت أنا بسذاجة عندما كنت فى القدس أنهم سوف يعطوننى هذا التقرير.. وطلبته من قائد المظلات الذى كان يعمل ياورا للرئيس السادات وقد حصل على الدكتوراه فى أدب نجيب محفوظ. ولكنه لم يفعل.

وصدقت أيضا عندما قال لى مذيع التليفزيون المصرى فكتور نحمياس: شبيك لبيك عبدك بين أيديك، اطلب تجد!

وطلبت تقرير القاضى اجرانات ولم أجده.. وأنا أعرف شعور السيد حسنى مبارك، أحد أبطال حرب اكتوبر عندما تابع بلهفة واعجاب «مذكرات اليعازر» التى تنشرها مجلة «أكتوبر» وطلب أن تصدرها بسرعة فى كتاب.. فهذه المذكرات حفلات تكريم مستمرة لجيش مصر وقيادة مصر جاءت على لسان عدو، لا بقلم صديق..

إن ما أحدثته حرب اكتوبر كان الديناميت الذى نسف جبل المرارة وفتح فيه ممرا إلى القدس ثم إلى كامب ديفيد ثم إلى العريش ورأس محمد حتى حدودنا الدولية والضفة الغربية والجولان والقدس فى سلام إلى الأبد!



فى بريطانيا مثلا تجد الأحزاب أثناء المعركة الانتخابية لاتتعرض للقضايا القومية ، أو علاقة بريطانيا بدول الكومنولث . لأنها قضية خطيرة معقدة سياسيا واقتصاديا وعنصريا وجغرافيا .. وهذا اتفاق ليس مكتوبا بين الاحزاب . ولكنه اتفاق وكثيرا مايلتقى رئيس الوزراء بزعماء الاحزاب ليناقشوا هذه القضية . ويكونوا رأيا معلنا أو ليس معلنا .

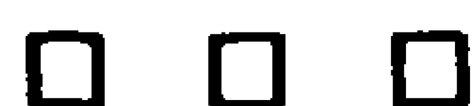
وبذلك تتفادى الدولة الوقوع فى مشكلة متفجرة شديدة الحساسية . ونحن فى مصر لم نفلح فى أن نتفادى قضية الدين .. أو الأديان أو الوحدة الوطنية فيكون هناك اتفاق بين زعماء الاحزاب أو بينهم وبين رئيس الدولة على عدم اثارة المشاكل الدينية . وليس معنى ذلك أن تفادى هذه المشكلة يقضى على وجودها أو على أثرها فى قرار الناخبين . فالدين هناك . والايمان أيضا . والخلافات الدينية والمذهبية موجودة .. ولكن نحن فقط نتفادى اشعال الفتنة بين المواطنين .

وقد يقال أن هذا تدخل فى حرية العقيدة أو حرية التعبير .. أو القضاء على نظرية فى السياسة أو نظرية الحكم لله .. كما جاءت فى الكتب المقدسة . ولكن الشعب المصرى . غير المتعلم ، ليس جاهزا لكل هذه القضايا العميقة الجذور . وليس أخطر من التلاعب بعواطفه ، من أجل مقعد أو اثنين فى مجلس الشعب .

ولكن من المؤكد أن الوقت سوف يجىء بعد عشرين عاما . بعد ثلاثين .. وفى ذلك الوقت سوف تتغير النظرة الشاملة إلى الدين . وسوف

يكون حزب دينى وسوف يكون له من يتحدث باسمه .. ولا أحد يستطيع أن يمنع حزبا بعد ذلك من أن يكون اسمه حزب الشعب الاسلامى أو الأحرارالمسلمين أو الوفد المحمدى .. أما الآن، فلنتق الله فى مصر وفى شباب مصر وفى مستقبلها.

فنحن على العتبات الأولى لاحترام كل الآراء المختلفة، حتى تصبح قادرة على الدفاع عن مصر ومعتقداتها فى الدين والسياسة ..



وتعالت الأصوات تقول : يا أخى أنت الاكبر يجب أن تتحمل أخطاء أخوتك الصغار. قلبك كبير. وصدرك واسع. وليس هذا أول. ولن يكون آخر، من يفعل ذلك!

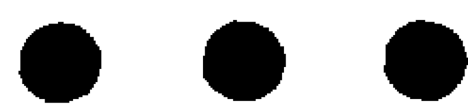
أما الموضوع فأن أحد الصغار قد تهجم على أحد الكبار. ويرى هؤلاء الاصدقاء أن من دواعى العظمة أن يكون الانسان متسامحا مع الصغير، صابرا عليه، غفورا رحيما به. كل هذا ممكن!

ولكن لماذا لا يطالبون الصغير باحترام الكبير، والاعتراف بقدره. إن هناك حدودا للاحتمال. وحدودا للصبر. وإذا كانوا يطالبون الكبير بأن يتحمل، فلماذا لا يطلبون من الصغير أن يكون مؤدبا مهذبا. وأن يعرف للكبير قيمته ووزنه.. وأن يراعى المسافات بين الناس. ثم لماذا لا يحاسبون الصغير إذا أساء، ولماذا لا يراجع الصغير نفسه. وإلى جانب الأدب، يجب أن يتعلم التروى وحسن التقدير.

وهناك كثيرون من الكتاب ومن الصحفيين والسياسيين شتموا مصر واهانوها وعيروها بالجوع والبطالة والفساد.. وتمنوا لها الهزيمة فى الحرب والفشل فى السلام. وانتصرت مصر فى الحرب وانتصرت فى السلام. وخاب أمل كل هؤلاء الحاقدين والشامتين والمأجورين.

والمطلوب من مصر أن تصفح فهى الشقيقة الكبرى. وهم الصغار. ولكن لماذا نطلب من الكبير أن يغفر ولا نطلب من الصغير أن يعتذر. لماذا يكون الكبير قاسى القلب لأنه لا ينسى، ولا يكون الصغير قليل الأدب لأنه

يريدنا أن ننسى.. إن السكوت عن الصغار اهمال شديد، صحيح أنه من الممكن أن نسكت عن اهانتنا شخصيا، ولكن ليس من حق أحد أن يغفر لمن أهان مصر وعير أهلها وشمت فيهم وشمت فيها. وتمنى لها الهوان في الحرب والذل في السلام!

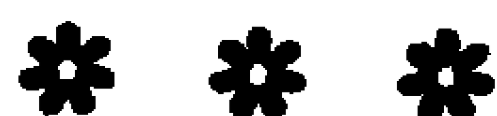


تابعت معركة حرب فوكلاند فى التليفزيون الامريكى لحظة بلحظة. وتعليقى على ذلك أنها معركة لذيذة ومسلية — أى صورتها فى التليفزيون وتدل على تطور فن الصحافة التليفزيونية. فالمذيع يقدم للمشاهدين خبرا سريعا وبعد ذلك صورة سريعة من المعارك ثم يجيء موعد إعلان عن علاج للأمراض الجلدية. ثم صورة جديدة عن الموقف فى القطب الجنوبى ثم يجيء إعلان عن طعام جديد للكلاب. ثم سؤال أحد الخبراء العسكريين عن سير المعارك، وحديث مع مندوب التليفزيون الواقف أمام بيت رئيسة وزراء بريطانيا وإعلان عن غسالة جديدة. وحديث بين المذيع ومندوب التليفزيون الواقف أمام قصر رئيس جمهورية الأرجنتين فى العاصمة بيونيس أيرس. وإعلان عن مبيد للصراصير وسؤال لخبير عسكرى فى شئون المعارك البحرية وآخر عن المعارك الجوية وثالث عن المعارك الشهيرة السابقة فى التاريخ وإعلان عن فساتين العرايس التى يمكن استئجارها..

ثم حديث بين المذيع والمندوبين فى لندن وفى بيونيس أيرس فى وقت واحد عن طريق القمر الصناعى والمسافة بينهما حوالى ٨٠٠٠ كيلو متر، ووصف كامل للصواريخ التى اغرقت قطع الأسطول البريطانى.

إحساسى عندما تابعت هذه التغطية الصحفية الملونة المثيرة إنها عمل ممتع لذيذ وهذا الاعجاب بفن الصحافة التليفزيونية الأمريكية قد جعل قصة فوكلاند، بإعتبار الحرب دموية عند جنوب العالم أو عند قاع العالم، واعتبار الحرب بين دولة عظمى ودولة أخرى، صورة.. كل ذلك حوله

التليفزيون الامريكى إلى عمل فنى لذيذ، وهكذا يتحول الرأى العام الأمريكى من مواطن ومن إنسان إلى متفرج ولا يعنيه إلا أن تطول هذه المسلسلة وأن تظهر غيرها، وبعد نهاية الحرب يذهب بنفسه ليتفرج على آثار المعارك أى أن التليفزيون قد حوله من إنسان إلى متفرج على كوارث البشرية إلى سائح يريد أن يضيف إلى معلوماته شيئا جديدا.



كما أنك فى حاجة إلى أن تتكلم وتعبر عن الذى فى داخلك. فأنت فى حاجة إلى من يستمع إليك حتى ولو لم يشارك فى الحديث. فقط أن تقول، وأن يسمعك أحد...

ولذلك كانت حاجة الإنسان إلى الأصدقاء.. وإلى علماء النفس..

وفى أمريكا يمكنك أن تستأجر أحداً لكى يستمع إليك.. وليس الطبيب النفسى إلا مستمعا متخصصا.. وفى المجتمعات الكبرى ليس لدى أحد وقت ليستمع إلى أحد.. فالكل يجرى ذهابا وأيابا من العمل وفى البيت يجرى من المطبخ إلى السرير إلى الحمام إلى الشارع..

ونحن فى الشرق نتحدث كثيرا ونجلس طويلا ونقول فى البيت وفى المقهى وفى التليفونات. وبذلك نحل عقدة الذين يكلمون أنفسهم. لأن احدا لا يكلمهم..

وقد نشرت شركة امريكية هذا الاعلان العجيب: نحن الشركة الجنوبية للاستماع لولاية فرجينيا: نحن نقدم لك مستمعين مدربين ينصتون إليك مهما قلت ومهما طال الوقت ودون تدخل. وسوف يبدو التأثر على مستمعينا: الخوف والقلق والفرح والسعادة.. ونحن ندعو المحامين والساسة ورؤساء الجمعيات والمصلحين.. ففى استطاعتهم أن يجربوا خطبهم وكلماتهم على مستمعينا. ونؤكد لزبائننا الكرام أننا نخفى أسرارهم تماما.. فتعال واطلق غضبك وضيقك وسوف تجد آذانا صاغية مدربة صامته وسوف تتحسن صحتك. نحن نؤكد لك ذلك..

ومع هذا الاعلان استمارة تسجل فيها ما تريد. إن كنت تريد مستمعا صامتا. أو مستمعا معبرا بوجهه أو ضاحكا بعد كل قصة ترويها أو باكيا.. ثم تكتب أيضا مواصفات المستمع رجلا أو امرأة شيخا أو شابا. وإن كنت تحب أن تشرب معه القهوة أو تلعب الكوتشينه، والوكالة تدفع أجورا عالية للمستمعين حتى تضمن حسن سلوكهم وكتمانهم للسر..

وأكثر الزبائن من الشباب ـ ذهبوا «يفضفضون» فقط.. وفى ذلك راحتهم الكبرى!



أنا لا أخاف من البحر، لأننى لا أنزله فأنا لا أعرف السباحة. وليست من آمالى..

ولا أخاف من التليفزيون أيضا مهما كانت برامجه وحلقاته. وأنت أيضا يجب ألا تخاف فأنا لا أشاهد إلا ما أريد. والذى أريده أعرفه تماما. فالتليفزيون مهما كانت سلاسله ذهبية حريرية فهى غير قادرة على أن تربطنى إليه: عينا وعقلا وقلبا.

وليس صحيحا أن الأطفال ضحاياه. إلا إذا كان موقف الآباء سلبيا. وذلك بأن يتركوا أطفالهم يأكلون وينامون أمامه.

والتليفزيون ليس قادرا على انقاص ساعات القراءة عند أحد من الناس. إلا إذا أراد الناس ذلك.

والتليفزيون قادر على أن ينقل لك الدنيا بالأقمار الصناعية ولكن هذه المعلومات التى ينقلها إليك بسرعة. قصيرة العمر لأنها تولد وتموت بعد لحظات.

أما القراءة فهى أروع العادات الحضارية لأنها تنشط عقلك وتقوى ذاكرتك وتلهب خيالك فتكون أنت الممثل والمخرج والمتفرج وتكون أنت الكومبيوتر الذى يحتفظ بهذه المعلومات لتستدعيها عندما تشاء فى الوقت الذى تشاء.

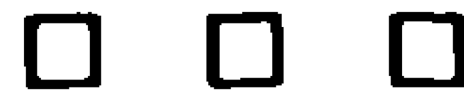
والأرقام تؤكد أن الاذاعة كما لم تقض على الكتاب. فالتليفزيون لم

يقض على الاذاعة والسينما.. ولا أحد يستطيع أن يقضى على القراءة وعلى الكتاب وصناعة الكتاب.

فقد زاد استهلاك العالم من ورق الصحف وورق الكتب إذن فالناس يقرأون بعيدا عن الاذاعة والتليفزيون.

فإن كان لك طفل فأهم ما يجب أن تعمله له هو أن تجعله يعتاد «القراءة».. أن يقرأ أى شيء..أى نوع من الكتب.. أى وقت.. حتى لو كان ذلك فى أيام المذاكرة، بل إن القراءة أيام المذاكرة هى نوع من الهرب والتسلية ــ فلا مانع ولا خوف عليه من ذلك..

فإذا أصبحت القراءة عادة مستحكمة، أتركه ليختار الذى يعجبه وسوف يختار الذى ينفعه والذى يسليه والتليفزيون ينفع ويسلى، لكن الكتب تنفع وتسلى وتطور وتبقى بعد ذلك عادة ومتعة وحضارة.



أحب أن أجلس طويلا وكثيرا إلى الشباب. فقد كنت شابا وأعرف هذه الوجوه. أعرف هذه اللهفة. هذه السرعة. هذا الضيق. هذا التطلع إلى المستقبل. وأعرف أيضا كيف كنت لا أصدق الذين هم أكبر سنا. ولا أزال اتذكر كيف كانت أمي تقول وهى لا تقرأ ولا تكتب: أنت لا يعجبك كلامى. اسأل خالك..

وكان خالى فى مثل سنى. ولا أعرف ما الذى كان يقوله. ولكن أعرف ما الذى كنت أقوله لأمى، وتقوله لى، ولا نتفق. وكنت أصدق ما يقوله أبى، ولم يكن أبى ينصحنى وإنما كان يلقى أمامى بالكتب ويشير إلى بعض الصفحات.. وكنت أحفظ الشعر الجميل والنثر الأنيق. فلم يكن لديه وقت للنقاش أو للنصيحة، وكنت أحب والدى لأنه لا يقول شيئا غير الذى أقوله. فقد كان يوافقنى على رأيى. وخسرت بغيابه كثيرا من الحكمة والسداد.

وأعرف عندما يقول الشباب: ولكنهم لا يفهموننا ولا يحاولون!

فهو يقصد والديه والمدرسين والأساتذة ورجال الدين.

أو عندما يقول لى: ومن أين أجىء بالشقة والثلاجة والسيارة؟

فهو يقصد «العروس» التى يحبها وفى نفس الوقت لا يستطيع أن يتقدم لها، وإنما يسعى إلى ذلك أحد الحرفيين الذين يكسبون بالألوف بينما هو لا يزال يتعثر فى العشرات..

وأعرف بالضبط مامعنى أن يقول: إنهم يدفعون مرتبات شهرية أضعاف ما يتقاضاه فى مصر، ولكنه مرتبط بالأرض والمجتمع المصرى.

وهو يقصد أنه لايستطيع أن يسافر إلى الخارج ويترك والديه وإخواته الصغار. فمن الواجب أن يحمل هذه الأمانة مهما كلفه ذلك..

وأعرف بالضبط الهدف وراء مثل هذه العبارة؛ وكيف أضمن أن صوتى فى الانتخابات سوف يذهب إلى الشخص الذى أريده..

وهو لا يشك فى الأنتخابات، وإنما هو لا يثق فى كل الناس وفى كل شىء. فسوء الظن وعدم الثقة بالنفس وبالغير من أهم معالم الشباب فى كل عصر!

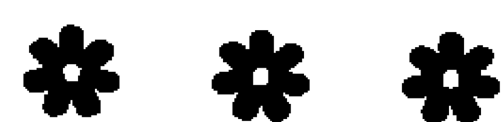


نشرت كل الصحف والمجلات العربية نقلا عن مجلة «تايم» الامريكية بحثا عن مادة الكولسترول وما جاء في هذا البحث هو أن البيض أهم مصدر للكولسترول في الدم. والكولسترول هو هذه المادة الدهنية التي تترسب في الشعيرات الدموية، فتعوق حركة الدم إلى الرأس والأعضاء الأخرى. وأنه مطلوب من الناس أن يعتدلوا في تناول البيض والأطعمة الأخرى الغنية بالكولسترول. وهذا البحث قد تكلف عشرات الملايين من الدولارات وعشرات الشهور وعشرات العلماء.

وقد نشر هذا الموضوع في كل الصحف لأهميته وخطورته على الصحة، وتنبيها للناس حتى لا يكونوا ضحايا البيض وغيره من الاطعمة الأخرى مثل المخ والكبد والكافيار والدهن.. وحاولت أن أعرف من الذين تجاوزوا الأربعين ومن الضروري أن يكونوا أكثر حرصا، فلم أجد ذلك الأثر الذي توقعته. واندهشت. ولكن عندما وجدت الذين اتحدث إليهم يدخنون رغم أن «التدخين ضار جدا بالصحة». أدركت أن الناس يضيقون بالنصائح.. ولا يصدقون الأطباء أو العلماء.. ولا يصدقون ما تنشره الصحف. أو لم تعد «للكلمة» هذه الأهمية أو القدسية.

واحد قال لي: ليست عندي في الدنيا لذة إلا السيجارة.. فكيف أعيش دون أن يكون للحياة أي طعم ؟! واحد آخر قال: حتى لو كانت السجائر ستؤدي إلى الموت، فأنا في حاجة إلى سيجارة لكي أخفف عن نفسي هذا الشعور الفظيع.

وسألت ثالثا فقال لى: إن والدى كان يفطر بعشر بيضات ومات فى الخامسة والتسعين! وكان فى نيتى أن أتحدث عن خطورة وضع اللحم على الفحم، ولكنى عدلت عن ذلك!



لا اعرف نص الحديث النبوى الشريف الذى يطلب إلينا أن نقتصد فى الماء ولو كنا على شاطىء بحر.. وقد يبدو أن الانسان عندما يشرب من بحر لا يمكن أن يكون اقتصاديا، فالماء كثير ومهما أخذنا منه، فلن يؤثر فيه. هذا ما يبدو ولكن المعنى الذى قصده الرسول الكريم هو أن يكون الاقتصاد مبدأ. وأن يكون هذا المبدأ منطبقا على الغنى والفقير، على الكثير والقليل.

مثلا: نحن جميعا نفتح حنفية المياه دقائق لكى نستخدمها ثانية واحدة. أى أننا نغسل أيدينا بجردل ماء مع أن كوبا تكفى لذلك. ونفعل نفس الشيء فى الأرض الزراعية نغمرها بعشرات الألوف من الأمتار، مع أن المئات تكفيها تماما. ونفعل ذلك فى الطعام أيضا. فلا توجد مائدة مصرية، كبيرة أو صغيرة، لا يتبقى منها طعام. على عكس المائدة الأوربية والأمريكية، فالناس يضعون أمامهم ما سوف يأكلونه بالضبط فلا يتبقى منه شيء. هل هذا بخل؟ انه تدبير.. اقتصاد.. حساب.. ولأنهم قد عرفوا علم الحساب فقد انتقلوا من مرحلة أن يعدوا على أصابعهم مثلنا، إلى اختراع الحاسبات الالكترونية ووضعوها فى جيوبهم..

ومن سفاهات المصريين ما نفعله جميعا عندما ندعو إلى وليمة فى بيوتنا. أن الطعام الذى نقدمه يكفى لضعف المدعوين. فإذا دعونا خمسة قدمنا طعاما يكفى لعشرين. وهذا سفه وإسراف.. ولكنه مظهر سخيف من مظاهر الكرم أو الثراء.. فماذا يحدث عادة؟ يتبقى أكثر الطعام ويفسد معظمه.

ثم أننا بعد ذلك نصف أنفسنا بالعبط وضيوفنا أيضا !

وسوف يجيء شهر رمضان المبارك، كما جاء قبل ذلك دليلا على أنه ليس شهرا للصيام وإنما هو شهر للتخمة والاستدانة والارتباك المعوى لأننا نجمع بين الساخن والبارد والحلو والحادق، والشوربة والكنافة والنوم والسهر.. وليس ذلك من الدين فى شيء. لأنه ليس من العقل ولا من الاقتصاد ولا من مبادئ علم الحساب !



في القاهرة أشكال وألوان من الذين يؤرخون لمقدمات السلام بين مصر واسرائيل وما سوف يكون بعد ذلك. وكأنما قرروا ألا يتركوا شيئا دون دراسة. فبعضهم يجمع أخبار الجرائم والزواج والطلاق، وبعضهم يجمع القصص والقصائد. وأغرب التعليقات السياسية.

ولكن واحدا جادا جدا جاء يجمع النكت التى قيلت بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ وبعد وفاة الرئيس عبد الناصر.. ثم النكت التى انطلقت جديدة أو قديمة أو معدلة بعد اغتيال الرئيس السادات. ويقارن بينها وبين التى انطلقت فى فرنسا بعد وفاة ديجول وفى إيطاليا بعد اغتيال موسولينى وفى المانيا بعد انتحار هتلر وفى روسيا بعد وفاة ستالين وخروتشيف وفى أسبانيا بعد وفاة فرانكو.

وقد أحصى هذا الباحث الأمريكى عدد النكت فى مصر بما يقرب من ثلاثمائة نكتة. أكثرها نكت معدلة ـ أى قيلت قبل ذلك ثم أدخلت عليها تغييرات تناسب الظروف والاحداث والأسماء..

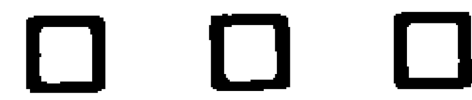
ومن الغريب أن هذا الباحث قد كلفته بهذه المهمه هيئتان: هيئة سياسية اجتماعية واحدى شركات السينما العالمية.

وفى القاهرة أيضا من يبحثون بين طلبة المدارس وعن رأيهم فيما حدث ـ فى أى شيء حدث ابتداء من حرب أكتوبر حتى الانسحاب من سيناء. ولهؤلاء الباحثين نظرية وهى أن هؤلاء الصغار يتميزون بالتلقائية ـ أى أنهم يعبرون عن مشاعرهم الصغيرة دون تحفظ أو دون تفكير.. وفى

نفس الوقت يعكسون وجهة نظر الأسرة المصرية والمجتمع المصرى ــ أى الأسرة التى فكرت وقررت وجاء قرارها رأيا محددا يردده الصغار دون أن يعيدوا النظر فيه !

اذكر أن بأحثا جاء من كندا وطلب أن يزور أحدى مدارس الأطفال ليسألهم عن رأيهم فى السلام. فاقترح فكرة بسيطة وهى أن يطلب الاطفال أن «يرسموا» السلام. وذهب إلى إحدى المدارس ووزع على الأطفال ورقا وأقلاما وقال لهم: ارسموا.. ثم جمع هذه اللوحات البسيطة مع لوحات رسمها أطفال اسرائيل وأقام منها معرضا: السلام كما يراه الاعداء!

ولم يفعل أحد فى مصر شيئا من ذلك.



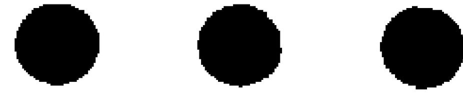
آخر مرة رأيت فيها المتحف المصرى كانت فى رفقة أربعة من رواد الفضاء الأمريكان والعالم المصرى فاروق الباز والمرحوم يوسف السباعى وكان وزيرا للثقافة فى ذلك الوقت. وكانت هذه الزيارة تحقيقا لرغبات رواد الفضاء وكان من الصعب علينا فى ذلك أن نفرق بين أرض المتحف والسقف. أو بين تراب الشارع والتراب المكدس فى الفترينات الزجاجية ولابد أن الامريكان اعتقدوا أننا قصدنا ذلك، حتى نهيىء للتحف نفس البيئة التى كانت فيها..

وجاءت احدى موظفات المتحف وشرحت لنا مالم نكن نعرف. وقد حاولت أن تكون مفيدة قدر استطاعتها. فكانت تخرج منديلها من جيبها وتمسح به العرق وتمسح به التراب من فوق الزجاج. ولاجف العرق ولا ذهب التراب.

وفجأة وجدنا واحدا من الرواد قد اتجه إلى جانب من القاعة ووقف أمام طائر أبيض وأكد لنا أنه ليس طائرا وانما هو نموذج لطائرة شراعية. وراح يفسر لنا ذلك وكان من رأيه أن تتقدم هذه الطائرة فتخرج من الركن المظلم إلى مدخل المتحف لتلقى من الناس الاحترام الذى تستحقه ــ فقد عرف الفراعنة الطائرة الشراعية قبل ألوف السنين!

ولما تحدثت كل الصحف العالمية عن «الثورة الثقافية» التى أحدثها فى هدوء السيد عبد الحميد رضوان وزير الثقافة، ذهبت أرى.

فوجدت أن متحفا قديما قد وضع فى مكان جديد واطار جديد. مع أن الذى فعله الوزير ليس إلا غسل وجه المتحف واشاعة النور والنظافة والنظام ولا أعرف كيف فاتنا أن نفعل ذلك منذ وقت طويل. ولكنها لفتة ذكية انتهت إلى قرار حاسم وتغيير شامل لم نشعر به فى مصر ولكن كان له دوى هائل فى عواصم الحضارة الغربية.. وتضاعف دخل المتحف إلى عشرين مثلا فى اليوم الواحد. لأن مصر قد غسلت «وجه المتحف» وأرضه ويديه!



قرأت مقالا غريبا لكاتبة يابانية تقول:
«إن الصناعات الأمريكية غليظة كبيرة وليست ناعمة ولا ألوانها جذابة!»

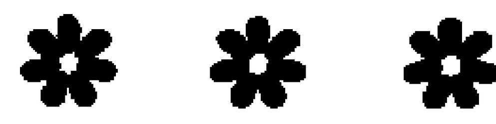
والغريب فى هذا المقال أنه خرج على عادة اليابانيين فى ألا ينتقدوا أحدا وإذا كان لابد من النقد. فليس بهذه الصراحة. وإذا كان بصراحة، فليس ضد الامريكان. فمن تقاليد اليابانيين أن يدرسوا الاسواق ويعودوا إلى مصانعهم ليصدروا ما يحتاجه الناس فى كل مكان. ثم لا يكتبون عن ذلك كلمة واحدة.

وأذكر اننى عندما زرت اليابان لأول مرة كان سنة ١٩٥٩، وقد بهرنى الراديو الترانزستور الذى يحمله الباعة فى «قفة» أو فى حقيبة يمرون بها على الفنادق. واشتريت واحدا وحملته فى يدى. وفجأة وجدت غطاءه البلاستيك قد وقع على الأرض. ودخلت أحد محلات الراديوهات أشكو. وأجلسونى. وأتوا بواحد جديد مع الانحناء الزائد عن اللزوم وظهر رجل قدموه لى على أنه مندوب الشركة واعتذر. وطلب منى أن أزوره فى مكتبه. وأنه سوف يزورنى عندما يجىء إلى القاهرة. وجاء إلى القاهرة ومعه راديو أنيق قائلا: لقد أصلحنا هذا العيب.. كل ما هناك هو زيادة نصف مليمتر فى الغطاء لكى يكون محكما!

ومرة أخرى اشترى صديق كاميرا.. وحاول أن يفتحها فلم يستطع وذهبنا إلى أحد محلات هذه الكاميرات. وانقلبت الدنيا.. وظهر مدير المعرض والمدير العام وصاحب المصنع. واعتذروا بأن هذه هى الغلطة الوحيدة فى أكثر من نصف مليون كاميرا..

تقول الكاتبة اليابانية طويلة اللسان فى اليابان عندنا ميزة لايشاركنا فيها أحد: أننا ننظر إلى كل سلعة على أنها مؤقتة، ولذلك يجب تغييرها وتبديلها وتحسينها وتصغيرها وجعلها أرخص وأكثر انتشارا فى أسواق أوروبا وأمريكا!

ولسنا فى حاجة إلى رأيها فى صناعتنا المصرية فنحن نعرف ذلك جيدا.. ويدفعنا الحماس الوطنى الا نقارن بينها وبين منتجات اليابان وأمريكا، ونجد فى «أحلام اليقظة» هذه متعتنا الكبرى!!



اليهود لهم رأى صحيح وهو: أنه لم يخلق الصهيونية ألا اضطهاد العالم كله لليهود.

أى أن اضطهاد الشعوب كلها للشعب اليهودى جعلهم يتماسكون ويتضافرون ويتحايلون ويتربصون من أجل أن يكون لهم وطن فى أى أرض.. ثم زادهم الأضطهاد تعصبا إلى أن يكون لهم وطن فى فلسطين المغتصبة!

ويوم أنهدم عليهم المعبد أقام اليهود لهم معبدا هو كتاب «التلمود».. وأصبح دينهم مثل النوتة الموسيقية وزعوها على ملايين العازفين فى كل مكان، ويوم أستعدوا لقيام الدولة كانوا ملايين العازفين الحافظين للحن واحد فلما ارتفعت عصا المايسترو أدوا نغما واحدا، رغم أنهم لا يعرفون بعضهم البعض!

ولكن اضطهاد إسرائيل للعرب لم يخلق «الوحدة العربية» ولم يخلق «القومية الفلسطينية». أن قيام إسرائيل قد أدى إلى نوع من المقاومة العربية فقط. ولأن وقوف العرب لم يكن منظما ولم يكن مدروسا. فقد أدت كثرة العرب واختلاف أنظمتهم وزعامتهم وغرورهم وأطماعهم إلى تفرقهم. وقد أدت الضربات الاسرائيلية المركزة إلى مضاعفة تمزيق العرب مرة بعد مرة.

وإذا كانت هناك ضحايا لكل شيء فهم الشعب الفلسطينى، الذى

قتل منه الملك حسين أضعاف ما قتل الرئيس حافظ الأسد الذى كان ضحاياه أضعاف ما قتلت اسرائيل !

والعربى الفلسطينى حائر، وهو معذور إذا تساءل : أين هو العدو الحقيقى للشعب الفلسطينى.. هل هى إسرائيل التى أحتلت أرضه وقتلته.. أهى الأردن التى قتلته وتريد أن تحتل بقية أرضه ؟ أهى سوريا التى ذهبت لأنقاذه فقضت عليه ؟ ثم أن بقية الشعب الفلسطينى يعيش فى البلاد العربية الأخرى. ومن الصعب أن يكون له رأى أو قرار أو جيش ليحارب إسرائيل ؟ فهل تستطيع الدول العربية التى ألتقت فى بغداد ضد مصر وليست ضد إسرائيل. أن تحقق القومية الفلسطينية من أجل تحريرها من القومية اليهودية.. أننى أدعو الله مخلصا أن تفلح فى ذلك !



أنت الان تعرف كل وجهات النظر فى مستقبلك .. كل الأحزاب قد نشرت «الوصفة السحرية» لاصلاح الحال فى مصر، وما بين مصر والبلاد العربية، وما بينها واسرائيل، وأمريكا وروسيا .. وعندك فكرة واضحة عن الذى سوف تعمله مصر من أجل وقف النار فى الأبار حتى لا تتسلل أمريكا وروسيا تحت سحب الدخان إلى ايران والعراق وغيرها .. ويتحول الخليج بحرا أسود أو أحمر أو أبيض أو بحرا للظلمات ..

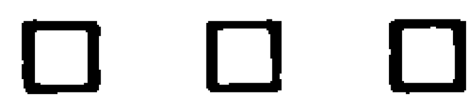
وإذا شعرت بالضيق من هذه الهموم الجديدة، فلا بد أنك حريص على أن تعرف ما الذى ستفعله حكومة الأغلبية والمعارضة الفتية بألوانها ووجوهها .. من أجل الاستقرار والاستمرار.. أى من أجل استقرار اللقمة فى الفم والقرش فى الجيب .. والأرض تحتنا والمستقبل أمامنا .. أن كان هذا هو الذى يهمك أكثر، فأنت إذن قد قررت لمن تعطى صوتك .. هل تعطيه للذين يرون أن الحرية هى فى أن تختارهم أو تختار غيرهم وأنت آمن تماما .. لأنك مصرى وطنى مخلص ولأنك حر فى أن تعطى صوتك وألا تعطيه لأحد أو تعطيه للذين لم تجربهم تماما ..

أننى أتمنى أن تعطيه لأى أحد .. فليس من «الإيجابية» أن تسكت عن نعم ولا ... بل أن تقول .. أن توافق .. أو أن ترفض — فهذا حقك وواجبك .

الآن وحالا : أعط صوتك لمن احترم صوتك .. اعطه لمن أعطاك وسوف يعطيك أكثر لو شجعته على أن يكون حاضرا قويا ومستقبلا أقوى .

لقد صرخ أستاذنا العظيم سقراط فى واحد من تلامذته ظل صامتا طول الوقت فقال له : تكلم حتى أراك !

وأنت تكلم حتى نرى مصر غدا أفضل وأجمل وأنظف .. وأكثر تمسكا بحريتك وحريتى .. وحريتنا جميعا !



سؤال واحد يردده كل المهاجرين إلى استراليا وأمريكا : نحن منزعجون على مستقبل مصر. ونريد أن نساعد!

أما أنهم يريدون أن يساعدوا فهو شعور طبيعي ــ شعور الابن نحو والديه. وهو ما نتوقعه. ونشكرهم.

أما أن حالتنا تبعث على هذا القلق الفظيع. فهم معذورون في ذلك. فالمعلومات التي لديهم قليلة. ثم أنهم لايعرفون عن بلادهم إلا ما تنشره الصحف الأجنبية. وهي ليست حريصة على أن تنقل الحقيقة. وإنما هي تنقل ما يثير الناس... فهي تنقل أن المصرين ينامون في المقابر، ولا تذكر أن هناك عشرات الألوف من الشقق تبنى في كل مكان،.. ولا يهم الصحف الاجنبية أن تنقل مثل هذه الاخبار. فبناء بيت ليس حدثا، ولكن سقوطه هو الحدث!

ثم أن المهاجرين، بحسن نية، يقارنون بين مصر وأمريكا.. وبين مصر واستراليا، ويجدون أن مصر دون ذلك بكثير وهو صحيح. فالمقارنة تظلمنا. فلا نحن في قوة وثراء أمريكا، ولا في اتساع استراليا.. ووفرتها. ولا عندنا مثلهم هذه الصحة والعافية والنضارة التي يتمتعون بها.

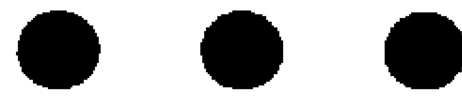
ثم أن المصريين خارج مصر، مثلنا تماما، يتعجلون الاصلاح والرخاء والأمان، ولكن المسافة كبيرة بين الذى تحلم به وبين الذى تقدر عليه.. ولابد عند الاستماع إلى واحد من المهاجرين المصريين من أن تهزه من

حين إلى حين، لكى يفيق من هذا الكابوس الذى يستبد به ــ كابوس الرعب على حاضر ومستقبل مصر..

ثم أن هناك شعورين متناقضين عند كل مهاجر: انه قفز من السفينة قبل أن تغرق، فلما لم يجدها قد غرقت فهو قلق على هذه النهاية.. وهو أيضا يتخيل أنه عندما ترك مصر ساءت حالها، ولو بقى هو بعض الوقت ما ترددت إلى هذا السوء؟!.

ونحن ندرى مالذى أصابنا، ونحرص على أن نداوى جراحنا وهى عميقة وتاريخية.. ولن تصل مصر بمشيئة الله إلى نقطة اللاعودة ــ أى السقوط الذى لا نجاة بعده!.

فلا تخافوا علينا أيها المصريون فى جنة الشمال الأمريكية، وجنة الجنوب الاسترالية!



الهجوم العنيف على التليفزيون المصرى موضه. ولأنها موضة فهى قصيرة العمر «ولكن لماذا؟»

إن هناك نوعين من الجهل: ان نقول وان نعجز عن القول. وقد حدثنا الامام الشافعى أن رجلا التزم الصمت فى مجلسه وحاول الامام الشافعى يثيره لعله يتكلم ولكن الرجل آثر الصمت. وقد تعب الشافعى فى جلسته الطويلة، وكاد يمد أحدى ساقيه لولا أنه يهاب هذا !الصامت الوقور.

وفجأة تحدث الرجل الصامت وكان حديثه سخيفا. فقال الامام الشافعى: الآن يستطيع الشافعى أن يمد رجليه!

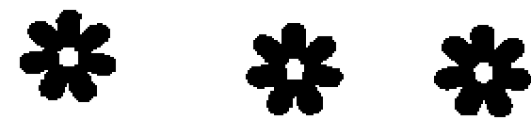
وكثير مما تنشره الصحف، مع الأسف فيه قدر كبير من الجهل بهذا الجهاز الضخم المعقد، فليس من السهل تحريكه ولا تغيره ولا تبديله فى يوم أو فى شهر أو حتى فى سنة. والوقت ضرورى كما أن المال ضرورى أيضا.

وكثير من النقد شخصى: أى أن أصحاب الألسنة الطويلة هم، أصحاب اذرعة طويلة كذلك.

صحيح أن العجب يزول بمعرفة السبب.. والسبب شخصى أحيانا ومن السهل ازالة أسباب الشكوى، لتقصر الأقلام وتتقلص الألسنة. ولكن لماذا أيضا!

ربما كان التدمير والتخريب عادة سيئة. وهى عادة خطرة على مصر كلها وليس على التليفزيون. لأن متعة التخريب: مزاج عام. ولذلك فمن الواجب أن تتجه الأقلام إلينا نحن أنفسنا. فنحاول أن نعالج أنفسنا من السلبية والتخريب والاستمتاع بكل بناء ينهار وليس بكل صرح يرتفع!

وليس الهجوم على التليفزيون إلا نموذجا لتحالف الجهل والظلم معا!



يا ابن بلدى ليس عندك ما تخجل منه .. لا فى الحرب ولا فى السلام . ففى الحرب قمنا بما لا ينكره أحد . وما يتمناه الشرفاء لبلادهم ولقوميتهم . حاربنا وانكسرنا وانتصرنا . ومات عشرات الألوف من شبابنا . وخطفنا لقمة العيش من أفواهنا وملأنا بها أفواه المدافع ، وسحبنا المقاعد من تحت الطالب وراكب الأتوبيس ، وأشترينا بها مقاعد من حديد بارد لراكبى العربات المصفحة والدبابات ، وعاش جنودنا فى التراب وفى الرماد وتبددت أعمارهم دخانا فى الهواء ـ مع عظيم من الأمتنان والحب لمصر ولحرية مصر وكرامة العرب ..

وعرفنا اليأس بعد هزيمة ٤٨ ، والمرارة بعد هزيمة ٥٦ ، وقاع الهوان بعد نكسة ٦٧ ، فتمنينا بعد انتصارات ٧٣ ألا نرفع سلاحا على أحد أو ضد أحد أو من أجل أحد .. فقط أن تكون لنا مصر .. أن نكون لأنفسنا .

ولكن بعد انتصارات ١٩٧٣ حدث زلزال نفسى ودينى وانهيار اجتماعى فى إسرائيل . فقد كانت حرب ٧٣ ضربة يجب أن تتبعها ضربات ويجب أن نستثمر انتصار أكتوبر إلى أقصى درجة مستطاعة .. فكانت المفاوضات من أجل أن نباعد بين قواتنا وقوات العدو .. مرحلة بعد مرحلة فى مصر وفى سوريا ..

وكان شعارنا : أن نسترد أرضا وأن نطلب المزيد ..

وطالت المطالب وتضاعفت مخاوف العدو ، وعاودنا اليأس من الحوار الطويل ..

وكانت المبادرة اختصارا خاطفا لكل كلام وسلام. وإذا كانت حرب أكتوبر سيلا من الصرخات والدعوات. فقد جاءت مبادرة السلام طوفانا لا يستطيع أحد أن يقاومه.. وكانت مصر ودعوة السلام هى سفينة نوح التى بغيرها لا نجاة لأحد، لا فى إسرائيل ولا فى الأمة العربية..

وكانت خطوات السلام أشد مرارة و«مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند» كما قال الشاعر القديم.. وشعارنا لا يزال: خذ ما تقدر عليه وأطلب المزيد.. خذ أرض مصر وبعدها أرض سوريا والضفة والقدس... ثم نلقى بها فى البحر: الاحقاد على زعامة مصر وعظمة مصر العربية! يا ابن بلدى أملأ صدرك بالهواء وأصلب عودك، وأرفع أنفك، ففى ماضيك وحاضرك ما يجعلك فخورا بمصريتك.



عبارة للعالم الكبير أينشتين يقول فيها : من البديهيات فى حياتنا هذه أننا ضيوف على هذا العالم. ولأسباب لا نعرفها توقفنا هنا . وفى هذه الفترة نحاول أن نجعل للرحلة والاقامة معنى .. ومن بديهيات هذه الإقامة أيضا : أننا نعمل لأنفسنا ولغيرنا . وأن غيرنا يعمل لنفسه ولنا !

ولكن من عيوب هذه المعانى أن بعضنا يشعر بأنه بالفعل ضيف فى كل وقت وعلى كل مائدة. وأنه جالس والعالم كله يدور من حوله ومن أجله . إذا أحد تصور هذا المعنى فلن يظل فى مكانه كثيرا . أى لن يبقى ضيفا فترة طويلة . لأن الناس ليس عندهم هذا الاستعداد لأن يخدموا الاخرين دون مقابل . أى دون أن يقوم هؤلاء الآخرون بشىء ..

حتى الطفل الصغير عندما يشعر أبواه أنه ضيف وأنه يعتمد عليهما فى كل تصرفاته . لا يرضيان ألا يقوم الطفل بشىء من الامتنان لما يلقاه من والديه . يقول الفيلسوف برتراند رسل : كانت عندى مربية . ولكن هذه المربية كانت تضيق بى . لأننى لا أرد على خدماتها بابتسامة !

أى أن المربية التى تعمل موظفة عنده ومرغمة على خدمة هذا الطفل الصغير، لا تجد كلمة الشكر على لسانه . رغم أن ما تقوم به واجب عليها !

وبعض الآباء يقول عن طفله الصغير: أنه مكشر الوجه . مهما فعلت له فلن تجد إلا هذه المعالم الجامدة !

مع أن الأب يعلم أن هذا الطفل صغير، وأنه ليس من المعقول أن

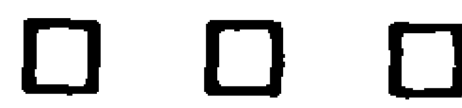
يعرف ما يدور حوله. بل أن الأب يجب أن يعلم ابنه كيف يشكره وكيف يمتن له. وكيف يشكر كل من قدم له شيئا!

وفى حياتنا العادية نجد اناسا وقفوا عند مرحلة الطفولة ينتظرون من الناس جميعا أن يكونوا آباء، أو كالآباء، وفى نفس الوقت لا يريدون أن يشكروا أحدا على ما قدمه لهم. ولكن هؤلاء الكبار لن يجدوا هذه الأبوة من كل الناس.. وهؤلاء الكبار يتصورون أنه فى استطاعة أى انسان أن يكون ضيفا، وأن يلقى الترحيب طول الوقت..

الصحيح هو أن يقال أننا ضيوف على ضيوف.. وأن الخدمات متبادلة. وأن المنفعة مشتركة. وأن الامتنان لنا ولغيرنا. وأن الشكر هواء يشمه الجميع، لأن أداء الواجب من نصيب الجميع..

وكل شىء حولنا يجب أن نشارك فيه بالقول والعمل. وأن الهدوء والراحة والأمان الذى ننعم به جميعا قد تحقق لأن آخرين قد غامروا بأرواحهم وأمنهم وهدوئهم..

ولا يكفي أن نقول لغيرنا شكرا لأننا فى الدفء والأمان، وأنتم فى العراء وفى الخطر.. ولكن أن نعمل مثلهم. فإذا عملنا جميعا كان هذا العمل هو أعظم امتنان للذين سبقونا فعملوا أكثر وأخطر!



كما يحدث فى كل مجلس كان موضوع الحديث عن النظافة فى مصر. أي انعدامها وتكدس الزبالة واستقرارها فى الشوارع. وثباتها فى العيون والأنوف حتى أصبحت من عاداتنا اليومية أن نضيق بها، ثم لا نفعل شيئا.

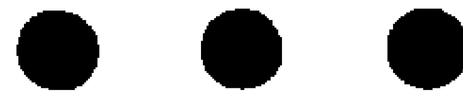
أحدنا قال التربية هى الأساس . البيت المدرسة كل شيء يبدأ من البيت أى الأم والأب وبعد ذلك ينتقل من البيت إلى المكتب ومن الأباء إلى الأبناء إلى المستقبل وبذلك تصبح النظافة عادة وخلقا ووطنية وحضارة قال آخر بل الدين الدين أولا إنه هو الذى يدعو الناس إلى نظافة اليد، وطهارة النفس ونقاء اللسان والاسلام أكثر الأديان دعوة للنظافة وسيلة وغاية.

قال ثالث غاضبا كل الذى سمعت قد دخل أذنى وخرج منها ألوف المرات حتى لم أعد أسمع شيئا أو حتى لم أعد أقوى على سماع المزيد من الكلام المعاد بل أن لدى إحساسا بأن الكلام عن النظافة قد تكدس فى رأسى. وأصبحت رغبتى العاجلة فى أن أكنسه بسرعة أريد شيئا واحدا لا ثانى له، أن نتفق عليه جميعا. هنا والآن، وإلا فلا معنى لهذا الكلام الذى أصبح مكررا مملا لأنه زبالة الكلام.

ولم يمهلنا لحظة واحدة وإنما قال بالقوة نعم بالقوة النظافة بالقوة بقوة الجيش أو قوة البوليس إرغام الشعب على أن ينظف بيته وشارعه ومدينته بالقوة تنقل الزبالة من مكان إلى مكان. بقفل المدارس والجامعات والمصانع والشركات يوما واحدا أو يومين. إن أهل برلين الغربية جمعوا أنقاضها

وأقاموا حائطها ووضعوا فيه ربع مليون طن حديد وتسعة ملايين طن أنقاض أى ما يعادل عشرين هرما.. أى ما يساوى طريقا مرصوفا بين الاسكندرية وبرلين عرضه ثلاثون مترا! لابد أن ننقل من جبال الزبالة أرضا صالحة للزراعة.. وإلا إبتلعتنا نحن المجارى. وأعتقد أن هذه نهاية نستحقها.

وكأن شيئا من ذلك قد حدث، فسددنا أفواهنا وأنوفنا وعيوننا، حتى نغيب عن كل ذلك.



العراق وسوريا والمغرب وليبيا ما الذى يريدونه من مصر؟ أنهم يريدون أن يعاقبوا الشعب المصرى لأنه يسعى إلى السلام بعد أن حارب فى ٤٨ و٥٦ و٦٧ و٧٣ وبعد أن ضربت أرضه وجاع شعبه وشقيت الأجيال المتوالية حتى أصبح الأمل نوعا من الترف، وحتى أصبحت الحياة العادية أملا! ولم تتوقف مصر عن القتال رغم ذلك من أجل جميع العرب: الأثرياء والمشردين والبلطجية والمرتزقة والذين لا يريدون حلا لمشكلة فلسطين!

ونحن فى مصر لسنا فى حاجة إلى من يذكرنا بأن الشعب المصرى قد عوقب على عروبته.

ولا بد أن الشعب المصرى قد تساءل كثيرا وفى دهشة: ما الذى دفع دولا عربية معتدلة إلى أن تسفر عن وجهها أو تضع قناعا زائفا هكذا؟ هل تستطيع هذه الدول أن تحارب؟.. أبدا! لم تحارب ولا تستطيع! هل تستطيع هذه الدول: أن تحرر القدس كيف؟ أين؟ وبمن؟ إذن ما مشكلتهم:

إن مصر قد جردتهم من سلاحهم. فقد كانت مصر سلاحهم. وأصبحت هذه الدول عارية بلا سلاح. فقفز عليها من يملكون سلاح الارهاب والتخويف.

ولذلك فهذه الدول المعتدلة تسالم البعث : الشيوعى سياسيا والامريكى اقتصاديا ، وتهادن اليمن الشيوعية وليبيا السوفيتية ..

لقد اختاروا اللعب بالنار.. ونهاية الذين يلعبون بالنار معروفة .

وسوف تبقى مصر هى الأقوى والأعظم والأكرم !



لم يدلنى أحد من الباحثين على هذا الذى حدث فى عمال مصر.

فأنت تحتاج إلى سباك أو كهربائى أو نجار وتجده بصعوبة لماذا؟ هل نقص عدد العمال؟ لم يقل لنا أحد شيئا وهو يحدد لك المبلغ الذى يريده لماذا؟ أنت لا تناقش لأنه من الممكن أن يتركك ويمشى وقبل أن يتركك فإنه يطلب إليك أن تدفع له المواصلات فقد جاء إليك وعطلته، ولابد من دفع تعويض له عن ذلك وتدفع ولا تتساءل لماذا؟ فكلها بديهيات معروفة لدينا، نستنكرها ولكن نستسلم لها ونقبلها على أنها عيوب العمل والعامل ونقص العمالة إذن فأنت تدفع للعامل ما يطلبه مع إيمانك بأنه لا يستحق كل ذلك فهو مبالغ كثيرا فى «سعر» العمل أو فى سعر الزيارة — تماما كالطبيب وبعد دقائق يستريح العامل من عمله. وأنت تتعجب لما أصاب مصر، وبعد يوم أو اثنين يفسد ما أصلحه هذا العامل. وتطلب عاملا آخر أو نفس العامل، وتستمع منه تفسيرا يقنعك أو لا يقنعك فما هو المعنى؟

المعنى أنك تدفع. وأنك لا تعترض على ذلك. ولكن تعترض فقط على أن هذا العامل الذى يتقاضى ما يريده، وأكثر مما يستحق، لا يتقن عمله ولا يؤديه بذمة وليس لك أى اختيار. فأين ذهب العمال الأكفاء؟ هل صحيح أنهم هاجروا من مصر فلم يبق لدينا إلا هذه النوعية الروتينية؟ فنحن لا نعرف أن العمال المهرة قليلو العدد، وأن هناك مشروعات أكبر قد استوعبتهم؟ نحن لا نعرف. والذى تقوله أنت يردده المقاولون الكبار. ومعنى ذلك أنه لا يوجد عامل ماهر، لا على مستوى البيوت ولا على مستوى المؤسسات الكبرى.. فمن أين نأتى بالعمالة الماهرة.. وعمال

الزراعة .. وما الذى تقدر عليه مدارس التأهيل المهنى ، أو المدارس المتوسطة أو الورش.. لا إجابة عند أحد عن شىء من ذلك وإنما نحن أمام فئة أو طبقة من العمال لا حيلة لنا أمامهم : إذا تقاضوا وإذا عملوا .. فلا هم راضون ، ولا نحن .. وليس هناك أى تقدم فى أى نوع فى كل الحرف !



في مثل هذين الشهرين رمضان ومايو ولد الفيلسوف العربى ابن خلدون من ٦٥٠ عاما.. فقد ولد أول رمضان ٣٣٢ هجرية و٢٧ مايو سنة ١٣٣٢ ميلادية فى تونس. واجداده من قبائل اليمن التى هاجرت إلى الأندلس ثم إلى تونس ليموت فى مصر.. وقد درس عبد الرحمن ابن خلدون كل علوم عصره من اللغة والفقة والشعر والفلسفة. وكان عقلا لامعا. ولذلك اتجه إليه الامراء والملوك وجعلوه قريبا منهم لعلمه واطلاعه. وقد حقد عليه رجال الحاشية والعلماء فدخل السجن عدة مرات.. وخرج من السجن ليقسم ألا يكون قريبا من أى ملك. ولكنه وجد نفسه دائما فى ذلك المكان المخيف ــ أى الذى يخيفك أن تقترب منه، ويخيفك أكثر أن تبتعد عنه.

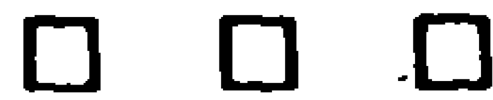
ولم يكن ذلك من اختيار ابن خلدون.

وقد أدى ذلك إلى شعوره بالقلق. وفى نفس الوقت إلى معرفة ذوى السلطات ومدى جهلهم بكل العلوم. ومدى عطشهم إلى النفاق والكذب. وقد هاجر ابن خلدون إلى تونس وفى تونس دخل قلعة (ابن سلام) يؤلف كتابه الشهير (المقدمة). ثم جاء إلى مصر قاضيا ثم قاضيا للقضاه. وبعد أن غرقت أسرته فى البحر انصرف عن الحياة والناس.

وقد دخل ابن خلدون التاريخ العالمى من باب (فلاسفة التاريخ) أو (فلاسفة علم الاجتماع). وكان أول فيلسوف لعلم الاجتماع عرفه العالم. فقد درس فى هذه (المقدمة) طبائع الشعوب والمجتمعات. ودرس تطورها وتقدمها وانهيارها. وكان اسلوبه موضوعيا علميا. ولذلك رفض الشائعات والخرافات.

كانت عبارة ابن خلدون ركيكة ومعلوماته متدفقة غامضة. ولكن عذر ابن خلدون أنه لم يشعر بالأمان على نفسه وعلى فكره. ولذلك سجل كل ما فى رأسه بسرعة، فلم يكن على يقين من مصير كل ذلك..

وإذا كان قد فاتنا أن نحتفل بذكرى مولده. فأن له رأيا فى ذلك وهو أن العرب فى البادية وفى المدن جهلاء. وهم لا يحبون أن يذكروا محاسن موتاهم ـــ أو حتى موتاهم!



القطة تأكل أولادها ــ ملاحظة صحيحة .

ولكن القطة لاتفعل ذلك لأنها جائعة .. ولا لأنها تنفر من صغارها . وإنما هو الخوف على هذه الصغار أن يأكلها القط الذكر أو أى حيوانات أخرى . والقطة تحمل أطفالها عادة من مكان إلى مكان وكذلك معظم إناث الحيوان . ولكن القطة خوفا على صغارها تسارع فى غضب وفى جنون بإخفاء أولادها فى أحشائها دون أن تدرى أنها قضت على خوفها بالقضاء على مصدر الخوف نفسه . أى بقتل صغارها .

فليس غريبا أن تتحول الأم إلى قطة ، إلى حيوان خائف فتقتل الأم طفلها كما فعلت سيدة الاسكندرية خوفا عليه من عذاب الاهمال بعد موتها أو موت والدها !

فقاتلة الاسكندرية أمسكت طفلها وقطعت شرايين يديه ثم تعجلت وفاته فوضعت رأسه تحت الماء واستراحت إلى أنها قتلته ثم أرتدت ملابس الحزن عليه .. وهى مجنونة ولا شك .

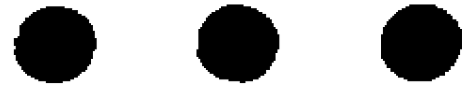
ومما يؤكد ذلك أنها اعترفت حين ذهبت بنفسها إلى البوليس . فطالبت بمحاكمة القاتلة ! واعترفت أيضا أنها لم تشأ أن تعذب ابنها عند قتله . فجعلته ينزف أولا .. ولما لم يمت ، لم تطق أن تتعذب بسببه ، أو يتعذب هو .. فبدلا من أن تلقى به من النافذة . وضعت رأسه تحت الماء .. ومع موته . ماتت كل مشاعرها أيضا !

وشاعرنا شوقى فى وصف الشعوب التى تأكل زعماءها وقادتها ومصلحيها يقول :

فيالك هرة أكلت بنيها
وما شبعت وتنتظر الجنينا

واعيد مرة أخرى أبياتا جميلة لشاعر قديم خاف على مصير ابنته فتمنى لها الموت ــ حبا شديدا لها :

احب بنيتى وودت أنى
دفنت بنيتى فى جوف لحد
فإما أن أزوجها غنيا
وأبقى عنده فى ثوب عبد
وإما أن أزوجها فقيرا
فتبقى عنده. والهم عندى
وإما أن أزوجها سفيها
فيلعن والدى ويسب جدى
دعوت الله يأخذها قريبا ولو كانت أعز الناس عندى !.



على أى شىء نلوم الشعب الفلسطينى الآن ؟

هل نلومه على أنه يريد أن يكون له وطن ؟

هل نلومه بسبب تفككه وضعفه ، وعلى أنه اتجه إلى كل الدول العربية لتساعده ماديا ، ثم تفرض شروطها عليه فيمشى وراءها فى معاركها السياسية فيعيش فى سوريا معاديا للعراق ، ويعيش فى العراق معاديا لليبيا ، ويعيش فى الكويت معاديا لمصر ، ويعيش فى مصر معاديا للأردن ويعيش فى الأردن خائفا من الجميع.. من الصعب أن تكون فقيرا وتكون قويا ، ومن الصعب أن تعتمد على غيرك وتكون مستقلا ..

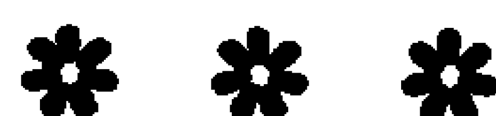
إن الدول العربية قد ساعدت على تمزيق الشعب الفلسطينى . وقد اشترت إغتراب الشعب الفلسطينى ، فقد دفعت له ليطلق النار بعيدا عنها . ثم ليطلق النار على الذى يساعده ، لعله يدفع أكثر.

وقد اختلف الشعب الفلسطينى ولم يعد له كبير. ولم يعد لهذا الكبير اتجاه واحد. بينما استطاعت اسرائيل أن تقوى وأن تؤلب على الفلسطينيين الدنيا كلها ، فإذا حشدت جيوشها ضده لابادته ، حققت بذلك أحلام بعض العرب ، لا يجدون الشجاعة على المجاهرة بهذه الرغبة الشريرة — مع الأسف الشديد ..

هذه هى المرة الأولى فى تاريخ الشعب الفلسطينى الذى يجد الوحدة حيوية واتخاذ القرار المستقل ضروريا .. فالشعب الفلسطينى اليوم معزول تماما مع القدر ومع الموت . لا أحد يساعده لا ماديا ولا أدبيا ، ولو أراد أحد

فلن يستطيع، بل لن يجد لذلك داعيا. فهل يحقق الفلسطينيون معجزتهم التاريخية هذه المرة فيقرروا لأنفسهم: هل يقاتلون حتى الموت؟ أو هل يفاوضون حتى الحياة؟

لو كنت فلسطينيا لشعرت بخيبة أمل لا حد لها.. ولشعرت أنه من الضرورى أن أحشد شجاعتى ووضوح رؤيتى فاختار لأول مرة: الطريق إلى الوطن!.



معذور أي فلسطيني لا ينام الليل.. معذور أي فلسطيني إذا صحا من النوم فوجد أظافره مخالب، وأسنانه أنياباً، وعينيه ناراً ــ فهو انسان بلا وطن ولا هوية ولا جواز سفر ولا أرض ولا حدود..

ومعذور إذا دفعه اليأس إلى الأعتقاد بأنه حشرة. تماماً كما أحس الأديب اليهودي كافكا حين نهض من نومه فوجد نفسه صرصاراً عاجزاً.. بينما العالم كله مليء بالبشر!

وهو معذور أيضاً إذا صحا من نومه فأحس أنه أطول من ناطحات السحاب، وان ذراعه تصل إلى القمر، وان قلبه محطة لتوليد الكهرباء، وان عقله معملاً فضائياً ؟!

وفي الأدب اليهودي قبل قيام إسرائيل نماذج جنونية عبقرية للشعور بالهوان والرغبة في الأنتقام من كل العالم الذي حرمهم من حق الحياة الكريمة.

ومعذور إذا تصور أي يهودي أنه واحد من الشعب المختار. أي الذي أختاره الله وأختبره. بالعذاب والهوان والطرد لكي يقوى عوده ويصبح أهلاً لهذه الرسالة الانسانية ؟!

أننا نزداد إيماناً يوماً بعد يوم بالظلم الفادح يفترس الشعب الفلسطيني الذي طرد من أرضه وشرد فيها مع انه لا يطلب أكثر مما طلبته إسرائيل من العالم كله، حتى استولت على مساحة من الأرض.. وأرض أخرى

حماية للأرض الأولى.. ثم أرض ثالثة حماية للأرض الثانية.. ثم أمسكت مليون عربى رهينة إلى ان تجاب مطالبها. ومطالبها هى ان تظل فلسطين اسماً لا جسماً ــ وهذا ما ترفضه مصر ولا يرفضه ولا يقبله بقية العرب ــ فنحن لم نعرف بعد ما الذى يريدونه لفلسطين الأرض والشعب!



في اعقاب حرب ١٩٧٣ ذهبت، مع أخرين لزيارة كاسحة الألغام البريطانية قابلنا القائد البريطاني بملابسه البيضاء ورأسه العالي وجبهته العريضة والكأس في يده وبسخرية مريرة قال. لماذا عندما يمشي أحد المصريين على شاطىء قناة السويس وفي يده علبه صفيح يلقيها دائما في الماء.. لماذا لايرمي بها في الصحراء؟!

فقد كان هذا القائد يعاني من أن الأجهزة الالكترونية في سفينته تطلق الأحمر والأصفر وأجراسا ثم ترفع أجساما معدنية من الماء ليس من بينها لغم واحد: إنها علب فول مدمس وعصير فارغة!

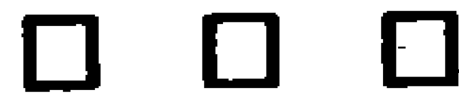
ولم أجد لذلك تفسيرا، إلا أن يكون جهل الناس بما سوف تؤدي إليه ألوف العلب وغيرها من الزبالة الانسانية والحيوانية بعد ذلك!

ومن مائة سنة كتب على باشا مبارك في كتابه الخطط التوفيقية الذي جاء في عشرين جزءا أن مؤرخا أجنبيا زار القاهرة قد أدهشته قذارة البيوت والحواري لدرجة أن هذا المؤرخ قد نصح كل من يزور القاهرة أن يتفادى الحواري الضيقة لأنها لابد أن تكون موبوءة.

وتحدث على مبارك عن الأدخنة التي تلوث الملابس ويتطاير هبابها فتتعلق بالشوارب واللحى.. وأخطر من ذلك أن المصريين يلقون بالحيوانات الميتة من الكلاب والقطط والفئران والحمير في النيل. وحتى عندما يركد النيل وتتلون مياهه وتتعفن رائحته فإنهم يشربون منه أيضا.

وهو كسل، لأنهم بدلا من أن يدفنوا هذه الحيوانات فى الأرض وتتحول إلى أسمدة عضوية مفيدة للتربة فإنهم يرمونها فى النيل.. وجهل تام لأن الناس لايعرفون ضرر هذه الأجسام الميتة على الماء وعلى حياة الإنسان..

وأمس نظرت إلى النيل فوجدت ثلاثة من الموتى لقد كانوا حميرا.. وليست أخر الحمير فى مصر!.



أشهر من يبيع الفول السودانى في العالم هو الرئيس كارتر وأخوه بيلى.. وبعد أن أصبح چيمى كارتر رئيسا، ظهر أخوه كأشهر أخ فى العصر الحديث.. وفى نفس الوقت أكثر الأخوة وجعا للقلب. فالأخ بيلى لايفيق من شرب البيرة. وبعد أن يشرب ويمتلىء كرشه فأنه يقول مايعجبه فى أمريكا وليبيا وإسرائيل. ولأنه امريكانى مليونير وأخوه اقوى رجل فى العالم ولأنه كاثوليكى شديد الايمان فأنه يلعن آباء وأجداد اليهود.. وله فى ذلك عبارات مأثورة: أن اليهود قد أخذوا أكثر من نصيبهم فى الحياة. وفى أمريكا بصفة خاصة. فعلى أى شىء يبكون وقد احتلوا البنوك والصحف وكل أجهزة العالم.. ثم أنهم «لطشوا» أرض فلسطين وطردوا أهلها!

ويقول أيضا: إن العرب لهم أموال فى أمريكا أضعاف الأموال اليهودية. فإذا كان لأحد الحق فى حكم أمريكا فهم العرب وليس اليهود!

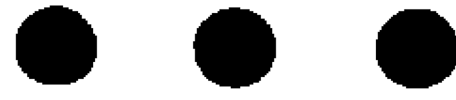
ومثل هذه العبارات وحدها تكفى لأن يصاب اليهود بالجنون. ومن مظاهر جنون اليهود أن يهاجموا الرئيس كارتر. وأن يهاجموا تلك العائلات الريفية المؤمنة.

ويتساءلون أيضا: إن كان الذى فعله الأخ بيلى ليس إلا ترديدا لمعتقدات الأسرة كلها. أى أن هذا هو أيضا رأى الرئيس كارتر فى اليهود، وأنه كفلاح لئيم يتخابث عليهم ويتظاهر بأنه مسيحى متسامح!

ومن المؤكد أن يهود أمريكا يدخرون المشاكل للرئيس الأمريكى

الكاثوليكى چيمى كارتر. ومن بين هذه المشاكل: ماقاله أخوه فى اليهود..

فيهود أمريكا لايحبون كارتر لأنه مسيحى مؤمن. ولاشىء يفزع الأقليات سوى المد الدينى عند الأغلبية.. ثم أنه رجل يريد السلام. واسرائيل لاتريد السلام. ثم أنه من أجل المصالح الامريكية وقف إلى جوار العرب، وهم لايريدونه إلى جوار العرب ولايريدون المصالح الامريكية.. وانما مصالحهم فقط!



لم يبق فى لغتنا كلمة واحدة لم تستخدم فى الدلالة على القرب والبعد عن الحقيقة.. عن الحرب والسلام.. عن الوقوف معا والوقوع والاعتراض على الوقوف والقعود والمشى والنوم والمؤامرة.. لم يعد لدى أحد من السياسيين جديد يمكن أن يضيفة إلى كل الذى قيل من خمسين عاما عن الوجود اليهودى والدولة اليهودية والوجود والكيان والدولة الفلسطينية..

لا تصدق أن أحدا لديه جديد..

أما الحل المصرى فقد جربناه معاه ـ حاربنا وانكسرنا وحاربنا وانتصرنا. وفاوضنا فكان لنا الانسحاب الوحيد من كل الأراضى المحتلة. وسمعنا وقرأنا التشهير بشعب مصر وجيش مصر وقادة مصر وكان ذلك بأصوات وأقلام مصرية وأخرى عربية. فماذا كانت النتيجة؟ بقى الحل المصرى هو الحل. ونحن لم نخترع أسلوبا فى السلام. وانما هو الأسلوب التقليدى الذى سارت عليه كل الدول بعد كل الحروب!

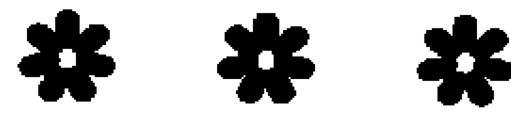
وقد قرأت أخيرا ثلاثة أحاديث لوزير خارجية سوريا يكشف فيها لأول مرة عن حقائق جديدة فى السياسة. أهمها: أن أوراق اللعب فى يدى أمريكا وأن امريكا تنحاز دائما إلى إسرائيل. فإذا لم يقف العرب معا فلا حل للقضية الفلسطينية وما لم يقف الفلسطينيون معا فلا أمل فى القضاء على اسرائيل؟!

ولم يشر الوزير السورى إلى ما بلغته مصر فى الحرب والسلام، ولم يلتفت إلى الفهم الصحيح والقرار الحكيم الذى اتخذه الأردن. ولذلك فقرار

الملك حسين بالوقوف مع الرئيس حسنى مبارك هو بداية الواقعية العربية المعتدلة..

ولكن وزير خارجية سوريا بعد أن أزاح الستار عن مومياء القومية العربية وتابوت التحدى والتصدى يطلب منا أن نقف جميعا أمام منبر البكاء على الماضى. وهكذا تدعونا سوريا إلى تجاهل المستقبل وما يمكن بالصدق والشجاعة. فليس جنونا ما أنجزته مصر، وليس تهورا ما أقدم عليه الأردن!

فليس هناك جديد. إلا أن نفعل شيئا ـــ لا أن نقول شيئا. فما أكثر ما قلناه. والذى قلناه هو البحر الذى اغرقنا أنفسنا فيه ـــ مع أن الهدف هو اغراق اسرائيل!



جلست إلى رجل عنده ملايين.. الرجل مصرى ابن مصرى. بدأ حياته كما يبدأ أى واحد منا: تلميذاً يدرس. واضحاً فى خياله ما الذى يمكن ان يصير إليه. ودخل الجامعة وخرج منها. وله ثلاثة أخوة أكبر منه. كان أبوه وأمه حريصين على ان يبقى معهما. فهو آخر العنقود. ولكنه تلفت حوله.. وقرر ان يكون تاجراً.. فبدأ طريقه بالعمل فى احدى الشركات. وتنقل بين الشركات.. وسافر إلى السعودية وغاب. وعاد إلى مصر. وإختفى عن العيون خمس سنوات. وظهر فى اعلانات الصحف كرئيس لمجلس ادارة شركة للبناء.. وسألته: كيف؟

قال: لا معجزة. أنا لم أكن أعرف بالضبط ما الذى أريده. ولكن فجأة قررت أن أعمل. وازددت ثقة بنفسى. وتوكلت على الله..

وعدت أسأله: ولكن كيف؟

فأجاب: أنت تريد ان تعرف ما هى المعجزة التى جعلت من مفلس مثلى رجلاً غنياً. لا شىء غير ان تعمل وتخلص وتعمل.. لقد قرأت قصص أصحاب ملايين.. أكثرهم لا يعرف كيف يتكلم أو حتى كيف يكتب. ولكنه فقط يعرف كيف يعمل وماذا يعمل ولا يهمه حجم النتيجة. انه يعرف أنه سوف ينجح لأن هذه هى الخطوات البسيطة للنجاح..

قلت له: يا أخى لا أصدق ما تقوله؟

فأجاب: لأنك تريد ان تسمع منى قصة لها أول ولها آخر ولها عقدة وهذه العقدة تزداد تعقيداً.. وينزل ملائكة من السماء أو تخرج عفاريت من الأرض تحل لك هذه العقدة. فأجد أمامى كنزاً.. وهكذا أصبح غنياً.. أنا لا أختلف عن أى ناجح.. الكاتب مثلاً.. ما هى المعجزات والخوارق التى جعلت منه كاتباً كبيراً أو ممثلاً عظيماً أو موسيقاراً أو طبيباً. لاشيء سوى الموهبة والعمل والمثابرة والعمل وإيمانه بالله وبنفسه.. ثم النجاح وادمان النجاح.. آمنت بالله.. وصدقته!



خسر د. محمود محفوظ الطبيب العالمى وعضو مجلس الشورى رهاناً عشرة جنيهات.. فقد أختلف مع صديق له حول كلمة «مسرح» وهل الأصح أن تقول مرسح..

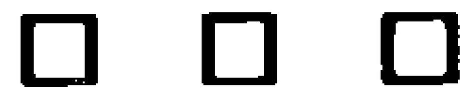
وكنا نندهش جداً عندما نسمع فى الأذاعة أو التليفزيون مؤسسى المسرح المصرى، وهم يتكلمون عن تاريخهم القديم على «المرسح» المصرى. وكنا نرى من مظاهر الحياة القديمة واللغة القديمة انهم يقولون «مرسح» بدلاً من «مسرح».. ونندهش كيف ان مثقفاً مثل يوسف وهبى أو زكى طليمات أو فتوح نشاطى يتمسكون بكلمة «المرسح» بدلاً من «المسرح».

ولم أفكر مرة واحدة فى ان أعود إلى القاموس، أو ان أسأل واحداً منهم عن ذلك، مكتفياً بأنها غلطة.. أو انه لفظ دارج، درجوا عليه، واعتادوا على نطقه هكذا..

إلى ان كان أمس عندما ألتقيت بالدكتور محمود محفوظ وهو رجل فصيح بليغ واسع الثقافة فأكد لى ان الصحيح هو «مرسح» ووعدناه الكاتب الكبير ثروت أباظة وأنا، ان نبحث عنها فى القواميس، واتجهت إلى قاموس «لسان العرب» فلم أجد لها هذا المعنى، وأتجهت إلى القواميس العربية الفرنسية والأنجليزية العربية والألمانية العربية، وكانت كلها تستخدم كلمة «مرسح».. وعدت إلى القواميس العربية القديمة فلم أجد لكلمة «مسرح» المعنى المعروف عندنا.

وكنا نندهش أيضاً عندما يفضل كبار المسرحيين أستخدام كلمة التياترو والأوبرا والسيمفونية لأنهم لم يجدوا لها مرادفاً عربياً مناسباً.

وأذكر ان المرحوم الصديق شكرى راغب مدير الأوبرا قد ظهر على التليفزيون ليتحدث عن المتفرجين زمان، والمتفرجين الآن، فاستخدم كلمة ايطالية للمتفرجين زمان، وكلمة «أكلة السندوتش وقزقزة اللب» للمتفرجين الآن.. كان المتفرجين الحقيقيين قد أختفوا من المسرح ومن اللغة العربية أيضاً وكان يقول أيضاً: كان الناس يرتدون الياقات المنشية والسيدات يضعن الفرو والعطور أحتراماً للفن الذى سوف يشاهدونه.. أما الآن فعهم السندوتش واللب، ولا يكتفون بذلك بل يحاولون تقديمه للممثلين أيضاً!



لم يعش الفيلسوف الصغير كارل ماركس ليرى ان عبارته الشهيرة عن الياقات «البيضاء» والياقات «السوداء». بلا معنى. فقد كان ماركس يرى أن هناك فرقاً كبيراً بين الذين يرتدون الياقات البيضاء ولذلك لا يعملون. وبين الذين يرتدون الياقات السوداء لأنهم يعملون. فقد تقاربت ألوان الياقات. فالعمال يرتدون الياقات البيضاء والحمراء والمشجرة.

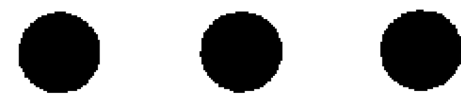
ثم ان تطور صناعة القماش جعل من السهل على الانسان ان يغسل الياقة السوداء فإذا هى بيضاء من غير سوء.. ثم ان لون الياقة ليس هو الدليل على العمل. كما أن تطور صناعة الآلات والطاقة لم يجعل من الضرورى ان تتسخ ملابس من يقف أمام الآلات الحديثة..

ثم ان الأعمال ليست كلها بالضرورة يدوية. فالأعمال العقلية أشد ضراوة على الجسم والنفس من كثير من الأعمال اليدوية. فالذى يعمل بساعديه، من السهل أن يضعهما إلى جواره وينام قرير العين والنفس.

ولكن الذى يعمل بعقله هو الذى يحترق ليلاً ونهاراً، لا يعرف له ساعة عمل، ولا يعرف له باباً لدكان يقفله، أو ستاراً لمسرح ينزله. أى انه يحمل الدكان والعيادة والورشة فوق كتفيه ليلاً ونهاراً.. بلا راحة أسبوعية ولا أجازات مرضية أو عرضية.. فما أهمية ان تكون ياقاتهم بيضاء أو سوداء أو الا تكون لهم ياقات. ان هذا الطراز من الناس ينسى أن له يداً أو ان له رأساً..

كان كارل ماركس طالباً فوضوياً لا يكف عن الشراب مديناً لكل الناس. وكان أبواه يسخران منه فيقولان له: أنت الذى ألفت كتاباً عن «رأس المال» ليس لك رأس ولا مال.

وقد كان للرجل رأس. ولم يكن له مال.. ولو نظر إلى ياقة قميصه لوجدها نسيجاً عجيباً.. فقد أتسعت خروقها حتى تساقطت الألوان من بينها.



أعرض نفسك على أى طبيب للأمراض النفسية، وليس من الضرورى ان يكون هناك سبب لذلك ولكن من باب المعرفة. ليس إلا. حاول ألا تهتم كثيراً بنظراته إليك. ومراقبته الشديدة الحريصة إلى كل حركة ليديك أو رجليك أو شفتيك أو عينيك ــ ان هذا الذى يفعله الطبيب ليس إلا عادة. وليس إلا نوعاً من الدراسة لك.. انه لا يختلف كثيراً عن رجال الشرطة أو الجمارك أو وكلاء النيابة.. أو المباحث أو المخابرات. فهو يريد أن يعرف وان يعرف القوة الخفية التى فى داخلك التى دفعتك إليه سواء كنت مريضاً أو صحيحاً!

فإذا كلمت الطبيب بالعقل. قال الطبيب لنفسه: أعرف هذا الطراز من الناس انه يمسك نفسه ويتحكم فى أعصابه وبعد ذلك ينهار!

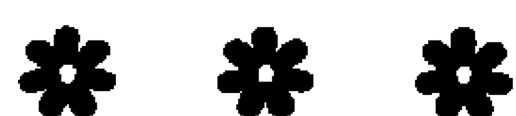
فإذا أنهرت فعلاً ورحت تقول كل شىء وأى شىء أستراح الطبيب إليك لأنك لا تحتاج منه إلى أى مجهود. فإنت تكشف نفسك وتفضحها أمام رجل يريد ذلك!

وفى الأسبوع الماضى ذهب صديق مثقف جداً إلى الطبيب وقال له. وقال له الطبيب. ودارت مناقشة علمية جادة وموضوعية. ولو دخلت عليهما الغرفة، وسمعت الأثنين وهما يتناقشان لكان من الصعب عليك ان تعرف من هو الطبيب ومن هو المريض. وان كنت ستختار الطبيب على انه المريض لأن الإرهاق والقرف والملل واليأس واضح على كل ملامحه! وبعد مناقشة أستغرقت ساعة خرج الصديق وهو يقول لى: كنت أعرف ذلك!

ثم مضى يقول: ان هذا الطبيب مريض حقيقة. وهذه هى المصيبة. ان يكون الطبيب مريضاً يعالج المرضى.. ولكن من الذى يقول للطبيب ذلك. من الذى يقول للأب انه يكره الأطفال. وللحارس انه صديق للصوص.. أو هو لص. أو للامام فى المسجد أو القس فى الكنيسة ان كليهما لا يؤمن بما يقول أو يفعل!

وانتهى الصديق إلى شيء أخطر من ذلك وأبعد.. إلى ان مصيبة هذه الدنيا كلها: ان الذين يتظاهرون ويتباهون بالفعل مجانين. وان كارثة الانسان والانسانية ان العقلاء لا يملكون القوة وان المجانين هم الأقوياء.

نتيجة بعيدة جداً، ولكنها حقيقة مع الأسف. وعيبها أنها صدرت من رجل مريض وجد الطبيب أكثر مرضاً!



ذهبنا نقدم واجب العزاء..

قال جارى: لم يكن مريضاً، لقد مات فجأة.

وسكت ليقول: ان زوجته سيدة لا تطاق. لا أعرف كيف عاشا معاً كل هذا الوقت الطويل!

لعله أراد ان يقول ان الخلافات العنيفة بينه وبين زوجته كانت سبباً فى هذه الوفاة. وكان فى نيته ان يشرح لى أكثر لولا الجو العام. ولولا ضرورة الصمت أثناء تلاوة القرآن الكريم..

وقال جارى على اليمين: استراح.. لقد سمعت من أحد أبنائه أنهم يدعون الله ليلاً ونهاراً ان يخفف عنه.. وان يعجل بوفاته.. فقد كان يصرخ ليلاً ونهاراً.. ولم يتمكن من املاء وصيته على أولاده.. فأولاده من ثلاث زوجات..

لعله أراد ان يقول أنهم التفوا حوله وراقبوه ليلاً ونهاراً حتى لا ينفرد به أحد منهم.. بل لعلهم لم يأتوا له بالأطباء، فلا أحد يريد ان ينفق عليه قرشاً واحداً.. أو لعلهم أرادوا التعجيل بوفاته..

وفى مواجهتنا رجل كبير فى السن يتوكأ على عصاه. وكان يتلقى العزاء جالساً. وقيل أنه أكبر الأبناء، وأنه جاء من الكويت. وانه قد أتى بسرير ونام إلى جوار والده. أى أنه كان يرى أباه يتوجع ويصرخ، ومع ذلك لم يبرح الغرفة، حتى لا يسمع أخوته كلمة «خاصة» واحدة من الفقيد.

وأشار جارى إلى شاب يتلقى العزاء.. يظهر أحياناً ويختفى أحياناً.. لكنه يصر على البقاء والبكاء.. أنه أحب أولاده إليه..، كما كانت أمه أحب زوجاته.. ولم يمكنوها من رؤيته فى أيامه الأخيرة، وقد حاولوا حبس هذا الأخ فى غرفة تحت السلم..

وفى الجنازة لقيت صديقاً قديماً همس فى أذنى: جالك كلامى.. ألم أقل لك ألف مرة: إذا كان الزواج جريمة، فالأولاد عقوبة.. وإذا كان الفقر جنحة، فالثراء جريمة..

وكان الناس لا يمشون فى جنازته، وإنما هم يهرولون فقال صديقى متفلسفاً: طبعاً ليس النعش هو الذى يجرى. وإنما هم أولاده يريدون ان يلقوا به فى بطن الأرض ليعودوا يقتسمون ثروته اليوم، ويلعنونه غداً. صدقنى أننى أفعل ذلك كل يوم! وصدقته وغيره ألف مرة!

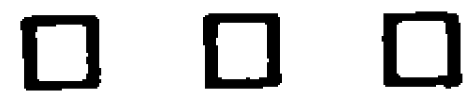


لم يبق أمامنا الا الوادى الجديد.. أو أى مكان مجهول من مصر لكى نستمتع بشىء من الهدوء النظيف ـ أى الهواء الذى ليس ملوثاً بأصوات الراديوهات والمبيدات فالريف المصرى الذى كان، لم يعد له مكان الآن، فبالقرب من الجيزة لاتزال الأرض الخضراء تتلون ببيوت تقوم على جثث النباتات والأشجار وإلى جوار البيوت الكبيرة حظائر للعجول والدواجن.. وأجهزة الراديو التى تعلقت من رقاب الأطفال وقرون الأغنام. ومئات اللوريات تدق الأرض وتطحن الحجارة.

جلست تحت شجرة أتوهم ما جئت من أجله: ان أتمدد وأفكر أو لا أفكر فى أى شىء فقط ان أتكوم فى مقعد أو أتساقط على الأرض، أطلب الراحة على شاطىء هذا المحيط الأخضر.. ولكن جاءت موجات صوتية مرة كأنها من الدبابيس ومرة كأنها من الهواء المسموم.. وبين كل موجة وأخرى يجىء صوت الراديو: الأغانى والمونولوجات والقرآن الكريم وخطبة الجمعة.. وكل يوم جمعة.. لا أعرف كيف؟ كلها معاً.. ولا نعرف من أين تجىء. ولا تعرف أين تهرب. ثم لا تجد ذلك ممكناً. وتحاول ان تتوافق مع ذلك.. وان تلوى أعصابك وان تلغى أجهزة التصنت عندك.. وهى محاولة يائسة ترهقك.. وتجعلك تنسى السبب الذى رماك على الريف فى أحضان الطبيعة التى كانت جميلة. ثم تفاجأ بواحد من أبناء الريف الخالد، من أبناء الفلاحين أجداد أجدادنا الأوائل فيسألك: ان كانت الحلقة الأخيرة من المسلسل التليفزيونى قد أذيعت أمس، فقد

كان على سفر ولم يتمكن من مشاهدتها .. وتقول له : انك لا تعرف لأنك لا تشاهد التليفزيون بانتظام . ويدهشه ذلك ، كما يدهشك أنت أيضاً !

ثم تنظر إليه فتجد ساعة فى يده ، وراديو فى جيبه وموتوسيكلاً ينتظره تحت الشجرة ، والجلباب أبيض مكوى ، والحذاء لامع والشارب حليق . وهو لم يعد فلاحاً وإنما هو موظف فى الجمعية . فلا هو فلاح ولا هو ابن المدينة ، وإنما هو فى الطريق إلى ذلك .. وكل الناس فى الطريق إلى .. وبعيداً عن . فى الطريق إلى ماذا ؟ بعيداً عن ماذا ؟ لا أحد يعرف ، فالناس كلهم لم يعودوا فلاحين ولا من أبناء المدينة .. والريف لم يعد كذلك !



كأننى أدور حول مكان الجريمة.فالذنب عميق وفى نفس الوقت كأننى أريد ان يرانى أحد ويلقى القبض علىّ.. فقد أستدرجت بعض الأصدقاء إلى ينبوع الذكريات الحزينة.. إلى بقعة سامة حائرة فى عروقى أربعين عاماً.. فقد ذهبت أخيراً إلى بيتنا.. إلى شارعنا فى مدينة المنصورة. أبحث عن ماذا.. لا أعرف ولكنى ذهبت لأرى بقايا كل شىء..

كانت ذكرياتى مثل كلاب بوليسية تطارد ما تشمه فى أماكن كثيرة.. كانت مثل صقور الصيد تطير وتنقض ثم لا تعود.. كانت ذكرياتى مثل أصابع رجال الجمارك تفتش كل ما تلمسه.. كانت مثل كاسحات الألغام.. أما الشارع الذى كنت أراه واسعاً فقد ضاق وأختنق اما البيت فقد زال.. وقام عليه بيت جديد أنيق..

وفى داخلى أعتذرت للشارع الذى لا يزال والبيت الذى كان.. ولم أحاول أن أبحث عن البقال والجزار والصيدلية التى كنت أنام على أبوابها حتى تفتح فى الصباح فأكون أول من يشترى الأدوية الباردة لأمى. ثم أذهب إلى المدرسة..

ومررت بالمسجد وشعرت بالخجل فقد كنت معجباً بالخطيب. وأتابعه وأكتب بعض عباراته الجميلة فإذا أنتهت الخطبة خرجت دون صلاة ــ فقد كنت طفلاً لا أعرف الفرق بين الذى ينفع فى الدنيا وهو قليل وبين الذى ينفع فى الآخرة وهو كثير..

وتوقفت عن بائع الكتب.. لقد أضيفت الكاستات والراديوهات ومئات الساعات اليابانية وتوارت الكتب وظهرت المجلات وكان له أحفاد يرقصون على الموسيقى..

ولم أسترح إلى أننى حكمت ببراءة الشارع والبيت.. فقد أزددت هماً وغماً لأننى سوف أستأنف الحكم فى هذه القضية طالباً تعويضاً مستحيلاً: البيت.. والشارع.. والطفولة.. وأحراق ألوف الصفحات التى كتبتها عن الوجودية والقلق والعذاب والغربة وحياتى الغجرية!

ولعنت كثيرين ولم أرفع صوتى — فاللهم إنى صائم!



التليفزيون قد تبنى مشكلة الخادمات فى البيوت لا ليحلها، ولكن ليزود كل واحدة بشبشب تضرب به سيدتها، وسكين تطعنها فى قلبها وذلك عندما تنتهى المسلسلة بأن تتزوج سيد البيت.

وكل البيوت التى بها خادمات يتفرجن على التليفزيون أيضاً.

وكثيراً ما حاولت سيدات البيوت، ان يبعدن الخادمات عن مشاهدة هذه المواقف الفاضحة التى تهدد بهدم البيوت على رؤوس أصحابها ولكن الخادمات يسمعن ذلك من زميلاتهن فى البيوت الأخرى.. فما هى المشكلة ؟

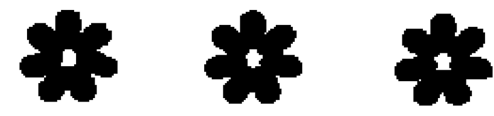
المشكلة ان الزوجة العاملة لا تستطيع ان تغسل وتكنس وتتفرغ للأطفال. ولذلك لجأت إلى خادمة أو أكثر من واحدة. ومرتب الخادمة دون العشرين يصل إلى خمسين جنيهاً، وفوق ذلك يصل إلى مائة جنيه. وإذا عادت الخادمة إلى القرية فإنها تتقاضى أكثر من ذلك فى الحقل..

فإذا كان هناك خادم ولد فإنه يتجه إلى الحقل أو المطاعم والفنادق أو إلى الخارج فيتقاضى خمسة أمثال هذا المبلغ بالعملة الصعبة..

وكثير من العائلات المصريات تستعين بخادمات من آسيا وأفريقيا.. وقد سبقتنا كل الدول العربية إلى ذلك، فجاء الخدم من باكستان والفلبين وكوريا الجنوبية.. وأجور الخادمات الأسيويات أقل.. ولكنهن «مضمونات» فلن يتركن العمل لأى سبب تافه..

ولن تعود المرأة العاملة إلى البيت، مهما كلفها ذلك من تعب، ومن تعاسة عائلية ومن أهمال لأولادها.. فهى قد تعلمت ولابد ان تعمل.. وليس قبل مائة سنة، تفكر المرأة العاملة المصرية فى تأجيل الزواج، تفادياً لذل الزوج والخادمة والأولاد.. وبعد مائة سنة أخرى، سوف تقرر المرأة العاملة ــ كما حدث فى أوروبا وأمريكا ــ ان تعود إلى البيت، لتكون أماً.. فقد تعبت من ملاحقة الرجل، ولن تستطيع لأن الرجل ليست له أعباء الحمل والولادة والرضاعة والحضانة!

ولذلك ففى كل مرة يعرض التليفزيون مسلسلة تكون فيها الخادمة هى «البطلة الملعونة» فإن البيوت تتكهرب.. وخاصة انه فى مثل هذه المسلسلات تكون الزوجة قد ترهل جسمها، وتغضن وجهها ونشز شعرها، أما الخادمة فهى شابة جميلة. وكل ما ينقصها هو الذهاب إلى الحلاق أو الترزى.. ثم المأذون مع سيد البيت!



ما هى معالم شهر رمضان فى مصر؟

رمضان هو شهر الصوم والصلاة والأستغفار وهو أيضاً شهر الفول والطرشى والكنافة والفوازير. أى هو أيضاً شهر الطعام الكثير جداً والذى ينتهى عادة بالكعك والغريبة والبسكويت والذهاب إلى القرافة لقراءة الفاتحة وتوزيع الفطائر والبلح والبرتقال والفلوس على أرواح الموتى.

أما رمضان الذى تقرأ عنه فى الكتب القديمة فلا وجود له فلا أحد يسمع المسحراتى الذى يدق الطبلة ليوقظ الصائمين.. فلم يعد أحد فى حاجة إلى المسحراتى مع وجود الساعات المنبهة والراديو والتليفزيون أما مدفع الأفطار الذى نسمعه فى الراديو فهو مثل ساعة جامعة القاهرة التى تدق فى الأذاعة فقط لتوحيد الوقت.. حتى هذه الساعة يمكن الأستغناء عنها أكتفاء بساعاتنا اليابانية الدقيقة.. أو الساعة التليفونية التى تنبىء بالوقت إذا أدرت رقم ١٥ فى التليفون..

حتى فى الريف لم يعد يعرف رمضان القديم لأن الفلاحين يجلسون وينامون أمام التليفزيون مثلنا كأنهم يعيشون فى القاهرة..

وكما أختفى رمضان القديم فكذلك عيد الفطر والعيد الأضحى وبقية الأعياد الدينية الأخرى.. كلها لم تعد لها نفس الدلالة الدينية. تماماً كما أصبح الكريسماس لا علاقة له بالمدلول الدينى المسيحى وكذلك رأسا السنة الهجرية والميلادية.

وبقية موالد الأولياء هى مناسبات لبيع الحمص والحلوى والعرائس والتجارة.. والقرآن الكريم يتحدث عن أيام الحج فيقول «وليشهدوا منافع لهم»: فيها منافع زيارة وتجارة..

كلها أصبحت تجارة فقط. أى منافع فقط فقد تغيرت الدنيا أى تغير الناس.. وأندفعوا فى كل أتجاه وراء معداتهم وجيوبهم.. أما المعنى الروحى الوجدانى فقد أصبح معنى تاريخياً الا عند قليل من الناس لست أنت ولا أنا واحداً منهم— مع الأسف.



كان زمان له علم يسود فيه العلوم الأخرى.. فعندما ظهرت نظرية النسبية ــ مثلا ــ لاينشتين فى أوائل هذا القرن، كان هو سيد العلماء، وكانت الفيزياء سيدة العلوم.. ثم صارت الكيمياء والفلك والطب والفلسفة.

وفى زمن النهضات الوطنية تكون السياسة هى سيدة العلوم.. وتكون كلية الحقوق هى كعبة المتعلمين..

ونحن الأن فى زمن المهندس: فالسياسى هو مهندس العلاقات الاجتماعية والمفكر هو مهندس النشاط العقلى.. والطبيب مهندس الأعضاء ووظائف الأعضاء والزراعة هندسة نمو النبات والحيوان والانتاج..

وفى زمن الحرب لابد من الذين يبنون ويرصفون ويطورون أدوات القتال وصناعة الذخيرة.. وفى زمن السلم لابد من اعادة بناء البيوت والمدارس والمستشفيات والسلع الاستهلاكية.. وبناء معنويات الانسان..

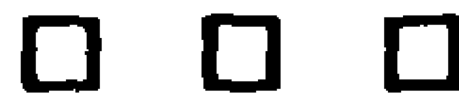
وقد ظهرت علوم جديدة هى الطب الهندسى والطب الحيوى.. وطب الفضاء.. والعقول الالكترونية.

وعندما كانت الفلسفة سيدة العلوم كنا نصف الله سبحانه بأنه الفيلسوف الأعظم، وعندما كان الطب سيد العلوم كنا نصف الله بأنه أحكم الأطباء.. واليوم نصف الله بأنه أعظم المهندسين الذى أودع قوانينه الخالدة فى كل شىء.. فالكون هندسة..

ولو أنفقت مصر أموالها على الطرق والكبارى واصلاح الأراضى وبناء المستشفيات والمدارس والمعامل .. لو أننا أسلمنا مقاديرنا للمهندس الذى يبنى ويطور لكان حالنا أحسن وأجمل من الحياة التى ألقيناها فى أيدى الساسة من كل لون ومذهب ــ أى فى أيدى وجيوب مهندسى الكلام تجار المعانى المزيفة ، والبلاغة الكاذبة ..

ويوم كانت تسقط عمارة أو مصنع بسبب الغش التجارى وجشع المقاولين ، كانت تنهار فى عقولنا وقلوبنا قمم الاحترام الكبير للمهندس .. فقد ادخرناه للشدائد ، فلما جاءت الشدائد انهار معها ..

ولكن لا تزال مصيبتنا فى المهندسين أهون كثيرا جدا من فجيعتنا فى السياسيين مهندسى الكلام الفارغ ، الذين لم يتفقوا على شىء واحد بينهم ــ ابتداء من جدول الضرب ! .



لم تتوقف لنا دهشة فى كل مرة نتحدث إلى اليهود الذين أذهلتهم زيارة الرئيس السادات.. الزيارة أذهلتهم، ولكنهم لم ينسوا أنفسهم.. فبعد الكلام عن السلام وعن «تطبيع» العلاقات ـ أى جعلها طبيعية أو «تعويدها» ـ أى جعلها عادية، ينتقل اليهود بسرعة إلى الكلام عن التجارة وتعمير الصحارى.. فاسرائيل ضيقة بهم وعليهم، والبلاد العربية ٩٠٪ منها صحارى قاحلة.. يمكن تعميرها. فعندهم الخبرة العالمية ـ لأنهم عالميون بتكوينهم ـ ولدينا الفلوس والأيدى العاملة وهم لذلك قادرون على تحويلها إلى جنات، ثم يقولون: انظروا إلى أرضنا الضيقة ماذا نفعل بها؟

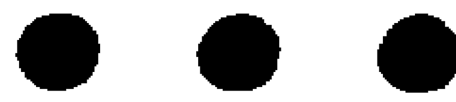
ونقول فى سرنا: يهود حقا، انهم لا يفكرون إلا فى الفلوس!

وهو اعتراض سخيف طبعا، لأن من المفروض أن نعمل شيئا مفيدا.. فما هو الشيء المفيد. هل هو: أن يتغزل رجالنا فى نسائهم؟ هل هو الرقص معا على موسيقى فلسطينية أو كوبية؟. من الممكن أن يستمر الكلام الجميل بعض الوقت.. ولكن يجب أن ننتقل معا إلى العمل..

ثم أنهم عمليون وتجار وأغنى أغنياء العالم. صحيح أن العرب أغنى من اليهود ألوف المرات. ولكن السؤال من أين أتى العرب بفلوسهم؟ ومن أين أتى بها اليهود؟ .. هنا يختلف الغنى العربى والغنى اليهودى. فالغنى اليهودى هو صاحب رأس مال متحرك نشط يدور وفى كل دورة يكتسب سرعة أكبر على الدوران.. إن رأس المال اليهودى يشبه كرة الجليد، كلما تزحلقت على الجليد اكتسبت حجما أكبر.

ونضيق نحن بهذه النظرة العملية ، لأننا غير عمليين . لأننا نظريون ، لأننا نفضل أن نتكلم عن النجاح ولا نسعى إليه . وإذا سعينا إليه ، فإن القليلين جدا قادرون على تحقيقة ... ولكنهم ــ رجال مال وأعمال ــ يدخلون بك البيوت من أبوابها ، فقد فعلوا ذلك ملايين المرات فى عشرات الدول من مئات السنين . ونجحوا وهم لا يعرفون فى التجارة إلا النجاح ..

ونسمع ذلك كله ونخاف منهم . ونقول إذا جاءوا أكلونا .. إذا جاءوا اكتسحونا ، وهى كلها مخاوف .. ولأنها مخاوف فهى تجعل الأشياء أكبر فى وزنها أو حجمها الطبيعى .. فلا شىء يمكن أن نحمى أنفسنا منه .. بالعلم وبالعمل . إن مصر قد تغيرت . فهى الآن قد امتلأت بالعلماء والخبراء والشركات ورجال المال والأعمال ويمكن حمايتها وحماية منتجاتها . ثم اننا يجب أن ننفتح على الدنيا .. ولا خوف إلا من الخوف نفسه .. والا من الانطواء على أنفسنا فى ظلال الجهل والجبن .



شيء غريب طرأ على اللغة العربية فى الاذاعات المختلفة. هناك اذاعة مونت كارلو.. أنها اذاعة اختارت أن تكون لغتها حواراً شخصياً بينها وبين مستمعيها .. أو حديثاً تليفونياً غرامياً لامانع.

ولكن عيب هذه اللغة التى ابتدعها أنها ملفوفة أو ملتوية فأنت لا تعرف إن كانت هذه عربية فرنسية، أو عربية يونانية .. ولكنها لغة خاصة ليست واضحة الحروف ولا المخارج. لقد ارادت الأذاعة أن تكون مختلفة والا تستخدم لهجة عربية واحدة: فلا هى سورية ولا عراقية ولا ليبية ولا مصرية طبعاً.

وإنما هى مزيج غريب عجيب من كل شىء. وكان ضحيتها: النطق السليم الواضح للغة العربية .. وفى إذاعة الشرق الأوسط شىء من ذلك .. فالبرنامج الغنائى لأحمد فوزى، أن لم يكن يشبه اذاعة مونت كارلو فسوف يكون صورة أخرى لذلك.. فأحمد فوزى يتكلم لغة عربية بلهجة خاصة. أنه لا يفعل ذلك عندما يقرأ نشرة الأخبار الانجليزية. فلن يسمح له الانجليز أو لن يفهموه. ثم أننى لا أعرف للأسلوب الغريب الذى اتخذه سببا واضحاً مقنعاً!

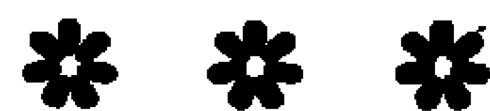
وسناء منصور ابنة اذاعة مونت كارلو عادت إلى اذاعة الشرق الأوسط بقليل من مونت كارلو.. ولا استبعد أن تعود كما كانت هناك.

ولا أحب لاذاعتنا العظيمة أن تكون نسخة أو «مسخة» لإذاعة مونت كارلو الصغيرة التى امتلأت بلهجات عربية مختلفة. فقررت عقد هدنة بين

هذه اللهجات فجعلت منها «عجة» صوتية حتى لا يغضب أحد ــ ولا يرضى أحد!

أننى سعيد عندما اسمع المذيعين المصريين فى صوت أمريكا وفى غيرها لا ينساقون وراء الآخرين فى تعطيش حرف الجيم وإنما هم يحرصون على نطقها مصرية خفيفة. سواء كانت أجمل أو أقل جمالاً، أنها مصرية. صحيح أن إذاعة الشرق الأوسط لها شكل وأداء ومضمون مختلف. لامانع. ولكن المسافة بدأت تضيق جداً بين الرقة والميوعة فى أداء المذيعات والمذيعين.. غير أنى أحب أن تكون الشخصية المصرية هى الأفضل فى كل أداء.

وليس من العقل ولا من الحكمة أن ننساق وراء الذين لم يجدوا الأداء السليم، فخلطوا كل اللهجات فى «شوشرة» واحدة!



أخشى أن نتنبه إلى خطورة «ورد النيل» بعد فوات الأوان.. واذكر أننى كتبت عن ورد النيل على هذه الصفحة منذ أكثر من ١٥ عاماً. وكانت معلوماتى كلها عما يحدث فى السودان وفى أعالى النيل. ولكن لم أكن قد رأيته بعينى ويومها قلت أن هناك سراً لا نعرفه يمنع ورد النيل من التكاثر بهذه الصورة الوبائية فى مصر.. ولم أتصور أن الوقت قد جرى بهذه السرعة. وأن ورد النيل قد خنق المصارف والقنوات فى شمال الدلتا.. وأن هذا النبات من السرعة في النمو، والخطورة فى الانتشار، بحيث يستطيع أن يسد منافذ المياه فى سنوات معدودة.. وفى هذه الحالة نستطيع أن نعبر القنوات مشياً على الأقدام. فأغصانه عندما تتشابك، تصبح كالخيزران فى القوة والصلابة..

وأخطر مصائب هذا النبات أنه يمتص الماء ويبخره بسرعة ونهم وجنون. ومن المؤكد أن ثلث بحيرة ناصر سوف يبددها هذا النبات. وفى هذه الحالة سوف يقتل النباتات الأخرى. ويوقف الماء ويقضى على الاسماك، ويكون وكراً خطيراً لأنواع من الحشرات المائية. والبعوض والذباب أيضاً.

لا أعرف بالضبط متى سيحدث ذلك؟ ولكن من المؤكد أنه سوف يحدث. والمطلوب هو أن نتنبه إلى هذا الخطر الازرق البنفسجى الابيض الاخضر الوبيل. وأن نتدارس أمر هذا النبات وأن نتنبه إليه. وأن يعمل كل الناس فلاحين وعمالا وطلبة أيضاً على إبادة النبات قبل أن يبيدنا

فنحن نتزايد بغير حدود. وكل عام يولد مليون فم يريد أن يأكل ويشرب ويلبس ويتعلم ويعالج.. ويريد أن نوسع له الشوارع والقنوات والمصارف وأن ننمى له حيوانات الماء والبر..

ولكن أعظم ما يهدد الحياة هو هذا النبات الذى اسمه ورد النيل.. والذى يمكن أن يسمى أيضاً بمنتهى الصدق: وأد النيل، لأنه يريد أن يدفننا ونحن أحياء!



هذا كل شىء فى مصر وفى العالم العربى كان التوتر شديداً قبل الانتخابات المصرية واثناءها.العالم كله يريد أن يعرف هل صحيح ما يقوله الرئيس مبارك عن الحرية والحياد.. وما هو الجديد الذى سيقوم به الحزب القديم.

وما نصيبه بعد ذلك.. ولماذا نجح ولماذا سقطت أحزاب أخرى..

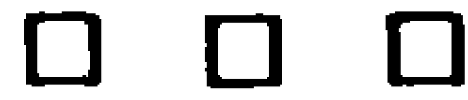
فالذى يجرى فى مصر أو يتعثر أو ينكسر يدوى فى العواصم العربية والعالمية أيضاً. ولذلك جاء مئات المصريين والصحفيين ورجال الأمن والمعلومات من كل مكان ومرت الانتخابات بسلام وإن كان كل حزب يرى أنه أخذ أقل مما يستحق بما فى ذلك الحزب الوطنى حزب الاغلبية فالكل غير راض.. وإن كان الناس قد استراحوا إلى النتيجة..

وجاء رمضان وتساقط الناس مع الجوع وحرارة الجو أمام التليفزيون يصارعون أمواج الفوازير والمسلسلات التى هى زحمة صوتية وضوئية كما أن افطار رمضان زحمة نشوية ودهنية وسوف يمضى رمضان الكريم وامتحانات الثانوية العامة فى يوليو وأغسطس ليستأنف الناس شهيتهم إلى الكلام والخناقات فى مجلس الشعب وفى الصحف..

وسوف يشعر الناس أننا عدنا إلى ما انتهينا منه وكان شيئاً لم يحدث فى الانتخابات وبسببها..

ولكن مصر بعد هذه الانتخابات لن تكون كما كانت قبلها.فالذى يتغير كبير وكثير والذى سوف نراه ونسمعه من آراء ونظريات سياسية ودينية

يحتاج إلى اهتمام شديد.. فكل مرض شيء جاد، وكل تشخيص أمر جاد والعلاج جاد. وقد شبعنا هزلا، واستخفافا ولامبالاة والتغير المطلوب هو أن نكون جادين أكثر وأعمق وأن يبدأ الاستقرار من فوق.. من الوزراء فلا يكونون على كف عفريت.. غير قادرين على الاستمرار، غير امنين على تجاربهم أن تنجح فكيف نطلب الاستقرار والاستمرار من الذين حرمناهم ذلك!



من حين إلى حين أجد الراحة فى أن أقرأ كتاباً لا يفيد ــ لا هو فى الأدب ولا علم النفس ولا السياسة .. ولكنه كتاب لذيذ .. فأنت معه لا تقرأ وأنما أنت «تقزقز» خطابات ونوادر مسلية ومنعشة للفكر.

من بين هذه النوعية من الكتب : كتب الناجحين من رجال الأعمال . وهذه الكتب ليست ممتعة . فالنجاح لا يولد بالمعجزات . وإنما قصص النجاح متشابهة . وهى تبدأ عادة بإنسان بسيط ليست له فلسفة ثم إذا هو مليونير . وهو عادة لا يعرف ماذا حدث . ولكن يجىء من بعده أناس يؤرخون له ، ويحاولون أن يوزعوا المعجزات على بداية الطريق ونهايته ــ وبذلك النجاح عملاً دراميا من صنع المؤرخين وليس من صنع الناجحين !

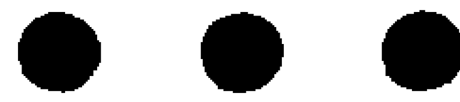
وقرأت كتاباً عن نجاح أصحاب الفنادق . من بينهم واحد اسمه تشارلزولسون ، اسمه ليس معروفاً .

ولكنه صاحب سلسلة «هوليداى ان» الامريكية ففى سنة ١٩٨٣ بلغت مبيعاته أربعة آلاف مليون دولار من ١٧٤ فندقاً (٣١٢ ألف غرفة) فى ٥٣ دولة وليس فى ذلك ما يلفت النظر ، أو يجعل عند أى قارىء أملا فى شىء من ذلك ، لأى سبب ولكن هذا الرجل أنشأ أول فندق له سنة ١٩٥٢ . واعتبر جميع نزلاء هذا الفندق «مؤسـين» لشركته العظيمة . وراح يلاحق هؤلاء الضيوف الأوائل بكروت المعايدة فى المناسبات ويبعث بالموظفين يسألون إن كانوا لايزالون فى مساكنهم أو غيروها فانتقلوا إلى مكان آخر أو إلى رحمة الله ــ فليس أسوأ من أن يجىء خطاب لشخص

مات يهنئه بعيد ميلاده. فذلك دليل على «ميكانيكية» هذه العلاقة الإنسانية، ودليل على سوء ادارة الفندق.

وبعد مئات الصفحات يكشف هذا الرجل عن سر أسرار نجاحه وأى نجاح: الاحترام الذى لاينتهى للزبون!

وليس أسهل ولا أصعب من ذلك!



ما هذا السحر الذى لطبق الفول. إذا ظهر على مائدة الافطار تضاءلت بقية الاطعمة إنه العمدة أو ناظر المدرسة أو كبير العائلة.

هل لأن له تاريخاً عريقاً فى افطارنا.. هل لأنه ما تبقى من ذكريات الطفولة: سندوتشات المدرسة والرحلات. هل مذاقه الخاص مع الزيت والليمون والخل والكمون والطرشى والماء بعد ذلك ثم الماء والشاى وغيره من المشروبات حتى تمتلىء المعدة فلا يترك مكانا لطعام آخر.

وكل الذين أقسموا الا يضعوا الفول على المائدة بعد ذلك لم يصدقوا فى هذه اليمين.

حتى المصريون فى الخارج يتمسكون به.

ونحن نتندر على أنفسنا كثيراً عندما نرى أن الفول هو المسئول عن الرضا والاستسلام ولولاه لثار المصريون على أوضاع كثيرة ــ وننسى أننا ثرنا على أوضاع كثيرة من أيام الفراعنة وفى العصور الحديثة!

وكثيراً ما بكى المصريون فى البلاد العربية وخاصة بعد النكسة عندما كانوا يعيرونهم: يا بتوع الفول عودوا إلى بلادكم!

ويعزينا ويخفف عنا أن الامريكان يلقون مثل هذا التعنت ويعيرونهم بأنهم بتوع الشيكلس والكوكا!

اذكر أنه عندما ذهبنا إلى «بير سبع» أن دعانا عمدة المدينة إلى

طعام الأفطار وكان عراقياً قال: لم أر مصريين فى حياتى وسألت المخابرات عن الذى يأكله المصريون فى الصباح فقالوا هذا..

واتجهت عيوننا إلى حيث اشارات يده.. وكانت مائدة ضخمة بها الفول بالزيت وبالسمنة وبالزبدة والطعمية والبصارة والباذنجان المخلل والمقلى واقبلنا نأكل كل ذلك رغم أننا لا نفعل فى بيوتنا.. ولكننا أردنا أن ندفع عن أنفسنا رائحة النكتة وطعم الفضيحة!



كان المطرب محمد نوح يزلزل الفنادق بأغانيه الوطنية وصوته الأجش وطبوله ومزاميزه وكان ذلك شيئاً عجيباً حقاً.. ففى الأماكن التى يذهب الناس ليستريحوا ويتساقطوا على مقاعدها، ليعودوا إلى بيوتهم وقد تهيأوا لنوم طويل عميق، كان محمد نوح يوقظ النائمين، وينقلهم من الاسترخاء واللامبالاة إلى الهتاف والدعاء لمصر.. وتتحول السهرات الليلية إلى جلسات حماسية، وكان ذلك مزاجاً عابراً.

فاختفى نوح ولم يعد أحد يطالب أن يفعل ذلك ولكن محمد نوح كان يغنى بكلمات للصديق الساخر أحمد رجب هذين البيتين:

يا بلادنا يا عجيبة
فيك حاجة محيرانى
نبدر القمح فى سنين
تطلع «الكوسة» فى ثوانى.

وكان الناس يضحكون لهذه النكتة الموزونة، التى هى حقيقة إجتماعية.

ويقال أن أحداً طلب إلى المطرب محمد نوح أن يكف عن هذه السخرية.

وعلى الرغم من لا علاقة بين الكوسة والمحشى وبين الفساد والرشوة والمحسوبية، فإن هذا المعنى قد إستقر ولايزال على ألسنة الناس..

وفى نفس الوقت زادت الأغانى البذيئة والرقصات النابية فى كل مكان، بل أنها مطلوبة أيضاً. فالناس يريدون أن يضحكوا. أى أن الرغبة فى التخفف من متاعب الحياة اليومية قد تغلبت على الأغانى الوطنية والنقد الاجتماعى.

وبسبب ذلك أن الجو العام السياسى والتربوى له نبرة واحدة: النصائح والتهديد والتخويف. فالسياسية إذن قد إستغرقت الناس فاغرقتهم.

ولذلك فالناس هاربون إلى الأجواء التى تتجرد تماماً من نصائح الأباء والمدرسين والساسة والمشايخ والقساوسة..!



قلت له: هذا الذى تقوله كأنه اجراس شيدت على الأرض وتركت هناك كأنها كوم من الطوب والحجارة.

ولم أنتبه إلى قسوة هذا التعبير، فاعتذرت لصديقى المفكر الفنان المتشائم اليائس من كل الذى قال ويقال، فقد اطلعنى على بعض كتبه التى أثر أن ينشرها بعد وفاته ــ هذا أن نشرها أحد!

فأولاده لا يجدونه قد أحدث فى الأدب أو فى المجتمع أثراً يذكر وثقافته الواسعة لم توسع له فى الرزق، فتجعله مديراً أو وزيراً.. وإنما تركته خفيراً على خزائن الفكر دون أن يكلفه أحد بذلك!

وفى هذه الكتب التى سوف يتركها وراءه تحليل وتفسير وتشخيص لأوجاع المواطن المصرى.. ولكن الذى يكتبه يكدسه فى البيت، فلا أحد رأى ولا أحد سمع!

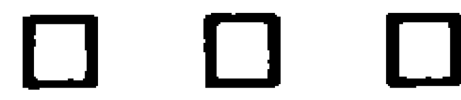
أما الأجراس التى قصدتها فهى معروفة للذين زاروا الكرملين فى موسكو. فهناك جرس ضخم قد استقر على الأرض وزنه ٢٠٠ طن وعمره أكثر من ٢٥٠ عاماً وقد انكسر هذا الجرس. فهو لم ينكسر من كثرة الاستعمال وشدة الرنين، ولكن بسبب رداءة المعدن الذى استخدم فى صنعه.. وبعض الناس يقترب من هذا الجرس ويدقه برفق، ويخيل إليه أنه يسمع صوت الزعيم لنين.

وفى مدينة ماندلاى ببورما يوجد جرس آخر يزن مائة طن. وهذا الجرس يدق الناس فى مناسبات مختلفة. يمسكون عصا ويتمنى كل واحد

شيئاً لنفسه. وقليلون من يتمنون شيئاً لبلادهم، ويقال أن هذه الأمنية تتحقق فوراً.. إذا دق الجرس بائعصا فى المكان المناسب.

وأفضل من هذه الاجراس الكبيرة جرس هامس كالذى تسمعه من الساعة التى فى يدك.. فهو ينبهك إلى مرور الوقت أو إلى اقتراب موعد.. وعلى الرغم من أن صوت هذا الجرس لا يسمعه أحد سواك فهو واحد من أجراس حقيقية.. أجهزة تنبيه..

وعلى ذلك فجرس صغير يرن، أو كلمة تقال أو مقال ينشر أو حديث يذاع، أكثر إيجابية من ألف قصيدة قد انكفأت على الأرض فكتمت انفاس المعانى والأهداف النبيلة.. وكأنتى أنا الآخر جرس لا يرن فقد هز الصديق رأسه ولم يقل شيئاً!



كلما ارتفعت سفن الفضاء إلى مدارات أبعد حول الأرض أو حول الكواكب الأخرى، زودها الإنسان بعيون آذان أعظم وأكثر حساسية ـ

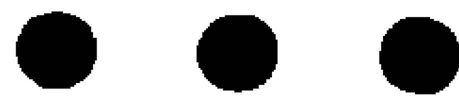
والإنسان يريد أن يعرف أكثر وأعمق وأوضح . وهو بذلك يتمكن من تفسير أصل هذا الكون وأشكال الحياة ـ إن كانت هناك ـ ولابد أن تكون حياة، فليس مقبولاً أن يكون الإنسان هو الكائن الوحيد العاقل الذى خلقه الله . فلا نهاية لقدرة الله على الإبداع .

وبهذه المعلومات التى نهتدى إليها نعود إلى تاريخنا نفسره على أضواء جديدة . فمثلاً سنة ١٩٠٨ حدث انفجار فى سيبريا . هذا الانفجار رأت أوروبا الغربية أضواءه .

وقالوا أنه شهاب ضخم اقترب من الأرض فاحرق الغابات وأذاب الثلوج فى مساحة ألف ميل مربع .. وقيل أيضاً أنه إنفجار ذرى غامض .. وقيل بل هو نهاية «مذنب» إتجه إلى الأرض فاحترق فى الغلاف الجوى .. وقيل إنها سفينة فضاء ضخمة اصطدمت بالأرض وأحدثت تجويفاً مثل تجويف البحر الميت، الذى هو الآخر بسبب إنفجار نووى فى داخل سفينة فضاء من ألوف السنين .. ولكن العلماء السوفيت اكتشفوا إن هذا الحادث لم يؤد إلى تجويف الأرض، إنما أحرق الغابات والخيول والحيوانات، دون أن يحدث تجويفاً .. أذن فقد حدث الانفجار على ارتفاع ستة كيلو مترات من الأرض وقال علماء آخرون بل الذى حدث هو إنفجار

أو تمزق شديد «للمادة المضادة».. والضرورية لأحداث التوازن المطلوب لنظام الكون والحيوان والنبات والإنسان.

وآخر ما اهتدى إليه العلماء أنهم وجدوا فى حطام «الشىء» الذى انفجر بعض المواد التى يبلغ عمرها سبعين ألف مليون سنة جاءت إلينا من أطراف الكون من مسافات تبعد عنا ألف ألف مليون سنة ضوئية: (السنة الضوئية = ٣٦٥ يوماً × ٢٤ ساعة × ٦٠ دقيقة × ٦٠ ثانية × ٨٦ ألف ميل) ــ والله أعلم!



الذين فاتهم أن يروا حصون بارليف التى حطمتها القوات المسلحة المصرية فى حرب ١٩٧٣ يجب أن يذهبوا إلى سيناء. ليروا ما الذى استردته الجيوش المصرية الظافرة. يجب أن يروا مدن سيناء شرم الشيخ سانت كاترين ونويبع وذهب وطابا..

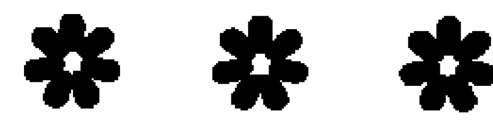
أننى أعرف ما يفعله العسكريون فهم يشعرون بالزهو عندما يخترقون سيناء فى ساعات طويلة. فهذه الأرض كانت محتلة. وكان من المستحيل استردادها بلا حرب فى أكتوبر. وبلا استثمار سياسى لهذه الحرب فتعود إلينا بلا قتال وقد عادت كل الأرض.

فيما عدا طابا ــ أى فيما عدا ٨٠٠ متر مربع وهذه المساحة موضع مفاوضات مع إسرائيل. لأننا قد اتفقنا على أن كل شىء قابل للتفاوض، ولكن إذا كانت طابا التى لم يرها عشرات الملايين من المصريين لاتزال موضع تفاوض فلا يصح أن نغلق كل مشاريعنا السياسية والاقتصادية والعمرانية حتى ينسحب اليهود عن هذه الأرض.

فمثل هذه السياسة قد جربناها مئات السنين وفشلت تماماً فأيام الحملة الفرنسية كان العلماء يقولون إذا خرج الفرنسيون فسوف نعمل كذا وكذا، وخرج الفرنسيون ولم يعملوا شيئاً.. وقبل الفرنسيين قالوا إذا خرج العثمانين. وبعد الفرنسيين قالوا إذا خرج الانجليز وخرج الانجليز، ولم نحقق شيئاً وبعد احتلال إسرائيل قلنا بعد خروج اليهود فسوف نضرب الأرض فيخرج منها البطيخ.. وبعد السلام معها سوف تمطر السماء ذهباً ولم تمطر السماء ذهباً ولا فضة!

فلا شك عند أحد منا فى وطنية حكومة مصر وجيش مصر وخبراء مصر، ولأنهم وطنيون ولأنهم خبراء، فهم يعرفون الأصح ويعرفون ماذا يفعلون فى الوقت الذى يرونه مناسباً فقد تحررت مساحة من الأرض أضعاف الضفة الغربية والجولان وقطاع غزة والقدس الشرقية..

ولكن إطلاق الدخان والنفخ فى النار. يعمى المفاوض المصرى عن رؤية الحجم والوزن الحقيقى للأشياء التى لنا، وسوف نستردها لا محالة!



تمنيت لو كانت كل ميادين مصر الجديدة والقديمة واستاد القاهرة وكل ملاعب كرة القدم سوقاً للكتاب. فالزحام على المعرض الدولى للكتاب يسعدك ان تراه.. فالأقبال عظيم.. أنها متعة كبرى أن ترى العيون تفتش عن الكتب والاذرع تحضنها.

وترى الطفل والأب والأم، وترى الشاب والشيخ. أنهم يطلبون المزيد من العلم والادب والفن، أنهم يبحثون عن مصادر النور، وينبوع الشباب..

كم تمنيت لو أن هذه الكتب فى سعر الرغيف.. أو فى سعر البيض والطماطم.. إذن لكان العلم كالماء والهواء فى متناول الجميع. ولكن الكتاب مشكلة، لم تحل بعد. وليست مشكلة الكتاب أننا لا نجد المؤلف، أو لا نجد المطبعة، أو انعدام القارىء. كل هؤلاء موجودون. ولكن الكتاب ما يزال غالى الثمن، وأقل جودة مما نحب. وهناك أسباب لا حيلة لنا فيها، كأرتفاع تكاليف صناعة الكتاب: العامل والمطبع والورق والحبر وقطع الغيار والقيود خروجاً ودخولاً للكتب ثم سرقات الكتب ــ أى الكتب المصرية التى تسرقها دور النشر اللبنانية، والتى تباع فى المعرض الدولى للقاهرة ــ أقولها مرة أخرى: كل لصوص الكتب المصرية يعرضون كتبنا المسروقة فى القاهرة دون حماية من الدولة للناشر المصرى والمؤلف المصرى، ودون تخويف أو ردع للص الشقيق.

وحتى لا نظلم اشقاءنا فى لبنان، فمن العدل أن نضيف إليهم أشقاءنا

أيضاً في سوريا.. وغيرهم الذين يطبعون في الدول الاشتراكية بأسعار ارخص وباتقان اعظم.. وينافسوننا في كل مكان..

فهذا التراخي الرسمي هو كبرى مشاكل الكتاب المصري.. ومعنى ذلك أن الكتاب المصري لن يكون في متناول كل من يرغب في ذلك.. وإذا كنا قد عقدنا اللجان ساعات وكتبنا التقارير عشرات الصفحات، فلا أحد سمع ولا قرأ ــ فالموقف واضح تماماً: سوف يكون الكتاب المصري اغلى واندر!



بعض أولياء الامور يشكون من أن الآيات القرآنية المقررة على أولادهم «صعبة» ويقصدون أن التلميذ لايعرف كيف ينطقها، وإذا نطقها فأنه لايفهمها — ويرون فى ذلك اضطرابا فى التعليم وخللا فى التربية واكراها على تعليم اللغة العربية!

ولا أرى ذلك. فأن كانت الآيات صعبة النطق. فليتمرن التلميذ على نطقها الصحيح.

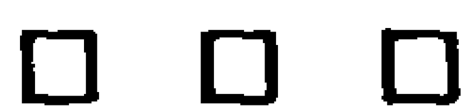
وأن كانت غير مفهومة، فيمكن شرحها.. وأن كان ذلك صعباً، فلا مفر من أن يتعلم اللغة تعليماً صحيحاً وأن نكرهه وأن نضربه ونطرده إذا لم يفعل ذلك! فلا عذر مقبول لأى إنسان إلا يعرف كيف ينطق لغتة، والا يقدر على حسن التعبير..

وإلا.. فلا أمل فى بقاء اللغة العربية حية متجددة على ألسنة الناس، وبألسنة الناس أيضاً.. زمان ونحن أطفال كان حفظ القرآن الكريم واجباً وشرفاً وشرطاً يسبق دخول المدارس الابتدائية.. أما المكافأة على ذلك: فهى الثقة العظيمة بالنفس!

وأذكر أننى كنت أتلقى ضرباً مبرحا من والدتى. وهى معذورة فى ذلك، فقد كنت أتسلق النخيل، وأنزل إلى النيل وأنا لا أعرف السباحة، وكنت أزور المقابر ليلاً سيراً وراء أشباح وأضواء أتوهمها، فلما حفظت القرآن الكريم فى الثامنة من عمرى، اعتدلت الأوضاع لصالحى: فلا ضرب ولا بهدلة ولا اهانة.. بل أننى فوجئت فى يوم من الأيام بأن أمى

تميل على يدى تريد أن تقبلها. ورفضت دون تفكير فى معنى الذى كادت تفعله والدتى.. ومنذ ذلك اليوم رحت أتقدم الناس الذين يأخذون بشهادتى، وأحياناً أؤم الناس للصلاة.. ولما كنت شاباً صغيراً كنت استأذن أمام المسجد فى أن أخطب الجمعة وأصلى بالناس.. ولا أعرف كيف واتتنى هذه الشجاعة. لكنه القرآن والثقة العظيمة التى منحها لكل من يريد أن يخاطب الناس أو يقودهم.. وأن يحسن القراءة والكتابة «ولكل من يريد أن يحترف الكلام وصناعة الكلام.. ثم أنه جوهر الإيمان بالله..

لقد اعجبنى أحد الآباء، لقيته فى المعرض الدولى للكتاب، قد اشترى لاولاده شرائط للقرآن المرتل، لكى يسمعوا على مهل ويتذوقوا حلاوة البلاغة والبيان والنطق السليم..



الحرب الوحيدة التى يتصاعد فيها القتال مع استخدام سفن الفضاء والغواصات والطائرات والقوانين الرادعة هى: حرب المخدرات!

فلم تفلح دولة واحدة من منع تهريب المخدرات إليها، ولا من منع تداولها وتعاطيها. أمريكا الدولة العظمى وضعت أصابعها فى شقوق الحدود براً وجواً وبحراً. وذهبت إلى مزارع الحشيش والأفيون والكوكايين وأحرقت وأبادت وأطلقت النار.. ولا تزال التجارة مستمرة، والمواد متوفرة فى كل مكان..

لأن الإقبال عليها عظيم جداً، وغالية الثمن. كانت بالمقامرة. والمقامرة مغرية ولأن تجارة المخدرات تقوم بها منظمات ارهابية قوية واسعة الشبكات وتستخدم أحدث وسائل الإتصال والتهريب، ولأن بين الاجهزة الحكومية رجالاً، يشاركون فى ذلك.. والفلوس بالملايين يلين لها الحديد!

وأكثر المواد إنتشاراً الآن مسحوق «الكوكايين».. أو عجينة الكوكايين وهو يستخرج من أوراق الكاكاو.. و٣٠٠ كيلو من ورق الكاكاو يؤدى إلى كيلو واحد من عجينة الكاكايين.. وبعد ذلك يعالج بكثير من الأحماض ويجفف ويتحول إلى مسحوق أبيض ثلجى..

هذا هو الذى يتعاطاه الملايين سراً وبأسعار فادحة!

ومعظم الكوكايين يجىء من دول أمريكا اللاتينية: البرازيل وبوليفيا.. ويتم الاتفاق مع الحكومات على احراق المزارع وهدم المصانع واعتقال التجار وحبس المتعاطين.

والنتيجة دائماً لصالح تجار المخدرات ..

ولكن لماذا هذه المخدرات ؟

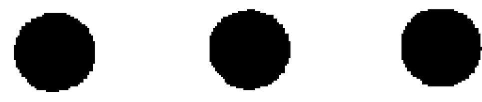
أو لماذا ادمان « المغيبات » عن الوعى ؟

والجواب : أنها النشوة والسعادة المزيفة ثم الادمان بعد ذلك ــ ادمان تعاطيها وادمان الهروب من الحياة ، أو التخفف من اعبائها ومتاعبها .. والفرار من الملل : الحياة الرتيبة المتشابهة الأيام والليالى ..

ثم قتل النفس : فإذا كان الحرص على البقاء غريزة الإنسان والحيوان فإن الحرص على الفناء غريزة الإنسان ــ هكذا قال لنا علماء النفس .

وهذه المخدرات تساعد على هدم الإنسان من داخله ، من داخل عقله ومعدته واحشائه ، واسرته والمجتمع ..

وهكذا تكون الحرب شريعة الإنسان ، حرب الإنسان ضد الإنسان وحرب الانسان لنفسه حتى يموت فى جلده !



طبيب يزعم بأنه نبى. وأن الوحى يهبط عليه. وأن له برنامجاً لإصلاح الكون إبتداء بالمسلمين فى العالم، ثم بمصر. ويجد له أتباعاً من المتعلمين.

فنحن إذن: أمام رجل عنده قدرة على الاقناع، وأمام أناس لديهم استعداد لتصديق هذا الرجل.

وليس هذا مقصوراً على مصر وحدها، أو على المسلمين وإنما هذا مألوف فى كل الأديان وفى كل الأوقات. وقد ادعى النبوة كثيرون وادعى الألوهية كثيرون جداً.

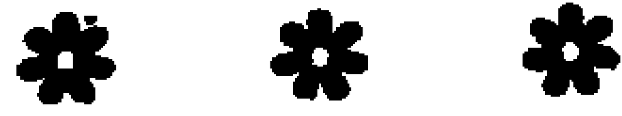
مثلاً فى أمريكا وحدها مئات المذاهب الدينية الخارجة على المسيحية واليهودية والبوذية.. وعلى رأس كل هذه المذاهب أدعياء النبوة.

وهذه النوعية من الاتباع: اما إناس ضعاف الشخصية، من السهل ربطهم فى حبل وجرجرتهم إلى أى مكان عند أطراف المدن أو الكهوف أو الحانات أو الغابات.. وإما أنهم أناس هاربون من المجتمع الكبير لعجزهم عن مواجهته أو مسايرته أو التمرد عليه. ولذلك يستسلمون لمن هو أقوى شخصية ورأياً. ولمن يقنعهم بأنه هو وحده الذى سوف يخلصهم من سلطان الكنيسة والمجتمع والاسرة!

وهذا يحدث فى محطات السكك الحديدية أو فى المطارات عندما يشعر العائدون أنهم أمام مجهول.. مدينة مجهولة عناوين مجهولة.. زحام سيارات لا تجيء.. تعب.. ملل.. وهنا يظهر من يقول لهم أنه على استعداد لراحتهم وهدايتهم..

ونفس الشيء فى المجتمعات الكبيرة حيث يشعر الناس بضآلتهم وضلالهم وخوفهم ــ وهذا هو الجو المناسب لظهور من يدعى أنه نبى أو أنه إله .. أو منقذ من الضلال .

ولن يكون الطبيب النصاب آخر الذين يدعون أن لهم قدرات خارقة .. لأن أناساً عندهم هذه القدرة ، ولأن هناك أناساً على استعداد للسير وراء أى قوى يلغى أدمية الإنسان ، عندما يعده بأنه سوف يجعله أسمى من سائر البشر !



في عصر الاذاعة والتليفزيون والاقار الصناعية ، لم تعد هناك حدود بين الدول .

ومهما حاولت أية دولة أن تمنع مواطنيها من الاستماع إلى الاذاعات المعادية ، فإنها لا تستطيع . ومهما أقامت من حدود وسدود ، فسوف تعرف الشعوب حقيقة ما يجرى خارجها .

وبعد الحرب العالمية الثانية أقيم «الستار الحديدى» بين ألمانيا شرقاً وغرباً . الستار طوله ١٣٨٠ كيلو متراً واستخدمت فيه ألغام تبلغ المليونين ، وخمسين ألف كيلو مترا من الأسلاك الشائكة ، وأقيمت أبراج المراقبة وأجهزة التصنت .. وقد أدى هذا السور إلى منع الهرب من الشرق إلى الغرب .. ولكن الا تصالات بين الشرق والغرب مستمرة ولا يمكن وقفها .

وبين أمريكا وكندا حدود تصل إلى خمسة آلاف كيلو متراً وهى مفتوحة على آخرها ، مهما حاول أن يسد ذلك فى وجه الإنسان والحيوان . وبين أمريكا والمكسيك حدود طولها أكثر من ثلاثة آلاف كيلو متر . ولم تفلح أمريكا فى وقف المهاجرين والهاربين إليها والمخدرات ..

ربما كانت الحدود الصينية وطولها أكثر من سبعة آلاف كيلو متر ، هى الحدود الوحيدة التى لم يجرؤ أحد على عبورها .. وحدود الصين مع ١٣ دولة أخرى تبلغ ٢٤ ألف كيلو متر ..

وهناك حدود اسمية بين مدينة الفاتيكان فى روما وإيطاليا . هذه

الحدود لا تزيد على أربعة كيلو مترات.. أما الحدود التى لا وجود لها، فهى التى بين زامبيا وزيمبابوى وبوتسوانا وناميبيا..

وفى هذا العالم الذى يتزايد بمعدل ربع مليون نسمة فى الدقيقة، وتتزايد أيضاً معدلات إنتاج الراديو الصغير والحاسبات الالكترونية والمواصلات الفضائية والمتاعب الاقتصادية والسياسية فى الشرق والغرب.. تتفق كل الشعوب على رغبتها فى التخلص من الموت والجوع والظلم والجهل والمرض.. ومع هذا الشعور القوى، وأمامه، لا تنفع الأسوار مهما كانت المادة التى صنعت منها.. فالعالم يتقارب أكثر ويتضامن أعمق رغم أنف السياسة ورجال الدين!

ولذلك لا يمكن إخفاء شىء عن احد، لا عن الصديق ولا عن العدو.. فهناك ألوف العيون والآذان، قد انتشرت هنا وهناك ترص وتوزع أولا بأول..

فأنت عريان.. تماماً أمام الآخرين، ولكنك لا تدرى!



كان لى قريب يغيظنى ونحن صغار فقد كان يتلقى كل يوم خطاباً وردياً معطرا من فتيات كثيرات. والكلام فيه شعر ونثر يشيد بجمال المحبوب ولوعة الحب.. وكان ذلك يدهشنى جداً. فلم أكن أعرف معنى الحب ولا ماهذه العلاقة بين شاب صغير وفتاة.

ولا كيف بدأت، ولا كيف تحولت إلى خطابات ولا لماذا؟ ولا المعنى ولا الحل ولا كيف يصادف الإنسان فى حياته حباً وعشقاً؟

ولم نكن تجاوزنا الخامسة عشرة من العمر.

وكنت حريصاً على عدم متابعة هذه الخطابات ذهابا وايابا ولا كيف تطورت ولا كيف يلتقيان. ومن هى؟

إذن هو مختلف عنى وعن كل الشبان الآخرين. وله مزايا وقدرات وجاذبية:

وإلا ما تزاحمت عليه الخطابات وصاحبات الخطابات والورود.. وعرفنا فيما بعد أنه هو الذى يكتب الخطابات لنفسه!

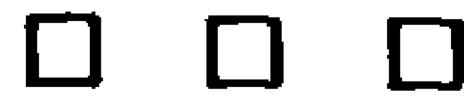
وكان قريبى هذا ساذجاً خالياً! وفى كل مرة اتذكره، اتذكر أيضاً اديبنا الفصيح البليغ مصطفى صادق الرافعى فهو عالم جليل وفقيه لغوى وإسلامى ممتاز.

وقد أوتى قدرة فائقة على الإحساس باللغة العربية والتعمق فى معانيها ومبانيها. ولا أعرف أحداً بهذه الموهبة الفريدة فى الأدب الحديث.. وله كلام كثير جداً فى صناعة الحب ــ أى فى فن التعبير عن الحب.

وليس له نظير. يكفى أن تقرأ الطبعة الجديدة من مؤلفات الرافعى: (السحاب الأحمر وأوراق الورد ورسائل الاحزان) لنجد أنه صاحب منجم لغوى. وقد غلبته هذه الصناعة فتوهم قصصاً من الحب. فى مقدمتها قصة حب للأنسة مى زيادة وحب مى له قد يكون أحبها ولكن من المؤكد أنها لم تبادله هذا الحب فرسائله الغرامية قد كتبها إلى نفسه!

وكان الاستاذ العقاد يسخر من غرامياته. ولكن العقاد نفسه مفكر كبير وعاشق مبتدىء. والرافعى عاشق ساذج لم يجرب الحب، ولكن يعرف الكثير من الصيغ الجمالية عن الحب. ومن المؤكد أنه عرف الحب ولم يتذوقه أو تذوقه من طرف واحد!

لا يهم! فنحن لا ندين بالكثير للعشاق الناجحين، وإنما ندين بالكثير جداً للعشاق الفاشلين ــ والرافعى أحدهم والعقاد أيضاً!



انتهى شهر رمضان وسوف تختفى معه تلك «الجرعة» الدينية التليفزيونية. كأن لا دين إلا فى رمضان. ولا أيمان إلا للصائمين. مع أن الصائم فى حاجة إلى كثير من الدين. وفى حاجة أيضا إلى ما يخفف عنه ارهاق الصيام. وما يساعده على تحريك عقارب الساعة أسرع بين مدفع الامساك ومدفع الإفطار.

ويتربع على عرش الحديث الدينى: الباقورى والشعراوى. فكلاهما قد أوتى علما كثيرا. ووهبه الله قدرة على البيان والاقناع. والشيخ الباقورى أقدر على الإيجاز. والشيخ الشعراوى امتع فى الشرح وأشجع فى الاجتهاد. ولذلك أحب الناس فى الشيخ الشعراوى هذه المعانى الجديدة والتفسيرات الشخصية لكثير من القضايا المألوفة.

ويبقى بعد ذلك ما يجب أن يتمسك به التليفزيون من أن الأحاديث الدينية. لابد أن تبقى. وأن تختار أحسن الأصوات وأقدر المتحدثين وأحدث المشاكل والقضايا.

ولقد اندهشت كثيرا جدا لحديث لفضيلة المفتى الشيخ جاد الحق. لقد تحدث فى إحدى المرات عن الأشياء التى يفطر لها الصائم فقال: أن يضع الإنسان ــ رجلا وامرأة ــ إصبعه فى مؤخرته وأن تضع المرأة أصبعها فى مقدمتها ؟! إلخ قال ذلك للملايين من الرجال والنساء والأطفال أى أضعاف الذين يقرأون هذه الصحيفة. ولا أعرف أن كان ذلك صحيحاً. وإذا كان صحيحا هل كان ضروريا، وإذا كان ضروريا، ألم يجد طريقة أكثر تهذيبا ؟.

ومن حق التليفزيون أن يعرف مقدما ما الذى يقوله المتحدثون. فلا تكون الأحاديث على الهواء.. لا حجرا على حريات العلماء، ولكن صونا لمشاعر الناس..

وقد سمعنا ورأينا عشرات من أصحاب الفضيلة المتحدثين.. أما الخطوة التالية فهى أن نتخير أفضلهم: أى أقدرهم على أن يكسبوا كل عين وكل أذن.. ثم كل قلب بعد ذلك!



أمامك التليفزيون: مبنى ومعنى وقل لى كيف تصلحه ؟

أولا : ما هى العيوب الموجودة ؟

ثانيا: من أنت وما هى خبرتك وقدرتك وميزانيتك والوقت المخصص لك لكى تحقق هذه المعجزة ؟

ثالثا: ما هى معلوماتك عن تاريخ هذا المرض التليفزيونى. لأن تاريخ أى مرض هو جزء من تكوينه.

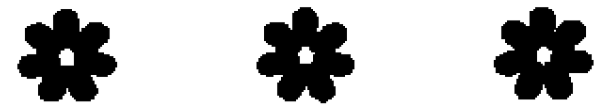
رابعا: ما هى الهيئات التليفزيونية الأخرى التى تعرفها وتقارن بينها جميعا.

خامسا: هل يمكن فصل التليفزيون عن الظروف والبيئة المصرية اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا .. إلى آخر الأسئلة التى يكررها الناس عادة إذا جلسوا أمام التليفزيون. وينسى الناس أيضا أنهم يقولون نفس الشىء ضد كل شىء آخر فى مصر ابتداء من الماء إلى النور إلى الشارع إلى الزبال وإلى الجزار وإلى الست صاحبة البيت التى تقطع عنك الماء وتوقف الأسانسير على مزاجها. وإذا كان لك اعتراض: فأبحث لك عن مكان أخر وهو ما يحدث فى بيتنا !

أنه «المزاج العام» المصرى الذى ينتقد كل شىء. ومن بين هذه الأشياء التليفزيون. لأنه أصبح ضرورة ولأنه فى كل بيت. ولأنه هو وحده الذى يحمل عبء متاعبك اليومية، وهو وحده المسئول عن أن ينقلك من الكرسى الذى تجلس عليه إلى السرير الذى سوف تدفن نفسك فيه.

والظلم هنا : هو أنك تطلب من هذا الجهاز وحده أن يحل لك كل مشاكل الدنيا ، دنياك الخاصة ودنيا مصر كلها . وتنسى أن التليفزيون هذا ليس إلا مجموعة من الناس من أمثالك عندهم مشاكل مثل مشاكلك ، وبطونهم وعقولهم وقلوبهم مرهقة مثلك تماما .. وأن السنتهم طويلة وأيديهم قصيرة . وأن ألسنتهم هذه لاتظهر على الشاشة . لأن واجبهم أن يعرضوا مشاكل الناس إلا مشاكلهم .

ولاتربطني بالتليفزيون المصرى أية صلة بما فى ذلك الفرجة عليه ، فأنا أفضل الاذاعة .. ولكنى أرى أن هذا الذى يقال ضده ويكال ظلم عنيف . وأنا أحاول فقط ألا أكون شيطانا أخرس : أى أرى الظلم وأسكت عنه .



من مشاهدة التليفزيون وسماع الاذاعة وقراءة الصحف يتأكد لديك معنى واضح أن فى مصر رجالا يعملون بصدق واخلاص. وأن لديهم املا فى حياتهم وفى مستقبل مصر. ولولا هذا التفاؤل ما فعلوا شيئا ولا كانت سعادتهم بأنهم سوف يمضون فى ذلك.

اذن ما الذى نشكو منه. نحن لا نشكو من الذين يعملون ولكننا نشكو من أنهم قليلون جدا. ولانهم قليلون فأن أحدا لا يدرى بهم. ولأنهم بعيدون عن الأضواء الفاضحة والأقلام الجارحة. فليس أمامنا إلا العاطلون الباطلون. إلا البائسون المتشائمون المترحمون على مصر حاضرا ومستقبلا. ولأن العاملين أقلية، فسوف يصيبهم ما أصاب الأقلية من خوف وانطواء وانزواء واحساس بأنهم شواذ. وأنهم عصابة تقوم سرا بالعمل والنجاح وعلاج مصر من أمراضها. وهكذا يكون الصواب خطأ، والخطأ صوابا. ويكون الطبيب مريضا. والمرضى هم الأطباء!

رأيت مهندسا زراعيا يصلح مساحة صغيرة من الأرض. إذا وقف عند الظهيرة فأن ظله سوف يتجاوز حدود أرضه. ولكنه يتحدث عن رى الأرض وزرعها وتحليل تربتها ومياهها. وانتقاء بذورها.

ورأيت زوجته فى غاية من الصحة والعافية وكذلك أولاده وكلابه واغنامه.. وأغمضت عينى وقرصت نفسى لعلى أصحو من نومى.. وعندما صحوت وجدت الرجل يتكلم لهجة مصرية. فهو مصرى والتليفزيون والأرض.. ولكن الأمل اجنبى والتفاؤل غريب.

وضبطت نفسى متلبسا بفضيحة: فلم يكن فى نيتى أن استمع إليه وانما أنا فى انتظار المسلسل الأجنبى!

وضحكت من نفسى. وقررت أن اعترف له بذلك. وبأن سلامة مصر على يديه وألوف مثله فى كل مكان ولكننا لا ندرى. وإذا درينا لا نلتفت وإذا التفتنا فأننا لا نتحمس لهم. أو نتحمس بعض الوقت وننسى أن فى مصر رجالا يزرعون الأمل وأنهم مستقبل مصر..



أن تقتل أم واحدة ثلاثة من أطفالها، أو جميع أطفالها، لا يدل على أن كل الأمهات كذلك. أو أن هذا هو مصير كل الأطفال وانما هى حادثة فردية شاذة. ولذلك يجب أن يكون نصيبها من الاهتمام والنشر محدودا.

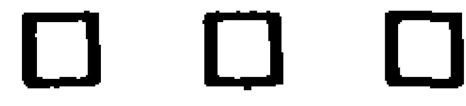
غير أن بعض الصحف نشرت هذا الحادث الجنونى، وكأن القاهرة قد نامت وقامت لتجد كل أطفالها قد قتلوا بأيدى أمهاتهم!

وقد فزع الناس من هذه الحادثة المؤلمة، وضايقهم أكثر أن تتوسع الصحف والمجلات فى نشر تفاصيلها. أما سبب فزع الناس وضيقهم فهو أن فى الدنيا مصائب كثيرة، وأن كل واحد لديه ما يكفيه وزيادة. فليس الناس فى حاجة إلى من يصب الطين والدم على رؤوسهم، ويملأ بالصراخ آذانهم. ويوجع قلوبهم على الآخرين ـ فالقلوب طافحة بما فيها!

ثم أن هناك قضايا حيوية عاجلة تحتاج إلى مثل هذا التوسع ومثل هذا الاهتمام. صحيح أن القتل جريمة وأن الموت حق ولكن الحياة ضرورة وجعلها أجمل وأنفع: أمل لنا وواجب علينا.

هذا الخلل فى مقاييس النشر هو الذى يضايق الناس. وهو الذى يجعلهم يغضبون من الصحف ويتصورون أن هناك خطة عالمية لتكدير حياتهم وسد نفوسهم عن العمل والأمل والحياة ـ مع أن الحقيقة أن السبب هو مجرد «الحماس المهنى» أى حماس الصحفى لعمله وحرصه على أن يسبق غيره من الصحف الأخرى. فقط دون أن يخطر على باله كل الذى ضايق الناس..

ومع ذلك ففى الصحف صفحات كاملة عن المشاكل وحلها والحرص على توضيحها .. وفى الصحف موضوعات مسلية ومضحكة .. ولكن يبدو أن القارئ لم يعد يطيق أن يهزه أحد .. ويوجع دماغة وقلبه ــ ولا أعرف ان كان يحق لى أن اعتذر عن الزملاء، وإن كنت لا الومهم !



أجمل ما فى باريس المكتبات والمسارح والمقاهى. والمقاهى تختلف عن التى نعرفها فى بلادنا. انها انظف وأجمل وفيها غرف للجلوس من أجل الحوار والكتابة أيضا. ذهبت منذ شهر اتفرج من جديد على مقهى «دى فلور» الذى كان يتردد عليه الفيلسوف الوجودى سارتر وصديقة عمره سيمون دى بوفوار. ثم ذهبت اتفرج على مقهى «البلكونة الصغيرة» الذى كان يأوى إليه الفنان الكبير بيكاسو.. وذهبت إلى مقهى «أنت وأنا» ـ وهو اسم ديوان لآخر الشعراء الرومانسيين بول جيرالدى.

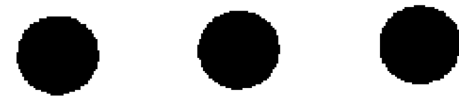
«شىء ما» فى المقاهى الفرنسية ليس له نظير فى المقاهى الإيطالية والاسبانية.. والمصرية فالمقهى المصرى عبارة عن حوش له أبواب.. وفيه الكثير من الضوضاء والقذارة والذباب. وليس فى إمكان أحد أن يجلس يتأمل نفسه أو غيره. فهو لا يذهب إلى المقهى ـ عادة ـ إلا يائسا من الوقوف فى محطة الأتوبيس. وإلا فرارا من زحمة الشارع.. وطبيعى ألا يجد الراحة هناك. فالمقهى استئناف للعذاب الذى فى أماكن أخرى..

حتى المقاهى التى كان يتردد عليها المثقفون، ضاعت معالمها. ولم تعد قادرة على استقبال هذه النوعية من الناس الذين يحبون الجلوس معا طويلا. يعيدون «تفنيط» أوراق اللعب السياسى والاقتصادى والنفسى..

سألت فقيل أن هذه المقاهى لم تعد قادرة على الوفاء بمصاريفها. فكل شىء قد ارتفع إلا السلع التى تقدمها للسادة الضيوف. ثم أن الزبون يجلس ست ساعات. لأنه شرب فنجانا من القهوة وأحيانا كوبا من الماء..

قال لى صاحب مقهى أنه يريد اغلاق المقهى. لولا أنه أدمن الجلوس فيه وأنه إذا أقفله فلن يجد مكانا أخر يذهب إليه.. لقد أصبح المقهى ملكا لرواده والعاملين فيه أما هو فقد أصبح أجنبيا عليه..

ولكن الاندية النظيفة الجميلة. لاتفى بهذا الغرض عند الادباء والفنانين والسياسيين.. فهم يريدون مكانا قريبا من الواقع وفية كل عيوبه، وفى نفس الوقت بعيد عنه. فيراقبونه من بعيد ويعشقونه ويتمردون عليه وعلى أنفسهم!



قرأت أن أحد الممثلين الشبان لا يحفظ دوره على المسرح. وأنه يعتمد على ذاكرته. وعلى ما يمليه الموقف وعلى مساعدة زملائه.. أى أنه يذهب إلى المسرح ولم يحفظ دوره جيدا. أما عذر هذا الشاب فهو أنه يعمل فى الاذاعة والتليفزيون ومسلسلات عربية.. ثم أن المكافأة التى يتقاضاها من المسرح لا تشجعه على أن يحفظ دوره!

هذا رأيه وهو حر فيه.. ولكن ليس لهذا الشاب مستقبل كبير. لأن عمره الفنى سيكون قصيرا. فهذا الارهاق وهذا الحرص على المال وعلى عدم الاتقان كفيل بأن يبدد طاقته ويطمس موهبته.

أذكر أننى اصطحبت السيدة أم كلثوم لنشاهد أحدى مسرحياتى. وكانت بطلة المسرحية السيدة عقيلة راتب. وأم كلثوم تحبها وتعجب بها. وكانت عقيلة راتب فى غاية الحيوية وحاضرة دائما.. بل أنها كانت تهمس لزملائها بأدوارهم. فهى تحفظ دورها ودور غيرها. وقلت لأم كلثوم: أن السيدة عقيلة راتب أكثر الناس انضباطا واشدهم تواضعا..

وضحكت أم كلثوم وهى تقول: أن عقيلة راتب موهبة سوف تعيش وتموت فقيرة! لأن حرص الممثلة الكبيرة على أداء دورها، يحتم عليها أن تتفرغ له. ولا يهم كم يدفع المسرح لها من المال. فالواجب أن تؤدى الدور كاملا وبعد ذلك الفلوس.. وهى عادة لا تجيء للذين اختاروا الفن، واحتكموا إلى الضمير..

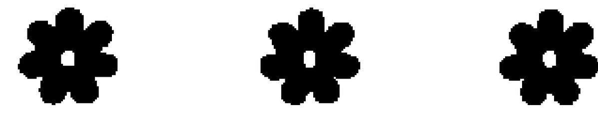
وفى نهاية المسرحية يبدو أن أحد الممثلين قد نسى دوره تماما. وإذا

بعقيلة راتب تنقذ الموقف فتقول: أنا أعرف ماذا تريد أن تقول.. ستقول كذا وأنا سوف أرد عليك بكذا.. وسوف ترد بكذا وأنا سوف أقول كذا..

ووقفت أم كلثوم تصفق لعقيلة راتب؛ الفنانة العظيمة التى احترمت نفسها وغيرها واعطت مثلا رفيعا للالتزام الفنى والآداء الرفيع. ونهضت أم كلثوم وهى تقول: هذا بالضبط ما أحبه.. بالضبط هكذا..

وعلى أكتاف مثل عقّيلة راتب فى المسرح والغناء والموسيقى والأدب والفن والهندسة، تنهض مصر وأى بلد أخر..

وبمثل ذلك الاستخفاف الذى قرأته، ينهار المسرح والفن والمثل العليا عند الشبان فى كل فن!



من أجل ساعات عمل أكثر، فأن بعض المؤسسات والحكومات تجعل العمل على فترة واحدة تتخللها نصف ساعة راحة أكل أو شرب أو رياضة. بعض المؤسسات والبنوك قد أقامت ملاعب للكرة فى داخلها. حتى لايذهب موظفوها بعيدا وحتى لا يضيعوا الوقت فى المواصلات. وبعض المؤسسات تسمح بالموسيقى الهادئة فى المكاتب. أو تسمح لموظفيها أن يحملوا راديوهات أو ريكوردرات فى جيوبهم، ويضعوا السماعات على آذانهم أثناء العمل.

وفى الشرق الأقصى يسمحون بالتدليك أثناء العمل. فيمر المدلك على الموظف أو يزودون المكاتب والمصانع بأجهزة ذبذبية لتدليك الجسم.

أما فى اليابان فالى جانب استخدام كل ذلك فأن ديانة «شنتو» قد انتشرت أكثر من أى وقت أخر. وهى ديانة بدأت فى اليابان من ٢٧ قرنا. و«الشنتو» معناها: الهداية.. أو الطريق إلى الالهة. وهذا الطريق يجىء عن طريق التأمل والاعجاب بجمال الطبيعة. أو الطريق: الجبال والانهار والغابات والشمس والقمر. ويرون فى النظر والتأمل والاستغراق فى ذلك: عبادة. وهى كذلك مريحة للنفس والجسم معا وإذا لم يتيسر للياباني أن يجد كل هذه المظاهر أمام عينيه فإنه ينظر إلى اللوحات الجميلة ويتمشى بعينيه على خطوطها وظلالها ومساحاتها اللونية وفى ذلك راحة له..

وشكل أخر من أشكال الراحة هو «التأمل المتعالى» ــ أى أن تجلس هادئا وتغمض عينيك وتفكر فى لاشىء.. أى تتعالى على كل حياتك

اليومية وتغمض عينيك وحواسك عنها، وتتأمل مساحات مجردة من كل الألوان والخطوط والاشكال والاحجام ــ بعض الوقت !

وقد أدخل علماء الشنتو واليوجا والزن تعديلات على أدائها فبدلا من أن يظل الانسان جالسا، جعلوه يقف ويركع ويسجد عدة مرات..

انهم لا يعرفون الصلوات خمس مرات. ولا يعرفون كم هى تستغرق الانسان وتدخله فى سماوات المعانى البليغة والراحة النبيلة والسعادة القدسية، وكيف تؤدى إلى الانسحاب من الدنيا والعلو عليها ــ انني لا استبعد أن يكون التطوير لهذه الديانات أن تشهر اسلامها.



من التعبيرات الخرافية عندنا أن نسمع كل واحد يقول: انني أعمل من أجل البلد! تعبت من أجل البلد ـ التي هي مصر!

وأنا لا أفهم معنى لهذا التعبير. ونحن كاذبون، ومصرون على الكذب، ما دمنا مصرين على استعماله ليلا ونهارا!

فأنا أعمل، لأنه من الواجب أن أعمل. ومن الواجب أن أتقن عملي. وأنا أتقاضى أجرا على هذا العمل. فأنا أبيع طاقتي/قدرتي.. براعتي. وآخذ الثمن من الدولة أو من الشركة أو من المؤسسة.

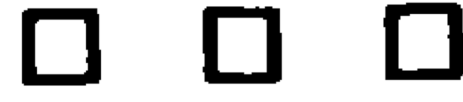
فالعمل سلعة. وبائع الكتب مثل بائع الجرجير. كله بيع وشراء. والذي يكنس الشارع كالذي يمسح زجاج سفينة الفضاء. يعمل لأن من الواجب أن يعمل. فمن حقه أن يتقاضى أجراً، ومن الواجب عليه أن يقدم المقابل لهذا الأجر.

والمقابل هو العمل. وكلما اتقن عمله، ارتفع فوق السلم الوظيفي. وأصبح من الممكن أن يتقاضى أجراً أكبر.. علاوة.. مكافأة.. ترقية.. والعمل الجيد، سلعة جيدة والعمل الرديء، سلعة رديئة.

والمدرس والتلميذ كلاهما يعمل. فالتلميذ يتعلم لأنه من الواجب أن يتعلم. وأن يذاكر لكي ينجح. وأن يذاكر أعمق وأطول لكي يتفوق. فإذا تفوق وجد طريقة إلى العمل.. فالمذاكرة خطوة إلى الوظيفة. والوظيفة لها أجر. فهو يذاكر من أجل نفسه، ويعمل لكي يعيش.. وكنس شارع مثلا، واجب العامل. والنظافة ضرورة. يقوم بها الحي، وتقوم بها المدينة،

وتقوم بها الدولة لأن النظافة والنظام والدقة واجبة. ولأن النظافة تعطى للشارع لمسة جمالية.

فحصيلة العمل تهم الدولة كلها. ولكنها تهمنا أولا والدولة ثانيا. فليس صحيحا أننا هكذا مجردون عن الهوى. ولا نحن هكذا ملائكة لا نعمل من أجل ثمن أو مقابل واننا هكذا شهداء الوطن والانسانية.. وأكثر الذين يزعمون أنهم يعملون من أجل مصر وحدها، لا يؤدون عملا.. وانما يتظاهرون بذلك. والذين يعملون مخلصين لا صوت لهم، ولا أحد يعرفهم.. أنهم الأغلبية الصامتة البعيدة عن الكاميرا والميكروفون.



طلعت الشمس فى عيون الصغار ولم تغرب بعد ــ كما تقول الأغنية الايطالية. ومعناها أن الطلبة الصغار بدأوا يذاكرون ويسرفون فى شرب القهوة والسهر وتعاطى الحبوب المنبهة.

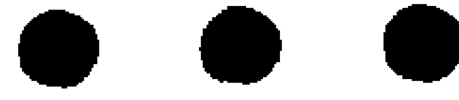
وليس سرا أن يقال أن كل هذه الأنواع موجودة فى مصر. فالعالم كله مفتوح بعضه على بعض. ويمكن نقل العقاقير السامة من أى مكان وتعبئتها وتزويرها فى مصر أيضا. كما أن هناك عقاقير كيماوية موجودة فى الصيدليات. ويمكن لأى انسان أن يشتريها كما يشترى كل ما يحتاجه من البقال دون روشته.

ولم أقرأ فى أية صحيفة، ولم أشاهد فى أى برنامج تليفزيونى، تحذيرا للطلبة من أخطار العقاقير المنبة. التى تفتح العين ويتوهم الطالب أنه فى حالة يقظة ونشاط. هو بالفعل كذلك. ولكن هذا النشاط مستعار أى أنه استعاره من مخزون الطاقة التى لديه ــ وبعد ذلك تتبدد هذه الطاقة ويسقط منهارا.. أو يصبح عاجزا عن التركيز وجمع المعلومات.. تماما كما تتصلب أصابع يديك.. فهى مشدودة. وهى لذلك عاجزة عن القبض على أى شىء، والذاكرة بسبب هذه المنبهات، تشبه أصابع يديك. لا تقوى على جمع المعلومات والاحتفاظ بها..

وسوف يخرج الطلبة من الامتحانات مرهقين جدا. وقد أدمنوا شيئين معا: المنبهات والمهدئات. فبعد الاسراف فى المنبهات واليقظة الزائفة والنشاط المستعار، يحتاجون إلى مهدئات.. ومزيد من المهدئات والمخدرات.. وبعد التنشيط والتثبيط، يتحطم الجهاز العصبى وخلايا المخ

أيضا. وبذلك يخرج الطالب الناجح أو الفاشل: ضحية. ولا أحد فيها بريء فنحن لم ننبه إلى ذلك بدرجة كافية. ولم نحرم بيع كل هذه السموم، ولابد أن نوالى ملاحقة المجرمين والضحايا فى كل مكان!

ابتداء من البيت والجامعة والمدرسة والمجلة والتليفزيون. لقد انتشرت حتى بين الاطفال فى المدارس، على سبيل تقليد الكبار ــ انتشرت كالسجائر أو مع السجائر. ودول العالم كلها تتفق على حرب واحدة: حرب المخدرات التى تقتل بالملايين.. لقد انتهى عصر حشد الجيوش بعضها ضد بعض.. وبدأ عصر الذى ينفرد فيها الانسان بنفسه ليقتلها بمزاجه ــ مرة يفتح عينيه فلا ينام، ومرة ينام فلا يصحو!



ليس دفاعا عن الراقصة نجوى فؤاد، ولكن استنكارا لأحد رجال الدين الذى لم يعجبه أن تكون لها «مكتبة». ولا أعرف مصدر غضبه. هل لأنها تجاوزت حدودها فأصبحت لها مكتبة. هل هناك شروط لأن يكون الانسان قارئا، وإذا كان قارئا يجب ألا يكون راقصا أو راقصة..

ربما كان الخطأ فى تصوره أن كلمة «مكتبة» خاصة بالكتب فقط.. فلا يصح أن يقال أن هناك مكتبة للاسطوانات أو مكتبة للشرائط المسجلة أو مكتبة من الحفريات والقواقع أو مكتبة من عينات العطور..

ان كان الاعتراض على أن استخدام كلمة مكتبة قد جاء فى غير موضعه. فلنتفق على كلمة تناسب الاحتفاظ بالأشرطة والاسطوانات، فهل نقول «مشرطة» أو مسطوة.

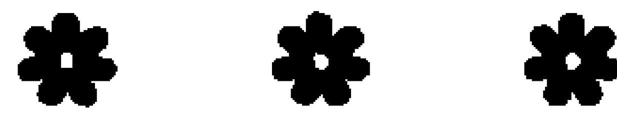
اذكر أننى اقترحت على المجمع اللغوى اضافة كلمتين جديدتين للدلالة على أماكن شرب الشاى. فإذا كنا نقول للمكان الذى نشرب فيه القهوة: مقهى. فأقترحت أن يكون للمكان الذى نشرب فيه الشاى: مشهى.. واقترحت أن نستخدم كلمة عربية بدلا من كلمة «الكافتيريا» التى هى مزج لكلمتين اجنبيتين هما القهوة والشاى معا. فاقترحت كلمة «القهوشية».

وغضب المرحوم محمود تيمور من هذا الاقتراح ورآه سخرية بالمجمع اللغوى مع أننى لم أقصد إلى ذلك!

فهل الاستاذ الفاضل العالم الدينى الذى شغلته هذه «الفعلة» يعترض على أن ليس من حق أى انسان أن يحتفظ بأى كتاب إلا إذا كان كاتبا ..

فما قوله بمن يحتفظ فى بيته بالقرآن الكريم، أو يضعه على صدره فى حلية ذهبية !

أن لديه امورا كثيرة أخطر من الاعتراض على أن يكون لأى انسان مكتبة من أى نوع !



نظرية جديدة تقول : كل أمراض النفس مصدرها الشعور بالخوف .

وكل شروط الصحة والعافية والجمال والابداع هو الشعور بالأمان .

والتجارب على الكلاب والقرود والأرانب تؤكد ذلك فإذا نحن أتينا بقطة أمام كلب ، فإن هذا يثيره ويغضبه . فالكلب لا يخاف ولكن القطة هى التى تخاف . ولذلك فالقطة هى موضوع البحث . والأجهزة تسجل لها الاضطراب وسرعة دقات القلب وارتفاع الضغط وارتباك المعدة وسوء الهضم والامساك .. والخوف الشديد بصورة متوالية يصيبها بالسكر . ومضاعفة الخوف لهذه القطة مع اصابتها بالسكر يؤدى إلى السرطان ..

والخوف مثل الألوان : درجات .. الخوف من عبور الشارع والخوف من المرور تحت الاسلاك الكهربائية ومن الظلام ومن اللصوص ومن المرض ومن الموت .. ولكن أخطر درجات الخوف أن يكون الإنسان « خائفا عموما » .

وأن يكون خائفا دون سبب واضح . هذا الخوف هو الذى يجعل الإنسان مستعداً لكل مرض جسمى ونفسى وعقلى !

وقد درس علماء النفس « خوف » الاقلية وخوف المضطهدين والذين خرجوا من السجون وخوفهم أن يعودوا إليها .. وخوف الحكام من الشعوب ومن المؤامرات وخوفهم من أقرب الناس إليهم .. ووجد العلماء أن هذا هو « الخوف » ــ وأن هذا الخوف هو أم لكل المصائب الجسمية والعضوية ..

وإن عالم الخائفين هو جهنم التى يتعذب فيها كل الناس على نار هادئة، نار ليس لها دخان.. نار باردة.. تشوى وتكوى وتلسع تحت الجلد، وفى كل الخلايا.. وأن أعظم نعمة يحققها ويلقاها الإنسان هو الشعور بالأمان.

وصدق الله العظيم حين يصف الجنة فيقول: «لا تسمع فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا: سلاما سلاما»!

أى ليس فى الجنة: شىء يوجع أو شىء يثير أو يخيف أو ينرفز ولا فيها أثم وإنما كل ما فيها يدعو إلى الامان الشخصى، والسلام العام..



أن المرأة ترتاد شوارع عديدة لكى تشترى بكرة خيط .. ثم تشتريها من المحل الصغير جداً الذى فى نهاية الشارع . مع أن نوعية البكرة وسعرها وحجمها هو الذى وجدته فى أول محل بهذا الشارع . فلماذا قررت فى آخر لحظة أن تشترى هذه السلعة الصغيرة ؟ الجواب : لأنها تعبت . وما دامت قد تعبت فهى قادرة على السيطرة على نفسها . وكذلك كل الناس فالارهاق يجعلنا عاجزين عن اتخاذ القرار فى الشراء والبيع والأكل والشرب . وكثير من الناس عندما يكونون مرهقين فإنهم لايقاومون الطعام والشراب أما لأن الإنسان بسبب الإرهاق فى حاجة إلى اطعام يعوضه عن احتراق السكريات ونقص الفيتامينات ولذلك فهو يستجيب لرغبة الجسم دون مقاومة منه .. واما لأنه بسبب هذا التعب ، لم يعد قادراً على ضبط النفس !

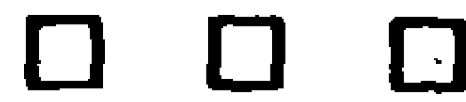
وعندما يكون الإنسان مرتاحا فإنه يكون فى حالة استرخاء ، وغير قادر على ضبط النفس ايضا . ولذلك فنحن فى الاجازات والاعياد نأكل ونشرب كثيراً جداً . والذى أكلناه فى يوم شم النسيم ، يعادل ما نأكله فى ثلاثة أو أربعة أيام ..

وقد يندم الإنسان على أنه أكل كثيراً . ومن الطبيعى أن يضبط نفسه ، فلا يأكل ولكن الذى يحدث هو العكس ، فهو بسبب هذا الضيق واليأس من ضبطه لنفسه ، يأكل ويشرب كثيراً .

والذين يعلمون الناس كيف يأكلون قليلا وطعاما مفيداً يطلبون إليهم

أن يضعوا الطعام الكثير أمامهم ، ثم لا يتناولوا إلا القليل وفى ذلك تدريب وترويض للنفس.. ولا ينصحون بابعاد الطعام تماما عن الموائد... لأن الإنسان اذا أكل القليل الذى يجده ، فهو لم يمنع نفسه عن شيء ، وهو لم يتحكم فى رغباته ، بل أنه استجاب لها..

ويرون أيضا أن أنسب وقت للريجيم هو أن يبدأ الإنسان بيوم العيد.. هنا فقط يثبت لنفسه أنه قوى وأنه قادر على أن يقول : لا ـــوهو شيء صعب.. ولا أظن أحداً فعل ذلك فى يوم شم النسيم أو سوف يفعل ذلك فى رمضان !



معهم حق فى السودان عندما يقولون لنا : أنهم يعرفون كل شىء عن مصر والمصريون لايعرفون شيئاً عن السودان..

ويرون فى ذلك اهمالاً وتجاهلاً من جانبنا أو تعاليا عليهم ؟!

أما أن أحداً يتعالى على المعرفة فليس صحيحاً . وإذا حدث فهو جهل فالمعرفة حياة ومن غير معرفة لا نصبح قادرين على انتاج الطعام والشراب والمواصلات والعمل.. فالعلم قوة.. ولابد أن نعرف ما فى السودان وما فى كل البلاد الأخرى.. ربما كانت وسائل التعريف بالسودان أقل أو أضعف من وسائل التعريف بمصر.. ولذلك عرفوا عنا أكثر مما ندرى عنهم.

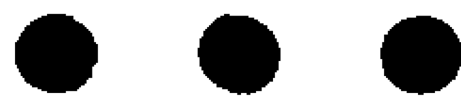
وسبب آخر يصيب ابناء الحضارات القديمة : نوع من الاكتفاء الذاتى فنحن المصريين نكتفى بأن لنا ماضيا عريقا وأن عصرنا الذهبى كان وراءنا. وأن العصر الذهبى يجىء مرة واحدة. فنحن دائمو النظر إلى الوراء ــ إلى ورائنا نحن. مع أن التاريخ ثرثار وأنه يعيد نفسه كثيراً.. فالعصور الذهبية تتكرر فى حياة الشعوب.. أى أنها فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل ــ وأقوى دول العالم امريكا وروسيا تدمنان المستقبل.. تدمنان الإيمان بأن العصور الذهبية غداً وبعد غد.

ومن عيوب ابناء الشعوب القديمة : الانطواء على النفس. فنحن مشغولون إلى حد كبير بمشاكل مصر وحدها..

اذكر أن رئيس احدى الدول العربية سألنى عن طلاق اثنين من نجوم السينما. وادهشنى السؤال. وادهشنى أكثر أنه يعرف تفاصيل دقيقة.. ولا

أظن أنه جمعها من الصحف فليس بعيداً أن يكون قد سأل رجاله ذهابا وايابا عن كل ذلك!

بل أنني أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول أن لدينا نوعاً من البلادة واللامبالاة سببها أننا تعبنا من الشد والجذب ومن القلق واليأس ومن النكسة والسلام بين الشرق والغرب بين التعصب الديني والاسترخاء السياسي والعناء الاقتصادي ـ فمعذرة عما حدث بالامس وعما سيحدث غداً إن شاء الله!



فى أى مكان فى مصر سوف تجد أناسا يعملون فى الأرض فى العمارات فى المزارع فى المصانع. قوة عاملة ضخمة لاشك فى ذلك.. وإذا ذهبت إلى أى مكان خارج القاهرة أو خارج المدن سوف تجد البيوت على جانبى الطريق، تنهض عالية، وحولها الارض الزراعية والصناعات الصغيرة.. واللوريات تنقل المواد الاولية ومواد البناء. وفى الطريق الزراعى والطريق الصحراوى، تزاحمت كل وسائل النقل المواصلات.

وليس صحيحاً أننا لانعمل وأننا كسالى موتى على مكاتبنا وفى مصانعنا. والحقيقة أننا نعمل أقل مما يجب. فالإنتاج ضئيل. ولهذا السبب فنحن نعيش على استيراد ما هو ضرورى وما هو كمالى أيضاً. ولو كانت المنتجات أكثر من الحاجة لصدرناها، واشترينا بثمنها ما نحتاج إليه.. دون أن نستدين ونقترض. وكل من يقرضك له شروط.. الفرد له شروط والبنك له شروط والدول لها شروط أيضا. لاشىء من أجل سواد عينك.

ولا تذهب بعيداً: أنظر إلى نفسك منذ جئت إلى عملك فى الصباح.. كم كانت الساعة عندما وصلت. ماهو أول شىء فعلته بعد القهوة والشاى والقهوة والسندوتش وقراءة الصحف وافتعال المناقشة والغضب وكم مرة تحدثت باسم مصر وكم مرة سخطت على العرب وعلى اليهود وعلى الامريكان والروس وكم مرة حقدت على عباد الله الذين عندهم فلوس.. وبعد كل ذلك كم ساعة عملت.. وكم عدد الذين حاولوا أن يصرفوك عن عملك وكيف أنك سمحت لهم بذلك، لأنك لست متحمسا للعمل.. وكم مرة احسست أنه من الضرورى أن تذهب إلى

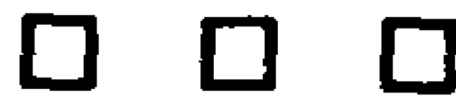
يعرف ما يدور حوله. بل أن الأب يجب أن يعلم ابنه كيف يشكره وكيف يمتن له. وكيف يشكر كل من قدم له شيئا!

وفى حياتنا العادية نجد اناسا وقفوا عند مرحلة الطفولة ينتظرون من الناس جميعا أن يكونوا آباء، أو كالآباء، وفى نفس الوقت لا يريدون أن يشكروا أحدا على ما قدمه لهم. ولكن هؤلاء الكبار لن يجدوا هذه الأبوة من كل الناس.. وهؤلاء الكبار يتصورون أنه فى استطاعة أى انسان أن يكون ضيفا، وأن يلقى الترحيب طول الوقت..

الصحيح هو أن يقال أننا ضيوف على ضيوف.. وأن الخدمات متبادلة. وأن المنفعة مشتركة. وأن الامتنان لنا ولغيرنا. وأن الشكر هواء يشمه الجميع، لأن أداء الواجب من نصيب الجميع..

وكل شيء حولنا يجب أن نشارك فيه بالقول والعمل. وأن الهدوء والراحة والأمان الذى ننعم به جميعا قد تحقق لأن آخرين قد غامروا بأرواحهم وأمنهم وهدوئهم..

ولا يكفي أن نقول لغيرنا شكرا لأننا فى الدفء والأمان، وأنتم فى العراء وفى الخطر.. ولكن أن نعمل مثلهم. فإذا عملنا جميعا كان هذا العمل هو أعظم امتنان للذين سبقونا فعملوا أكثر وأخطر!



زرت السيد دنكتاش رئيس قبرص التركية فى مكتبه. أنه متوسط القامة ممتلىء. أنه مختلف عن الصورة التى حملناها فى خيالنا ونحن أطفال عن شكل الاتراك: محمد على وابراهيم باشا والخديو عباس وسعيد واسماعيل. فلا لحية له ولا بدلة مزركشة.. وإنما هو رجل عادى وله بيت صغير وعربة كبيرة ومكتب متواضع. وصوته يجلجل فى هذه الغرفة الصغيرة، يكاد يزلزل جدرانها... وهو مجروح القلب والكبرياء فهو حزين على ما أصاب الجالية التركية فى الجزيرة القبرصية التى انقسمت إلى نصفين: احدهما لليونان والآخر لتركيا.

ولا يساعده من العالم الإسلامى أحد ــ فيما عدا بنك فيصل الإسلامى والمعهد الذى أقيم هناك لتدريب موظفى هذه البنوك التى تنتشر فى الدول الاسلامية. وهو حزين على أن مصر الإسلامية لا تسانده، بل أن السفير المصرى لايدعوه فى اية مناسبة قومية أو دينية، بينما لا يتردد عن دعوة جميع أفراد حكومة قبرص اليونانية وامتدت يدى إلى مكتبة فوجدت كتابا. ولما رأى دهشتى لوجود هذا الكتاب سألنى هل تعرف المؤلف؟ قلت: نعم.. والموضوع أعرفه وقد اصدرت عنه كتابين: الذين هبطوا من السماء.. والذين عادوا إلى السماء..

وهما عن نظرية تستحق الاهتمام وموضوعها: أن هناك حضارات أخرى فى هذا الكون.. وأن أبناء هذه الحضارات جاءوا إلى الأرض وتركوا آثارهم.. ولأسباب لانعرفها، عادوا من حيث جاءوا.. ولكن سفن الفضاء الحديثة والمراصد الفلكية المتطورة واجهزة التصنت على الفضاء

الخارجى، نحاول أن نهتدى إليهم، أو نهديهم إلينا وهناك عدد كبير من العلماء يؤمنون بذلك..

وهز رأسه ومط شفتيه وفهمت كأنه يريد أن يقول أنه هو أيضاً أشبه بواحد من سكان الكواكب الأخرى.. غريب فى هذه الدنيا.. وأن جزيرة قبرص تشبه سفينة فضاء سقطت فى البحر الأبيض، ولم يبق من ربانها سواه وأنه الآن، لا هو من سكان هذا الكوكب. ولا من سكان الكواكب الأخرى ـ غريب فى بلاد غريبة. مثل كل الفلاسفة اليائسين والغرباء اللامنتمين!



ربما كانت هذه ملحوظة دقيقة ولكنها قاسية قال صديقى الاجنبى ولم يكن مجاملاً لنا نحن المصريين: عندما أجد الجرسون يقف منفرج الساقين وهو يحدثنى، فإننى ادرك فوراً أن مدير الفندق مصرى!

أى أن هذا التراخى فى وقفه الجرسون والتراخى فى تطبيق اللوائح والنظم وآداب الحديث والخدمات كلها مربوطه بخيط واحد.. وهذا الخيط يمسكه المدير. فإن كان اجنبيا، فهو لا يغفل ولا ينام عن توقيع العقوبة فوراً، وعن اعطاء المكافأة أيضاً. لأن هذا المدير الاجنبى قد تدرب فى فنادق صارمة. وجاء من دولة تعبد القانون بعد الله.. أو تعبد الله لأنه هو القانون وراء كل شىء وهو الحكمة فى تطبيقه..

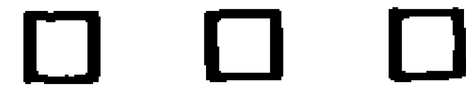
ولابد أننا نندهش كثيراً كيف أن وجود اثنين أو ثلاثة من الامريكان أو الفرنسيين أو الهنود فى أى فندق مصرى، يكفى لربطه وضبطه. فما هى هذه القوة الخارقة التى يملكها هذا العدد القليل جداً من المديرين؟ لا توجد قوة غير عادية. وإنما يوجد النظام الذى يتحتم تطبيقه. وتوجد الحرية المطلقة عند المدير فى العقاب والثواب، ثم أنه قدوة حسنة لكل الذين يعملون معه ـ انتهت هذه «الوصفة السحرية» للأدارة الناجحة!!

رأيت فى أحد الفنادق المصرية عدداً من الجرسونات مشغولين بتنظيف واستحمام «قطة» السيد المدير ـ بينما ملابسه ليست نظيفة!

سألت مديراً أجنبياً عن الذين يعاقبهم أخيراً. ولماذا؟ فوجدت: الجرسون الذى لم يحلق ذقنه جيداً، والفتاة التى نسيت أن تركب زراراً فى

فستانها والموظف الذى يتحدث إلى الزبون جالسا ، والذى ضبطوه يضحك بصوت مرتفع ، والذى رآه المدير بنفسه يمضغ لبانا ، كما أنه عاقب مدير الحسابات الذى شوهد من غير جاكته .. وكافأ الذى مات ابنه وحضر فى موعده ليطلب اذنا بالتغيب نصف يوم .. وكافأ الموظف الذى أخلى غرفته لسيدة مريضة لم يجد لها مكان فى الفندق ..

ثم إن هذا المدير صديق للجميع ، لأنه أسبقهم جميعاً إلى النهوض مبكراً والعمل طوال الوقت ...



يقال أن المصلح الديني «بوذا» كان يسهر الليل كثيراً، بسبب الارهاق والجوع والعطش. ولأنه يريد أن يرتفع عن كل رغباته الحسية. وطبيعي أن يقهر الجوع والتعب فينام. وكان يضع أمامه الاشواك والادوات الحادة، حتى إذا سقط من التعب ارتطم بما يرده بعنف إلى اليقظة..

وآخر مااهتدى إليه هو أنه اقتلع رموشه، ثم جفنيه ــ فلا نوم حتى الموت..

ويقال أن رموشه وجفنيه خرجت من الأرض نباتات خضراء هي التي عرفت فيما بعد بنبات الأفيون..

ويقال أن تلامذته قد اقتسموا رموشه، وأخذ كل واحد يلقي برمش في بلد. وهذا هو سبب انتشار الأفيون فى العالم..

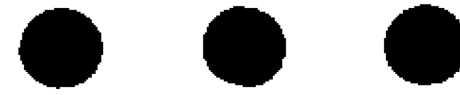
ولو لم يظهر هذا الأفيون فى العالم لاخترع الإنسان ما يوقظه وما يجعله ساهرا ليلا ونهاراً... فالإنسان اخترع المصباح الكهربى ليجعل النهار أطول.. والإنسان اهتدى إلى البن والشاى ليصحو ويسهر... والإنسان اخترع الكثير من المواد الكيماوية التى هى أقوى من الأفيون والكافيين الموجود فى القهوة والشاى.. واهتدى إلى الكوكايين من الكاكاو.. كما أهتدى إلى الأفيون من نبات الخس ــ أحدث الاختراعات الكيماوية..

وكل ذلك موجود فى كل دول العالم ــ وفى مصر أيضاً ــ ولا معنى لأن نتساءل: كيف جاء إلينا؟ تماما كما لا نسأل أنفسنا من أين جاءت هذه الأخبار والشائعات فكل إذاعات العالم موجودة فى كل بيت به راديو

صغير. ولا تعرف كيف يمكن منع الشبان طلبة الجامعات وتلامذة المدارس من تعاطى هذه المخدرات؟ ولكن يمكن الاجابة عن سؤال واحد فقط هو: لماذا يتعاطى الناس المنبهات والهرمونات والمخدرات والمهلوسات!.

والجواب: لأن ذلك جزء من الحرية.. ولأنه حر فى أن يمارس حريته.. وحر فى أن يعطل حريته ويعطيها لغيره من الناس يفعل بها وبه ما يشاء.. فكما أن الإنسان وهو بكامل قواه العقلية يشرب الخمر ويتعاطى المخدرات، لكى يفقد عقله فهو أيضاً بكامل حريته «يدمن» شيئاً أو يدمن مذهبا فلا تكون له ارادة.

فهذه هى فلسفة العصر...



رغم كل الجهود الجادة المبذولة لتحديد النسل أو لتنظيمه، فإن هذه الجهود قد اتخذت شكل النكتة. وما دامت قد أصبحت نكتة مكررة فهى بايخه. لأن النكتة عمرها قصير نقولها مرة واحدة ونبحث بعد ذلك عن غيرها. ومن الممكن أن تكون ضد تحديد النسل!

ولا أظن أن ما يقال فى التليفزيون والسينما والراديو هو الارشاد النافع الناجح لأن يمسك الرجل نفسه وزوجته، فلا يكون لهما أطفال أكثر.

والسؤال هو لماذا لا يمسك الناس أنفسهم عن انجاب مزيد من الاطفال؟

فى احدى قصص أديب ايطاليا البرتومورافيا أن موظف التعداد توقف عند احدى الاسر الفقيرة وعرف منها أن عدد أطفالها عشرة.

فسأل: لماذا كل هذا العدد؟ فقال الرجل بسذاجة وصدق: ماذا نعمل. ليس فى بيتنا تليفزيون ولا راديو ولذلك ننام مبكراً فتجئ الاطفال!

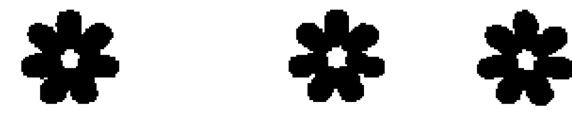
ولكن الذين يملكون الراديو والتليفزيون لا يكفون عن انجاب الاطفال أيضاً.

أن هناك سببا آخر: هو القلق العام. الخوف وفى مواجهة الخوف لا يملك الناس إلا أن يتكاثروا وفى مواجهة الموت يتمسك الناس بالحياة ويضاعفونها ولذلك زاد الزواج فى زمن الحروب وزاد الطلاق فى زمن السلام.

ونحن نعيش فى نار ودخان عشرات الحروب الكبيرة والصغيرة والخوف منها والاستعداد لها.. ثم هناك الخوف من المرض والجوع.

وهناك التمرد على السلطة وعلى القانون ومن مظاهر التمرد: تجاهل الدعوة إلى تحديد النسل أو تنظيم الاسرة وهذا التحدى معناه: أن الدولة يجب أن تتولى اطعام الاطفال وتربيتهم وتحديد النسل ليس إلا هرب الدولة من أن تكون مسئولة عن حياة كل اسرة والقاء اللوم على الآباء والامهات!

فليس علاج هذه المأساة بالسخرية منها ودفع الناس إلى الضحك عليها ــ ثم كيف يستجيب الإنسان لنكتة تقال له كل يوم ألف مرة!



كنت أزور أحد الدبلوماسيين المصريين فى ألمانيا. وجدته مشغولاً.. ثم أعلن أنه فرغ من عمله. وطلب منى ان أقرأ ما كتب. وقرأت كلاماً جيداً يرد به على الحملات الصهيونية. وسألته أين يذهب هذا الرد فقال يومياً إلى الصحف. هم يكتبون وهو يرد. وسألته: ان كان شيء من ذلك تنشره الصحف؟

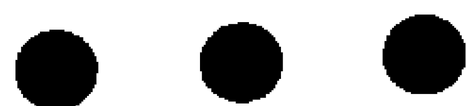
وانطفأت كل الأضواء على وجهه. وبسرعة تخيلت سلال المهملات بمكاتب رؤساء التحرير. ولا كلمة ينشرونها.. إذن هذه جهود ضائعة. والحل ان تجد الدولة وسيلة لتنشر هذه الردود، اعلانات فى الصحف أو فى كتب صغيرة.

أتذكر هذه الحادثة دائماً، كلما تحدثت الصحف المصرية عن أية رمة فى التعليم والتربية والأخلاق والسياسة والأقتصاد والزراعة. ويتحمس الصحفيون والمعلقون والرسميون ويعقدون اللجان من أجل البحث عن حل. ويطول الكلام ويعلو النقاش.

فى نفس الوقت توجد أطنان من الأبحاث التى طبعتها المجالس القومية المتخصصة ومعاهد البحوث ولجان مجلس الشورى. وهى خلاصة مئات الأيام لمئات العلماء. يناقشون ويتحمسون ويكتبون، وتطبع أبحاثهم وتتخذ طريقها إلى كل الذين يكتبون فى هذا البلد.

ولو طلب أى باحث من المجالس القومية المتخصصة ومن مجلس الشورى ان يساعده فى العثور على مادة علمية فى أى موضوع، لوجد ذلك فوراً.

إذن ــ نحن أمام عيب أخلاقى أرجو ان تبحثه المجالس القومية ومجلس الشورى وهو: الفردية والانانية والغرور.. فكل واحد لا يعترف بما يفعله الآخرون. وإنما يريد ان يبدأ هو من أول وجديد. وكأن أحداً غيره لم يدرس ولم يبحث.. ولذلك فكل مشروعات الاصلاح عندنا، بدايات فى طرق لا تنتهى.. وليست اكمالاً لمسيرة علمية بدأها غيرنا جاداً مخلصاً. ولذلك فلا علاج لأننا لم نرصف طريقاً كاملاً واحداً إلى ذلك!



ما كرهت فى حياتى انساناً قدر كراهيتى لطبيب التخدير فى مستشفى جاردن ستى. كنت أقرأ الحالة المرضية لأمى فى وجوه الأطباء. وكانوا يعرفون الحقيقة ولكنهم لا يجدون الشجاعة فى ان يواجهونى بها.. ولكن طبيب التخدير أستوقفنى فى الشارع وقال لى: أسمع. لا فائدة. وفر فلوسك وأدويتك التى تشتريها من أمريكا ومن أوروبا لوالدتك!

لقد صدمنى فى أملى فى شفاء أمى..

ولم أسأل نفسى يومها على أى أساس بنيت أنا هذا الأمل. فلا أنا أعرف مرضها. ولا هى تعرف أوجاعها.. وإنما: ينطبق عليها ماقاله الشاعر أبونواس:

وينظرون لجسم لا حراك به
على الفراش، ولا يدرون ما دائى

وينطبق على أنا أيضاً. فلا أنا أدرى ما بها ولا ما بى أيضاً.

ولا أظن أن المريض يحب ان يصارحه الطبيب، ولا الطالب ان يصارحه المدرس.

فهناك مدرستان فى مواجهة المرضى.. هناك مدرسة الصراحة تفيد أهل المريض فى أن يتدبروا الموقف ويستعدوا لمواجهة الحادث الأليم، فيوفروا أموالهم.

وهناك المدرسة التى ترى ان الطب ليس علماً دقيقاً تماماً، وانه من الممكن ان تحدث معجزة وقد حدثت كثيراً جداً فشفى مئات المرضى ولم يكن هناك أمل فى شفائهم.. بل حدث أكثر من ذلك أنهم عندما فتحوا بعض المقابر ان وجدوا الموتى قد أنتقلوا إلى باب القبر_ أى أنهم لم يموتوا.. وإنما دفنوا أحياء!

أننى أرجو ان نتحمل صراحة الوزارة الجديدة حين تضع أصابعنا على الداء الذى شاركنا فيه جميعاً بسوء الفهم وسوء التقدير أو الصمت أو الشوشرة وبذلك نساعد مصر على شفاء مصابها ونحن مصابها!



مبكراً جداً أتابع نشرات الأخبار.. وفى هذه الساعات الصغيرة من النهار لا توجد موسيقى وإنما أخبار أخبار.. المذيعون مرهقون. ولا بد انهم يلعنون المستمعين الذين لا يزالون نائمين. ولا بد انهم أيضاً يرون ان هذه النشرات لا أهمية لها عند أحد. فالذين تهمهم الأخبار ويتخذون القرار نائمون.. فكل زعماء العالم ينامون بعد منتصف الليل!

وأكثر الاذاعات تحاول ايقاظ المستمع أولاً بالقرآن الكريم والأحاديث الأخلاقية والدعوات المتفائلة. ثم الأخبار بعد ذلك. أو الاخبار ملفوفة فى الموسيقى. تماماً كالعقاقير التى نغطيها بالعسل والسكر.

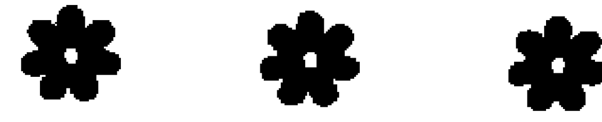
وإذا أنت أعطيت اذنيك لنشرات الأخبار التى تصدر من العالم العربى أو من أمريكا وبريطانيا وفرنسا فانت لا تستطيع ان تخرج برأى واحد فى اية قضية. فكل القضايا سريعة وكلها ذات دلالات مختلفة..

والمعنى الواحد الذى تخرج به كل يوم: انه لا وفاق بين أحد فى هذه الدنيا ولن يكون!

ومن السهل ان تميز الاذاعات الغربية من الاذاعات الشرقية. وذلك من نبرة الهجوم المستمر والادانة الصارخة.

وهناك معنى اخر نخرج به ــ مثلى ــ كل يوم هو: انه لن يحدث للدنيا أى شىء، إذا أنت لم تسمع نشرة الأخبار أو تقرأ الصحف. وفى الدنيا كثيرون يعرفون أقدارهم وأحجامهم وأدوارهم فى الحياة.. فهم لا يتلهفون على نشرات الأخبار.. وبذلك يريحون اذانهم وعقولهم أيضاً..

ومن الاذاعات الطريفة جداً. اذاعة تيرانا عاصمة البانيا. انها موجهة للعالم كله وضد العالم كله فالمذيع يقرأ يومياً ساعة أو أكثر كتاباً للرئيس أنور خوجة.. انه يهاجم أمريكا وروسيا بنفس الحماس ولنفس التهمة انهما دولتان استعماريتان يجب القضاء عليهما والأذاعة لا يسمعها الا بعض أبناء البحر الأبيض!



إلى مستشفى الحيوانات بالعباسية ذهبت أعالج كلباً مريضاً انه لعبة أنكسرت ولابد من اصلاحها لتصبح صالحة للعب وان لم يكن هذا الكلب لعبة دائماً أو لعبة لا تطاوعنى كل وقت فلست قادراً على ذلك الا لحظات من كل يوم ولكن الحزن فى عينيه صرخات خرساء.

وفى المستشفى وجدت عشرات من أصحاب الكلاب.. هذا رجله قد أنكسرت، وهذا عنقه، وهذا لا يأكل وثالث لا ينام، وسيدة أتت هى وزوجها ومعهما مجلة عالمية لتسريحات الكلاب وتريد من الحلاق ان يقص شعر كلبها لتكون له هذه «الفورمة» الجميلة، وسيدة تركت كلبها فى ضيافة المستشفى إلى ان تعود من الخارج وقد أتت بسرير أنيق لكى ينام عليه وزودته باللعب والمطهرات ووضعت له قائمة الطعام، وأشترطت ان يتفسح الكلب ساعة كل يوم وان يستحم ثلاث مرات وهى على أستعداد لأن تدفع تكاليف ذلك طبعاً.

سألت جارتى عندك أولاد؟

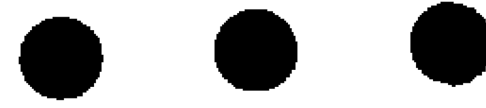
قالت: جيمى هو نور عينى.. وجيمى هو الكلب، وهز زوجها رأسه بما معناه أنه أبنه أيضاً.. وأنتهزا هذه الفرصة ليقبلاه كأننى ذكرتهما بذلك.

ورأيت رجلاً يبكى ويدير وجهه الناحية الأخرى عندما نفذت الحقنة فى ساق الكلب، ووضع يديه فى اذنه حتى لا يسمعه يتأوه.. ثم نبهه الطبيب إلى ان يرفع يديه، فقد أخذ الكلب الحقنة، وهو الآن زى البمب، أو سوف يكون كذلك.

وأسرة جاءت من آسوان، وأسرة جاءت من الأسكندرية، واناس معهم طعامهم، سوف يمضون اليوم مع «أبنهم» حتى يتأكدوا من شفائه.. ولفت الطبيب نظرى إلى احدى الفتيات، شمرت عن ذراعها، لا شعورياً، عندما أخذ الطبيب يحقن الكلب ـ إلى هذه الدرجة تشاركه فى عذابه..

والمعنى عند كل هؤلاء الناس: انه ليس أوفى ولا أصدق ولا أخلص من الكلاب.. أى كلما عرفنا الانسان ازددنا حباً للكلاب!

ورأيت أسرة تحمل كلبة وصغارها الأربعة ان السبب هو ان «الأم» مريضة وقد جاءوا بالصغار حتى لا يتركها وحدها. وعندما دخلت الأم عيادة الطبيب، أبعدوا صغارها حتى لا يتوجعوا للألم.



تلقيت خطاباً من مصرية تعيش فى أنجلترا هى وزوجها وأولادها. عشرون عاماً الآن. ضاقت بالحياة هناك. وكانت تتمنى لو أنها لم تخرج من مصر يوماً واحداً.

ومعنى رسالتها انها آسفة على أنها تركت بلادها. وان الحياة فى بريطانيا ليست هى الحياة التى كانت تتمناها.

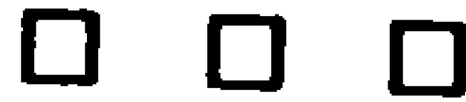
ومعنى ذلك أيضاً أنها عندما ضاقت بمصر بلدها سافرت إلى بريطانيا. وأنها ضاقت ببريطانيا موطنها الجديد، فهى فى الحالتين لم تسترح.

وهى حالة المهاجرين الجدد، وبعد ذلك يتناقص هذا الشعور بالوطن الأم.. ويصبح ذكرى تاريخية. الأمريكان الذين جاءوا من أوروبا والقارات الأخرى، يتذكرون أصولهم. ولكنهم لا يشعرون بانهم ضائعون مضيعون، لأنهم قد فارقوا مواطنهم القديمة من مئات السنين.. وكذلك السويسريون الذين جاءوا من ألمانيا وفرنسا وايطاليا.

وقد ناديت من عشرات السنين بتشجيع المصريين على الهجرة. ففى البلاد الأخرى مجال أوسع وخير أوفر. ومنها يجيء إلى مصر فائض أموالهم. والذى يبعث به المصريون إلى بلادهم ألوف الملايين.. وهذا فضل منهم عظيم. ونحن فى حاجة إلى أموال أكثر. ولذلك يجب أن نقوم بتجويد صادراتنا من الكفايات البشرية، لتصبح قادرة على المنافسة الخطيرة فى سوق العرض والطلب.. فبلادنا ضاقت بنا وعنا وتزداد ضيقاً ـ وهذه مشكلة أخرى طويلة عريضة معقدة.. وبلادنا لا تستطيع أن تفى

باحتياجات كل الشبان الطامحين إلى ما هو أفضل. ويجب ان ننظم الهجرة، وان نحترمها وان نشجع عليها.. وفى نفس الوقت يجب الا يشعر أحد بالندم لأنه خرج وأبتعد ــ وهو لم يخرج من مصر ولم يخرج عليها.. فهى دم قلبه، وخلايا مخه..

ولذلك يجب الا تنقطع صلتنا بالمهاجرين إلى القارات الخمس: تربطهم بوطنهم بالصحف والكتب والأفلام، حتى يشعروا بانهم ما يزالون فينا وبيننا، فإذا أبتعدوا عن العين فهم الأذن وإذا أبتعدوا عن الأذن فهم فى القلب!



عم الشيخ رمضان ظاهرة غير طبيعية. قرأت عن اناس من هذا الطراز الغريب. ولكن لم أرهم. قرأت عن سيدة روسية تستطيع ان تقرأ الصحف بأصابع رجليها.. هذه السيدة كانوا يضعون لها الصحيفة على الأرض ويضعون عليها لوحاً من الزجاج ويعصبون عينيها. ثم تمد أصابع قدميها تقرأ العناوين. ثم تقرأ المقالات.. وتستطيع أيضاً ان تميز بين الكلام وبين الصور..

ثم انها أستطاعت فى مرحلة متأخرة من حياتها ان تعرف ان كانت السطور بالألوان أو بالحبر الأسود!

وقرأت عن رجل أمريكى يستطيع بمجرد ان يضع يده فى جيبك ان يقرأ الخطاب الذى طويته فى داخل مظروف..

وقرأت عن فتاة فرنسية تستطيع إذا وضعت أذنها على السلك التليفونى ان تنقل إليك الحوار الذى يدور بين اثنين من المتكلمين..

وهى مواهب أو ندرات ليست لها أية فائدة عملية. وإنما هى ظواهر غير طبيعية تستهوى العلماء من كل نوع ان يبحثوا عن سر هذه القدرات الهائلة على الرؤية والسمع. والذى يغرى العلماء هو: كيف يمكن الاستفادة من ذلك.. أى كيف يمكن ان يكون عدد كبير من الناس كذلك.. أو ما الذى يجعل بعض الناس عندهم هذه الخاصة العجيبة..

ولم يصل العلماء إلى أى تفسير فى ذلك.. انهم ــ مثل بقية خلق الله

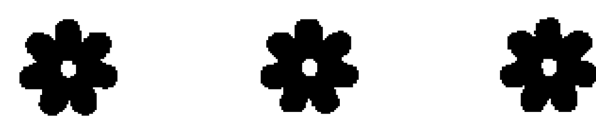
العاديين جداً ــ يتفرجون ويتأكدون ويضربون كفاً بكف، ويدقون رؤوسهم فى الحائط ويقولون: آمنا بالله!

ولم أصدق ما سمعته عن الشيخ رمضان.. إلى ان رأيته وقد أستعد كل واحد من الحاضرين بورقة طويلة فيها عمليات حسابية أستخدمت فيها الحاسبات الألكترونية. وكانت العمليات عبارة عن ضرب ١٢ رقماً فى ١٢ رقماً. وهذا ما لا تستطيعه الحاسبات الألكترونية.. اما عم الشيخ رمضان فانه يهز رأسه يميناً وشمالاً. ويجرى العمليات الحسابية فى دماغه.. ثم يتوقف فجأة ويقول: أكتب يا محترم!

ويملى علينا نتائج العمليات الحسابية من الشمال إلى اليمين رقماً رقماً. وتكون صحيحة.!

ما فائدة هذه المقدرة الخارقة لامام فى مسجد! لا فائدة. هل أستطاع ان يحل بها مشكلته مع وزارة الأوقاف ليحصل على بضعة جنيهات على سبيل الترقية أو التسوية!.

ان أحداً غيره يستطيع ان يكسب الألوف لو شاء، ولكنه لا يريد ولا يعرف حتى إذا أراد!



أحياناً تلتفت إلى انسان وتقول: أعوذ بالله هذا الرجل بلا عواطف. ليس عنده قلب. عنده معدتان. لا يهزه شيء!

وأنا مثلك قلتها أيضاً على اناس كثيرين. ونحن دائماً نقولها على سبيل الأستنكار. لأن هذا الرجل لا يتحرك قلبه حباً أو كرهاً أو عطفاً أو فرحاً أو حزناً. أو هكذا نتصور، ونحن لا نتساءل عادة لماذا هو كذلك؟ لماذا أصبح موقفه بين الناس جامداً هكذا. ولا بد انني وأنت نفضل الرجل الرقيق اللطيف الحنون. الرجل العادى الذى يفرح ويحزن ويضحك ويواسى ويجامل. لأن هذه كلها صفات الانسان الحقيقية. ثم هذا هو الفرق بين الانسان والحيوان.. أو يجب ان يكون الانسان أكثر حناناً واخلاصاً وصدقاً من الحيوانات.

ولكن يجب ان تعود إلى الناس حولك وتسأل نفسك: ما الذى يفعلونه من أجلك؟ كم واحداً منهم توجع لألمك؟ أو أهتز لفرحك! أو أرتجف لمصابك؟ إذا كنت تحكم على الأشياء بظواهرها فكل الناس ملائكة. وكلهم يحبونك. ولكن كم من المرات اكتشفت انك واهم وان شيئاً من الذى تستريح اليه من كلام الناس ليس صادقاً. ولا بد انك نسيت ماذا أصابك على أيدى أعز الأصدقاء وأقرب الناس. فإذا تذكرت الآن مجموعة الأحداث الأليمة فى حياتك، وربطتها معاً. وأبرزتها وحاولت ان تجعل منها نتيجة واحدة لسلوك الناس، فماذا هى النتيجة؟ النتيجة ان الناس لا يستحقون كل هذا الاخلاص ولا الوفاء ولا الصدق. ولا أحد يساوى ان

تتعب أو تتعذب من أجله. لا أحد سواء كان هذا الأحد قريباً من قلبك أو من جيبك أو من دمك.. لماذا؟ أرجع مرة أخرى إلى الذى حدث لك قبل ذلك. انك قد نسيت. لأنك تريد ان تنسى ما يضايقك وما يؤلمك.. فالنسيان هو أعظم طبيب لمتاعب الناس.

فليس أمامك الا ان تدارى عواطفك.. او تضغط عليها. وليس أمامك الا ان تغطى أعصابك بالجلد والشمع. والا ان تقتصد فى مشاعرك ولا تبددها على الذى يساوى والذى لا يساوى شيئاً. وإذا اعتدت على ذلك فسوف تصبح انساناً معقولاً. او انساناً متزناً أو جامداً ويقول عنك الناس: انك حيوان.. أو عقل الكترونى لا قلب له.. والناس يقولونها عادة عندما لا يستفيدون منك شيئاً. عندما لا تفتح قلبك وجيبك. لكن إذا عرفت ان الناس يحكمون عليك من واقع رغباتهم أو مصالحهم، فإن هذه الأحكام لا تهم ولا تخيف ولا تضايق.

وحتى لا تخسر الناس جميعاً فانت مطالب بالكذب. يجب ان يرى الناس منك ما يحبون ان يروا.. وان يسمعوا منك ما يتمنون ان يسمعوا. وهكذا تتحول بالفعل إلى انسان آخر يرضى عنه الناس ولا ترضى أنت عنه.. فاختر لنفسك أسلوباً: ان تكون كما يحب الناس ولا تحب، أو تكون كما تحب ويكره الناس!

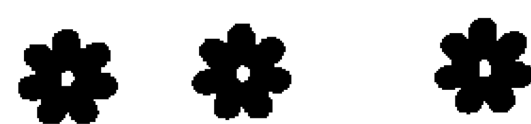


لاحظ أحد المعاهد العلمية فى ألمانيا ان نسبة مرضى القلب قد أرتفعت. وان هذه الاصابات بين الشبان عالية.. وكان لا بد من البحث عن سبب. ووجدوا الأسباب. ومن أهم هذه الأسباب ان الناس فى ألمانيا يجب ان يتحركوا أكثر— وقد تمر عليك هذه العبارة فلا تدهشك. ولكن إذا ذهبت إلى ألمانيا ووجدت الناس يمشون بسرعة مذهلة، فإن هذه العبارة تصدمك! أنظر إلى أى مكان.. أنظر إلى الفتيات ولا أقول إلى الفتيان.. فالفتيان مفروض انهم يمشون بحيوية وقوة. ورجولة. ولكن الفتيات حريصات على الرشاقة والأناقة واستعراض الأنوثة. والمشى السريع الجاد يفسد الأنوثة.. ويبرز العضلات والعروق فى الساقين. وخصوصاً إذا ارتدت الفتاة حذاء عالياً جافاً غليظاً. ولكن الفتيات يمشين بسرعة ودبدبة على الأسفلت والرخام والحجارة. ويخيل إليك انهن يتعمدن تجاهل وسائل المواصلات الأخرى المريحة. ويفضلن المشى.. ولكن الأطباء يرون ان هذه الحركة ليست كافية. وانه لا بد من حركة أفضل وأصح.

ولذلك لجأت المدن الألمانية إلى تشجيع الناس على الرياضة خارج المدن.. فى الغابات. وقد رأيت بالقرب من ميونيخ غابة وعلى الأشجار تعليمات رياضية. مثلاً: هنا قف وأجلس لمدة ساعتين على فترات قصيرة وعلى الشجرة التى تليها هذه العبارة: ثنى الذراعين ورفعهما لمدة ساعتين.. وعلى فترات قصيرة.. والشجرة التى تليها: ثنى الجزع ساعتين وعلى فترات متباعدة.. محلك سر مائة مرة.. وعلى الشجرة العاشرة: الجرى مائة متر.. وبعدها استراحة.. ساعة.

وهناك تعليمات أخرى مكتوبة على الأشجار تقول: هذه التمرينات للرياضيين.. والتمرينات الأخرى للذين ليسوا رياضيين.. وتعليمات للنساء وتعليمات للأطفال.. وعرفت ان مدناً كثيرة جداً تفعل ذلك!

وان الغرض من هذا كله هو تحريك الناس بصورة منظمة ومستمرة فى مكان صحى.. هذه الحركات ضرورية للقلب.. وإذا صح القلب صحت أعضاء أخرى كثيرة، وإذا لم يصح فعلى الجسم كله السلام ورحمة الله!



القاهرة رأت من سنوات فيلماً بعنوان «الرقص على الهيدروجين» أو «يوم طفت الأسماك على الماء» الفيلم من أخراج وأنتاج الرجل اليونانى الذى أخرج زوربا. ولم يكن الهدف من هذا الفيلم ان تضحك كانديس برجن وان تقدم للعالم رقصة جديدة اسمها «النفاشة».. ولا ان تعرض جسمها الجميل على الناس. لم يكن هذا فقط هو الهدف، وإنما ان يصرخ صاحب الفيلم من شيء خطير: هو ان البيئة تلوثت وان نهاية الانسانية فى أيدينا.. فقد سقط أحد الصناديق النووية، وتسربت منه الاشعاعات فماتت الأسماك فى البحر!

الأسماك تموت اليوم فى كل بحر وكل نهر. والسبب هو المواد الكيماوية التى تلقى بها السفن والمصانع فى الماء. فلا يوجد ماء ليس مسموماً، لا النيل ولا أى نهر آخر. ومن المؤكد اننا جميعاً نصاب باضرار المياه الملوثة كيماوياً وان كل الارتباكات المعدية والمعوية سببها هذا التلوث الذى ينتقل إلينا من الماء.. وإلى الحيوانات التى نشرب ألبانها أو نأكل لحمها. والماء عندما يروى الحقول والحدائق يتلوث مرة أخرى بالأسمدة الكيماوية.

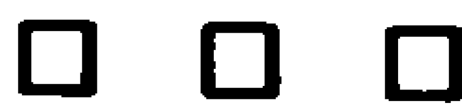
وليس اختفاء الطيور الصديقة للنبات والانسان إلا نتيجة لذلك.. الطيور التى تأكل الحشرات والآفات قد قضت عليها المبيدات. فمات أبوقردان والغربان والهدهد. وكلها صديقة للفلاح.. وأختفت الفراشات من الحقول.. أما ملايين النحل التى تعيش على رحيق الأزهار التى أصبحت سامة، فقد ماتت أيضاً. وقد أستراح العلماء إلى ان عسل النحل

رغم ذلك معصوم من السموم. ولكن العسل نفسه عندما يتعرض للهواء الملوث والأيدى الملوثة، لابد ان يصبح ساماً — وهذا هو الذى تحدث عنه الأدباء والشعراء عندما قالوا ان «السم فى العسل». وفى التوراة تلك الفزورة التى لم يعرفها شمشون عندما سألته «دليلة» تلك الفتاة الجميلة: ما هو الحى فى الميت؟

ولم يعرف شمشون ذلك فقصت دليلة شعره مصدر قوته.. أما الشىء الحى فى الميت، فهو ان النحل قد أختفى فى جثة أسد ميت وراح يضع العسل. أنتهت الأسطورة. ولكن علماء القرن التاسع عشر أهتدوا إلى حقيقة أخرى وهى ان الميكروبات التى كانت فى جثة الأسد لم تنتقل إلى العسل.. فالعسل قاتل لكل الميكروبات..

ومع قدوم الصيف وأنتشار الذباب سوف يتعرض الانسان إلى سم يضعه بيديه: هو البيروسول.

ان قراراً اصدرته الأمم المتحدة على لسان طبيب مصرى هو د. مصطفى طلبة يؤكد ان مبيدات الذباب بمختلف أسمائها وأشكالها سم جديد. فالانسان يحاول ان يقتل به الذباب لينام على جثته.. ولكنه لايدرى انه يشرع فى قتل نفسه أيضاً!



في نار الجنس والمال والسلطة يلتوى الرجال، كما يلتوى الرغيف في الفرن أو تلتوى الأفاعي على صوت الناى والراقصات على دقات الطبول.

ومن أجل الوصول إلى السلطة يدوس الرجال بعضهم البعض وتروح القيم الأخلاقية والدينية تحت الأرجل.

أقرأ ما تنشره صحف أوروبا وأمريكا قبل المعارك الأنتخابية.. أى قبل الوصول إلى قلوب الناخبين جرياً إلى مقاعد السلطة. في بريطانيا دبروا حملة أسقطت سياسياً من أذكى الأنجليز وأخلصهم: جيرمى ثورب زعيم حزب الأحرار، كشفوا له قصة جنسية مع شاب وسيم.

وفى أمريكا أكتشفوا علاقة غرامية عنيفة بين الرئيس الراحل كيندى وأجمل مخلوقات الله مارلين مونرو.. ثم علاقات أخرى متعددة تشرف عليها المخابرات المركزية. هذه العلاقات العديدة هى التى بررت هرب زوجته جاكلين إلى اليونان وزواجها من المليونير أوناسيس.. فكأنها قفزت من العرش إلى أحد مناجم الذهب!

وأخيراً كشفوا قصة أخرى للرئيس نيكسون: لقد أرسل خطاباً غرامياً إلى احدى سيدات السلك الدبلوماسى والخطاب صحيح..

ثم كشفوا غراميات الرئيس الأمريكى المشلول روزفلت. لقد كان مفتوناً باحدى سكرتيراته.

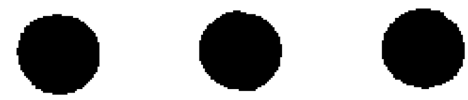
وأعترفت السيدة ان روزفلت رغم عجزه عن الحركة فقد كان فحلاً من فحول الليالى الحمراء..

وأعترفت السكرتيرة هذه كيف كان يتم ذلك. وأنسب الأوقات. وأكدت انه كلما اضطربت حالته السياسية والنفسية كان أحوج ما يكون إلى أحضانها. وقالت ان الكثير من الأزمات السياسية قد أجتازها نائماً على كتفيها!

وأخيراً ظهرت فتاة حسناء اسمها اليزابيث راى كانت سكرتيرة للزعيم السياسى هيز. وكان من أقوى شخصيات الكونجرس. أختارها سكرتيرة له. ولكنها لا تعرف الكتابة على الالة. وأعترفت بانها لا تعرف أكثر من السرير.. وانها تنقلت بين أعضاء الكونجرس.. وان هذا الزعيم قدمها لهم جميعاً. وانها وضعت أجهزة تسجيل تحت سريرها.. وعلى تليفونها. وانها سوف تنشر كل ما دار بينها وبينهم فى كتاب سوف يظهر هذا الأسبوع.

ومنذ سنوات أضطرت الممثلة الجميلة التى أدمنت كل شىء هيدى لامار: ان تهدد عشاقها بانهم إذا لم يدفعوا كذا نشرت غرامياتها معهم.. ودفعوا الملايين التى بددتها أيضاً!

ان هذه الفضائح الجنسية والتى دفعت فيها دور النشر والأحزاب ملايين الدولارات سوف تسقط أقوى الرجال!



أهم حدث ثقافى هو أن يصدر كتاب. وان يكون فى أيدى الناس. وأحمد الله أننى جربت هذه المتعة، ولا أزال، كثيراً وطويلاً. وأروع ساعات العمر أن تجلس تقرأ، وان تقلب فى الكتب، وان تتقلب بينها بعقلك وقلبك. وان تطير بين السماء والأرض، بين الماضى والحاضر.. فتكون هكذا واحداً من أبناء الحضارة. ولم تتقدم الشعوب إلا لأن أطفالها يقرأون. والطفل رجل صغير. فإذا كبر على القراءة، كان ذلك نصف الطريق إلى القوة والابداع.. وإلى القفز بأمته إلى الأمام. والبيت الذى يخلو من الكتب مظلم، والمدينة التى تخلو من المكتبة العامة عمياء..

وما تمنيت شيئاً لأحد أفضل من ان يكون قارئاً، وان يجد مئات الكتب فى بيته، فإن لم يجدها فى بيته وضعناها فى ألوف المكتبات العامة.. أى المطاعم الشعبية التى تقدم مجاناً غذاء الروح.. أى محطات لتوزيع الطاقة الفكرية، والحرارة الوجدانية..

وقد رأينا مع الرئيس حسنى مبارك مكتبة عامة فى مصر الجديدة. البناء كبير. الجو لطيف منعش فسيح. المقاعد مريحة. الكتب على الرفوف فى متناول القارىء، متعة لعينه، وسعادة لأصابعه، وراحة لخياله، كنز لا يفنى..

ومكتبة مصر الجديدة نموذج لما يمكن عمله فى جميع أحياء القاهرة. فهناك عدد من السيدات تطوعن للخدمة الثقافية لهذا الحى. فجمعن الكتب من دور النشر ومن المؤلفين. وطلبن من كل قادر ان يساهم بما

عنده. وهكذا تكونت مكتبة تستضيف فى أى وقت مئات الشبان والأطفال. ولو فعلت مثلهن سيدات فى أية مدينة لأنفتحت على مصر كلها ينابيع النور والمعرفة.. وقد كانت السيدة سوزان مبارك أسبق وأنشط فى زياراتها الطويلة لمعارض الكتاب ودور النشر. ولا تكف عن الحديث عن هذه المكتبة الجديدة الوليدة وعن سهولة انشاء عشرات غيرها.

أما الهدف: فهو تشجيع الشبان والأطفال على القراءة الهادئة المفيدة.. وقد كان لها ذلك وبصورة رائعة حقاً..

وبقدر سعادتى بافتتاح هذه المكتبة الجميلة، بقدر تعاستى.. فقد دعوت محافظات مصر إلى اقامة مكتبات عامة فلم أجد حماساً من أحد. فقط السيد محافظ الدقهلية، بلدنا، قد أعطانى «كباريه» قديماً. وكان الهدف أخلاقياً لا ثقافياً.. وهو أن أجعل الكباريه «يتوب» على يدى فيصبح مكتبة ــ حتى هذا لم يتحقق مع الأسف!!



لا خلاف بين العلماء الآن على خطورة التدخين. هذه حقيقة علمية طبية . ولكن العلماء يختلفون فقط على متى يصبح التدخين خطراً على حياة أي انسان. بعض العلماء يؤكد أن ضرر التدخين يبدأ مع أول نفس من أية سيجارة من أى نوع !

وهذه الصفحة لا تتسع لأسماء المواد التى تدخل الرئتين والفم مع أول نفس.. ولكن يكفى ان نقول ان ألوف الملايين من الجزئيات تدخل الفم والحلق والرئتين. وان هذه المواد تفرش الطريق أمام مالا عدد له من الأشياء الضارة. وان سبب الأنتعاش الذى يحس به المدخن هو مادة النيكوتين ومادة أخرى أسمها الأدرنالين.. والمادتان معاً تزيدان ضربات القلب وترفعان الضغط وبذلك يرتفع الدم بكميات أكبر إلى الرأس.. وبذلك تحدثان نوعاً من التنشيط.. أو نوعاً من «الحماس» وهو حماس كاذب.. انه حماس الانسان إذا ضربته بالكرباج فراح يجرى أمامك.. والذى يراه من بعيد يقول: انه بطل رياضى. والذى يعرف الحقيقة يقول انه خائف، ومع الخوف يفرز الجسم مادة الادرنالين التى تجعله ينشط وينطلق.

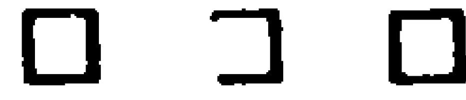
وهو نشاط ارهابى أو بالأكراه وإذا كان هذا النشاط مستمراً، فانه يصبح مرهقاً، وهو ولا شك يهد الحيل.. فإذا كان التدخين عادة يومية، فإن الجسم يكون قد تكيف مع هذه الكرابيج الداخلية. ويطلب الكثير منها.. مادمنا نرغم أجسامنا على ان تضاعف عدد ضربات القلب والصدر والكليتين..

والعلماء فقط يختلفون على درجة خطورة السجائر. أحد العلماء يقول: ان ضررها يبدأ بعد ثلاث ثوان من التدخين.. والبعض الآخر يقول بعد دقيقة.

ولكن من المؤكد ان كل انسان قد أخذ مليون نفس هو في قلب الخطر وهو مريض أو قد رفع حالة الأستعداد لكثير من الأمراض إلى الدرجة القصوى. وهذه المليون نفس تساوى تدخين علبة سجاير يومياً ولمدة خمسة عشر عاماً.

هذه المعلومات ترجمتها من علبة سجائر تباع في الأسواق الأمريكية. لقد أصبح من الواجب أنتاج السجائر والتحذير منها في نفس الوقت. وبعد ذلك وقبل ذلك، فانت حر في أختيار النهاية التي تعجبك.. أي ان تموت في صحة جيدة، أو ان تموت مريضاً وان تقول أيضاً: إذا كان الموت هو نهاية الأصحاء والمرضى، فما قيمة الصحة والمرض!

كلام معقول.. ولكنك حر!



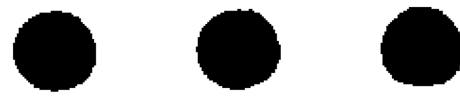
ان تقرأ عن أحد نجوم السينما انه يشرب حتى يسقط على الأرض .. أو انه لا ينام الا فى العاشرة صباحاً ولا يصحو الا عند منتصف الليل — طبعاً هذا شأنه هو. وهذه حياته وهو حر فيها : ان ينفقها فى عشر سنوات أو فى عشرين سنة !

ان تقرأ عن لاعب كرة معروف لا يستطيع ان يجرى فى الملعب عشر دقائق دون ان تنطلق الصفافير والزمامير من صدره ، فمعنى ذلك انه لا يهتم بصحته . ولا هو يحترس فى الأكل والشرب والتدخين والسهر والتدريب . ومن المؤكد ان حياته كرة فى يده أو فى رجله ، ان شاء ألقى بها فى الشبكة أو ألقى بها تحت أقدام الجمهور.

ولكن الذى يجب ان يهمنا هو كيف يحرص الانسان على حياته .. أو على الأصح كيف يحرص الانسان على ان يكون فى المركز المحترم الذى يشغله . والذى وصل إليه واستقر عليه بالتعب والاستمرار. نجم السينما الذى أصبح فتى أول قد تعب فى ان يفوز بحب الناس . فكيف يبقى هكذا فترة طويلة . ان نجوم الشاشة الأوروبية والأمريكية حريصون جداً على حياتهم .. أو على لياقتهم الفنية . واللياقة الفنية : صحة وتدريب . وما دام الممثل قادراً على ان يفى بالألتزامات الفنية ، وان يظل مرغوباً من الناس ، أستطاع ان يكسب أكثر من المال ومن حب الناس وان يعيش أطول ..

وما يقال على الممثل يقال أيضاً عن اللاعب وعن المهندس والطبيب والمدرس وعن الكاتب والفنان.

وأحياناً يتسع وقت الانسان أو قلبه ليشعر بالاشفاق على فنان كان ممتازاً، ثم أصبح شيئاً تافهاً أو ثانوياً لأسباب معروفة: الاسراف في الأرهاق المهلك لصحته وحيويته. والاستغراق في بطولات النوادى الليلية التى لا بطولة فيها لأحد. فالليل أقوى من كل بطل والنساء أكثر من أن يقوى عليهن رجل واحد كل ليلة وكل العمر ــ وهى قاعدة مدمرة لنجوم الشاشة أو للنجوم عموماً. ولذلك فعندما يتلاشى نجوم الشاشة والملاعب فإن الناس لا يشعرون بالأسى لهم أو الأسف عليهم، لأنهم هم الذين أختاروا الموت السريع!



كان الطواف حول الكعبة هذا العام مختلفاً عن الأعوام الأربعة الماضية .. كل ما أذكره هو انني نسيت أو أحاول ان أنسى كل أمراض آسيا وأفريقيا .. وان أذوب فى الناس وألوذ بهم .. انهم كثيرون متلاطمون متضاربون .. موجات عاتية لها أذرع وسيقان . ولسبب لا أعرفه تتحول بعض هذه الموجات إلى سياج من الحديد له أطراف مدببة تصيبك من قريب ومن بعيد .. وفى الزحام وفى الحركة الضرورية حول الكعبة تنسى الاصابة المباشرة ولكنك سوف تتوجع فيما بعد ..

وتندهش ، ان وجدت وقتاً ، كيف يصبح هؤلاء الناس العراة الحفاة الطيبون الضارعون إلى الله وحوشاً كاسرة هكذا . من المؤكد انهم ليسوا كذلك .. ولا فى نيتهم اصابتك . ولكن كيف يدوس الرجال النساء .. وكيف تأتى النساء بالأطفال .. وكيف يتساقط المرضى وكبار السن موتى .. لماذا جاءوا ؟ ان هذا يتنافى مع الدين . ولكنهم جاءوا وتزاحموا وتدافعوا ودافعوا حتى الشوط السابع حول الكعبة وأنتهى الطواف وبعد ذلك يبدأ السعى بين الصفا والمروة ..

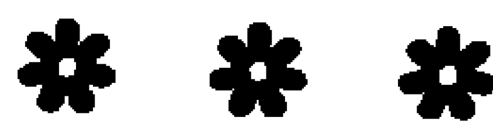
ان هؤلاء الناس ، ولا أنا ولا أنت ، لا قساة ولا غلاظ ولا هكذا فى حياتنا العادية ، ولكن الزحام يولد القسوة . والقسوة سببها حالة الدفاع عن النفس . فالذى يطوف يضغطه مئات الألوف ويذهبون به بعيداً . وهو يحاول أن يتشبث بالأرض . والا يقاوم والا سقط . وإذا سقط مات . ولذلك يتواصى الناس قبل الطواف : إذا سقط منك شىء فاتركه .. وإذا

سقطت أنت فحاول ان تمسك بأى شخص حتى لا تصل إلى الأرض.. والا داستك الأقدام وهى تقول: باسم الله.. الله أكبر.. وهم معذورون.

لقد زاد عدد الحجاج هذا العام وهى قضية دولية، ولا أحد يعترض على من يريد ان يحج البيت. ولكن الدول يجب ان تعيد النظر فى سفر الحجاج القادرين جسمياً فقط.. ثم القادرين مادياً.. فكما يتساقط الناس من الأرهاق! يتساقطون من الجوع.. ولا أحد يستطيع ان يعين أحداً على مصيبته. فالكل يريد ان يطوف ويسعى.. ثم ينتقل بعد ذلك إلى عرفات.. والطريق إلى عرفات شاق لمن يمشى على رجليه.. وشاق على من يركب سيارة.. انها مسافات قصيرة قد امتلأت بسيارات كثيرة، وبمليون ونصف مليون حاج.. فلا يكاد الحاج يجد موضعاً لقدمه، ليتوجه إلى الله حتى يسمع من يقول له: أنهض والا فلن تصل إلى المزدلفة الليلة.

وينهض الناس معاً ويتزاحمون معاً.. وتتكرر قصة العذاب الطويل فى المسافات القصيرة.. وينهار الناس من الاعياء.. ويتساءلون: ولماذا جاءوا؟ والجواب: لأنهم أرادوا الحج. والسؤال مرة أخرى: ولكنهم غير قادرين.. والجواب: ان هذه مشكلة الدول التى سمحت لهم..

ولا بد من تنظيم جديد يريح الحجاج، ويريح الدولة التى تستضيف مليون حاج بشوارع مفتوحة ومطاعم مكدسة ومستشفيات جاهزة وفرحة بالمسلمين!



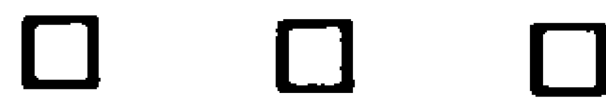
كان أجدادنا يحجون بالبواخر ثم ينقلون على ظهور الجمال والحمير من جدة إلى مكة ومن مكة إلى عرفات والمزدلفة ومنى ومكة ثم المدينة المنورة. وكانت هذه الرحلة طويلة تستغرق شهراً وأكثر.. وكانوا يحملون طعامهم معهم وأموالهم وكثير منهم كان يفضل البقاء فى الأراضى المقدسة على العودة إلى بلاده.. ولذلك نجد فى السعودية اناساً من كل الأجناس الإسلامية.. وبعضهم كان يخرج من المغرب إلى الحجاز وفى عودته يقرر البقاء فى مصر.. وأكثر العائلات المغربية التى عاشت فى مصر هى التى أرهقتها رحلة الحج فبقيت فى مصر..

وعلى الرغم من ان الحج كان شاقاً، فقد كان عدد الحجاج قليلاً. ولم يكن هناك زحام حول الكعبة أو فى عرفات.. وكان فى استطاعة الحاج ان يقف فى عرفات. أى يمضى ساعات من النهار يفكر فى حاله أو يتأمل حياته.. وتكون هذه الساعات التى أمضاها فى عرفات فاصلة.. أو باهرة.. ولذلك فالحديث الشريف يقول: الحج عرفة.. أى الوقوف أو القعود أو التأمل فى عرفة هو الحج.. وهو الحكمة فى هذا التعب كله..

ولكن اليوم لا وقت عند أحد من الحجاج لا ان يقف فى عرفة ولا ان يمر بها.. فهناك مائة ألف سيارة ومليون ونصف مليون انسان يمشون على أقدامهم بحثاً عن خيمة يجلسون تحتها.. والمسافات قصيرة جداً. والطرقات مليئة بكل ألوان وأحجام وأسنان وطبقات الناس.. وأهم ما يشغل الحاج هو كيف يصل إلى عرفة.. ثم كيف يخرج منها بسرعة.. فإذا خرج

بسرعة فكيف يصل إلى المزدلفة بسرعة .. ثم يخرج منها إلى منى بسرعة .. فإذا وصل إلى منى فكيف يغادرها إلى مكة بسرعة ثم يعود إلى منى .. وهذه الحركة ذهاباً واياباً هي فوق ما يطيق الحاج الذى يركب سيارة تاكسى أو الأوتوبيس أو يمشى على رجليه ، هذا إذا كان قادراً على المشى ..

ومن المستحيل ان تطلب من أى انسان لا يجد مكاناً يشم نفسه فيه ، ان يتأمل حياته وما كان منها وما سوف يكون .. وان يتوجه إلى الله بأى شيء .. من المستحيل ان تسأل أحداً ان كان قد فهم معنى الحج .. أو معنى هذه الرحلة الدينية .. لأن هذا السؤال نوع من الترف العظيم . لا يقدر عليه الا إذا انحلت كل مشاكلهم فى الطعام والشراب والنوم والأنتقال .. ولكن الذين يواجهون الالحاح اليومى للقمة العيش وقطرة الماء والظل إلى جوار الحائط والحركة بين المشاعر هؤلاء يجب الا نسألهم عن شيء .. وفى نفس الوقت يجب الا نقول عنهم ذهبوا إلى الأراضى المقدسة وكانوا فى غيبوبة تامة .. فلم يروا ولم يسمعوا ولم يقولوا ولم يفكروا .. فكأنهم ما زالوا فى بلادهم .. ومعك حق إذا قلت ذلك . ولكنك أنت ظالم لهم ، أكثر من ظلمهم لأنفسهم ــ ولا بد من حل لهذا الاشكال المقدس !



عبارة حكيمة للأديب مصطفى صادق الرافعي يقول فيها : فى الصيف يخرج الانسان من الانسان !

وهو يقصد ان الانسان الذى هو حيوان وانسان معاً ، إذا جاء الصيف خرج منه الانسان .. ولا أعرف بالضبط ان كان الخروج هذا معناه : ان يخرج الانسان ويبقى الحيوان ليظهر على حقيقته !

ولكن دعنا ننظر ما الذي يفعله الناس في الصيف . أو ما الذى فعلته أنا فى يوم صيف فى الأسكندرية : نظرت إلى البحر .. وإلى الموج .. وإلى السحاب .. وإلى الناس . ووجدتنى لا أرى شيئاً ولا أحداً . لماذا ؟ ان فى رأسى مشاكل لم أجد لها حلاً . وفى داخلى حساباً قديماً لم أتمكن من تصفيته . ثم وجدت عندى رغبة فى الا أفعل أى شىء . لا أقرأ . لا أكتب . لا أتكلم . وإنما فقط ان أرتمى على الأرض وأنام . أو أستلقى فقط دون ان يجىء النوم ، فهو لا يجىء بهذه السرعة أو بهذه السهولة . وبعد ان أنام دون ان أطبق عينى أجدنى فى حاجة إلى ان أنهض فقد تكسرت ضلوعى أو كادت . وإذا نمت على جانبى الأيمن ، توجعت ، وإذا نمت على جانبى الأيسر صرخ المصران الغليظ .. وإذا وضعت يدى تحت رأسى أوجعنى رأسى ويداى .. وإذا جلست كاد ظهرى ينكسر .. وإذا وقفت فما الذى أفعله بعد ذلك : أعود إلى التمدد دون ان يكون هناك أمل فى النوم .. وأنشر ذراعى على الآخر .. كأننى مصلوب على الأرض ..

شىء واحد أشعر به : هو أننى بعيد عن أشياء كثيرة .. وان العالم بعيد

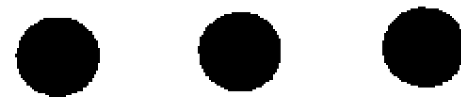
أيضاً.. لا أبواب ولا نوافذ.. ولا تليفون ولا زيارة مفاجئة.. ولا أحد يحول بينى وبين ما أريد ان أكتبه أو أفكر فيه.. ثم رغبة فى الأكل. وشهية مفتوحة.. لا يفسدها إلا الخوف من ان الذى آكل لن أستطيع هضمه.. ولكى أستطيع ان أهضمه يجب ان أجعل طعامى قليلاً ونومى كثيراً.

فما هذا الذى وصلت إليه!

انها حالة من الأرهاق تجعل الانسان عاجزاً عن ان يكون له جسم أو تكون له نفس.. فلا هو قادر على الطعام، ولا هو قادر على الاستمتاع به.. ولا هو قادر على النوم، وإذا نام لا يجد الراحة. فما الذى أشكو منه بالضبط.. هل أنا موجوع. ممكن. ولكن الموجوع أكثر: هو هذا العالم من حولى.. فلا أرى فيه الا جروحاً والا دماء والا فساداً.. والا عفونة ــ المزيد من العفونة.

وأملى، طبعاً، ان يغسل البحر دنياى كما يغسل الصخور والرمال من ألوف السنين..

وبعد ذلك قل لى: ما الذى ظهر منى أو منك: الانسان أو الحيوان؟



إذا جاءك جارك وقال لك : ان خادمتك أولادك أو زوجتك تلقى علينا الزبالة . وأننا نبهناها قبل ذلك . ولكنها لم تفعل شيئاً . ولهذا لجأنا إليك . فما الذى تفعله ؟

قبل ان تفعل أى شيء أريد ان أسأل : ولكن لماذا يلقون الزبالة على الناس ؟ ثم كيف تصورون انهم إذا ألقوا الزبالة ان أحداً لن يشكو من ذلك ؟ كيف لا يشكو أحد ؟ ولا بد ان يكون قد خطر على البال ولو لحظة ان أحداً سوف يشكو . فإذا خطر هذا على البال فكيف لا يخطر على البال ان هذا لا يليق . وان هذا لا يصح . وكيف تواجهون الجيران بعد هذه الغلطة . فإذا تكررت فأى عذر يمكنكم ان تتقدموا به ؟!

أغلب الظن ان الذى يلقى الزبالة يتصور ان أحداً لن يهتدى إليه لأن سكان البيت كثيرون . ولكن يبقى السؤال كما هو : ولكن لماذا تلقون الزبالة على الناس ؟ لماذا يتحول الناس فجأة إلى صناديق للزبالة .. لماذا لا توجد فى البيت ، أى بيت ، صفيحة زبالة . ولماذا تعجز اليد عن القاء الزبالة فى الصفيحة ونتحمس لألقائها فى الشارع أو على الناس . مع ان المجهود الذى تبذله اليد فى الحالتين ليس واحداً .. وصندوق الزبالة لا يحتاج إلى مجهود كبير !

والاجابات كثيرة : الأهمال . الأستخفاف . الكسل . عدم الشعور بالغير . عدم احترام الآخرين .. الوقاحة .. الجهل !

فما الذى تقوله لأهلك إذا جاءك هذا الجار يشكو. انا أرى ان هذه الشكوى هى فى صميم التركيب العائلى. انها شكوى ضد «الضبط والربط» فى الأسرة. فكل أسرة يجب ان تحكمها آداب عامة. من بينها النظافة والنظام والأحترام المتبادل بين كل أفرادها وبين أفراد الأسرة الكبرى حولها.. فى نفس البيت أو الشارع أو المدينة أو الدولة.

ولا شك ان الاستخفاف الذى يبدأ فى البيت سوف يصبح أستهتاراً عاماً: بالاخلاقيات العامة والمبادىء العامة. والطفل الذى يرمى ورقة من النافذة ولا يجد من يقول كلمة: عيب.. هو الذى سوف يرمى الطوب على الجيران.. وهو الذى يرمى التهم جزافاً على الناس.. وهو الذى سوف يضرب اللاعبين فى الملاعب إذا كان لاعباً أو متفرجاً وهو الذى سوف يكتب الشكاوى الكيدية لزملائه.. وهو الذى سوف يدس ويخرب. لأن الأساس واحد: هو الأستخفاف بأقدار الناس وحقوق الناس..

ان ألقاء ورقة فى الشارع شىء تافه، ولكن لن يكون تافهاً بعد ذلك. وكل شىء كبير يبدأ بمثل هذه الأشياء التافهة الصغيرة.. وكل المصائب وكل الكوارث التى تصيب الشعب تبدأ من هنا: من البيت!

في الأسبوع الماضي كشف الأمريكان عن انهم استخدموا سفن الفضاء القاتلة التي تطلق صواريخ مدمرة للسفن الروسية التي تتجسس عليهم..

إذن ــ لقد أضيف إلى أسلحة الموت سلاح جديد. هذا السلاح يدور حول الأرض. وهكذا أنتقلت شرور الأرض إلى ما حولها وسوف تنتقل إلى الكواكب وسوف تنعقد المؤتمرات الدولية عشرات من السنين لتحريم هذا السلاح.

وسوف يقوم الأمريكان والروس بتطوير الأسلحة الممنوعة وتجريبها.. وتحتدم المناقشات والتهديدات من أجل تجريمها.. وتجريم بيعها للشعوب الصغيرة التي لن تتوقف عن القتال بتشجيع من الدول الكبرى المحبة للسلام ؟!

وفي الحرب العالمية الأولى حرمنا أستخدام الغازات السامة. التي أستخدمها الايطاليون بعد ذلك في الحبشة والأمريكان في فيتنام، والمصريون في اليمن، والعراقيون في ايران.. وحرمنا استخدام رصاص «دم ــ دم».. وحرمنا استخدام القنابل العنقودية.. وحرمنا استخدام القنابل الذرية بعد ان ألقاها الأمريكان على اليابان..

واليوم نريد تحريم الصواريخ ذات الرؤوس الذرية ــ.. وحرمنا دفن المخلفات النووية في البحار والمحيطات..

وكل يوم نخترع سلاحاً فتاكاً وبعد ان نقتل به ملايين الأبرياء نحرمه..

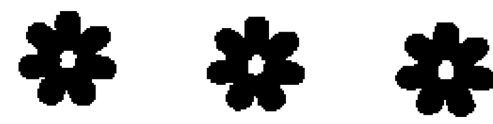
ثم لا نحرمه فقد كنا سعداء بنجاحه العظيم فى ابادة شعوب العالم الأول والثانى.. وكل البشرية!

والطريق الذى بدأ بالسكين وأنتهى بسفن الفضاء القاتلة، هو طريق التطور العلمى والتهور الحيوانى.. هو طريق العظمة العقلية والسفالة الأخلاقية..

فنحن نطور الأدوات التى نعيش بها، والتى نموت بها.. ولكن غرائز الحيوان تبقى كما هى عميقة تحت الجلد واللحم.

ويوم هبط أول انسان على سطح القمر، كان يلف حول عنقه منديلاً هدية من زوجته تفاءل به.. وكان ذلك دليلاً، على ان الانسان الذى أرتفع إلى القمر، فى أعظم انجاز علمى لا يزال يؤمن بالتفاؤل والتشاؤم.

فالانسان على القمر، هو نفسه الانسان على الأرض: عظيم عقلياً.. حقير نفسياً!



في كل مكان من العالم صرخات تنادى: الهواء ملوث.. الماء ملوث.. الانسان قد لوث كل شيء.. وان حياته في خطر.. وانه هو السبب.. فهو القاتل والقتيل!

وأسباب التلوث كثيرة: المصانع والموتورات.. أو كل شيء يحترق في الهواء والماء.. أى العادم الذى تخرجه المصانع وتصبه في الماء.. وما ينزل من دورات مياه الانسان إلى مجارى المياه.

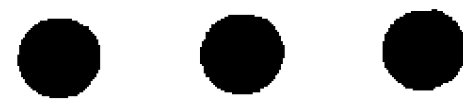
الموانى تلوثت بزيت السفن وفضلات الانسان.. وكل الطرق الملاحية التى تمشى فيها السفن من عشرات السنين وبعشرات المئات من السفن الصغيرة والكبيرة. ذهاباً واياباً. وأصبح من المألوف الا تجد الأسماك تمشى وراء السفن.. ومن المألوف ان ترى جثثها عائمة.. فقد أقامت الأسماك جنازة من نوع غريب.. المشيعون هم الموتى، والنعش هو الحى القاتل!

وسوف يقضى هذا التلوث على صحة الانسان. وبعد ذلك على الانسان نفسه. وكثير من الأمراض التى يعانيها الانسان ولم تكن معروفة من خمسين عاماً يصفها الأطباء أو يشخصونها على انها: أمراض الحضارة، ثم الاضطرابات النفسية وضغط الدم والحساسية والصداع النصفى وتسوس الأسنان وأرتفاع نسبة الأنتحار وانفصال الشخصية أو انفصامها. حتى الاسراف في زيارة الأطباء أصبح من أعراض الحضارة. فالحضارة لا تؤمن بمعجزات السماء وإنما تؤمن بمعجزات الانسان. وقد نزلوا بهذه المعجزات وحشروها في ملابس الأطباء!

ونحن في حربنا ضد الحشرات والحيوانات الضارة نقتل حشرات أخرى نافعة وحيوانات أخرى في خدمة الانسان. فالمبيدات الحشرية التي تلوث الماء والهواء والتي نستخدمها للقضاء على الآفات الزراعية قد أبادت النحل وأهلكت العصافير والغربان وأبوقردان.. ثم ان هذه المبيدات يمتصها النبات ولابد ان تظهر آثارها في الثمار التي نأكلها أو في الألبان التي نشربها !

ولا يوجد طعام في أيدينا ليس ملوثاً. ما دام الهواء والماء والحيوانات ملوثة. فالتلوث ــ أو السم ــ أصبح من أهم عناصر الطعام الانساني. ونحن في حاجة إلى معجزة لكي نتمكن من عزل السم في الجسم الانساني، تماماً مثل الثعابين والعقارب. أي نحمله ولا نموت به.. كما نحمل السلاح ولا يصيبنا وإنما يصيب غيرنا. والنتيجة اننا قاتلون لغيرنا من الناس. أي اننا ضحايا تقدمنا الصناعي الهالك.

ولو كان أرسطو فيلسوف الأغريق حياً الآن لأختار للانسان تعريفاً آخر، فهو الذي عرف الانسان بانه حيوان ناطق. والأفضل ان يقال: ان الحيوان قذر ــ أي ملوث ــ بفتح الواو وكسرها أيضاً !



أنه أحد علماء الذرة المصريين «جاء» من أمريكا، أو «جاءوا» به من أمريكا، أو «جيء» به من هناك.. وهو يبحث عن شقة ولا يجدها. ويبدو انه لن يجدها.

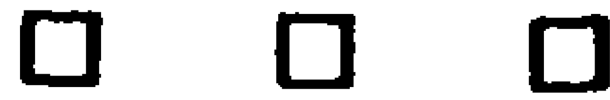
باع سيارته. ووجد ان ثمن السيارة لا يكفيه قيمة لخلو الرجل.. باع أشياء أخرى، فوجد انه لا يستطيع ان يسكن فى شقة من ثلاث غرف فى القاهرة على مدى كيلو مترات من أنشاص، حيث مفروض عليه ان يعمل.. ووجد الحل السعيد.. فقد أهتدى إلى ان بقاء زوجته وأولاده معه يجعل الموقف أكثر صعوبة.. فذهبت الزوجة والأولاد إلى بيت الأسرة فى دمياط. وبقى الزوج وحده فى القاهرة. لم يذهب إلى مكتبه. وإنما أنتهز هذه الفرصة النادرة ليتفرج على شوارع مصر، ماراً بقصر النيل فشواربى فعماد الدين فالبالون فالأوبرج فالصوت والضوء فالقلعة فعائداً إلى شيراتون وراضياً بسندوتش فول التابعى ومسترجعاً حياته السابقة فى سان فرانسيسكو. وحتى لا يشعر بالملل فانه يمشى هذا الطريق مرة بوجهه ومرة بظهره ومرة مغمض العينين.. وهو فى جميع الأحيان يبحث عن شقة خالية.. وكل ما يجده هو عمارات للتمليك.. ولا مكان لعالم مصرى جرجروه من أمريكا ليكون فى خدمة مصر، التى أنشغلت عن بنيها وكوارث بنيها، لأنها غارقة فى مصائب أولاد العم والأشقاء!

ويسألنى العالم المصرى عن رأيى؟

كان لى رأياً فى كل هذا الذى رآه، والذى سوف يراه.

وعلى الرغم من ذلك قلت له : ان الجهة التى استدعتك ، ليست هى الجهة التى تملك استئجار شقة أو توفير شقة أو دفع الخلو فى شقة. وما دمت قد عدت إلى مصر.. فلتعد إليك مصر أيضاً بكل أوجاعها .. انك بعدت كثيراً عن بيت العائلة ، وهذه أمك ، فقل لى ما الذى تستطيع ان تقوله فى أمك إذا وجدتها مريضة مهدودة لا تقوى على النهوض إليك وأخذك بالأحضان ، فأنت لست الوحيد الجالس فى حجرها ان لديها عشرات الملايين قد سبقوك إلى صدرها .. فقل ما الذى تستطيع ان تعيبه عليها ؟ هذه هى مصر وهذه هى متاعب مصر.. وليس فى امكان أحد ان يرتب لك استقبالاً حافلاً .. صحيح أنك تستحق ذلك ولكن العين بصيرة واليد قصيرة .. فاعمل ما تستطيع أنت .. ساعدها وساعد نفسك !

أعترف أننى لم أكن منصفاً للرجل ، وإنما حاولت ان أقف إلى جوار مصر ضده .. انه لم يفعل ما يستحق ذلك .. ولكن عينى عليه وقلبى على مصر ، والرحمة فوق العدل يا أبناء مصر !



مرة أخرى: هؤلاء الناس الذين ينفضون السجاجيد من النوافذ والبلكونات وفى ساعات مزعجة من كل يوم. فى الصباح الباكر أو بعد الظهر عندما يسترخى بعض الناس طلباً للراحة.

ما هذا؟ إذا نظرت من النافذة وجدت ان الذى ينفض السجادة خادم صغير. ويقال فى التفسير المؤقت لذلك: انه ريفى. وهو سعيد بأن يحدث هذا الدوى. أى ان الذى يفعله هو نوع من تأكيد الذات عموماً. بما معناه انه هناك. أو أنه يؤكد لصاحب البيت انه يعمل بصورة صارخة، ولا بد ان صاحب البيت يقول: انه يعمل. وغداً يجد فى العمل لذة. ولا بد ان نشغله الآن عن اللعب فى الشارع. أو عن الجلوس إلى البواب وبقية الخدم فى العمارة.. والا استدرجه إلى العمل فى بيت آخر وبمرتب أكبر..

ولكن صاحب البيت هذا الا يعرف ما الذى يحدثه من اقلاق لراحة الناس؟ الا يعرف أين يذهب التراب الذى يتساقط من السجادة الا يدرى ان هذا التراب سوف يدفعه الهواء إلى نافذة جاره. وان هذا التراب سيدخل من النافذة إلى أنوف وعيون وأطباق وملابس مواطنين آخرين. هذا أكيد. الا يحرك فيه هذا شيئاً أو معنى أو ضيقاً. لا شىء!

ومن الملاحظ أيضاً انه إذا بدأ بعض الخدم بتنفيض السجاجيد، فإن آخرين يفعلون نفس الشىء.. انه التقليد. وفى هذه المباراة بين الخدم فى ضرب السجاجيد على رءوس الناس تضيع راحة الناس. اما كيف ينام

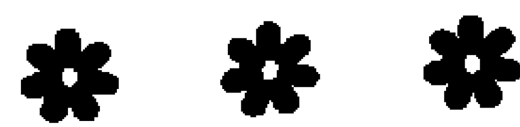
أصحاب السجاجيد، فليس من الضرورى ان تشغل نفسك بذلك أيضاً.. فلا أراح الله لهم عيناً ولا أذناً ولا جنباً واحداً على فراش!

وفى كل الأحيان أقول: ان الناس الذين يسكتون عن هذا الأزعاج يستحقون ما هو أكثر منه. لماذا يسكتون؟ لماذا لا يشكون؟ لماذا لا ينتقمون؟ ان الذى يسكت على الهوان يستحقه، ويستحق ما هو أكثر منه!

وتبقى دائماً: هذه اللامبالاة بالغير، انعدام الشعور بالآخرين. هذه الأنانية.. هذه الفردية الجشعة. وهى فردية جشعة لأنها تأكل حقوق الآخرين.. حقوقهم فى الراحة وفى الهدوء وفى النوم وفى الصمت وفى ان يشموا هواء نقياً!

ان خطورة هذا السلوك الجاهل ليس فقط على الصحة العامة. ولكنه خطر على الأطفال. والأطفال لهم أهمية خاصة لأنهم الذين يصنعون مصر فى المستقبل. فهذا الاستخفاف دعوة ونموذج عملى لأن يفعل الأطفال ذلك إذا كبروا ولا أمل فى مجتمع سليم ووطن عظيم إذا كان اللبن الذى يرضعه الأطفال اسمه: اللامبالات بالآخرين!

انها ليست سجادة فى نافذة أو باب.. ان تراب السجاد الذى يعمى الناس هو الذى يهم.. انه يعمى الأطفال فى المقام الأول عن رؤية الآخرين وأحترامهم والعمل والتضحية من أجلهم!



إذا كان من رأيك انه كلما ضاق صدر الانسان، اتسع لسانه، فانت على حق. ويكفى ان ترقب ما يفعله الناس وتستعيد ما يقولونه حولك تجد الصديق يمتدح الصديق صباحاً. ويشتمه مساء، ويمتدحه غداً.

انه نفس الشخص وعلى مسمع منك أنت فما هو المعنى.

المعنى هو الذى استنتجته أنت أيضاً: ان الناس مثل زهرة عباد الشمس، يسايرون الشمس ويتجهون إليها من شروقها إلى غروبها.. أى ان الناس عباد الشمس الطالعة..

ومعناه أيضاً: ان الناس وراء مصالحهم.. ان أعطيت مدحوك، وان منعت لعنوك..

وان الناس لا رأى لهم.. وإنما الرأى يجىء تعليقاً على المصالح. وان صديق اليوم عدو الغد، وان عدو اليوم صديق الغد. ولذلك فلا صداقة تدوم، ولا عداوة تدوم ـ وإنما المصالح هى التى تدوم.. فهل تحزن على ما أصاب الانسان، حين انعدمت القيم والأخلاق والمبادىء وانه ألف رحمة تنزل على ناس زمان الذين هم أبى وأبوك وجدك وجدتك.

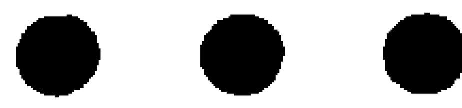
لا أستطيع ان أشاركك البكاء على الماضى فقد أنقضى. والدموع لا تعيده. والحزن لا يبعث من فى القبور. وإنما هذه هى الحقيقة ـ ان قبلتها فانت حر. وان رفضتها فانت حر أيضاً..

ولذلك فالرسول عليه السلام ينصح بالاعتدال فى الصداقة والعداوة.. أى حتى يكون لك «خط رجعة» يقول الرسول: أحبب صديقك هوناً ما، فقد يكون عدوك يوماً ما، وابغض عدوك هوناً ما، فقد يكون صديقك يوماً ما..

وأسوأ أعدائك صديق قد أنقلب عدواً. والشاعر يقول:

أحــــذر عـــدوك مـــرة
واحذر صديقك ألف مرة
فلربما أنقلب الصديق
فكان أعلم بالمضرة

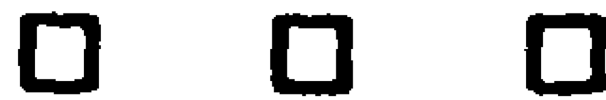
إذن فلا تغضب من الذى تراه فانت كذلك. ولكنك لا تدرى.. وهذه هى حال الدنيا فلا تضع قلبك على يدك. ولكن ضع قلبك فى عقلك.. فنحن جميعاً نبيع ونشترى.. وكما انك لا تشترى بغير فلوس. فانا لا أبيعك بغير مقابل ــ فوفر دموعك، ان كان قد تبقى منها شىء لمناسبة أعظم.



منذ أيام فاز المايسترو الألماني العظيم فون كاريان (٧٧ سنة) فى سباق اليخوت الذى أجرى عند شواطىء مدينة ريمينى الايطالية. وقد فاز فى العام الماضى أيضا ومنذ سنوات فشل رئيس وزراء بريطانيا السابق أدوارد هيث (٦٦ سنة) فى سباق اليخوت، وكان رئيس الفريق القومى البريطانى. أرجو إعادة قراءة هذه السطور، فليست عادية المعنى والدلالة. فنحن أمام مايسترو يقارب الثمانين يشترك فى سباق مع عشرات الشبان. ثم أنه يتفوق عليهم. ورئيس الوزراء إدوارد هيث حاول وفشل. ولم يعيره أحد ولا أدانه بأنه كان السبب فى فشل بريطانيا كلها. فالرياضة متعة أولا واخيرا وليس من الضرورى أن يفوز أحد بجائزة بعد ذلك. وهو رجل يقارب السبعين عاما.

انظر إلينا، إلى ساستنا وقادتنا وكتابنا وفنانينا ما الذى يؤدونه من رياضة؟ هل سمعت عن واحد منهم يسبح مثلا أو يركب حصانا أو يدق طبلة أو يصيد سمكا. لا أحد.

وليس معنى ذلك أننا أكثر جدية من العالم كله، وأن قضايانا وهمومنا ومشاكلنا فريدة. ولكن معنى ذلك أننا لا نعرف معنى العمل لأن الذى يعرف معنى العمل لابد أن يدرك معنى الراحة منه. فإذا استراح منه، إستأنفه أكثر حيوية وأعدل حكما، وأعمق بصيرة.. ولما كانت الراحة ضرورية فإننا خلطنا الجد باللعب، واللعب بالجد. فكان عملنا هزلا، وكان هزلنا فنا. ولذلك فنحن أكثر استعدادا للضحك والسخرية من أنفسنا ومن غيرنا. فكان إنجازنا أقل، وأمراضنا أكثر ولساننا أطول، وأعمارنا أقصر!

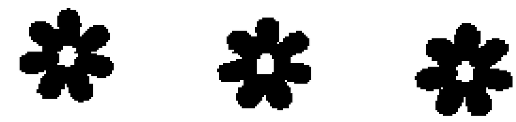


اليابان مصرة على أن تذهل العالم كله ـــ فمنذ وقوفها على رجليها فى نهاية القرن الماضى وعلى اكتاف الاخرين فى منتصف هذا القرن العشرين والعالم كله يتفرج على العبقرية اليابانية التى تقدم جديداً كل يوم وفى وسعك أن تقول إن اليابان لم تخترع شيئا جديداً. يمكنك أن تقول ذلك ولكنها قامت بتطوير وتسويق كل ما اخترعه الغرب فى حجم اصغر وكميات أوفر، وأسعار أرخص، ممكن أن تقول ذلك كثيراً. وفيه ظلم للموهبة اليابانية العظيمة فى تطوير كل الاجهزة الغربية التى هى فى متناول كل الشعوب ولكن الشعب اليابانى وحده هو الذى استطاع أن يغزو أمريكا بسيارته، وأمريكا هى التى اخترعت السيارة، ويغزو إيطاليا بأجهزة الراديو، وهى التى قدمت للعالم ماركونى. ويغزو سويسرا بساعاته ويغزو ألمانيا وفرنسا وغيرها من الدول الأوروبية. واليابان تقدم كل يوم شيئاً جديداً وأحدث ما قدمته اليابان أدوات التجميل والعطور والأقمشة والموضة أى أنها بدأت تنافس فرنسا.

وأخيراً دخلت عالم الطباعة ودخلت مرحلة أهم من الطباعة نفسها، هى مرحلة التجهيز أى تجهيز المعلومات لوضعها فى العقول الألكترونية لتقوم الآلات بجمع الحروف وتصويرها ونقل الصور.

واليابان تعلم أن هذا الميدان الجديد خطير لأن هناك شركات عظمى استقرت فى العالم ولكن هذه الشركات لها مشاكلها المالية ولها مشاكلها

الفنية، وذلك فقد درس اليابانيون كل هذه المشاكل ووجدوا لها الحلول. وفى إمكانك أن تشترى الآلات اليابانية بنصف الثمن وبالدفع على فترات متباعدة. فالمهم أن تشترى وأن تجرب. أى أن تدع اليابان تدخل من الباب الرئيسى لمنافسة كبرى الشركات العالمية لصناعة آلات الطباعة وقد توقعت الشركات الكبرى ما الذى ستفعله اليابان فبادرت بتقديم ماكينات طباعة صغيرة، أى سبقت اليابان إلى ذلك أما الخطوة التالية فهى أن تقوم اليابان بوضع ماكينات الطباعة فى حقيبتك أو فى جيبك أو على يديك أو فى أصبعك ليس بعيداً عن اليابان أن تفعل ذلك.



في المعرض الدولى فى بروكسل عرضت النمسا نموذجاً لمدرسة لتربية الأطفال: جدران المدرسة من زجاج، لكى نرى الأطفال فى لعبهم وأكلهم ونومهم. فكرة رائعة. والمعنى ماذا؟

قيل لنا أن النمسا لديها شعور عميق بأن أعظم ثرواتهم ابناؤها. وقيل أيضاً: أن الشعب النمساوى الذى عذب الموسيقار العظيم موتسارت الطفل العبقرى، لايريد أن يتعذب طفل آخر من بعده. ويكون العذاب عائقاً لعبقريته.. وقيل: أن اعظم انتاج مشترك لشعب من الشعوب هو خلق المواطن الصالح.

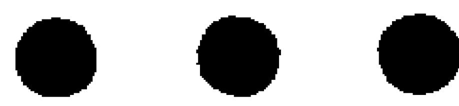
ومهمة الدولة ـ أية دولة ـ أن تعطى الفرصة الواحدة لكل الأطفال. فتعدل بينهم، وبعد ذلك تنطلق قدراتهم الأبداعية دون أن يوقفها أحد. وإن كان بعض علماء التربية يرون أن أكثر العبقريات لا تظهر فى سن مبكرة. والامثال على ذلك كثيرة جداً. فالعبقرية مثل البراكين. تحتبس فى باطن الأرض سنوات وقرونا وفجأة ولأسباب لانعرفها، تنفتح بطن الأرض لتخرج منها النيران والدخان ويكون الزلزال الذى يسبقها أو يصاحبها إعلاناً عالمياً عن ظهورها!

وفى الأيام الأخيرة تتحدث الصحف الالمانية عن طالب فى ولاية بافاريا. رفضت المدرسة الحاقة بالمرحلة الثانوية ورفضت ادخاله الجامعة،

لأن درجاته فى مادة «علم الحياة» أقل مما يجب.. وغير مسموح فى المدارس الألمانية أن يتحرك الطالب إلى الأمام إذا كانت درجاته فى العلوم الكيماوية والحيوية دون الامتياز. هذا هو القانون. ولكن المشكلة أن هذا الطالب قد شارك فى مسابقات كبرى بأبحاث فى علم الحياة حصل بها فى ست سنوات على ١٤ جائزة دولية. وهذه الأبحاث الخاصة قد شغلته عن دراسة الكتب المقررة. فهو قد اهتدى إلى نظريات جديدة فى سلوك «الاسماك فى المياه الدافئة».

والمضحك أن الهيئات العلمية التى تشيد بعبقريته المبكرة لم تفلح فى اقناع المدرسة أو الجامعة بدخوله، بسبب ضعف درجاته!

منتهى الظلم والعدل معاً: فالقوانين وضعت من أجل عامة الناس. أما العبقرية فليس لها قانون!



أنت تقف فى طابور طويل جداً إذا كنت تتثاءب كلما حدثك أحد عن الاحزاب السياسية فى مصر. وهذا التثاؤب سببه الملل.. أو أنك عندما تتثاءب وتفتح فك فإنك تسد اذنيك عن الذى يقال لك. وقد تتثاءب مرة أخرى، لأن محدثك لم ينتبه إلى ضيقك منه ومما تقوله له. ولكن ما الذى يضايق الناس من الأحزاب السياسية؟

إن كان ضعفها هو السبب فليس منا من ليس ضعيفاً. وإذا كنا نكره الضعف فهو ضيق من الاحزاب ومن أنفسنا. ولكن الأحزاب السياسية أصغر سنا منا. وكل ما ينقصها هو التوضيح والاقناع. وهذا يحتاج إلى بعض الوقت. والوقت يجب أن يكون مليئاً بالتجارب فى النجاح والفشل وبعد ذلك يشتد عودها وفى ذلك تأكيد للجو الصحى الذى نعيش فيه.

ومن المعروف فى عالم الحيوانات أن أضعف الحيوانات هى أسرعها إلى العدوان وإلى استخدام انيابها ومخالبها لأنها لا تشعر بالأمان فهى خائفة.. أما حيوانات الغابة القوية ــ والسياسة غابة ــ فهى التى لا تبادر بالعدوان.. بل لا تعتدى إلا إذا جاعت.. فإذا قويت هذه الاحزاب فإن نغمتها سوف تنسجم فى النشيد الوطنى، ونبرتها سوف تهدأ.. وبذلك يتحقق لنا جميعاً الوفاق السياسى والاتفاق الفكرى والوحدة الوطنية ــ التى هى لحن من نغمات مختلفة من أجل هدف واحد هو: أمن ورخاء وتقدم مصر!

وحتى إذا تقاربت أحزاب المعارضة في البرنامج وفي الأسلوب، فلأن تاريخها قصير.. وهذا التاريخ لم يمنحها فرصة للاختلاف عن غيرها.. ولم تظهر فيها الشخصيات البارزة التي تتحدد بها الأهداف.. ولابد أن تظهر..

ويجب ألا ننسى أننا جميعاً مصريون، ولا أحد يملك من مصر وفيها أكثر مما يملكه الآخرون..

وإذا أنت تثاءبت الآن، فمن المؤكد أنك تكره أن يعارضك أحد ـــ والعيب فيك!



الناس جميعاً يلعنون شيئاً واحداً: الزمن..

والذين سافروا والذين لم يسافروا يلعنون شيئاً واحداً: الجمارك.

وهناك حديث عن الرسول عليه السلام يقول: لا تلعنوا الزمن، فإن الزمن هو الله.. أى أن الزمن والدهر هما قانونا الحياة التى أودعها الله قلوب وعقول الناس والأشياء!

أما الجمارك فليست الدهر ولا الزمن ولا هى قوانين تنبع من الحكمة الألهية، وإنما من الحكمة الحكومية.. أى منا أو من أناس مثلنا!

والناس لا يلعنون الجمارك عادة، وإنما مندوبى الجمارك. ويتهمونهم بالقسوة والوحشية وانعدام الرحمة. فهم يقلبون الشنط ويستخرجون ما فى أحشائها. ثم انهم ينظرون إلى الناس وكأنهم مجرمون أو لصوص.. وينسون أنهم مصريون كادحون مثلهم..

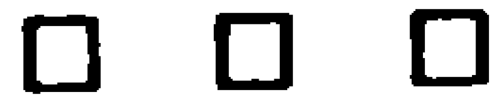
وموظفو الجمارك معذورون فى ذلك تماماً إذ كيف يفتشون الشنط دون أن يضعوا أيديهم فيها وإذا كان عليهم أن يفعلوا ذلك مع ألوف الركاب يومياً فكيف يفتشون الشنط ثم يعيدون ترتيبها كما كانت.. ثم كيف يأخذون الناس بالأحضان إذا كانوا يحملون المخدرات والذهب والدولارات والمسدسات.. وإذا كانت التعليمات تطالب بالتشدد والدقة ـ هذه طبيعة وظيفتهم.. وليست طبيعتهم كبشر مثلنا!

مصر ــ ونحن نعرف ما حدث فى مصر بسبب ذلك ، وما يمكن ان يحدث فى أى وقت!

والمصريون العائدون والمهاجرون يصرخون من رجال الجمارك .

ولقد استمعت منذ أيام إلى محاضرة للدكتور الغريب رئيس هيئة الأستثمار عن قوانين الجمارك ، وعن وضعها فى زى واحد مفهوم عند الذى يقرأها ، سهل عند الذى يطبقها ، مريحة لمن تنطبق عليه ــ هكذا قال . وما أكثر ما قال هو والذين سبقوه .

هذه هى مشكلة المشاكل فى مصر . فكلما زادت القوانين كان ذلك دليلاً على الأرتباك الأدارى وعلى الخروج على القانون باسم القانون .. وزادت لعنات من يدخل ومن يخرج من مصر ، ومن يهاجر ومن يقيم بعيداً عنها ، ومن تسول له نفسه ان يعود للحياة فيها من جديد!



حار العلماء في تفسير الأسباب التي تجعل الانسان طويل العمر. آخر ما أهتدوا إليه : الجوع !

فالجوع يجعل الجسم الانساني مستريحاً معظم الوقت. فالمعدة لا تعمل إلا قليلاً والكبد لا يفرز ولا البنكرياس والأمعاء لا ترهق نفسها في الامتصاص والطرد. أي أن الجسم على راحته.

اما الانسان الذى يأكل كثيراً فهو الذى يهد حيله في الأكل والمضغ والهضم والامتصاص والأفراز وغالباً ما يكون بديناً. وهذه البدانة ترهق القلب الذى يجب أن يضخ الدم إلى الجسم الضخم. والانسان النحيف أطول عمراً من الانسان البدين.

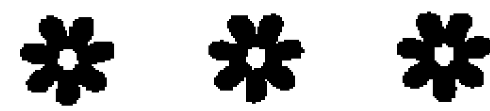
وقد استنتج بعض العلماء أيضاً أن حبوب التخسيس تطيل العمر أيضاً. لأنها تجعل الجسم رشيقاً، والجسم رشيق لأن صاحبه لا يملأ معدته بالأكل. ولكن عيب حبوب التخسيس أنها مثل كل الأدوية. والأدوية تشبه الصابون الذى ينظف الملابس وهو في نفس الوقت يمزق خيوطها. وكذلك الأدوية من أى نوع تشفى وفي نفس الوقت توجع القلب وتحرق جدران المعدة وتجعل الانسان مستعداً في أى وقت لأن يصاب بقرحة في المعدة أو في الأمعاء.. كما أن بعض الأدوية تتحول إلى سموم إذا أضيفت إليها أدوية أخرى. ومعظم الناس لا يعرفون ذلك. والذين يعرفون ـــ وهم الأطباء ـــ أقل الناس تناولاً للدواء!

كثيراً، وان يكتفى بالفاكهة . وأن يشرب من ماء النهر مباشرة.

فى العام الماضى أهتدى طبيب أمريكى إلى ان التعرض لأشعة الشمس يقصف العمر. ولذلك قصرت أعمار أبناء المناطق الحارة. ولكن فى نفس الوقت قصرت أعمار الأسكيمو سكان المناطق الجليدية.. فهل الحر الشديد مثل البرد الشديد.. يميت فى سن مبكرة؟ إذن ما الذى يطيل العمر؟

لا توجد أجابة واحدة عن هذا السؤال أتفق عليها العلماء. هناك عشرات الأسباب تطيل العمر.. وتنتهى الأبحاث كلها بأنها لاحظت وسجلت وفسرت ولم تهتد إلى اجابة شافية واحدة.

ولكن يريح الانسان نفسه لو قال: الله أعلم!



زمان من ثلاثين عاماً جئت.. حججت إلى مدينة فرانكفورت بالقطار وفى أذنى موسيقى الشعر الرومانسى والخناقات بين عباقرة الموسيقى والفلسفة والأدب.. وفى عينى ذلك الطريق الملكى الذى كان يتزاحم فيه وعليه وإليه عظماء ألمانيا.. والناس على الجانبين يخلعون قبعاتهم تحية لكنوز أوروبا التى أودعها الله قلوب وعقول الألمان..

وكانت عيوننا تنزلق مع عربات الحنطور والبيوت القديمة.. أما ناطحات السحاب والسيارات والطيارات فلا تراها ولا تريد.. فلم تكن موجودة فى العصر الذهبى للحب والعشق وسلطنة العقل على القلب الذى كان ذلولاً ذليلاً عند أقدام النساء فى القرن الثامن عشر..

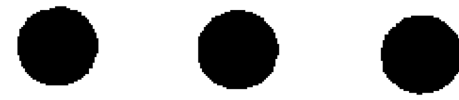
وكنا نرى فى كل وجه صورة للشعراء: جيته وشيلر ونوفالس وهيلدرلين.. وفى عينى كل أمرأة صورة للعشيقات الجميلات والأميرات.. والمحبوبات للشاعر جيته ونقول: أبنتها.. حفيدتها.. قريبتها.. أو هى بطلات رواياته وأغنياته وملهمات عبقرى الموسيقى بيتهوفن، ومعذبة الفيلسوف نيتشة وطريدة الفيلسوف شوبنهور أو ضحية العالم هموليت أو هى أبنة كارل ماركس.

وكان الحب يدفعنا إلى أن نمشى على الأرض ونتمنى لو نستطيع أن نكون حفاة بلا طعام ولا شراب أرواحاً هائمة مع الذين هاموا قبلنا ولم يموتوا فى الكبت وفى خيالنا وفى أحترامنا العظيم.

ويوم ذهبت لبيت امير الشعراء جيته: الباب ضيق والحائط بني.. والنافورة لها خرير بارد.. والسلالم الخشبية تئن تحت أقدام الزوار، وعلى الجدران ساعات تدق.. وقاعة الطعام صغيرة.. والمقعد الذى كان يجلس عليه الشاعر كأنه عرش، أو كأنه ملك حتى عندما يأكل.

ماذا جرى لى يوم زرته أخيراً.. فلا وقعت عيناى عند شيء، ولا أطرقت أذنى لشيء، ولا تمسحت فى الجدران ولا لمست أوراقه أو أقلامه. ولا وقفت فى ظل تمثاله.. هل مات الرجل حقاً فى أعماقى؟ هل كفرت بالبطولة؟.. هل صحوت من رومانسيتى؟

لقد عاش الشاعر عميقاً طويلاً.. أما الآن فقد مات وأناس وأبطال وأوهام جميلة ــ خسارة أن نمشى فى جنازتنا!



لا أنا من لاعبى كرة القدم ولا حتى من المتابعين لأهم مبارياتها ولكننى بحكم المهنة التى اخترتها ــ مشغول بما يشغل الناس. ولذلك فأنا حريص على أن أتابع وأسجل وأحلل وأفهم وأكتب بعد ذلك.. فأنا مشغول بالناس أكثر من انشغالى بالذى يشغلهم.. وأنا اتحمس لواحد من الأندية فى مصر، ولا اعرف من كل اعضائه سوى الفريق مرتجى وصالح سليم.. ولم ادخله إلا مرة واحدة أيام كانوا يتميزون على الاندية بصناعة شوربة العدس.

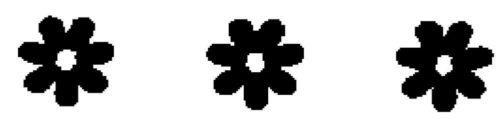
وفى الأيام الأخيرة تفرجت واستمتعت وتحمست وراهنت وخسرت.. وتفاءلت بذلك. فالتعيس فى اللعب سعيد فى الحب. الحمد لله..

راهنت على فرنسا وخسرت. ومن الذى لا يهتز قلبه لمجرد ذكر كلمة فرنسا. فهى أمنا الروحية والعقلية.. وكل ما هو عزيز فى التفكير الانسانى قد ارتبط بعمالقة باريس وعباقرة معاهدها وأديرتها ثم راهنت على ايطاليا وخسرت أيضاً. ومن الذى لا يسعد بذكر اسم ايطاليا ففيها الفن وجمال الأدب وجمال المخلوقات وجمال الطبيعة ثم أنهم مثلنا: قلوبهم تدق فى عقولهم. ولذلك فأحوالهم المادية والاجتماعية مضطربة، وأن كانوا أسبق منا فى أشياء أخرى كثيرة..

وتحمست للبرازيل وخسرت. ولا أعرف من البرازيل احدا سوى بيليه. رأيته وجلست إليه وشربت معه الشاى. وطلبت إليه بمنتهى السذاجة أن يخلع لا تفرج على قدميه.. فوجدت قدميه صغيرتين وساقيه ملتويتين..

وتذكرت آن العالم الرياضي الكبير اينشتين اوصى بأن يحللوا مخه بعد وفاته. وكانت صدمة لكل الاطباء.. أن مخه أصغر من المخ العادى.. ولا أعرف إلا محلا فى شارع سليمان باشا اسمه البن البرازيلى، أمضيت فيه ربع قرن واقفاً على قدمى، وأفكارى تدور من حولى حائرة دائرة بائرة مثل الحمام حول ابراجه أو النحل حول خلاياه، أو مثل هذه الكلمات كلها حول المعنى الذى أريد أن أقوله..

أما المعنى: فهو: أنك سواء تفهم الكرة أو لا تفهمها فن المؤكد أنك أمضيت ساعات طويلة سعيدا بأحسن أبناء الكرة الأرضية فى اللعب باعصاب الناس.. ثم غسلها وكيها.. ونشرها بعد ذلك!



قرأت بيان وزير خارجية فرنسا فى الجمعية الوطنية عن الوضع الدولى. لاشك أن الوزير واحد من أحفاد الفيلسوف ديكارت والسياسى تاليران ومن تلامذة ديجول. ففى بيانه الوضوح الفكرى والمراوغة السياسية والشموخ الفرنسى، ولكن ينطبق عليه المثل المصرى: خرج كالشعرة من العجين... أما العجين فهى مشاكل العالم كله والشرق الاوسط بصفة خاصة. والشعرة هى فرنسا. خرجت بلا صوت ودون أن يعلق بها شىء. فالبيان هو أوضح تحليل عن أوضاع شديدة التعقيد. وأوضح ما قيل عن موقف فرنسا الغامض فى الشرق الأوسط...

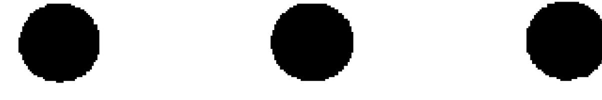
فالذى يحسن الظن بفرنسا يقول: لابد أن تقوم فرنسا بدور الوارث الشرعى لامريكا وبريطانيا فى العصر الحديث. تأخذ بترولا ودولاراً وتعطى منتجات وكلمات جميلة. وتبعد عن الفلك الامريكى ومن ورائها أوروبا كلها.

قال وزير خارجية فرنسا أن الغزو السوفيتى لافغانستان «غير مقبول» أو لا يمكن قبوله. وحاول الوزير الفرنسى أن يقنع الجمعية الوطنية الفرنسية والعرب والمسلمين طبعا. أن غير مقبول فى القاموس الفرنسى معناه: مرفوض ومستنكر وملعون..

ولكن فرنسا لم تشأ أن تستخدم هذه الكلمات وإنما اكتفت بالإشارة إليها! وبذلك يكون الفيلسوف ديكارت العظيم ليس إلا قارئاً لفنجان السياسى الكبير تاليران..

والمطلوب من العالم كله بعد قراءة الفنجان هذا أن يهتف بحياة الجنرال ديجول ، آخر عمالقة أوروبا والصورة الكاملة للعظمة الفرنسية الجريحة .

فإن لم يكن هذا الكلام واضحا فى التعليق على بيان وزير خارجية فرنسا ، فلم يكن ذلك قصدى . وإنما حاولت أن أجارى الوزير الفرنسى فى عرض قضية تهمنا نحن العرب ، لابد أنها تهم ٨٠٠ مليون مسلم بعضهم من النساء يسبحون بحمد ملوك الجمال والاناقة الفرنسيين : ديور وشانيل واستيه وكاردان ولوران !



أعرف ما يقوله علماء النفس على شخص في مثل حالتي. أعرفه جيدا. في مثل هذا اليوم توفيت والدتي، يرحمها الله ويسكنها جناته. فهي تستحق كل رحمة وكل نعيم. ولكني من ذلك الوقت لم يمض يوم إلا وبكيت عليها. فلا أكاد أجلس وحدي حتى تغرورق عيناي بالدموع. ولا يمضي أسبوع دون أن أذهب إلى قبرها. وقبرها هو قطعة الأرض الوحيدة التي أملكها في هذه الدنيا. وعندها ينتهي كل نزاع. ولا يمكن أن ينازعني فيها أو عليها أحد، حيا أو ميتا. ومن الغريب أنني كثيرا ما توقفت في الطريق إليها، لأن الدموع التي في عيني تمنعني من قيادة السيارة. وقد حدث أكثر من مرة أن رآني صديق وسألني إن كنت في حاجة إلى مساعدة. فأقول: لا شكرا. مع أنني في حاجة إلى مساعدة. ولكن من الذي يستطيع أن يساعدني على نفسي، على شيء في أعمق أعماق نفسي..

وقيل لو كان لك أولاد ما بكيت على أمك كل هذا البكاء..

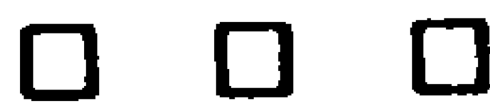
وذهب صديق إلى أن حبي للقطط هو نوع من انفاق فائض الحنان. ولكني لا أحب القطط. وقد مات أمامي أكثر من قط. وتضايقت. ولكن الموت نهاية كل حي: القط وصاحب القط. وقيل أيضا أن عندي فراغا عاطفيا. وأن هذا الفراغ سببه وفاة والدتي. وأن هذا الفراغ لا يمكن أن يملأه أو يسده شيء أو أحد. أو اهتمام باية قضية فكرية أو عاطفية أو اجتماعية أو سياسية.

إذن ما هو الحل ؟ ..

لا حل .. وكثيرا ما ناقشت نفسي : صحيح ما الذى أبكى عليه .. ما الذى فقدته ولا أمل فى تعويضه . ما الذى كانت تفعله أمى .. اننى لم أكن أراها كل يوم .. وانما كنت أراها مرتين أو ثلاثا كل شهر . وان كنت اسمع صوتها كل يوم . ان امى هى تاريخ حياتى . فهى التى تعذبت ومرضت وضحت بالكثير من أجل أن أواصل تعليمى . ولم يكن هناك أمل كبير فى أن أفعل ذلك . إن أمى لا تعرف بالضبط ما الذى أفعله . وإن كانت تسمع من الناس ماذا أكتب أو ماذا أقول أو يقال عنى .. ولكن ليس من الضرورى أن تشغلها كل همومى .. فأنا كل همومها .. ولم أكن ــ شكرا لله ــ هما لها أو عبئا على قلبها أو عقلها .

إن شيئا فى داخلى قد انفجر عليها .. إن قوة خفية تعصرنى عصرا .. وأنا أعلم تماما أنه لا أحد يعود ، وأنه لا فائدة من البكاء . وأن الاحياء أتعس حالا من الأموات .. وانه من الأجدر أن نبكى على أنفسنا : نبكى على المعنى الذى لا نجده فى حياة أو فى كفاح أو فى حب أو كره أو مال أو ولد أو أم أو أب .. ولكنى لا أعرف ما الذى أبكيه ، ابكيها .. أو ... ابكينى !

لقد تمنيت من الله أن تموت أمى قبلى بيوم أو بساعة .. حتى لا تتعذب لها روح أو يهان لها جسد . وقد استجاب الله لدعائى .. فشكرا لله وليرحمها الله وليرحمنى من بعدها . آمين .



أتمنى أن تضاف عبارة واحدة إلى «القسم» الذى يقرأه الوزير الجديد أمام رئيس الجمهورية. هذه العبارة تقول: .. والا اعلن عن مشروع قبل أن يتحقق نهائيا!

وعبارة أخرى: ... وأن المجرم الحقيقى ليس هو الوزير الذى سبقنى دائماً!

وعبارة ثالثة: واعترف بأنه لاتوجد مشكلة لم يكن سببها حاكم مات أو قتل. فكل المشاكل تسعى على ساقين، مثل كل المواطنين. وأن عمرها من عمرنا!

وعبارة أخيرة: وأن أحترم هذا القسم وعقول المواطنين!

وليس أحد منا فى حاجة إلى ذاكرة اليكترونية لكى يستعرض ما الذى قاله الوزراء بمجرد أن جلسوا على المقعد ووقفوا أمام الكاميرات والميكروفونات. أن أحدا لايستطيع أن يتغلب على اغراء الأضواء. وعلى فتنة الصور فى الصحف وعلى الشاشة.. بل لم يولد بعد من يهرب من هذه الفتنة اليومية.

وأمام هذه الفتنة يقع الورراء فى المحظور. فمن البيانات إلى الوعود والأيمانات المغلظة، واتهام كل من سبقهم إلى الجلوس على كرسى الوزير.

أما الهدف فهو: أن الوزير الجديد سوف يأتى بالذئب من ذيله ويوقفه على ساقيه الخلفيتين ويجعله يمأميء كأنه حمل بريء ــ أنها معجزة لو

حدثت. ولكن ما المعنى لذلك أو ما الفائدة منه؟.. لا فائدة.. ولا حل لأية مشكلة..

ولم نعد نعلق أملا كبيرا على كل وزير يقول: سوف أحل هذه المشكلة في ٢٣ يوما!

ولا نسأل عن حكمة ٢٣ يوماً؟ فقد سمعنا ذلك كثيرا. ومضت الأيام ومثلها من الأسابيع.. والسنوات ولم تنحل المشكلة وأنما أضيفت مشكلة جديدة هي: وعود الوزراء بالفرج السريع!

أما غلطة الوزير أو الكبير أو المسئول فهي استهانته بالمشكلة الطويلة المعقدة، وثقته المطلقة في قدراته غير المطلقة.. وعدم احترامه لعقول الناس الذين رأوا قبله وسوف يرون بعده عشرات من الوزراء.



رقم الايـــداع — ٢٤٦٤ / ١٩٨٨

الترقيم الدولى — ٠٣٧٠ — ١٣٣ — ٩٧٧